المدار
Cognitive Center for Studies and Research
مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مَداراتٌ تَاريخيّةٌ

مجلة مدارات تاريخية
مجلة دورية دولية أكاديمية محكمة
تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

العدد 01

المشرف العام مدير المركز: عبد الوهاب باشا
مدير ورئيس التحرير: أ. عبد القادر عزام عوادي

مجلة مدارات تاريخية

مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

مجلة مدارات تاريخية

دورية دولية محكمة ربع سنوية

تعنى بالبحوث والدراسات التاريخية

المجلد الأول - العدد الأول - مارس 2019

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مدارات تاريخية
العنوان الالكتروني:
madaratmagazine@gmail.com

هيئة تحرير مجلة مدارات تاريخية

المشرف العام مدير مركز: عبد الوهاب باشا

رئيس التحرير: عبد القادر عزام عوادي

د/ مولود قرين/ جامعة المدية	د/حورية ومان/ جامعة بسكرة
د/ مختارية مكناس/ جامعة معسكر	د/ عبد الحميد عومري/ المدرسة العليا للأساتذة/ الأغواط
د/ عبد الرحمن بن بوزيان/ جامعة سكيكدة	د/ جيلالي حورية/ المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية/وهران
د/ حليمة مولاي/ المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية/ وهران	أ/ سليم أوفة/ جامعة خميس مليانة
أ/ جيجيك زروق/ جامعة بجاية	أ/ محمد بن ساعو/ جامعة سطيف 2
أ/ خير الدين سعيدي/ جامعة إسطنبول/ تركيا	

الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د/جمال يحياوي/ جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر2/ الجزائر	أ.د/خير الدين شترة/ جامعة الشارقة/ الإمارات العربية المتحدة
أ.د/رضوان شافو/ جامعة الوادي/ الجزائر	أ.د/عثمان البرهومي/ جامعة صفاقس/ تونس
أ.د/عدنان حسين عياش/ جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين	أ.د/عمارة علاوة/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسنطينة/ الجزائر
أ.د/مولود عويمر/ جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 2/ الجزائر	أ.د/ مهند عبد الرضا حمدان الكنزاوي/ جامعة ذي قار/ الناصرية/ العراق
أ.د/نبيلة بن يوسف/ جامعة مولود معمري/ تيزي وزو/ الجزائر	أ.د/يوسف ذياب عواد/ جامعة القدس المفتوحة/ نابلس/ فلسطين
د/إبراهيم النوري سالم السيليني/ جامعة غريان/ ليبيا	د/أشرف صالح محمد/ جامعة ابن رشد/ هولندا
د/امبارك بوعصب/ المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ المغرب	د/ بشرى حسين الحمداني/ الجامعة العراقية/ العراق
د/بشير غانية/ جامعة الوادي/ الجزائر	د/حبيب الله بريك/ المركز الجامعي تندوف/ الجزائر
د/خالد طحطح/ المغرب	د/خيرة سياب/ جامعة طاهري محمد/ بشار/ الجزائر
د/رشيد خضير/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر	د/شريفة كلاع/ جامعة الجزائر3/ الجزائر
د/عادل نجيم/ جامعة صفاقس/ تونس	د/عبد الرحمن بعثمان/ جامعة احمد دراية/أدرار/ الجزائر

د/عصام منصور صالح عبد المولى/ جامعة طبرق/ ليبيا	د/علال بن عمر/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي/ الجزائر
د/فتحي جمعة محمد عريبي/ جامعة غريان/ ليبيا	د/كمال بن صحراوي/ جامعة ابن خلدون/تيارت/ الجزائر
د/لخضر بن بوزيد/ جامعة محمد خيضر/ بسكرة/ الجزائر	د/لوبنى زبير/ جامعة القاضي عياض/ المغرب
د/محمد بن عمارة/ جامعة طاهري محمد/ بشار/ الجزائر	د/محمد لمين باريك/ جامعة حائل/ السعودية
د/نصر الدين العربي/ جامعة المرقب/ ليبيا	د/نواف عبد العزيز ناصر الجحمه/ الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب/ الكويت
د/هيوا عزيز سعيد علي/ جامعة السليمانية/ العراق	د/يحي بكلي/ جامعة طيبة / السعودية
أ/جمال مسرحي/ جامعة باتنة 1/ الجزائر	أ/عمار غرايسة/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي / الجزائر
أ/محمد نفاد/ جامعة سيدي محمد بن عبد الله/ فاس/ المغرب	

قواعد وشروط النشر في المجلة

مجلة مدارات تاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

1- تنشر مجلة مدارات تاريخية البحوث العلمية الأصيلة والجادة للباحثين من داخل القطر الجزائري ومن خارجه.

2- تخضع جميع البحوث للتقويم من قبل لجنة محكمة، مكونة من دكاترة وأساتذة يساعدهم خبراء من تخصصات معرفية مختلفة، وهذه اللجنة هي الوحيدة المخول لها قبول أو رفض البحوث المقدمة لها.

3- أن تكون المادة المرسلة للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.

4- ألا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وألا تقل عن 10 صفحات.

5- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.

6- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية، والكمات المفتاحية باللغتين العربية والانجلزية.

7- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع simplified Arabic مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي simplified 16 Gras العناوين الفرعية simplified Arabic مقاسه 14.

8- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).

9- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية Not de fin على أن تعرض في نهاية المقال.

10- المقالات المرسلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

11- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.

12- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.

13- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.

ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : madaratmagazine@gmail.com

كلـــــمة العـــــــــدد

على بركة الله وحسن عونه وتوفيقه...

نفتتح بهذه الكلمات انطلاق العدد الأول من المولود الجديد " مجلة مدارات تاريخية" الصادرة عن مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات.

وتأتي هذه المجلة كإضافة علمية من طرف مركز المدار المعرفي، وهي تهتم بشؤون البحث التاريخي وكل ما يشتمل عليه هذا العلم من تخصصات وفروع وزوايا بحثية متعددة ومتنوعة.

وتصدر المجلة في شهر مارس، وهو شهر الشهادة في تاريخنا الوطني وثورتنا المباركة، شهر استشهاد القادة والأبطال العظام من أمثال الشهيد الحكيم محمد العربي بن مهيدي، وأسد الأوراس مصطفى بن بولعيد، والعقيد عميروش وسي الحواس والعقيد لطفي والقائمة طويلة.

كما تصدر المجلة أيضا في ظل ظروف كبيرة تشهدها البلاد، ملامح ولادة جديدة للمجتمع الجزائري، وتحول كبير في البعد الاجتماعي والسياسي والفكري والحضاري بشكل عام، ونحن نعيش هذا الحراك الشعبي الكبير نتمنى أن يتشبث شبابنا بالقيم الراسخة للهوية الوطنية والدينية واللغوية للمجتمع الجزائري، وان تكون هناك دراسات جادة ومتينة ورصينة تخدم هذا التحول الكبير في المجتمع الجزائري.

ولقد ضم هذا العدد كوكبة من نخبة الباحثين في الميدان التاريخي من مختلف أقطار العالم العربي والإسلامي، وأشرف على تحكيم هذه المقالات مجموعة من المتخصصين ذوو الكعب العالي في ميدان البحث التاريخي من مختلف جامعات الوطن وخارجه.

كما لا يسعني إلا أن أشكر هيئة التحرير الموقرة التي سهرت على اخراج العدد في حلته البهية متنين ولادة جيدة وانطلاقة راقية لمجلة مدارات تاريخية، التي سوف نسعى من خلالها الى رسم ملامح جديدة للأبحاث والدراسات التاريخية ذات الأبعاد المتنوعة سواء منها السوسيولوجية أو الانتروبولوجية وغيرها من التخصصات الأخرى ذات الصلة الوثيقة بالتاريخ.

وفي الأخير أود أن نتذكر في هذا العدد شخصيتين وطنتين رحلتا عنا وتركا فراغا كبيرا في ميدان البحث العلمي بالجامعة الجزائرية، وخاصة في ميدان تخصصهما (علم الاجتماع)، وهما: الدكتور محمد بن عمارة عضو اللجنة العلمية للمجلة، والأستاذ حسان الجيلاني أستاذ علم الاجتماع بجامعة بسكرة الذي رحل عنا هو الآخر مؤخرا، فرحمة الله الواسعة عليهما.

رئيس التحرير

أ/ عبد القادر عزام عوادي

الفهـــــــرس

كلمة العدد	07
نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالحضنة من خلال البصائر من1919م إلى 1954م (التربية والتعليم أنموذجان). أ.د/جويبة عبد الكامل/ جامعة محمد بوضياف/ المسيلة ط.د/ هجرسي خضرة/ جامعة محمد بوضياف / المسيلة	10
سياسة النفي الايطالية تجاه الليبيين خلال الحرب العالمية الأولى. د/ نصر الدين البشير العربي /قسم التاريخ/جامعة المرقب/ مسلاته/ ليبيا	29
مظاهر بعض معاملات أوقاف المياه ببلاد المغرب الإسلامي من خلال النوازل الفقهية. د.ة/ خيرة سياب/جامعة طاهري محمد/ بشار	46
ميكيل دي ثربانتس والصراع الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر. أ/ وفاء المصمودي/جامعة محمد الخامس/ الرباط/ المغرب	59
تموين الثورة التحريرية بمنطقة تبسة 1954 – 1958 د/ براهمي نصيرةجامعة تبسة – الجزائر	81
رسائل اخوان الصفاء و خلاّن الوفاء اشكالية التأليف ط.د /آلاء ياسين دياب/ جامعة دمشق/سوريا	108
نظام الحكم و الإدارة في المدية خلال الفترة الاستعمارية 1840-1940. د/ محمد بوطيبي /قسم التاريخ/ جامعة المدية.	128
ظاهرة تقبيل الأقدام فى العصر العثماني (699-1342هـ /1300-1924م) فى ضوء تصاوير المخطوطات د/أحمد سامى بدوى زيد/جامعة الوادى الجديد/ مصر	158
الهيئات والأحزاب السياسية ودورها في نشر الوعي الوطني بالقضية الليبية بالداخل (1943-1949م) د/أميرة المقطون بن نصير/ جامعة الزاوية/ ليبيا	176
الكتابة التاريخيّة والدولة الوطنيّة في تونس والجزائر (1956- 1970):الأبعاد الأكاديميّة ورهانات بناء الدولة الوطنيّة أ/ محمد البشير رازقي/كليّة العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة/ تونس	208

الشيخ محمد بن يوسف السنوسي صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان أ. د. بلعربي خالد /قسم التاريخ / جامعة سيدي بلعباس	226
المدرسة الفرنسية- العربية للذكور بجرجيس(الجنوب التونسي) 1887 – 1955 : التعليم والتدريب المهني والارتقاء الاجتماعي د/ الحسين بوحبيل/ المعهد العالي للعلوم الإنسانية بمدنين- جامعة قابس - تونس	238
مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لليهود بالجنوب المغربي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة: التكافل الاجتماعي نموذجا. أ/ مبارك رحال/كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير/ المغرب.	263
واقع التدريب أثناء الثورة التحريرية 1956-1962 د/ حمري عيسى/جامعة الجيلالي بونعامة/ خميس مليانة / الجزائر	297
هجرة بني سليم وأثرها فى إقليم برقة أ/رجعة فضيل الغناي/قسم التاريخ/ جامعة سبها/ ليبيا	316
حواضر إقليم الزاب الكبرى في العصر الوسيط من خلال كُتب الجغرافيا البلدانية دراسة تاريخية /أسامة الطيب جعيل/جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله	337
مظاهر التكافل الاجتماعي لمتصوفة العصر المرابطي بالمغرب والأندلس /هشام البقالي /أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي /طنجة / المملكة المغربية	363
عائلة "الجبادار" الفنية د .ة/ إيمان محمد العابد ياسين/مدير إدارة التسجيل والتوثيق الأثري /منطقة أثار وسط القاهرة /وزارة الأثار المصرية.	377
إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في الدّفاع عن العدالة الاجتماعيّة من خلال مجلّة الشّهاب (1931-1939) ط.د/ كوثر هاشم /جامعة الشّهيد حمّة لخضر / الوادي	397
HANNIBAL OLIVE TREES IN THE WEST OF KALEA SEGHIRA IN THE SAHEL د/ عادل نجيم /كلية الآداب والعلوم الانسانية/ صفاقس/ تونس	426

الكاتب: أ.د/ جويبة عبد الكامل
ط.د/ هجرسي خضراء
جامعة المسيلة(محمد بوضياف)، الجزائر.

عنوان المقال: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالحضنة من خلال البصائر من 1919 الى 1954(التربية والتعليم انموذجان)

البريد الالكتروني:khadrahd4@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/02/02 **تاريخ القبول**: 2019/03/10 **تاريخ النشر**: 2019/03/28

نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالحضنة من خلال البصائر من1919م إلى 1954م (التربية والتعليم أنموذجان)

The activity of the association of the Algerian Muslim scholars in Hodna through Albasair from 1919 to1954(education as a model)

ملخص:

شهدت الساحة الجزائرية مطلع القرن 20م حركة فكرية وصحفية وتعليمية ساهمت بقدر كبير في تحريك الساحة السياسية والثقافية ، وحمل لواء هذه الحركة الفكرية الإسلامية جملة من العلماء والشخصيات من مختلف ربوع الوطن، كان لإقليم الحضنة نصيبًا هامًا منها؛ حيث عملوا على رفع المستوى الفكري والعلمي والحس الوطني والدفع بالمنطقة إلى محاولة مواكبة التطورات الوطنية في مقاومة المستعمر، تعتبر فترة الثلاثينات أهم فترات الانبعاث الثقافي التي شهدتها منطقة الحضنة مع بروز العمل الإصلاحي المنظم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من خلال نشاطها الإصلاحي والتربوي والتعليمي والصحفي والفكري والسياسي والاجتماعي في هذا المجال الإقليمي .

استطاعت الحركة الإصلاحية دفع عجلة النهضة نحو الأمام رغم تأخرها إلاّ أنها لعبت دور في رفع الوعي الوطني والمستوى الفكري والذي تجسد بظهور تيارات الحركة الوطنية بالمنطقة، وظهور الهياكل التنظيمية للحركة الإصلاحية من مدارس تعليمية ونوادي ثقافية ومساجد حرة وصحافة دفعت بالمجتمع إلى التحرر من القيود الطرقية والاستعمارية والتفتح على الحياة الوطنية والعالمية والمشاركة في الحياة السياسية والثقافية والوطنية.

الكلمات المفتاحية: الحركة الاصلاحية؛ الحضنة؛ النهضة؛ الإصلاح؛ العلم.

Abstract:

By the beginning of the 20th century, Algeria witnessed an intellectual, journalistic and educational movement that largely contributed in boosting the political and cultural scene. This Islamic and intellectual movement had been led by many scholars and figures from all over the nation mainly the province of El-Hodna which had a leading role. They worked at raising the intellectual and scientific level as well as patriotism in order to push the region to be in concordance with the national changes adopted to face colonization. The 1930's is considered as the most important period for the cultural advance that El-Hodna had witnessed. This concured with the emergence of the, educational, journalistic, intellectual, political and social reformations led by the Association of Algerian Muslim Ulemas in in this region.

Despite their lateness, the reformations promoted the intellectual revival forward, moreover, they played a crucial role in raising the patriotic consciousness and the intellectual level which paved the way for the appearance of the national movement in the region. It contributed also in the appearance of some organizing structures for the reformation, such as, the educational schools, the cultural clubs, the free mosques and the media that delivered society from the restrictions of 'ţuruqiya' and the oppression of the colonizer hence, being aware about the world and the patriotic life in order to take part in the national, cultural and political life.

Keywords: movement; El-Hodna; The renaissance; reformation; knowledge; Reform.

المقدمة:

واجهت الأمة الجزائرية تحديات جمة وخطيرة استهدفت هويتها وعقيدتها وتراثها وحضارتها أثناء فترة الاستعمار الفرنسي، فحلت الأزمات الاقتصادية وانتشرت البدع الدينية والأخلاقية المنافية للعقيدة الإسلامية، فلم يكن من سبيل لمقاومتها والقضاء عليها سوى

الإصلاح الديني الذي يعد القاعدة الرئيسية التي ترتكز عليها الهوية الوطنية وتستقيم بها حياة الفرد المسلم ومن ثم تستقيم حياة المجتمع عامة.

وقد كانت الحضنة من المناطق التي سجلت حضورها الجهادي في تاريخ المقاومات الشعبية والحركة الوطنية وثورة التحرير من خلال حركة إصلاحية بالمفهوم الشامل الواسع، مما يوجب علينا كباحثين تسليط الضوء على نشاط هذه الحركة الإصلاحية بالحضنة وإبراز رجالها وعلمائها الذين تحملوا مشروع إصلاح المجتمع من كافة جوانبه، ونضالهم على مختلف الجبهات في إطار النضال العام للحركة الوطنية الجزائرية، مع مراعاة ظروف المنطقة، خاصة وأن الدراسات التي تتناول الحركة الإصلاحية في الجزائر، تركز على المدن الكبرى وعلمائها مثل: ابن باديس والبشير الإبراهيمي وغيرهما بينما وفي كثير من الأحيان تهمل الدور الذي قام به بعض المصلحين من المناطق الداخلية كالحضنة مثلا

فالموضوع في حد ذاته هو حلقة من حلقات الصراع بين الجزائريين والفرنسيين بوسائل وأساليب مخالفة للأساليب التي اعتمدتها الأحزاب الوطنية في تمرير رسالتها، من خلال ما أحدثته هذه الحركة الإصلاحية من تأثير واضح المعالم في تغير حالة المنطقة لا سيما الجانب الفكري العقائدي منه، والدفع بالمنطقة إلى محاولة مواكبة التطورات الوطنية في مقاومة المستعمر، من خلال ثلة من العلماء والإصلاحيين الذين كان لهم باع واسع النطاق على المستويين المحلي والوطني، واستطاعوا أن يقفوا بالمرصاد في وجه السياسة الاستعمارية الرامية للقضاء على الشخصية الوطنية ومقوماتها.

ولاشك أن موضوع التاريخ المحلي هو موضوع محفوف بالمخاطر والصعوبات، لأنه يطرح إشكالية محدودة في الزمان والمكان، تتطلب الدقة في تحديد العناصر الأساسية لهذه الدراسة، خاصة وأنه يجب الخوض في أمر التراجم والتاريخ والصحافة والمجتمع والاقتصاد والسياسة والعمل النقابي وتداخل كل هذه العناصر فيما بينها، ولذا يتطلب أمر دراسة الحركة الإصلاحية بالحضنة إلماما بأبعادها ومظاهرها ونشاطاتها التربوية والتعليمية والصحفية والفكرية والسياسية والاجتماعية داخل هذا الحيز الجغرافي، ودورها في نمو الوعي الوطني والتحريري بالمنطقة، ومنه تأثيراتها على الساحة الوطنية.

1-الأوضاع العامة بإقليم الحضنة نهاية القرن 19م إلى مطلع القرن 20م

الحضنة مصطلح جغرافي ولغوي واجتماعي وله دلالة جغرافية أكثر من غيرها، يشمل منطقة واسعة تضم عدة مدن كبرى: المسيلة، مقرة، طبنة...الخ ، سميت الحضنة

لاحتضانها وسط سلسلتين جبليتين الأطلس الصحراوي والتلي فيما مضى من طرف العرب، أما المجال الجغرافي فالحضنة تمتد من الشمال إلى الجنوب بين سلسلتين جبليتين التلي والصحراوي، والحضنة محاطة بحزام جبلي في شكل قوس من الأوراس وجبال بلزمة من الشرق إلى جبال ونوغة عبر جبال بوطالب والمعاضيد بحيث تشكل حدودا جغرافية بين المناطق التلية والسهوب والتخوم الصحراوية والزيبان، ومن الجنوب جبال بوسعادة وجبال أولاد نايل كما تنفتح في الجنوب على سلسلة الزاب الصغيرة لتترك ممرات واسعة نحو الصحراء. خضعت الحضنة ابتداءً من سنة 1841م للاحتلال الفرنسي بعد عدة حملات، وقد شهدت المنطقة عدة انتفاضات منها معركة المطاريح 1849م، مقاومة الشريف بن شبيرة بجنوب الحضنة وبوسعادة1849م ، وانتفاضة عرش أولاد عدي والمطارفة 1851م، ومقاومة أولاد عمر بزعامة محمد بوخنتاش1860م ، وانتفاضة أولاد ماضي1864م، ثورة المقراني1871م والتي كانت لها تداعيات سياسية عديدة على المنطقة، أثرت على الجانب الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، من خلال مصادرة الأملاك والأراضي وفرض الغرامات المالية على السكان وتهجيرهم وتكوين مكاتب عربية حول منطقة الحضنة، والتي منحت للإدارة الفرنسية مراقبة أكبر، وإدارة مباشرة للأهالي عن طريق الضباط الفرنسيين، بالإضافة إلى إجراءات التضييق على الحريات وعلى التنقل واستحداث البلديات المختلطة في هذه الفترة مثل بلدية المسيلة 1884م وبلدية بريكة 1885م .

وفيما يخص الوضع الاقتصادي فقد كان انعكاسا للوضع السياسي نتيجة القوانين التي شنتها الإدارة الفرنسية خاصة بعد انتفاضة 1871م، بالإضافة إلى القمع الضريبي الذي صاحبه ظلم وجور القياد على الأهالي دون أن ننسى المجاعات وحملات الجراد التي حلت بالمنطقة، فأدت إلى تدني المستوى المعيشي للسكان الحضنيين، بحيث أصبحوا يعانون الفقر والحرمان والأمراض، وكانت هذه الظروف أسبابا كافية لتدهور الوضع الصحي خصوصا بعد(ح ع 1) نتيجة انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة ورغم هذه الحالات المرضية التي صاحبت الحضنة منذ بداية الاحتلال سنة 1841م فإن الإدارة الاستعمارية لم تنشئ بها عيادة طبية خاصة بالأهالي إلى غاية 16 أكتوبر 1904م، وقد بقيت هذه العيادة محدودة الخدمة غير قادرة على تلبية حاجات السكان، وهذا الوضع أدى إلى التكافل الاجتماعي من خلال إنشاء جمعيات التعاون والتكافل الاجتماعي، مما ساهم في خلق فضاء للنقاش والحوار في شتى المجالات خاصة الوطنية.

وبالنسبة للوضع الثقافي والديني فقد سخر الاستعمار كل ما لديه من قوة ظاهرية وباطنية للقضاء على مصادر الثقافة الوطنية، فهدم الكثير من المساجد وحول الكثير منها إلى كنائس وثكنات ومستوصفات وحتى إلى ملاهي، وفي نفس السياق وجه ضربات قاسية للمثقفين الجزائريين فقتل ما قتل ونفى ما نفى وسجن ما سجن ، وعلى الرغم من هذه السياسة الاستعمارية حافظ الشعب الجزائري على قيّمه، وذلك بتعليم القرآن الكريم حيث كان سكان المنطقة يبعثون بأطفالهم إلى الكتاتيب ليتعلموا القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وذلك امتثالاً لحث الدين على التعليم، ما ينطبق تماما وتقاليد الجزائريين الراسخة وهي احترامهم للإنسان المتعلم وتقديرهم للعلم في حد ذاته، وفيما يخص المعلمين فقد ذكر أبو القاسم سعد الله أنه في سنة 1908م كان الشيخ مصطفى زادي بالمنطقة يدرس في المساجد، وبن سعيد وهاب ما بين سنة 1912م-1913م الذي كان يلقي درسين احدهما عام في المسجد والآخر خاص بالمدرسة الابتدائية الفرنسية، وفي سنة 1923م فإن المدرس الجديد هو الأطرش بن نية، كان يلقي الدروس العامة في المسجد ، وبالنسبة للتعليم الفرنسي فقد تم إنشاء أول مدرسة فرنسية ببوسعادة والمناطق المجاورة خلال (1856-1857)م بقسم واحد كانت تسمى بالمدرسة الأوربية لتصبح المدرسة الرئيسية للأهالي، وفي سنة1882م بدأ أبناء المنطقة يقتحمون التعليم، إذ كان أولهم المرحوم سي المداني شريف ثم بن شنوف موسى، محمد بن جدو، عبد الله ثامر، أحمد بن قويدر، شمسية محمد، البوطي بيوض، عيسى شنوف، عيسى بسكر...الخ ، وبالنسبة للمسيلة فإن أول مدرسة أوربية بها قد تأخرت إلى غاية 1887م بسبب تأخر قدوم المعمرين إليها، وبعد سنة 1911م بدأت الإدارة الفرنسية في إنشاء أقسام بالمناطق الجبلية، حيث أنشأت قسم بملوزة وآخر بالدريعات سنة 1912م .

وإذا تحدثنا عن الزوايا بإقليم الحضنة فقد كانت موجودة منذ العهد العثماني، وانتشرت أكثر بانتشار الطرق الصوفية بعد انتفاضة1871م خاصة الطريقة الرحمانية، والتي كانت لها جهودا بارزة في مجال التعليم لكن بطرق تقليدية ، وكان من أهم هذه الزوايا التي وجدت بالمنطقة زاوية بوجملين، زاوية سيدي الديلمي، زاوية البراكتية، زاوية دبي ببوخميسة، الزاوية الصديقية ببني يلمان والتي ترجع إلى عهد الأمير عبد القادر عندما أقام زمالة بجبال ونوغة، واستمرت في دورها التعليمي أيام الشيخ بومزراق، زاوية سيدي الولهي بجبال المعاضيد شمال المسيلة ، زاوية الطُلبة بالدريعات وقد كانت فرع تابع لزاوية بن أبي

داود بأقبو وزاوية الهامل ببوسعادة التي ضاعفت من نشاطها الثقافي في المنطقة فظهر أثره على مدينة بوسعادة والمدن المجاورة بما كانت تقدمه من علوم ومعارف دينية ولغوية وأدبية .

2-العوامل التي ساهمت في تبلور الحركة التعليمية بإقليم الحضنة

إن اعتماد الحضنيين على الفكرة الدينية كمرجعية أساسية في حياة السكان، جعلتهم يحافظون على المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين واللغة العربية داخل الوطن المشترك ، وقد تصدت لهذه المهمة الكتاتيب والزوايا ومدارس التعليم الأصلي، فكانت جهودهم بمثابة الطلائع الأولى لحركة إصلاحية دينية ستثمر جهودها في المستقبل .

بدأت الحركة الإصلاحية بالحضنة متواضعة جداً مثلها في ذلك مثل باقي نواحي الوطن؛ ويعزى ذلك إلى أثر سياسة الاحتلال في التضييق على المساجد والكتاتيب والزوايا وشيوخها ومعلميها باعتبارها مركزا للمقاومات المحلية التي شهدتها الحضنة عموما مثل: مقاومة مقدم الطريقة الرحمانية لحسن بن عزوز1839م ، ومقاومة المرابط محمد بوخنتاش 1860م ومقاومة الشيخ إبراهيم بن عبد الله 1864م، ووقوف الزوايا والمساجد إلى جانب هذه المقاومات مثل زاوية سيدي بوجملين التي وقفت إلى جانب المقرانيين في انتفاضتهم سنة 1871م ، ومن العوامل التي ساعدت على بروز حركة الإصلاح بالحضنة نذكر :

- دور الزاوية الهاملية التعليمي والديني، والتي تعبّر بحق عن حضارة مجتمع بأكمله فأبرزت كل مقوماته الثقافية سواء العربية الإسلامية أو خصائصه من عادات وتقاليد وأعراف، محافظة بذلك على تاريخه الحضاري يقول أحمد توفيق المدني:«...من بوسعادة تجد المعهد الإسلامي الأكبر المعهد المقدس...زاوية بديعة الصنع حولها الدور ومساكن الطلبة، ويجاور بها زمن الشتاء والربيع نحو المائتين طالب يتلقون هناك علوم العربية وفقه مالك يحفظون القرآن الشريف...» ويعود الفضل هذا إلى مؤسسها الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي1823م-1897م ، بالإضافة إلى زاوية سيدي بوجملين التي كانت تقدم بعض الدروس في حفظ القرآن بوضعية تقليدية وظروف اجتماعية بسيطة خاصة بعد إنتفاضة1871م ومصادرة أراضي الزاوية وتصنيفها من الزوايا الخطيرة. هذا إلى جانب دور كل من زاوية سيدي الديلمي، وزاوية البراكتية وزاوية الشيخ دبي ببوخميسة والصديقية بملوزة في حفظ القرآن وتعليم اللغة ولو بشكل بسيط .

- بروز أقطاب على مستوى الحضنة كان لها فضل السبق في العمل الإصلاحي الديني، منهم على سبيل المثال: الشيخ محمد بن عبد الله الديلمي(1846م-1943م) ، محمد بن عبد الرحمن الديسي(1854-1821) م، أبو القاسم الحفناوي (1852-1942)م ، الطاهر بن أمحمد بن أحمد الزورق بن تريعة من ونوغة .
- زيارة بعض الرواد الأوائل للعمل الإصلاحي لمنطقة الحضنة مثل زيارة المكي بن عزوز سنة 1876م للهامل، والشيخ العلامة عبد الحليم بن سماية وحمدان لونيسي، وما يتخلل هذه الزيارات من لقاءت ومناظرات ونقاش ودروس ومواعظ .
- استقرار العديد من الشخصيات الهامة بالمنطقة تحت تأثير ظروف مختلفة، منهم الفنان (إيتيان ديني) الذي استقر بالمنطقة ابتداءً من سنة1885م والذي أعطى دفعًا جديدًا للحركة الفكرية الثقافية من خلال لوحاته الفنية، ونشاطه في ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الفرنسية ، ووجود الأمير الهاشمي وابنه الأمير خالد ببوسعادة حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية ببوسعادة سنة1895م فكانت الزيارات والهدايا تتوافد عليهما من طرف السكان وكانوا يجلسون معهما ليتعلموا منهما. فكان الأمير الهاشمي يقرأ عليهم "تحفة الزائر" بعد صدوره ويقدم دروس الوعظ والإرشاد، ومن بين الذين كانوا يحضرون مجلس الأمير الهاشمي سي المخلط بن لمبارك، سي أحمد بن محمد بن صالح، سي علي بن مقري، وقد ساهمت هذه الدروس في تثقيف المجتمع، بينما كان الأمير خالد يقضي وقته مع عبد القادر بن بسكر وسي عبد لله الذي ينحدر من عائلة سي محمد بن إبراهيم والحاج أحمد بن سنوسي وهؤلاء سيكون لهم أثر في العمل الإصلاحي في بوسعادة مطلع الثلاثينات من القرن 20م .
- استقرار الأوربيين بالحضنة مطلع القرن 20م كان له الأثر الكبير في حياة السكان من عدة جوانب أولاً ارتفاع الحقد ومشاعر الحس الوطني، حيث شهدت المنطقة عمليات جديدة لمصادرة أجود الأراضي من السكان لصالح المعمرين، ثانيا الاحتكاك بالمعمرين وثقافتهم وبأسلوب حياتهم بالإضافة إلى أن المعمرين بدأوا في تأسيس جمعيات ونوادي خاصة بهم ودخول الصحف الأوربية عن طريق المعمرين إلى المنطقة كان له دور في الصحوة الأدبية والفكرية لدى أبناء المنطقة .

وفيما يخص الإنتاج الفكري في نهاية القرن19م فقد كان على شكل رسائل وشعر يرتبط بأمور الدين وبعض المسائل الاجتماعية، ومن هذه المؤلفات نذكر "منظومة

الأسمائية" لمحمد بن أبي القاسم الهاملي، والعديد من مؤلفات عبد الرحمن الديسي والتي نذكر منها: "فوز الغانم" في شرح منظومة محمد أبي القاسم، "العقيدة الفريدة".

ومع مطلع القرن 20م بدأت مرحلة جديدة تمثلت في طبع الكتب ونشر المقالات في الصحف، حيث نجد من أهم الكتب التي طبعت كتاب "تعريف الخلف برجال السلف" للحفناوي سنة 1906م، وكذلك كتاب "الخبر المنتشر في حفظ صحة البشر" طبع بالجزائر سنة 1908م، وكتاب "رفع المحل في تربية النحل" وكلاهما مطبوع بالجزائر في مطبعة فونطانا ، بالإضافة إلى عدة مقالات في جريدة المبشر من أبرزها "إرشاد المتعلم" سنة1887م، وكتاب "تدبير صحة الأبدان في السفر وزيارة البلدان" لأبي القاسم المدني شقيق الحفناوي طبع بالجزائر سنة1913م، و"كتاب إرشاد أهل الهمم العلية فيما يطلب منهم من الأدعية النبوية على اختلاف أحوالهم الزكية" للعالم عبد الله بن غانم الدراجي الهذالي.

كانت الحركة الثقافية بالمنطقة منذ نهاية القرن 19م جد بطيئة لكن مع بروز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أخذت النهضة الثقافية والفكرية بالمنطقة منحى آخر، تدعم بحركة تأسيس النوادي والأحزاب السياسية والمنابر الصحفية سواء الوطنية أو المحلية، وهناك عدة عوامل ساهمت في تبلور الحركة الإصلاحية بالمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى كان لها الأثر في بروز عمل إصلاحي بالمنطقة بشكل واضح وفي شتى المجالات ومن بينها :

- اليقظة العامة التي دبت في المنطقة نتيجة(ح ع 1) وتطلعهم إلى الإصلاح الشامل الذي ينهض بهم دينياً واجتماعياً وثقافياً من خلال عودة المجندين والمهاجرين الحضنيين من فرنسا واحتكاكهم بالثقافة الأوربية.
- الاتصال بالثقافة المشرقية عن طريق الطلبة والحجاج وعن طريق المصلحين الجزائريين.
- عودة الطلبة الزيتونيين في هذه الفترة إلى المنطقة ومساهمتهم في النهوض بالحياة الفكرية مثل علي بوديلمي 1927م .
- اتصال خريجي المدارس الأهلية الرسمية ومدارس المساجد والزوايا المنتشرة بالمنطقة بجمعية العلماء وبعض مشايخها مثل: نعيم النعيمي، حيث كان لهذا الاتصال الأثر الكبير في دفع الحركة العلمية والاجتماعية والنشر والدعوة والتبليغ.

- ظهور الصحافة الوطنية ووصولها إلى المنطقة عن طريق المتعلمين والأدباء الذين ظهروا بالمنطقة على اختلاف مشاربهم: مثل الشهاب وجريدة صوت الأهالي.

- ظهور النوادي و الجمعيات بالمنطقة والتي أخذت في البداية طابع التكافل الاجتماعي إلا أنها كانت مكان لتلاقح الأفكار، وكانت النوادي التي تأسست بالمنطقة في البداية تابعة لنشطاء المعمرين.
- الزيارات التي قام بها أعلام الحركة الإصلاحية الوطنية إلى منطقة الحضنة، من أجل دفع العمل وتثبيت أركانه والدعوة إلى الاتحاد، حيث يمكن أن نذكر في هذا الباب :
- زيارة عبد الحميد بن باديس إلى بريكة سنة1931م، وزيارته لبوسعادة عام 1932م زيارة خاطفة حيث أقام بها وهو قادم من العاصمة إلى بسكرة واجتمع في هذه الزيارات بجماعة من المصلحين.
- وزيارة الطيب العقبي إلى بوسعادة مع وفد ضم أعيان مدينتي بسكرة وسيدي عقبة وعلى رأسهم الأستاذ الأمين العمودي .
- وزيارة أحمد توفيق المدني يوم 13 مارس 1926م بدعوة خاصة من الفنان ناصر الدين ديني .
- بالإضافة إلى زيارة كل من البشير الإبراهيمي ومفدي زكريا ومحمد العاصمي الذي كتب مقالاً عن الحضنة في جريدة الشهاب تحت عنوان: "الإسلام يشب كما شب العلم"، بمناسبة إحياء مدينة بوسعادة وتكريمها للفنان والمستشرق ناصر الدين ديني ، وزيارة مبارك الميلي الذي زارها كثيراً انطلاقا من منفاه بمدينة الأغواط حيث ألقى فيها دروسًا حث فيها على النهوض والتقدم والتمسك بالإسلام .
- يضاف إليهم أعلام آخرون زاروا المنطقة منهم: الشيخ إبراهيم أطفيش علامة وادي ميزاب والشيخ بيوض إبراهيم، والشيخ الطاهر لعبيدي والأستاذ محمد شرقي خلال الثلاثينيات بالإضافة إلى زيارات متتالية لبعض رواد الحركة الوطنية منهم: مصالي الحاج 1951م، فرحات عباس، مصطفى الأشرف 1942م.
- بروز شخصيات من المنطقة ومن خارجها عملت على تحقيق درجة مقبولة من المستوى العلمي والفكري في ظل عدم وجود إطار أو هيكل رسمي لهم، ومع توجيه عبد الحميد بن باديس لنداء تأسيس الجمعية في الشهاب سنة 1925م، كان من بين الأوائل

الذين لبوا النداء : محمد بسكر، عبد القادر عماري، عيسى علية، البركاتي حمريط، أحمد بن مخلوف، محمد العدوى، محمود أرسلان، موسى الأحمدي نوايوات والحاج بن المبارك البعجي وغيرهم ، وانطلاقاً من رسالتهم الدينية والإصلاحية فقد صححوا المفاهيم وأصلحوا العقائد ونقوا الأفكار من رواسب البدع والخرافات.

- الحركة التعليمية بالحضنة 1919م إلى 1954م

من المجالات المهمة التي ركزت عليها الحركة الإصلاحية، التعليم، لأنه لا يمكن أن يتحقق إصلاح ديني وفكري قبل إصلاح العقول ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعليم، والتعليم القومي على وجه الخصوص والذي يشمل بالإضافة إلى مبادئ القراءة والكتابة دراسة التاريخ العربي والإسلامي وذلك للحفاظ على المقومات الوطنية من دين وتاريخ ولغة.

فكانت المرحلة الأولى من التعليم العربي قبل تأسيس (ج ع م ج) تتمثل في عمل أفراد، تخرج منها أغلب معلمي منطقة المسيلة، محصورة في دائرة ضيقة من حيث الأسلوب وطرق التدريس والمناهج والبرامج، حيث أن التعليم العربي الإسلامي التقليدي هو السائد، والذي يرتكز على الكتاتيب والمساجد والزوايا وبقي مستمرا ولكن بصفة أقل، أما بعد سنة1931م فصار التعليم يستهدف الناشئة بالتعلم والعامة بالوعظ والإرشاد، وفي نفس الوقت وضع برامج ومواد تدريس التفسير، الحديث، الفقه، الفرائض...والعلوم اللغوية مثل الأدب، النحو، الصرف...وعلوم أخرى متنوعة كالمنطق والحساب والجغرافيا والتاريخ.

وقد اعتمد التعليم الإصلاحي في الغالب على التمويل المحلي سواء من خلال الجمعيات المحلية أو اشتراكات أعضائها أو إعانات أنصار الإصلاح في المنطقة أو بعض المحسنين، وهذا ما لمسناه من خلال جريدة البصائر والشهاب لتبرعات أبناء الحضنة من أجل تأمين نفقات التعليم سواء على شكل شُعب تابعة للجمعية مثل شعبة بريكة وبوسعادة والمسيلة ، أو كأفراد مثل الطاهر لطرش ومهدي علي بن يعيش، مشتي السعيد، كبوية المدني...الخ ومن منطقة بريكة سي الحاج أحمد، الشيخ عيسى بن محمد، سي محمد الصديق...الخ ، ومن منطقة بوسعادة محمد بن بلحوت، عبد القادر بسكر، محمد بن بسكر، عيسى بن لقرادة، عبد الرحمان بن يحي...الخ ، وفيما يخص تأسيس المدارس الحرة الخاصة بالجمعية بالمنطقة فيعود الفضل في إنشاء مدرسة الرجاء بالمسيلة التابعة للجمعية للشيخ نعيم النعيمي من خلال الدروس التي كان يقدمها بمساجد المسيلة، يحث فيها على العلم والتعليم وأهمية المدارس بالمنطقة، تم تكوين لجنة لبناء المدرسة بالمنطقة تتكون من: كبوية المدني

"رئيسا" مهدي على(نائب الرئيس) والأعضاء عريوة مبارك، خوجة بوبكر، دريد إبراهيم، شيكوش الحاج عيسى، زغلاش البشير، بن يونس الهاشمي، بوديعة بلقاسم، خوجة يحي، طالب حسين مصطفي، زغلاش لخضر، حشفر الصديق، بن عيسى محمد، بن يحي عثمان، بن يحي إبراهيم، مشتي السعيد، فلوسية علي، حمينة لخضر، بن الذيب العربي، لدغم شيكوش محمد.

أما بالنسبة لمنطقة سيدي عيسى فقد تم بناء مسجدان، أحدهما بناه السيد الحاج عيسى عليه والآخر شيدته الجمعية الدينية وعلى رأسها السيد محمد عبدلي وفيما يخص المدارس فقد أسس الشيخ عيسى عليه مدرسة لتعليم القرآن الكريم ومختلف العلوم، وفي سنة 1934م أسس مدرسة التهذيب والمواساة ، وأخذ يحث الناس على العلم والتعلم من خلال محاضراته ومواعظه ، لكن أغلقت المدرسة بعد ثلاثة أشهر من قبل السلطات الفرنسية وبعد جهود مضنية أعيد فتحها ومن أهم المعلمين الموفدين من قبل الجمعية الشيخ الطاهر طاهري والذي كان مدير المدرسة بعد سنة 1946م .

وعن منطقة بريكة فإنها عانت من الجهل والانحطاط والتأخر إلى أن رزقها الله بالمصلح الشيخ موسى الزفاف، الذي كان له الفضل في بعث نهضتها، يقول قراوي أحمد بن الصديق:«...من نعمة الله على هذه البلدة التي تأخرت وتجرعت ذل الجهل وإهاناته أحقابًا طوالاً، أنْ رزقها الله برجل عالم ناشط مخلص لدينه ووطنه ألا وهو الأخ الكريم موسى الزفاف...قادها إلى ما فيه خيرها وسعادتها وأزال عنها ذلك الحجاب الذي توارت به من سحاب الجهل...» ، حيث اتبع الشيخ موسى الزفاف منهج الجمعية في الوعظ والإصلاح وتربية النفوس في المسجد وبالموازاة مع ذلك قام بتأسيس مدرسة السنّة سنة 1937م لتدريس علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية والتربية والتعليم ومن المعلمين المساعدين للشيخ موسى الزفاف نذكر: السيد علي بن سليمان والسعيد بن الطاهر وعبد الله بن الأخضري وقراوي أحمد بن الصديق ومحمد الشيخ بن المكي ومحمد قادري وعمار السلطاني والطاهر الحركات.

وفيما يخص بوسعادة فإن الزاوية الهاملية استمرت في التعليم والتربية والوعظ والإرشاد، والتي أسست سنة1951م مدرسة الفلاح بمدينة بوسعادة، والتزم شيخها الحاج مصطفى بنفقاتها وتسيير شؤونها فاستدعى إليها جملة من الأساتذة والشيوخ المتمرسين كان من بينهم الشيخ الزروق، وفيما يخص المدارس الإصلاحية فقد أسس الشيخ الزروق سنة 1942م

مدرسة الفتح بجانب بيته درس فيها الكثير من العلوم وخاصة اللغة العربية والنحو والصرف والحساب، وعلم فيها الطلبة باختلاف أطوارهم، وقد دام نشاط هذا المعهد ما يقرب 10 سنوات(1942-1952)م، وتخرجت منه الكثير من الوجوه الرائدة في هذه البلدة، ومن الطلبة الذين تحصلوا على شهادة حفظ القرآن لسنة 1946م نذكر: خضراوي السايح بن العيساوي، بلقاسم بن احمد، شميسي عبد الرحمن، شميسي الزبير، حطاب الجيلالي بن محمد...الخ.

يضاف إلى ما سبق المدارس الفرنسية الرسمية والتي تعلم فيها مجموعة من المصلحين والأدباء، حافظوا على طابعهم الاجتماعي والديني نذكر منهم عيسى بسكر، عبد اللطيف تامر، البوطي محمد، لعواف علي، بن سلامة العربي، عبد القادر بن رعاد، تومي علي، بيوض عيسى...الخ ومن المعلمين الوافدين إلى بوسعادة من قبل جمعية العلماء حمزة بكوشة والطاهر طاهري والنعيم النعيمي، أما الطلبة الناجحين في مختلف الأطوار نذكر نور عبد القادر وابن رابح المسعود بشهادة الأهلية بالمعهد الباديسي وبوضياف عيسى وسالم عبد الرحمن ابن مسعود، تحصلوا كلهم على شهادة التحصيل بالجامعة الزيتونية .

إن الحركة الإصلاحية في إقليم الحضنة في مجال التعليم اعتمدت في بداياتها على المساجد رغم قلتها وضعف هياكلها وضعف مضمونها، إلاّ أنها حافظت من خلال التعليم التقليدي بالمساجد والزوايا والكتاتيب على القرآن الكريم واللغة العربية، واستمر الوضع كذلك إلى مطلع الثلاثينات أين عرفت المنطقة تأسيس مدارس خاصة بالجمعية تقوم على مبدأ التنظيم في كل النواحي المادية والموضوعية والبشرية، إلاّ أنها كانت بطيئة نوعا ما الأمر الذي أدى لهجرة الكفاءات المتعلمة نحو قسنطينة والزيتونة.

وعن شعبة (ج ع م ج) بالمسيلة فقد ذكرت البصائر أنه تم تأسيس الشعبة خلال 1938م ، أما الأستاذ بيرم كمال فيرجع تأسيس شعبة (ج ع م ج) بالمسيلة إلى سنة 1950م وذلك حسب التقارير الفرنسية، وبالنظر إلى الأحداث يتبين أن الشعبة تأسست قبل هذا التاريخ لأن أي نشاط يأخذ طابع السرية مع المستعمر، وعند إعلانه يكون قد شكل قاعدة صلبة بالمنطقة من العلماء الإصلاحيين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان نشاط العلماء كان قد بدأ قبل هذا التاريخ، بالإضافة إلى أن عملها كان متقطع تحت تأثير الظروف المحلية، وما يؤكد ذلك ردود الفعل القوية حول تأسيس شعبة (ج ع م ج) بالمسيلة من طرف الطرقيين المتحاملين على الجمعية ومن طرف الإدارة الاستعمارية وعملائها، فكتب من أسمى نفسه

بالمسيلي العربي الصميم مقال بعنوان: "شعبة الجنون" حيث شتمت جريدة البصائر ومبارك الميلي ومما جاء في المقال:«...إن مدينة المسيلة طيبة غير قابلة لبذر بذور الفساد والإفساد وأن ما أشاعه عنها الميلي هو محض افتراء... فكيف يغتر أهل المسيلة اليوم بهاته الجمعية...وليس من المسيليين من لم يتمسك بطريقة من الطرق الصوفية، ويدعوا إليها صباحًا مساءً...» من هذا نلمس قوة الصراع بين الإصلاحيين والطرقيين بالمنطقة، أما عن تشكيلة الشعبة فكان الرئيس بن يحي مصطفى ومشتى السعيد(النائب) وكباوية عيسى(كاتب عام)، بن آل الحسني محمد(نائب الكاتب العام)، الأطرش الطاهر(أمين المال)، حجاب أحمد(نائب أمين المال)، عكه المسعود(مراقب) والأعضاء المستشارون هم: بن يحي إبراهيم، خليل العمري، لدغم شيكوش محمد، عمرون سعد، داود إبراهيم ، لكن لم نجد للشعبة عمل بارز منذ تأسيسها إلى غاية في1951م ولعل السبب فيما ذكره محمد الطاهر الأطرش:«...ولكن دسائس الاستعمار أبت إلا أن تقوض أركان نهضتهم المباركة وتقضي عليها وهي في حداثتها، واستطاعت أن تؤثر في عقيدة بعض الرجال العاملين، وأن تحدث في صفوفهم المتراصة هوة عميقة كانت العامل الأكبر في تأخر النهضة، والشك في بعثها من جديد ومن ذلك التاريخ صارت المسيلة في عداد المدن التي لم تؤد واجبها نحو دينها وقوميتها...» ، فالإدارة الفرنسية والموالين لها كانوا بالمرصاد لشعبة (ج ع م ج)؛ لكن بقدوم الشيخ نعيم النعيمي كموفد من قبل الجمعية استطاع لمّ الشمل وتوحيد رجال المسيلة وأن يحدث الفرق، ولذلك بدأت الشعبة العمل من خلال توسيع دائرة الإصلاح وتعميمها على الجماعات في إطار العمل المنظم بعد أن كانت مقصورة على الأفراد، فكانت بعد ذلك الكثير من الاجتماعات وقوى ارتباط المسيليين بالجمعية وعلمائها، وفي هذه الفترة ظهرت شخصيات بارزة بعلمها وأخلاقها فمنهم من كان طالب في المعهد الباديسي، ومنهم من تخرج من جامع الزيتونة والقائمة طويلة نذكر منهم: محمد الطاهر لطرش، ماجي محمد بن محمد، محمد العياضي بن الحاج عيسى المسيلي العربي، موسى الأحمدي نوايوات، مشتى السعيد، عيسى المعتوقي، بورزق عبد المجيد، حمريط الوناس بن محمد، بركات أحمد بن أحمد، البركاتي أحمد بن مخلوف، سالم عبد الرحمان بن المسعود، الطاهر بن المسعود عبد الحفيظ، الشيخ محمد دركاش محمد الدراجي، ومحمد العدوي ...تجندوا للحركة التعليمية والفكرية رغم الإمكانات الضعيفة ومحاصرة الإدارة الاستعمارية لنشاطهم .

وتأسست بسيدي عيسى في سنة 1951م حسب البصائر شعبة (ج ع م ج) برئاسة الطاهر بن الطيب عبدلي وبلقاسم بن إبراهيم عكيري(نائب) والسيد قويدر بن الحاج عيسى علية(كاتب)، والسعيد عميري (نائب كاتب)، وعلي بن الطاهر مالك(أميم مال)، وعيسى بن محمد بن الحوت(مراقب)، والأعضاء المستشارون هم: أحمد بن يحي طرافي، عمر بن مصطفى حمدي، أبو الأعراس بن محمد حمدي، السعيد بن عمر باطريلي، علي بن صالح العرباوي، شعبان بن حسن أحمد وعمر أحمد بن علي بلقاسمي وبذلك أصبح العمل الجماعي يأخذ طابع التنظيم.

وبالنسبة لبريكة فقد تأسست شعبة (ج ع م ج) قبل سنة 1950م، حيث وجدنا أنه تم تجديد الشعبة سنة 1950م وهذا يدل على أنه تم تأسيس الشعبة قبل هذه السنة، تولى رئاسة الشعبة في سنة 1950م باعلي الشريف الصالح، والدهيمي الحملاوي(نائب)، قرفي مبارك(الكاتب)، قادري محمد (نائب الكاتب)، بالمكي محمد بن الأمين (أمين مال)، سي جلول(مراقب) وكل من السادة خوري محمد، زفاف محمد الصديق، بوحفصي محمد أعضاء مستشارون.

وفي سنة1951م تأسست شعبة (ج ع م ج) ببوسعادة وقد نشرت جريدة البصائر في عددها (153) قائمة أعضاء الشعبة حيث ترأسها محمد بن سليمان مرخوم، العربي بن مسعود بن سلامة(نائب)، عبد القادر بن الشلالي الطيبي(كاتب)، أحمد بن الحاج (نائب كاتب)، محمد براهيمي(أمين مال)، الزبير طاهري(نائب أمين مال)، سليمان بن أحمد جوة(المراقب)، الأعضاء المستشارون هم: بلقاسم بن الصديق بوعلام، حميدة عبد القادر، عمار بن المدني الشريف، عبد الرحمن بن عمر عسلون، أحمد بن يحي باهي، عطية بن الباهي الباهي، زيان بن جدو قيرش، الصغير بن البشير لقوي، عبد اللطيف بن علياء بن حامد وبذلك توحدت جهود المصلحين للقيام بعمل واسع ومنظم.

وإذا تحدثنا على الإنتاج الفكري لعلماء وأدباء المسيلة فإننا نلمس فيه الجانب الديني والإصلاحي والتوعوي متنوعا بين نثر وشعر، بين مقالة صحفية وكتاب، بين مطبوع ومخطوط، حيث يمكن أن نذكر في هذا الباب: "رسالة الألسنة في الرد على من آمن بالطاغوت وخالف السنة" و"رسالة كشف الصوارم والألسنة في نحري منكري العمل بالسنة" و"كشف الخبايا في ابن الزوايا" لعيسى علية ، و"كتاب إماطة اللثام عما نشأ في الحضارة التلمسانية من الشكوك والأوهام والشقاق والخصام"1939م و"رسالة رفع

التلبيس عن نية من أراد مسخ المسلمين بالسفور والتجنيس"1938م و"الرسالة الديلمية في صيانة العائلات الإسلامية" 1947م وكتاب "حاجة البشير إلى الدين" لعلي البوديلمي، و"شرح الصدر بإعراب أيّ القطر"وتحقيق كتاب"الكواكب العرفانية والإشراقات الأنسية في شرح القدسيّة" للورتلاني "ومناسك الحج" للقاسمي محمد بن عزوز الحسن الهاملي وكتاب "مظاهر المقاومة الجزائرية" وكتاب "حوار حول الثورة" وكتاب "شاهد على الحركة الطلابية أثناء الثورة الجزائرية(1954-1962)م" وكتاب "شاهد على ميلاد صوت الجزائر" لعبد القادر نور، وكتاب "المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي" نشر سنة 1947 م وكتاب "المحادثة العربية للمدارس الجزائرية" و"معجم الأفعال المتعدية بحرف" بالإضافة لكثير من المقالات في الصحف والجرائد البصائر، الشهاب، النجاح....الخ لموسى الأحمدي نويوات .

الخاتمة:

عرفت الحضنة نهضة ثقافية فكرية أحدثت التغير الاجتماعي والثقافي والروحي المنشود عن طريق الإصلاح الديني، كما خضعت لظروف بيئية وموضوعية تتعلق بالمنطقة في حد ذاتها وأخرى تتعلق بالمستعمر الفرنسي، بحيث تركز عمل المصلحين على ترسيخ العقيدة في نفوس الناس وتعليمهم أحكام الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية ومقاومة البدع والخرافات، ونشر التعليم عن طريق تأسيس المدارس والنوادي والجمعيات والاهتمام بالعمل الصحفي.

كما يتجلى لنا من خلال دراستنا للموضوع أهمية البحث في الأعلام ودراسة سير الرجال وجهودهم الإصلاحية وتأثيرها في المجتمع وذلك من خلال الأعمال الفكرية التي خلفها رجال الإصلاح في الحضنة، وقد ساهمت هذه الشخصيات بالقدر الممكن في إحداث تغيرات في مستوى الوعي الفكري والتعليمي بالمنطقة، وتبقى السمة المميزة للحركة الوطنية بالحضنة أنها كانت تعمل في نسق واحد منسجم بين عدة شخصيات منتمية لكل أطياف الحركة الوطنية، وظل المشهد متكررا عبر كل محطات النضال وإلى غاية اندلاع الثورة التحريرية.

الهوامش:

1. [1]- الإبراهيمي،آثار الإمام الإبراهيمي، ج4، لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص32.
2. [1]- ديفل سميحة، المسيلة من خلال كتابات الرحالة المغاربة والأندلس،الملتقى الوطني الثاني"تاريخ وأعلام المسيلة"، المسيلة: دار الثقافة، 2013م، ص16.

3. [1] - النجاح، ع575، 06 أفريل1928م.
4. [1] - كمال بيرم، الاحتلال الفرنسي والمقاومة الشعبية بمنطقة الحضنة، الجزائر: دار ميم للنشر، 2013م، ص-ص(35-41).
5. [1] - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ط4، لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص335.
6. [1] - عبد الحميد زوزو، الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين (1914-1939)م، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ت)، ص48.
7. [1]- شارل روبير آجرون، تاريخ الجزائر المعاصر، ترجمة: عياش سلمان، الجزائر: دار الأمة، 2005م، ص480.
8. [1] - محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب،1999م، ص20.
9. [1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(1830-1954)م، ج3، لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1998م، ص-ص(153-155).
10. [1] - يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1995م، ص39.
11. [1] -كمال بيرم، أعلام ومعالم من مدينة المسيلة نظرة في التاريخ الثقافي خلال الاحتلال الفرنسي، الجزائر، دار الارشاد للنشر والتوزيع،2013م، ص-ص(70-73).
12. [1] - شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج1، الجزائر: دار البصائر،2009م، ص82.
13. [1] - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص39.
14. [1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، ص194.
15. [1] -أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص262.
16. [1] - عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذاكرات معاصر، ج1، ط2، الجزائر: منشورات السائحي، 2008م، ص175.
17. [1] -علالي محمود، المرجع السابق، ص97.
18. [1] - محمد قويدري، "خليفة عبد القادر الحسن بن عزوز البرجي"، المجلة الخلدونية، الملتقى الوطني الثامن "بسكرة عبر التاريخ"، ديسمبر2009م، ص84.

19. [1] -كمال بيرم، أعلام ومعالم من مدينة المسيلة، المرجع السابق، ص86.
20. [1] - النجاح، ع881، 9 مارس1930م.
21. [1]- أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص-ص(261-262).
22. [1] - أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر: مطبعة فونتانة، 1906م، ص-ص(336-339).
23. [1] -كمال بيرم، واقع الثقافة، المرجع السابق، ص-ص(15-23).
24. [1] -عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، ط2، لبنان: مؤسسة نويهض، 1980م ، ص142.
25. [1] - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ، 1982م، ص425. كذلك: الحفناوي، ج1، ط2، 2013م. مياسي، 2007م، ص33.
26. [1] -بن تريعة الحاج، بني يلمان أباء وأحفاد أعلام وأمجاد وثلئق ومستندات، تقديم: عبد الكريم قذيفة، الجزائر: دار الوسيط، 2010م، ص-ص(84-85).
27. [1] - عبد المنعم القاسمي الحسني، زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد(1862-1962)م، ط2، الجزائر: دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، 2013م، ص240.
28. [1] - ناصر لمجد، ناصر الدين ديني حياته وأفكاره(1861-1929)م، الجزائر: دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، 2010م، ص–ص(8-13).
29. [1] - خميسي سعدي، الأمير خالد وعائلته ببوسعادة بين العودة إلى أرض الأجداد والمنفى الإجباري، المسيلة، 1مارس2016، ص-ص(7-8).
30. [1] -كمال بيرم، الحركة الوطنية بمنطقة المسيلة، المرجع السابق، ص13.
31. [1] - عمر بن قينة، الديسي حياته وأثاره وآدابه، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977م، ص76.
32. [1] - خير الدين شترة، من أعلامنا المنسيين، ج1، ص-ص(185-192).
33. [1] - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، الجزائر: دار البصائر، 2009م، ص503.
34. [1] - رابح تركي، الأصالة، ص82.

35.[1] -كراغل محمد، إسهامات رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثورة التحريرية، الملتقى الوطني الثالث "تاريخ وأعلام المسيلة"، المسيلة، دار الثقافة، 2014م، ص68.

36.[1] - طاهر طاهري، مذكرات طاهر طاهري، الجزائر: مركز البصيرة، 2009م، ص58.كذلك ينظر: الشهاب مج5، ج12، جانفي 1930م.

37.[1]- أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر ويليه كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص302.

38.[1] - البصائر، ع68، 21 فيفري 1949م.كذلك ينظر: الإبراهيمي، ج3، المصدر السابق، ص130.

39.[1] - النجاح، ع945، 29 ماي1930م.

40.[1] - محمد يحي حرزلي، المرجع السابق، ص-ص(48-70).

41.[1] - الشهاب، ع92، 14أفريل 1927م، ص983.

42.[1] - البصائر، ع137، 28 أكتوبر1938م.

43.[1] - حميدي أبو بكر الصديق، دراسات وأعلام في الحركة الإصلاحية، الجزائر: دار المتعلم، 2015م، ص65.

44.[1] - البصائر، ع134، 17اكتوبر1938م.

45.[1] - البصائر، ع62، 9 أفريل1937م.

46.[1] - البصائر، ع61، 2 أفريل1937م.

47.[1] - البصائر، ع52، 22 جانفي 1937م.

48.[1] - البصائر، ع176، 10 ديسمبر 1951م.

49.[1] -حاج حفصي محمد، المرجع السابق، ص92.

50.[1] - ا البصائر، ع126، 12 أوت 1938م.

51.[1]- النجاح، ع3451، 2 أكتوبر 1946م.

52.[1]- خير الدين شترة، معجم أعلام الجزائر خريجي الجامع الأعظم بتونس، ج3، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2015م، ص128.

53.[1] - الإبراهيمي، ج3، المصدر السابق، ص338.

54.[1] -البصائر، ع126، 12 أوت 1938م.

55.[1] - البصائر، ع103، 11 مارس 1938م.

56.[1] - البصائر، ع122، 15 جويلية 1938م.

57.[1] - البصائر، ع103، 11 مارس 1938م.

58.[1] - خليفة الحاج محمد بن الزروق خليفة، الإفادة بما علم من أخبار بوسعادة ، دراسة وتحقيق: محمد بسكر، الجزائر: دار كردادة، 2014م، ص39.

59.[1] - محمد يحي حرزلي، المرجع السابق، ص92.

60.[1] - النجاح، ع3425، 26 جوان 1946م.

61.[1] - مولود عويمر، تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية، الجزائر: دار قرطبة، 2011م، ص90.

62.[1] - البصائر، ع281، 30 جويلية 1954م.

63.[1] - المنار، ع9، 15 أوت 1952م.

64.[1] - البصائر، ع138، 4 نوفمبر 1938م.

65.[1] - النجاح، ع2216، 24 نوفمبر 1938م.

66.[1] - البصائر، ع138، 4 نوفمبر 1938م.

67.[1] - البصائر، ع212، 9 جانفي 1953م.

68.[1] -كمال بيرم، واقع الثقافة، المرجع السابق، ص172.

69.[1] - البصائر، ع126، 12 أوت 1938م.

70.[1] - البصائر، ع118، 1 ماي 1950م.

71.[1] - البصائر، ع153، 30 أفريل 1951م.

72.[1] - خير الدين شترة، معجم أعلام الجزائر، ج3، المرجع السابق، ص129.

73.[1] - البصائر، ع281، 30 جويلية 1954م.

74.[1] - خير الدين شترة، معجم أعلام الجزائر، ج3، المرجع السابق، ص147.

75.[1] - زهية يسعد، قناديل الفكر ونبع الثقافة الأصيلة، الملتقى الوطني الثالث"تاريخ وأعلام المسيلة"، المسيلة: دار الثقافة، 2012م، ص-ص(17-18).كذلك ينظر: خير الدين

76.شترة ، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج3، ص97.

77.[1] - موسى الأحمدي نويوات، ديوان الأديب موسى الأحمدي نويوات، الجزائر: دار البصائر، 2009م، ص-ص(1-6).

الكاتب: د/ نصر الدين البشير العربي
قسم التاريخ/جامعة المرقب/ مسلاته/ ليبيا
البريد الالكتروني: nisser2012@yahoo.com

عنوان المقال: : سياسة النفي الايطالية تجاه الليبيين خلال الحرب العالمية الأولى

تاريخ الارسال: 2019/01/06 تاريخ القبول: 2019/02/21 تاريخ النشر: 2019/03/28

سياسة النفي الايطالية تجاه الليبيين خلال الحرب العالمية الأولى

The Italian Exile Policy Towards the Libyans During the First World War

الملخص بالعربية:

تاريخ ليبيا حافل بالبطولات والأمجاد عبر العصور وفي مختلف المجالات ، ولا شك أن الفترة الاستعمارية الممتدة 1911 – 1942 أكدت ذلك من خلال الزخم الكبير للمعارك التي خاضها الليبيون ضد الايطاليون ، والملاحظ أن من السياسات الأولى التي استخدمتها إيطاليا هي سياسة النفي إلى سجون الجزر الإيطالية .

نحاول من خلال دراستنا هذه تسليط الضوء على سياسة النفي التي انتهجها الإيطاليون تجاه الليبيين خلال الحرب العالمية الأولى وإبراز مختلف الاجراءات التي اعتمدتها بهدف ترسيخ ليبيا إيطالية والتمكن من القضاء على كل أشكال حركة المقاومة .

وللقيام بهذه الدراسة للموضوع قمنا بطرح الاشكالية التالية :

- ما هي اهم مواقف الساسة الإيطاليين نحو حركة المقاومة الليبية ؟
- كيف تعاملت الحكومة الإيطالية مع مختلف الأزمات التي عاشتها ليبيا فترة بداية الاحتلال وحتى الحرب العالمية الأولى ؟.
- ما هي السياسة التي اتبعوها الإيطاليون في ليبيا مع المجاهدين ؟.
- وكيف بدأت عملية النفي ؟.
- ولماذا تزايدت عمليات النفي خلال الحر العالمية الأولى ؟.

وقد اتبعنا في دراستنا لهذا الموضوع المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الذي يعتمد على وصف وتحليل المادة وفقاً للتطورات التي شهدتها الفترة المحددة للموضوع .

وللإجابة على كل التساؤلات ، وبالنظر إلى ما جمعناه من مادة علمية قسمنا البحث إلى مقدمة وثلاث فصول وخاتمة .

- **الفصل الأول** : مدخل وصفنا فيه بداية الاحتلال الإيطالي لليبيا وأهم السياسات التي انتهجتها .
- **الفصل الثاني** : تطرقنا فيه إلى سياسة النفي الإيطالية تجاه الليبيين من خلال طرقه ووسائله وتعامله مع مختلف المقاومات الليبية.
- **الفصل الثالث** : تناولنا فيه عمليات النفي خلال الفترة من سنة 1911 وحتى العام 1918 نهاية الحرب العالمية الأولى .

وأخيرا الخاتمة التي هي عبارة عن حوصلة أو مجموعة من النتائج المتوصل إليها جراء بحثنا في هذا الموضوع .

كلمات مفتاحية: المنفى، الحرب العالمية الأولى، حركة المقاومة، الاحتلال الليبي.

Abstract :

The history of Libya is full of heroism and glory throughout the ages and in various fields. The colonial period of 1911 - 1942 certainly confirmed this through the great number of the battles that the Libyans fought against the Italians, one of the first policies used by Italy is the policy of exile to the prisons of the Italian islands. In this study, I tried to shed a light on the exile policy adopted by the Italians towards the Libyans during the First World War, and to highlight the various proceduers adopted by the Italians in order to consolidate Libya as Italian and to eliminate all forms of resistance movements. To carry out this study, I have raised the following problems:

- What are the most important attitudes of the Italian politicians towards the Libyan resistance movement?

- How did the Italian government deal with the various crises experienced by Libya from the beginning of the occupation until the First World War?

- What is the policy that the Italians have followed in Libya with the Mujahideen? How did the process of the exile begun?

- Why has the exile increased during the World War I?

In my study of this topic, I followed the descriptive historical analytical approach, which is based on the description and analysis of the material in accordance with developments in the specific period of the topic. In order to answer all questions, and in view of what we have gathered from a scientific material, we divided the research into an introduction, three chapters and a conclusion.

- Chapter I: Introduction We described the beginning of the Italian occupation of Libya and the most important policies that have been adopted.

- Chapter II: We discussed the Italian exile policy towards the Libyans through its methods, means and its dealings with various Libyan resistance.

- Chapter III: dealing with the exile operations during the period from (1911 - 1918) the end of the First World War. Finally, the conclusion is a summary or a set of conclusions reached by my research on this topic.

Key Words: Exile, The First World war, Resistance movement, Occupation of Libya.

مقدمة:

قال _ تعالى : ((الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)) [(1)] صدق الله العظيم، انطلاقاً من هذه الآية الكريمة سأحاول في هذه الورقة أن أسلط الضوء على سياسة النفي الإيطالية تجاه الليبيين خلال الحرب العالمية الأولى، هذه السياسة التي اعتبرتها الحكومة الإيطالية من المرتكزات الأساسية التي استندت عليها لتحقيق أهدافها الاستعمارية في ليبيا، فهيأت من أجل تطبيق هذه السياسة كل الظروف والمستلزمات اللازمة للقيام بها من عام 1911 بداية الاحتلال واستمرارها حتى عام 1943 بعد هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وخروجها من ليبيا، ورغم كل الجهود التي بذلتها حركة الجهاد الليبي بمختلف الطرق والوسائل والأساليب المشروعة للحد من عمليات النفي إلى سجون الجزر الإيطالية، إلا أنها لم تفلح في كبح جماح الإيطاليين الذين استمروا في تلك السياسة ولم يتوقفوا طيلة فترة الاحتلال .

يحاول هذا البحث برؤية معاصرة استندت على المادة الوثائقية والدراسات الأكاديمية ، والمصادر المتنوعة العربية منها والأجنبية المترجمة على حد سواء وذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، لا سيما مدخلاً لبداية عمليات النفي إلى سجون الجزر الايطالية حتى عام 1918م ، متتبعاً بداياتها التي انطلقت إبان خطاب رئيس الوزراء الايطالي : (جيوفاني جيوليتي) عندما أرسل برقية إلى قائد الحملة في طرابلس الجنرال كانيفيا قائلاً: "أعتقد أنه من الحسن الإضافة إلى برقيتي أنه بالإمكان وضع أي عدد من العرب حتى وإن كان يبلغ عشرات الآلاف في جزر تراميتي ، وفافينيانا ، وأوستيكا وغيرها"[(2)].

إن إلقاء نظرة متأنية في هذه البرقية والتأمل في مجريات الأحداث المتسارعة في فترة زمنية قصيرة ما بين انتهاء معركة الهاني وشارع الشط 1911.10.24م والشروع في التحضير لعمليات النفي مباشرة يومي 1911.10.25.24م وانطلاق عمليات النفي فعلياً يوم 1911.10.26م تجعلنا نحكم على عمليات النفي التي بدأت يوم وصول الإيطاليين إلى ليبيا بأنه أمر قد سبق الإعداد له، ويفهم منه أيضاً خطة النفي لم تكن من نتائج المعارك ، وإنما هي جزء من سياسة حملة الغزو في رسم استراتيجية السياسة الإيطالية تجاه ليبيا ، بحيث إنه مخطط لها ، وهي جزء من المعركة المتممة للنصر النهائي ، الذي كان الإيطاليون يطمحون إلى تحقيقه، الأمر الذي يؤدي إلى استقرار الإيطاليين في ليبيا وضمان أمنهم،

خاصة أن لديهم قناعة بأن الأتراك لا يستطيعون فعل شيء حيال ما يحدث في هذه الإيالة[3].

ويقتضي ذلك تقديم عدة تساؤلات حول المنفيين الليبيين إلى سجون الجزر الإيطالية من أجل الإجابة عليها والتي تطرح نفسها ومنها: ماهي الأسباب وراء انتهاج الإيطاليين سياسة النفي للمواطنين الليبيين ؟ وماهي المراحل والطرق التي استخدمتها الحكومة الإيطالية للقيام بعمليات النفي أثناء الحرب العالمية الأولى؟ وماهي أهم المنافي والسجون التي تم نفي المواطنين الليبيين إليها خلال هذه الفترة ؟ وكم عددهم ؟ وماهي المعاملة التي تعرضوا لها وما ظروف معيشتهم داخل تلك السجون ؟ .....الخ من الأسئلة التي قد نصل إلى جزء من الإجابة عليها في هذه الورقة.

أولاً _ أسباب النفي:

وضعت إيطاليا جملة من الأسباب لعمليات النفي، وباشرت في تنفيذها منذ البدايات الأولى للغزو من أجل ضم ليبيا إلى إيطاليا وإخضاع المجاهدين لسلطة الاحتلال وكانت على النحو التالي:

1. إفراغ البلاد من سكانها الأصليين من أجل ضمها بصورة نهائية إلى إيطاليا وجعلها " **الشاطئ الرابع** " لها وتشجيع المهاجرين الإيطاليين إلى ليبيا في محاولة للتغير الديمغرافي للبلاد[4].
2. هول الصدمة التي فوجئت بها إيطاليا من خلال المعارك التي خاضها الليبيون منذ الوهلة الأولى لعمليات الإنزال، بما جعلها تلجأ إلى أسلوب النفي سواء داخل البلاد المتمثل في تفريغ الأرض من سكانها وزجهم بالمعتقلات والسجون والقتل والتهجير الجماعي، أو عن طريق النفي الجماعي إلى سجون الجزر الايطالية.
3. المعارك ومشاركة المجاهدين فيها ضد قوات الغزو الإيطالي أدى إلى اتباع إجراءات النفي كعقاب لهم جراء ذلك .
4. تقلب الرأي العام العالمي بصفة عامة والرأي العربي والإسلامي بصفة خاصة، الذي أدان بشدة عمليات الإبادة التي قام بها الإيطاليون في مدينة طرابلس[5]، مما أدى إلى استعمال سياسة النفي إلى سجون الجزر الإيطالية.
5. إبعاد المجاهدين من أبناء الشعب الليبي عن ذويهم وأهاليهم وأرضهم وذلك لخلق نوع من الخوف والرعب في نفس كل من يقف في وجه تقدمهم واحتلالهم.

6. جاءت عمليات النفي أيضا لمحاولة الإيطاليين التغطية على أخبار المعارك وخسائرهم الفادحة فيها.
7. مع بداية اندلاع الحرب العالمية الأولى واشتراك إيطاليا فيها ظهرت الحاجة إلى الأيدي العاملة في المزارع والمصانع الإيطالية.
8. كانت عمليات النفي من ضمن السياسات الممنهجة والتي تهدف إيطاليا من ورائها إلى تمزيق النسيج الاجتماعي الليبي والقضاء على حركة الجهاد ضدهم في ليبيا.
9. تخفيف ضغط المقاومة من قبل المجاهدين على القوات الإيطالية.
10. اقتداء إيطاليا بفرنسا وذلك بتجنيد الليبيين قسراً والزج بهم في الصفوف الأمامية في المعارك بأوروبا وأفريقيا وغيرها من الساحات الحربية.
11. الاستفادة منهم واستخدامهم جبراً في المصانع وفي مد سكك الحديد، ومصانع الأسلحة، وكذلك في الأعمال الزراعية والخدمية المختلفة تحت نظام السخرة وتوضح الوثيقة الموجودة بشعبة الوثائق والمخطوطات بطرابلس ملف المنفيين إلى سجون الجزر الايطالية ، والمصنفة تحت رقم "37" دون تاريخ أن الدولة الإيطالية قد قامت بإعداد كشف بالأماكن التي وزعت فيها المجموعات الليبية من السجناء للعمل في المدن الايطالية على النحو التالي[6]:

المجموعات	الموقع	عدد العمال	المجموعات	الموقع	عدد العمال
1	سامبيردارنيا	500	9	سيستوسانجوفاني	200
2	سيستوسا نجوفاني	460	10	بريستا	200
3	بيستتنيسا	240	11	مونتيثيليو	100
4	بنياسكو	388	12	كايوا	200
5	فودرانو	386	13	بيسينسا	200
6	بريستا	500	14	ميلانو	227
7	ليناتي	200	15	دالي	100
8	تورينو	500	16	كاستيلماري دي ستابيا	200

أيضا أكدت مذكرة تم إرسالها إلى الإدارة العامة للشؤون المدنية والأشغال العامة بوزارة المستعمرات وفيها ما يفيد : نظراً لطلب عميد بلدية فافينيانا الملح والعاجل لتشغيل الأيدي العاملة في حصد محصول الشعير الناضج الآن، إن تأجيل عملية حصده قد تعرض المحصول للتلف، فقد أذن لمدير السجن بالسماح بتشغيل العدد اللازم من الذين صدرت ضدهم الأحكام في عملية الحصاد المذكورة[(7)].

ولهذه الأسباب نرى في سياسة النفي كانت ركناً أساسياً من الخطة الشاملة للغزو، ولذلك جاءت بهذه الوتيرة من السرعة في الزمن والكثرة في العدد وذلك للأسباب التي ذكرناها واستمرت عمليات النفي الجماعي لأبناء ليبيا إلى سجون الغزو الإيطالية طيلة سنوات الاحتلال، أي منذ الشهر الأول من دخولهم إلى ليبيا في أكتوبر 1911م، وحتى عام 1943م إبان الحرب العالمية الثانية.

*** ثانياً : مراحل وطرق النفي :**

يمكننا تحديد مراحل النفي أثناء الاحتلال الايطالي وأن نقسمه إلى حقب تاريخية محددة ومميزة بسمات خاصة، وهي كالتالي:

- **المرحلة الأولى** :"ما بين 1911 - 1914 م" وقد تميزت بالمقاومة المسلحة للوجود الإيطالي ، والتي بدأت بعد أحداث معركة الهاني وشارع الشط ، ومعركة المرقب ، ومعركة جوليانة، والتي أصيب فيها الإيطاليون بخيبة أمل كبيرة، في توقعهم أن الليبيين سيستقبلونهم بالورود والزغاريد، مما دعاهم الى القيام بأعمال انتقامية ضد الأهالي على إثر هزيمتهم.
- **المرحلة الثانية**: " ما بين 1915 – 1922 م"، وقد تميزت هذه المرحلة بالمقاومة المسلحة التي تمثلت أحداثها بعد معركة القرضابية الشهيرة عام 1915.
- **المرحلة الثالثة**: فهي تمتد من عام 1931 بعد إعدام شيخ الشهداء عمر المختار، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة إيطاليا وخروجها من ليبيا[(8)].

أما طرق النفي فكانت تجري ليلا وبسرية تامة خشية عيون الصحفيين، وقد وصف شاهد عيان إيطالي في طرابلس عام 1912 بأن عمليات النفي كانت عبارة عن: " ترحيلات كبيرة تتم عند الليل من السجناء الليبيين إلى تراميتي وعبر طريق خالية تحت الضوء الخافت المنبعث من بضعة مصابيح ورثت من قبل النظام السابق " الأتراك " تمر القطعان الكئيبة محاطة بأعداد من الجنود والحراس دوي البنادق المزودة بحراب مصوبة إلى ظهور السجناء .... وكانوا يمشون في صفوف متراصة وفي أعمار مختلفة "[(9)].

ثالثاً . أهم المنافي والسجون خلال الفترة 1911 – 1918 :

إن المنعطف التاريخي الذي شهدته ليبيا في عام 1911 م لم يكن وليد الصدفة، وإنما هو نتيجة اتفاقات وتفاهمات " تغلغل سلمي " ساهمت بقسط كبير في السقوط السريع لمدينة طرابلس 1911/10/5 وجل المدن الساحلية الليبية بيد القوات الإيطالية، إذ لجأت الإدارة الإيطالية إلى ترسيخ دعائمها من وضعها لمخطط سياسة احتلال كامل واستيطاني، الهدف منها تفريغ الأرض من سكانها بما يخدم مصالحها الاستعمارية.

وقد كانت عمليات النفي تنفذ طبقا لأوامر وقرارات السلطات الإيطالية في روما، والتي كانت نتيجتها نفي مجموعات كبيرة من المواطنين الليبيين إلى سجون الجزر الإيطالية. فما هي أهم المنافي والسجون التي تم نفي المواطنين الليبيين إليها وأعدادهم ؟

*** أهم سجون الجزر الإيطالية التي نفي المواطنين الليبيين إليها وأعدادهم من واقع الوثائق الإيطالية**(10).

ر.م	اسم السجن	التاريخ	العدد	الاجمالي
1	ترامیتي	1911/10/26م 1911/10/26م	595 772	1367
2	أوستيكا	1911/10/27م 1915/6/14م	920 778	1698
3	فافينيانا	1912/2/10م 1912/3/3م 1913 إلى غاية 1919م	357 77 920	1354
4	بونسا	1915م	99	99
5	غاييطا	1911م	678	678
6	ليباري	1915/5/1م	309	309
7	لمبيدوزا	1915/5/1م	249	249
8	سنتماريتما	1914/4/18م إلى غاية 1918/12/13	218	218
9	بانتيليريا	1915/5/1م	181	181
10	سيراكوزا	من تاريخ 1913/3/6م إلى غاية 1916/7/6م	168	168
11	ايطاليا	من 1914/11/15م إلى غاية 1918/11/6م	127	127

12	الاسيا	من تاريخ 1917/5/8م إلى غاية 1918/3/6م	129	129
13	فنيتوتيتي	1915/5/1م	68	68
14	تشي مينو	من تاريخ 12\ 1\ 1917 إلى غاية 1918\3\26	65	65
15	كالابربري	من تاريخ 1915\11\8 إلى غاية 1917\11\6	24	24
16	فولبس	من تاريخ 1916\10\22 إلى غاية5\4\1917	22	22
17	غورغونا	من تاريخ 1913\11\23 إلى غاية 1915\7\6	18	18
18	فكاري	من تاريخ 1917\1\26 إلى غاية 1917\10\18	12	12
1	أرقوزا	من تاريخ 1916\12\17 إلى غاية 1917\7\4	7	7
20	لوشانو	1916\1\18	5	5
21	سيشيليا	1917\1\17	4	4
22	ساليرنو	1917\3\30	2	2
23	فرنيسيا	1915\7\18	1	1

إجمالي أعداد المنفيين حسب القوائم والأعداد التي حصلت عليها من واقع الوثائق الإيطالية خلال الفترة من عام 1911 – 1918م أي إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى قد وصل إلى 6805[(11)] منفيين، موزعين على أكثر من ثلاثة وعشرين سجنا بالجزر الإيطالية ، علما بأن هناك العديد من الوثائق التي تضم قوائم أخرى للمنفيين الليبيين، والتي لم نحصل عليها، وهي تضم أسماء أعداد أخرى من المنفيين الذين أخذت السلطات الإيطالية أوامر نفيهم إلى سجون الجزر الإيطالية. وهذا إحصاء لجدول رقم "2" متبوع بمنحنى بياني "الشكل رقم "3" يبينان عدد المنفيين الذين توافدوا على السجون في كل سنة من سنوات الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى :

السنة	عدد المنفيين	النسبة المئوية
1911	2965	43.6
1912	554	8.14

1915-1913	1871	27.5
1918-1916	495	7.27
1919	920	13.5

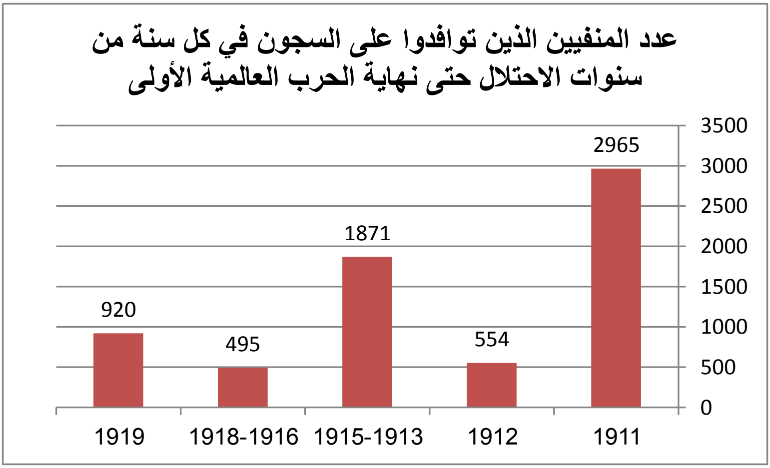

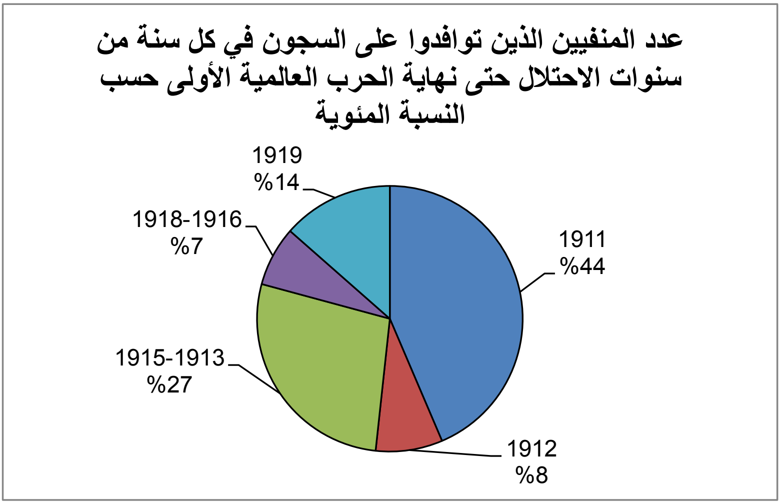

من خلال الرسم البياني يمكننا أن نميز بين فترتين متباينتين:

أ _ ارتفاع عدد المنفيين:

تمتد هذه الفترة من 1911 إلى غاية 1916م وخلالها تم نفي أعداد هائلة من المواطنين، هذه الزيادة ذات صلة وطيدة بتوسيع دائرة أحداث حركة الجهاد والمقاومة وما ترتب عنها من حملات اعتقال واسعة، أما نقطة الأوج التي شهدتها عمليات النفي في سنة 1911م، فهي تعبير عن القمع الاستعماري الذي استهدف إنهاء حركة الجهاد والمقاومة إثر المعارك الأولى مثل الهاني وشارع الشط وسيدي المصري، ومعركة المرقب، ومعركة جوليانة ومعركة القرضابية عام 1915م ضد الاستعمار الإيطالي.

ب _ فترة انخفاض عدد المساجين:

في عام 1916م انخفض عدد المنفيين إلى سجون الجزر الإيطالية بشكل جد ملحوظ، فهل كان ذلك نتيجة تساهل الجانب الإيطالي في هذه الفترة التي تميزت بالفتور بعض الشيء في شدة المعارك ضد الإيطاليين، وبدء المفاوضات مع المجاهدين ؟ أم كان ذلك نتيجة عوامل أخرى ؟.

هذه النظرية لا نلبث أن نستبعدها بالنظر إلى البعد الاستعماري لمخطط الساسة الايطاليين الذين كانوا يسعون بكل الوسائل إلى القضاء على حركة المقاومة والجهاد لا سيما في تلك المرحلة، فإذا كان عدد المنفيين قد تناقص ولأن الليبيين كانوا يلقون حتفهم في مناطق أخرى لا سيما المناطق الجنوبية والشرقية من ليبيا، من جهة أخرى لجأت قوات الاحتلال إلى اتباع سياسات أخرى مثل: المحاكم الفورية وأحكام الإعدام الفوري لمن يلقى عليهم القبض من المجاهدين مع ما ساهم أكثر في تناقص عدد المنفيين خلال هذه السنة وهو تغيير في استراتيجية السياسة المتبعة من قبل الساسة الإيطاليين ومشاركتهم في أتون الحرب العالمية الأولى لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ماهي المعاملة التي تعرضوا لها ؟ وما نوع ظروف معيشتهم داخل تلك السجون ؟

تؤكد صحيفة أفانتي الإيطالية بتاريخ 12 يناير 1912 أن المنفيين الليبيين عوملوا داخل السجون الإيطالية مثل الحيوانات ، كلهم تقريباً حفاة الأقدام وبملابس وسخة وقدرة ويقومون بأعمال جلب المياه على ظهورهم ويوزعونها على منازل البلدة[12].

وتبين الوثيقة رقم: (25) من الوثائق الإيطالية عن الكيفية التي تعاملت بها السلطات الإيطالية مع المنفيين الليبيين بالسجون الإيطالية أثناء استقبالهم وأخد البيانات منهم قبل إدخالهم إلى السجن، وقد جاءت هذه التعليمات على النحو التالي:

- قبل القيام بأية عملية من عمليات التحري عن العلامات الفارقة يجب غسل اليدين بالصابون جيداً ولبضع دقائق.
- يجب أن يقتصر لمس الشخص الذي يجرى البحث عن العلامات الفارقة فيه لأقصى مدة ممكنة وفي حدود الضروري جداً.
- يجب تجنب لمس عيني الشخص.
- بعد عملية البحث عن العلامات الفارقة يجب غسل اليدين جيداً ومضاعفة مدة غسلهما عن المرة الأولى ويفضل أن تتم عملية الغسل الأخيرة تحت الماء الجاري.
- خلال القيام بالعمليات المبينة في الفقرات أعلاه يجب الامتناع كلية عن لمس العينين وأقسام الوجه الأخرى، وإذا ما حتمت الحاجة إلى التمحص أو لمس أي جزء من أجزاء الوجه فإنه يجب غسل اليدين على النحو الذي سبق شرحه.
- يجب الامتناع عن التدخين وعن الأكل أثناء تنفيذ العمليات المبينة فيما سبق .
- قبل البدء في تناول الطعام يجب غسل اليدين كما ورد شرحه.
- يجب على الشرطي ارتداء المعطف الأبيض لدى قيامه بعملية البحث عن العلامات الفارقة.
- يجب غسل المعاطف بصورة مستمرة وفي فترات متقاربة جداً.
- يجب الحرص على نظافة أجهزة تحديد العلامات الفارقة.
- يجب العناية بنظافة الأماكن التي تتم فيها عملية البحث عن هذه العلامات وتحديدها(13) .

تبين لنا هذه الوثيقة مدى احتقار وامتهان الإيطاليين للمنفيين الليبيين، ومعاملتهم لهم وكأنهم حيوانات جرباء تصيب كل من يقترب منها أو يلمسها بالعدوى ، كل ذلك يهدف إلى تحطيم معنوياتهم وامتهانهم ، ووضعهم في ظروف غير إنسانية لا لشيء إلا أنهم حاربوا الإيطاليين دفاعاً عن الأرض والعرض والكرامة.

كان من سوء معاملة المنفيين في سجن: (أوستيكا) هناك وثيقة أخرى أكثر تفصيلاً نشرتها جريدة "اورا" في عددها : (314) بتاريخ 1911.11.10م وهي عبارة عن عريضة تقدم بها سكان الجزيرة إلى نائبهم في البرلمان يصفون فيها سوء أحوال الجزيرة بسبب حشر المنفيين

في أماكن ضيقة ومخازن خالية من أبسط الضروريات الصحية وقد وصفوها بأنها مثل السردين في البرميل ونقتطف منها: "ليس من الإنسانية في شيء وليس مما يرتضيه الضمير الحي أو ما يتفق وأبسط المبادئ الصحية حشر ألف شخص جدد وهم في حالة رثة ومصابون بأمراض سارية وعزلهم في مكان لا يتسع إلى ثلث هذا العدد من الأشخاص"[(14)].

إن أقسى الذكريات التي يحتفظ بها المنفيون في سجون الجزر الإيطالية هي تلك الأوضاع المأساوية التي يعيشونها فيها .

فهذا أحد المنفيين الذين عاشوا الحدث المنفي : سليمان خزام القلعة يروي قصة معاناته بقوله: "إن الإيطاليين قد أنزلونا في البحر في جزيرة: (أوستيكا) وبدأنا نعمل معهم هناك في ظروف سيئة للغاية وكنا ننام على الأرض، وقد توفى منا خلال الأربعين يوماً الأولى مائة وخمسون شخصاً"[(15)].

ويحدثنا المنفي : عياد بركة يوسف عن الإقامة والمعاملة في سجون الجزر الإيطالية بقوله: "لقد تم وضعنا في إسطبل للحيوانات وأقمنا فيه مدة سنة كاملة، وقد ضربنا بالسياط وقد تم تقسيمنا إلى مجموعات وكل مجموعة تحتوي على خمسة وعشرين شخصاً وقد عين لكل مائة من الليبيين رئيس إيطالي"[(16)] .

ومن المؤكد أن المعاناة التي تعرض لها المنفيون الليبيون داخل تلك العنابر والإسطبلات قد أودت بحياة الكثير منهم نتيجة انتشار الأوبئة والأمراض فيما بينهم في تلك الزنزانات الضيقة والغير صحية .

وكذلك تبين الوثيقة رقم : (27) بخصوص السجان: (كاطلاتو امبرتو) الذي كان يرهب المنفيين بسجن: (بونسا) ويهددهم مما اضطرهم إلى التقدم بشكوى ضده بتاريخ: 25 يونيو 1914م حيث ذكروا فيها أن مجموعة من الإساءات القاسية التي تحملوها من قبل كاطالانو لدرجة أنه لم يتورع عن سب الجلالة أمامهم"[(17)].

وكان المنفيون في سجون الجزر الايطالية - دون شك - طيلة فترة نفيهم يواجهون حياة أشد إيلاماً، إذ كانوا يعيشون الغربة والحرمان والقهر والمعاناة وقد بينت العديد من الوثائق مدى قسوة ووحشية الأساليب الاستعمارية التي مارسها الإيطاليون ضد المنفيين، كل ذلك يهدف إلى تحطيم معنوياتهم ووضعهم في ظروف تفوق قسوتها احتمال البشر من حيث المعاملة والأكل والإقامة، لا لشيء إلا لأن السلطات الإيطالية أرادت لهم ذلك سعياً وراء هدفها المنشود الذي تسعى إليه والمتمثل في إفراغ البلاد من سكانها عن طريق القتل

والتهجير والاعتقال والنفي، الأمر الذي يتيح لهم الفرصة في استقدام المواطنين الايطاليين وتشجعهم للهجرة إلى ليبيا ومنحهم الأراضي والقروض لتظل ليبيا أرضاً إيطالية.

ونكتفي بهذه الأمثلة التي أوردناها لتوضيح البعد الذي اتخذته سياسة النفي التي قام بها الإيطاليون ضد أبناء الشعب الليبي لاسيما فترة الدراسة من العام 1911 وحتى 1918م.

الخاتمة

لا يزال البحث عن حقائق تاريخ ليبيا فترة الاستعمار الإيطالي في بداية طريقه، ومن أجل بناء هذا التاريخ لا بد من الرجوع إلى الوثائق الإرشيفية الموجودة بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ومراكز البحوث الإيطالية، ويعد هذا البحث محاولة لتناول جانب من جوانب تاريخ ليبيا اعتماداً على إرشيف المنفيين المكون أساساً من مجموعات كبيرة من الوثائق الإيطالية المترجمة والمنشورة عن مركز المحفوظات التاريخية بطرابلس.

يعد موضوع النفي الذي قامت به سلطات روما ضد المواطنين الليبيين قضاء من قضاءات ممارسة العنف، فالنفي أداة جريمة، نلمس ذلك من خلال الشبكة الهائلة من المنافي الإيطالية التي تم فيها نفي أبناء الشعب الليبي لا لشيء إلا لأنهم دافعوا عن أرضهم وأعراضهم وقاوموا الاستعمار والتي لا تزال أسماؤها منبعاً للألم والرعب والخوف لأعداد كبيرة من المجاهدين وأبنائهم وأحفادهم.

لقد ارتأينا بعد دراستنا لموضوع سياسة النفي الإيطالية تجاه الليبيين خلال الحرب العالمية الأولى بمجموعة من الاستنتاجات من بينها:

1. نجد أن فتر ة الاحتلال الإيطالي لليبيا امتازت بمجموعة من السياسات والقوانين التعسفية، لعل من أبرزها النفي.
2. أن مجزرة المنشية 23-24-25 أكتوبر 1911م محطة حاسمة في تاريخ الاحتلال الايطالي، وتعد نقطة رئيسية ممهدة للتحضير لعمليات النفي إلى سجون الجزر الإيطالية.
3. أن اندلاع المعارك والمقاومة ضد الاستعمار الإيطالي منذ البدايات الأولى للاحتلال كان بمثابة الصدمة على السلطات الإيطالية ، والعكس صحيح لدى أبناء الشعب الليبي.
4. أن إيطاليا استخدمت جميع السياسات للقضاء على حركة الجهاد والمقاومة، حيث نجدها تفننت في تنويع هذه السياسات لعل أبرزها عمليات النفي إلى سجون الجزر الايطالية.

5. أن إيطاليا اعتمدت على سياسة النفي ؛ لأضعاف وإنهاك حركة المقاومة؛ لأنها كانت ترى أن المجاهدين من أبناء الشعب الليبي سيصيبهم الخوف والدعر من جراء عمليات النفي.
6. أن الشعب الليبي بمختلف شرائحه، عانى من تأثيرات سياسة النفي إلى سجون الجزر الإيطالية ، إلا أن ذلك لم يحد من عزيمتهم ولم يجعلهم يتخلون عن الجهاد والاستمرار في قتال الإيطاليين.
7. أن إيطاليا باستخدامها سياسة النفي ضد الليبيين لم تفرق بين شرائح الشعب من حيث الجنس والعمر بل شملت الجميع تحت آلتها الإجرامية.
8. أن سياسة النفي التي استخدمتها السلطات الإيطالية لم تحقق هدفها الرامي إلى الحد من عمليات المقاومة وخوض المعارك ، بل زادت واستمرت في كل شبر من الأراضي الليبية.
9. ازدياد استخدام سياسة النفي لاسيما بعد هزيمتها في المعارك الكبرى مثل : الهاني ، وشارع الشط 1911م، ومعركة القرضابية 1915م.

الهوامش:

1. سورة الحج ، الآية : 4 .
2. محمد عبد السلام الجفائري وآخرون ، المنفيون الليبيون إلى سجون الجزر الإيطالية ، وثيقة رقم :"1" . منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، 1991 ، ص32 وهي عبارة عن برقية مرسلة من رئيس الوزراء الإيطالي جوفاني جوليتي إلى الجنرال كانيفيا بطرابلس ، بتاريخ 1911.10.24 م بشأن إمكانية ترتيب أماكن لأي عدد من الليبيين في جزر تراميني ، فافينيانا ، أوستيكا ، فيتوتيني ، وغيرها حتى ولو كان عددهم عشرات الآلاف ، وقد جاءت هذه البرقية المستعجلة عن طريق الشركة الشرقية المحدودة للمواصلات البرقية-محطة طرابلس- رقم 106 واردة من روما، وقد جاءت كردة فعل مباشرة لظروف المعارك الأولى ومواقف المقاومة التي أبداها المجاهدون الليبيون ضد القوات الإيطالية الغازية في جميع المدن التي تمت فيها عمليات الإنزال والاحتلال.
3. نصر الدين البشير العربي ، المنفيون الليبيون إلى سجون الجزر الإيطالية ، سجن تراميتي أنموذجاً، مجلة فكر وإبداع ، مكتبة بورصة للكتب للنشر والتوزيع ، القاهرة ، أغسطس 2013 ، ص513-514.
4. تؤكد وثيقة إيطالية مؤرخة بتاريخ : 1912.11.11م صحة ذلك والتي تذكر: ((وليكن معلوما لدى كل من لم يخضع حالاً للدولة الإيطالية أنه يعتبر عاصياً على نظمها تصادر أملاكه وأمواله ويحكم عليه بالإعدام والقتل)) وللمزيد انظر: ملف الأملاك المصادرة ، الوثيقة رقم "19" قسم الوثائق، مكتبة

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، الوثيقة تتألف من ورقتين بعنوان : "إخطار من جانب ولاية طرابلس الغرب الجليلة" الورقة الثانية .

5. نذكر هنا عمليات الإبادة التي قامت بها القوات الإيطالية بمدينة طرابلس وبالتحديد في منطقة المنشية يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من أكتوبر 1911م ، حيث قامت بقتل ما يقارب من أربعة الآف مواطن من مختلف الأعمار ، وقبضت على عدد آخر وزجت بهم في المعتقلات تمهيداً لنفيهم إلى سجون الجزر الإيطالية بعد أن ضاقت بهم السجون ، للمزيد انظر : خلفية محمد التليسي ، معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911-1931 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، 1983م ، ص3 .

6. وثيقة رقم "37" موجودة بملف المنفيين ، بشعبة الوثائق والمخطوطات ، د.ت ، بها مواقع التي تم فيها استخدام المساجين الليبيين في المدن الإيطالية وأعدادهم .

7. محمد عبد السلام الجفائري وآخرون ، وثيقة رقم "45" مصدر سابق ، ص4 ، وهي عبارة عن مذكرة من عميد بلدية فافينانا يلح فيها على ضرورة استخدام عدد من المنفيين الليبيين لحصاد محصول الشعير خوفاً من تلفه رقم الوثيقة 5.7.104005 مرسلة بتاريخ 7 يونيو 1918م دون توقيع ، ولدينا مجموعة من الوثائق التي وجدناها في الإرشيف السياسي الإيطالي المحفوظة بشعبة الوثائق والمخطوطات التاريخية بطرابلس والتي نذكر منها على سبيل المثال لا للحصر : وثيقة رقم "38" بتاريخ 1916.1.13م الوثيقة رقم "88" بتاريخ 1918.6.7م ، وثيقة رقم "11" دون تاريخ ، الوثيقة رقم "112" دون تاريخ .

8. نصر الدين البشير العربي ، عمليات النفي وأثرها على حركة الجهاد الليبي 1911 – 1943 دراسة تاريخية ، منشورات جامعة المرقب ، 2016م ، ص73 .

9. رومانو رينيرو ، الجوانب المجهولة عن المقاومة الليبية ، الليبيون المرحلون إلى إيطاليا ، مجلة البحوث التاريخية ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، العدد الثاني ، يونيو 1985م ، ص101-102 .

10. عبد السلام الجفائري وآخرون ، مصدر سابق ص253-572 ، وكذلك الوثائق الإيطالية المجموعة الثامنة ، ترجمة شمس الدين عرابي ، وخالد زكي التابت ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، 1991 ، ص35 ، وكذلك الوثائق الإيطالية المجموعة الخامسة عشر المنفيون الليبيون القرضابية 1915-1918 ، ترجمة خالد زكي ثابت ، إعداد علي عمر الهازل ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس 1992م وثيقة رقم "89" ، ص89 ، وكذلك عبد الله على إبراهيم ، أوضاع المنفيين في بونسا من خلال الوثائق الإيطالية ، الندوة الثالثة ، 2002.10.31.30م ، النفي إلى جزيرة بونسا ، ص90 ، وكذلك جان فرنسيسكو لورتما ، مستعمرة غاييطا ، المنفيون إلى إيطاليا خلال فترة الاستعمار الإيطالي ، الندوة الثالثة ، ص239 .

11. أود أن أشير هنا إلى أن هذه الأعداد من المنفيين لم يتم تسجيلهم أو منحهم مستندات تثبت هويتهم ؛ لأن عمليات التسجيل كانت تتم بعد وصولهم إلى سجون الجزر الإيطالية ، فهناك الكثير ممن توفى على

متن السفن الإيطالية في الطريق إلى إيطاليا ، وكان يتم رمي جثتهم في البحر ، وبالتالي= =يصعب التكهن بأعدادهم وأعمارهم وأجناسهم ، وأن المعلومات المتوفرة حتى الآن غير كاملة ، وربما تكون أكثر هذه الأعداد الواردة في الوثائق الإيطالية .

12. ماركو موزاتي ، قضية المنفيين الليبين في الصحافة الإيطالية ، الندوة الثالثة 2002.10.31.30م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ص189.
13. عبد السلام الجفائري وآخرون، مصدر سابق ، وثيقة رقم: 25 وهي عبارة عن تعليمات وقواعد عامة أصدرتها السلطات الإيطالية بشأن معاملة المنفيين الليبيين بالسجون الإيطالية ، ص134-136.
14. عبدالسلام الجفائري وآخرون ، مصدر سابق، وثيقة رقم "7"، عريضة مقدمة من سكان جزيرة أوستيكا إلى نائبهم في البرلمان بتاريخ : 1911.11.10م ، ص51-54.
15. علي الزواوي وآخرون ، موسوعة روايات الجهاد ، سلسلة الروايات الشفوية رقم "7" منطقة البحث رقم "2"، رقم الشريط : 2/20 ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، 1991م ، ص15.
16. علي الزواوي وآخرون ، موسوعة روايات الجهاد ، مصدر سابق ، مقابلة أجراها الباحث: خليفة محمد الدويبي، رجب أنصير ، ص64.
17. عبد السلام الجفائري وآخرون ، مصدر سابق ، وثيقة رقم 27 ، ص148.

الكاتب: د.ة/ خيرة سياب
جامعة طاهري محمد/ بشار

عنوان المقال: **مظاهر بعض معاملات أوقاف المياه ببلاد المغرب الإسلامي من خلال النوازل الفقهية.**

البريد الالكتروني: **siab.noria@yahoo.com**

تاريخ الارسال: 2019/01/27 **تاريخ القبول**: 2019/2/22 **تاريخ النشر**:2019/03/28

بعض معاملات أوقاف المياه ببلاد المغرب الإسلامي
من خلال النوازل الفقهية

الملخص بالعربية:

يمثل الوقف مصدرا مهما للجهات المنتفعة به، ويتمثل (الوقف) عادة في بذل الخير تحت تأثير الوازع الديني الذي يشير إلى أهمية التضامن بين أفراد المجتمع ،وتبرز مظاهر الوقف في تلك الآثار المترتبة عنه ، ومن بين أهم الأوقاف التي حملت قضاياها كتب النوازل من خلال نصوص كثيرة ومتنوعة ، نذكر أوقاف المياه، وعليه تحاول هذه الورقة أن تنوّه من خلال بعض مسائل هذا النوع من الوقف إلى قيمة النصوص وكثافتها في كتب النوازل، والتي جاءت تتحدّث عن منظومة متكاملة فيما يخص المسائل المائية وقيمة التشارك الاجتماعي فيها، ما أدّى إلى استعانة أصحابها من الواقفين والمنتفعين بالمفتين في فظ نزاعاتهم حولها، وذلك وفق منهج تاريخي استقرائي بغية توجيه البحث في تراثنا المتمثل في كتب النوازل التي لا تزال نصوصها خصبة في مثل هذه المجال وغيره.

كلمات مفتاحية: الوقف-المياه-المغرب الإسلامي-التضامن-المجتمع.

Abstract :

The Waqf is an important source for the beneficiaries. It is the act of a good deed under the influence of religious reason, which indicates the importance of solidarity among members of society. The manifestations of the Waqf aspects are

stand out in its consequences, among the most important endowments that carried out the issues of Books of Vices through many texts and variety, the Waqfs of water. Thus, this paper attempts to note, through some of the issues of this type of waqf, the value and intensity of the texts in the Book of Vices, which talked about an integrated system dealing with water issues and social partnership. This led their owners of the standing and beneficiaries to seek help from the Moftin in their rude dispute around, by following an inductive historical approach to guide the research of our heritage of books of vices, which are still fertile texts in this and other fields. The Waqf is an important source for the beneficiaries. It is the act of a good deed under the influence of religious reason, which indicates the importance of solidarity among members of society. The manifestations of the Waqf aspects are stand out in its consequences, among the most important endowments that carried out the issues of Books of Vices through many texts and variety, the Waqfs of water. Thus, this paper attempts to note, through some of the issues of this type of waqf, the value and intensity of the texts in the Book of Vices, which talked about an integrated system dealing with water issues and social partnership. This led their owners of the standing and beneficiaries to seek help from the Moftin in their rude dispute around, by following an inductive historical approach to guide the research of our heritage of books of vices, which are still fertile texts in this and other fields.

Key Words: Waqf - Water – Islamic- Maghreb-Solidarity- Society.

تمهيد:

إنّ موضوع الوقف[1] ليس موضوعا جديدا إنما تعود جذوره إلى ما قبل الإسلام ، فقد عرفته أمم الأرض لما يترتب على وجوده من تبادل للمنفعة العامة بين أفراد المجتمعات، إلاّ أنه قد يكون أخذ ألفاظا مختلفة ولا شك أن العرب كان لهم فيه سهم قبل ظهور

الإسلام لأدلّ على ذلك بناء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة قبل الإسلام حيث مثل هذا المسعى الإبراهيمي رمزا لبادرة بذل الخير وتوجيه الفكر الإنساني إلى قيمة ما يبذل للصالح العام و ما ينشر من خير بين الناس ليعم الأمن وتنشر السكينة بين أفراد المجتمعات وقد نوّه القرآن الكريم بهذا العمل من خلال قوله تعالى في محكم تنزيله: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإسماعيل رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[2]، وقد أوقفنا السيوطي بأبيات شعرية تجعل العمل الخيري المتمثل في وقف المال والعلم للانتفاع العام ما يدفع إلى تكاتف المجتمعات الذي يجب أن يستمر في هذه الدنيا وذلك لاستحالة انقطاع المحتاجين لهذه الأوقاف بفعل استمرار الأسباب المؤدية له سواء كانت طبيعية أو بشرية أو صحية ..الخ، حين قال[3]:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ... عليه من فعال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي ... إليه أو بناء محل ذكر
وتعليم لقرآن كريم ... فخذها من أحاديث بحصر.

لقد اتسعت أعمال الوقف ببلاد الإسلام لتشمل كافة المنافع التي من شأنها خلق التوازن في المجتمعات وإرساء ثقافة حق المحتاج بكافة صور هذا الاحتياج لتشمل الإنسان والحيوان فتوفر لكلاهما كثير من مرافق الأوقاف، حتى كان للوقف المائي ضرورة لما يترتب على نقصه من مضار عامة، ومن ذلك القول إن الوقف الذي أقره الشرع يحقق الكثير من المصالح الدينية والدنياوية، ووردت أمثلة ليست بالقليلة في كتب النوازل تدلل على كيفية التعامل مع الأوقاف المتعلقة بالمياه والمنشئات التابعة لها، والتي سنقف على بعضها فيما يلي:

البئر الموقوفة:

سئل بعض فقهاء المغرب " عن مسافرين سافروا فسبق أحدهم إلى الماء فيأخذ بئرا من الآبار يتسابق الناس عليها، هل تكون البئر لمن سبق عامة الناس".؟[4] ، وكانت الإجابة كما يلي: " إذا كانت الآبار قد هيئت في هذه الأحباس الذي يديم بقاءها وحولها من المياه ما يظهره البحث القريب كما يصنع في سائر الأحباس لم يقصد من هيأ هذه المصانع (الآبار) إلا رفق من يضعف عن البحث، فكيف يسارع إليها أهل الطاقة فيستبدّون ويتركون ضعفاء الناس إلى البحث هذا مما لا يجب، وإذا كان ليس في الموضع ما يبحث وليست إلا هذه الآبار وبناؤها قليل فوجه الصواب فيها أن لا تمس حتى يصل الناس فيتساوون في مائها بشرب أنفسهم.

وقد استفاد أهل الفتوى في هذه النازلة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لمن وصل إليها " وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عابر السبيل الحق أولا في الشرب من الآبار الخاصة، وذلك استثناء لأحكام الحريم الخاص بالبئر[5].

لقد تنوعت نوازل مياه الأوقاف تنوع الحاجة الاجتماعية لسكان بلاد المغرب الإسلامي، مما يفيد بضرورة إعادة ربط حاضرنا بماضينا بما يخدم التنمية المستدامة من خلال العدالة في توزيع الثروة المائية انطلاقا من مختلف مصادر هذه الثروة.

حق أهل الذمّة في استئجار الماء الموقوف لصالح المساجد:

من بين النوازل التي طرحت على فقهاء البلاد المغربية نازلة حول هل من[6] حق أهل الذمّة في استئجار[7] الماء الموقوف لصالح المساجد، والمسألة هي أن المسجد كان مجاورا لدرب اليهود فطلبوا من الناظر أن يجزي لهم الماء فيخرج من المسجد لدورهم بعد حفر آبار بصفة مقدار خمسة قواديس. . . فهل يجوز هذا؟ فكانت الإجابة على التالي: -أما استئجار الماء المذكور فيجوز لكن بشروط منها:

أ) ألا يشكل ضرر على حيطان المسجد.

ب) أن يكون في الماء الموقوف فضلة يستغني عنها المسجد.

ج) أن يكون القدر المستأجر معلوما قدره مقدرا بالقادوس، بحيث لا يؤثر هذا الاستئجار على تذبذب المياه الخاصة بالمسجد.

د) أن يثبت السداد في الثمن إلى المدة المستأجر إليها.

ه) ألا يشترط على المستأجرين الإصلاح كلما احتاج مصدر الماء إلى ذلك إلا أن يكون بطواعية منهم وتبرع.

ويظهر من خلال جواز الاستئجار، أن ذلك إنما يدخل ضمن حقوق الماء بحق الشفعة وعلى الناس أن ينظموا حقوق الماء المشترك فيما بينهم لأنهم شركاء في حق الشفعة .

كما يبدو من جهة أخرى أن الوقف يستفيد من ثمن الكراء من دون حرج، إلا أن لذلك بعض الضوابط التي من شانها تنظيم هذه العملية حتى لا يضيع الحبس، وهو ما أشار إليه ابن القيم عند حديثه عن الحيل الجديدة في مسائل الوقف بقوله: " أن إيجار الوقف لمدّ مديدة من الحيل الباطلة قطعا والمفاسد الكبيرة جداّ فكم خرج وضاع من الأملاك الموقوفة بطول المدّة واستيلاء المستأجر فيها على الوقف، وكم أوجر الوقف دون إجارة لطول المدّة، وكم زادت أجرة الأرض أو العقار أضعاف ما كانت عليه، ولم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها"[8]، ولذلك لم تكن مياه مواجل المساجد تمنح دائما مجانا ومن دون شروط، إذ كانت تمنح لطالبيها، وتمنع عنهم حسب الظرف والحالة وطبقا لما نصّ عليه المحبّس فان لم يوجد نصّ أو وصية يقع العمل بما جرى به العرف، فإن اقتضت به العادة بيعه وضمّه إلى الحبس لضرورة عمارة المساجد كما كان سائدا في مواجل مساجد القيروان خلال العهد الحفصي فهو جائز، وهو جائز أيضا إذا اقتضت العادة إباحة شربه للشفاه دون حمله خارج المسجد [9]، وقد وقف اللخمي عند عادة تخصيص الأئمة والمؤذّنين والقائمين على خدمة المساجد بماء مواجل هذه المساجد، كما كان غالبا على مساجد تونس والقيروان خلال القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي، ودعوا إلى أن لا يكون تمييز بين الناس في هذا المجال لأنّ الأصل تعميم الانتفاع والإباحة[10].

وفي حال اكتراء الأحباس خاصة ما تعلق بالمياه بثمن مبيّن ووقت محدّد، فقد وردت بعض النصوص العملية لمثل هذه المعاملات فيما تعلّق بحبوس المياه، " تكلفنا للناظر صاحب الأحباس بثلاثة أوراق كراء جواز الماء من مصرفهم لسقي جنانها الذي حرثناه وذلك حتى نحصده. . "[11]، وقد سئل أحد مشايخ أهل المغرب في مثل هذه المسالة والمتعلقة بقضية استئجار فيض ماء الأوقاف، وهل يجوز ذلك؟ فأجاب: " استجار فيض ماء الأحباس إلى شرائه جائز نافذ لما فيه من تنمية الحبس، ولا حقّ لمن كان ينتفع به قبل ذلك في سقي أو غيره من ذلك الفيض، بل حجة له في حيازة مدّة طويلة إذ لا حيازة على حبس بل يغرمون قيمة ما انتفعوا به قبل ذلك في السقي و في غيره من ذلك الفيض إن كانت توجد له قيمة حالة انتفاع المنتفع به، لأنه أخذه بغير حق وهو ملك للحبس ولو شاء أن يستأجره ما بقي منه على وجه النظر وإن أدى ذلك إلى دثور ما غرس من الأشجار على الماء المذكور والله أعلم[12]"،حيث يبدو أن ظاهرة التعامل بمياه الحبوس كانت ضرورة لعل الحاجة إلى المياه فرضت ذلك، هذا من جهة ومن جهة ثانية، يظهر واضحا أنّ التعامل بكراء مياه الحبوس كانت لا محال تعود بالفائدة على مستحقّها، ومن جهة ثالثة فإنّ هذه المسألة يبدو أنّها كانت شائعة بين أهل المغرب الإسلامي بشكل عام.

هل يجوز الاستفادة من جب المسجد؟

هي نازلة طرحت على فقهاء بلاد المغرب فيما ورد عند الونشريسي[13] حول أحقية أهل البلدة في ماء الجب الذي بالمسجد وذلك للظروف المحيطة بالجب التالية:

-جلب الماء للجب عن طريق ساقية تمر بأرض أهل البلدة.

-لا وجود للآبار بالبلدة هذه.

-شرب أهل البلد من الساقية التي يجلب ماء الجب عن طريقها.

-مساهمة أهل البلد في تنظيف الجب عن طريق الأموال. . . . إلخ.

فجاءت إجابة المفتي:

-ماء الجب المذكور خاص بالمسجد المذكور فيستعمل فيه حبس خاصة.

-لا يجوز لأحد أن يستقي منه ليحمله إلى منزله ومن استقى بماء المسجد بذلك فعليه كراء المثل بقدر انتفاعه بها، ومن لم يغرم ذلك كان تباعه في ذمته.

-وأضاف المفتي: أن يسقط دلوا أو حبلا عليه إخراجهما وإن لم يستطع غرم ذلك، وكذلك من كسر آنية من آواني الوضوء المحبسة له فهو ضامن لقيمتها[14].

بيع الوقف وبه شرب ماء هل يباع معه:

هي إحدى المسائل التي وردت على الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن حول عرصه كانت محّبسة عن مسجد وكان للعرصة شرب من ماء. . . (حيث لم تصبح هذه العرصة صالحة للحرث أو الغرس وأريد بيع العرصة فجاء سؤال المفتي حول إمكانية بيع الماء المرافق لها لصرفه في موضع آخر؟

فأجاب الفقيه أبو عبد الله: اعتمادا في فتواه هذه على قول الإمام مالك بعدم جواز بيع الحبس كله، وذلك من خلال قوله لأحد سائليه عن نخلة حبست عليه فدثرت أترى في أن يبيعها. فقال له مالك: "أتركها حتى تلعب عليها الرمال فتستريح منها"[15].

لقد اقترنت مياه الأحباس في بلاد المغرب الإسلامي بما ينظم مواردها بين الناس، ما جعل موضوع (المياه) في هذه البلاد سواء في بلاد المغرب الأقصى أو الأدنى أو الأوسط يكتسي أهمية حضارية جديرة بإثارة البحث حولها، خاصة حينما يتعلق الأمر بقضية تشاركية بين أبناء المجتمع كما في قضية الماء، ومن بين مياه الأحباس التي وقعت فيها قضايا وطرحت على قضاة ومفتي أهل المغرب نذكر كذلك:

الصهاريج الموقوفة:

هل يتوضأ منها أو ينتفع بأي نوع من الانتفاع؟، لقد طرحت النازلة على الفقيه أبو سعيد. فأجاب: أما التطهر بماء الصهريج، فإن وقفت للشرب لم يتوضأ بمائها، وإن وقفت للانتفاع جاز الوضوء وغيره وإن شك في ذلك جاز استعمال القدر المتيقن، وينبغي أن يتجنب الوضوء للشك[16].

لقد خضع تسبيل الماء إلى مواقيت محدّدة تستمرّ غالبا إلى كامل النهار، من شروق الشمس إلى غروبها، وربما استمرّ التسبيل في بعض المدن من الغروب إلى أن تمضي حصة

من الليل يرجع السكان على إثرها إلى ديارهم وفي حين يتواصل تسبيل الماء خلال شهر رمضان من وقت الغروب إلى ما بعد صلاة التراويح، ثم من وقت التسبيح إلى الفجر[17].

كما حضي بناء السبيل بالإضافة إلى قيمته الاجتماعية، بمكانة خاصة من الناحية الروحية يشير إبراهيم حركات[18] بالقول: "يحض السبيل علاوة على قيمته الاجتماعية الكبرى على مرتبة دينية مرموقة تضعه في مرتبة إنشاء المساجد من حيث الأجر والثواب، ذلك من تلازم البعدين الاجتماعي والديني في إنشاء الأسبلة والسقايات، هو الذي دفع المتطوعين إلى أن يجمعوا في مبادراتهم بين إنشاء مسجد وإنشاء سبيل أو سقاية في الوقت ذاته"، قال الجاحظ: " وغالبا ما كان السقي عملا من أعمال البرّ لا يمارسه إلاّ الورعة "[19].

مواجل موقوفة على المساجد:

وفي ذات الموضوع سئل الشيخ أبو الحسن القابوسي، عن مواجل المساجد إذا عدم قصد المحبس كيف كان؟ فأجاب رحمه الله يعمل على غالب عادة الناس الماضية، لأنهم لم يتواطؤوا على عمل إلا وهو قصد المحبس في غالب الحال. . . أما الشرب فإنه جعله للعطشان، كان غنيا أو فقيرا. . والغالب في المواجل أنها تفتح في اشتداد الحر، ووقت احتياج الناس للماء[20].

إن الوقوف على مثل هذه الإجابة التي جاءت بناء على طرح مسائل مائية، يوقف الباحث أمام ظاهرة تنظيم المعاملات المائية تنظيما يوحي بمحاولة المجتمعات المغربية الابتعاد عما يثير النزاعات المائية بقدر المستطاع، وفي ذلك يُلمس بعدا أخلاقيا راقيا ساد بلاد المغرب في الفترة الإسلامية الوسيطة، علّنا نراجع علاقتنا بموروثنا المليء بالمواقف الإنسانية والحضارية في نفس الوقت.

مرور ساقية موقوفة لمسجد على أرض رجل:

طرحت هذه النازلة على أبو عبد الله الحفار[21] على النحو التالي: " رجل له مال تمرّ عليه ساقية إلى أرض المسجد، وله أيضا أرضا خلف المسجد المذكور، فمنعه(القائمون) على المسجد من سقي ماله، فطلبوا منه إجازة فهل له هو إجازة على المسجد على مرور الماء على أرضه(الأول)؟ ، فأجاب: إن لم تكن الساقية تسقي الأرض التي خلف المسجد

قبل هذا الوقت، وأراد إحداث هذا السقي فلهم منعه إلا أن يعطيهم ما طلبوا منه لأنه أحدث ما لم يكن، فلا يمكن من ذلك إلا بإذن منهم بأجرة أو بدونها"، وكذا سقي أرض المسجد على أرضه إن كانت أرض المسجد تسقى قديما على أرضه فلا متكلم له، لأن ذلك حق ثابت عليه، وإن لم تكن أرض المسجد تسقى على أرضه إلا بإذنه بأجرة إن شاء أو دونه "وفي هذه النازلة إشارة إلى أن سقي أراضي الخواص من مياه الأحباس لا يمكن إلا إذا فضل شيء منها، وعلى المستفيد في هذه الحال أن يشهد بذلك ومن ذلك مثال ورد في نص لوثيقة قام بدراستها أحد الباحثين[22]: ". . يشهد عبد المولى أمزل و الحسن بن عثمان أمزل أن جنان أبا حمو. . لا يسقي من نوبة جناني الأحباس في يوم السبت إلا بما فضل عن الجنانين المذكورين من الماء فان لم يفضل عنهما شيء فلا يأخذ منهما شيئا. . . عام 996هجرية"، وفي نفس السياق وقف الباحث على نص أخر مفاده ". . شهد معمر بن الغازي. . أنه كان يجري على الأحباس سنة، وما يعطي لأحد من نوبة السبت التي يسقي بها جناني الأحباس. . شيئا سوى إذا فضل على الجنانين المذكورين"[23].

شراء فيض الأحباس: سئل العبدوسي(ت849هـ)[24]: في حكم شراء فيض الأحباس، ولما فيه من تنمية الأحباس؟ فأجاب: بأنه جائز نافذ لما فيه من تنمية الحبس ولاحق لمن كان ينتفع به قبل ذلك في سقي أو غيره، ولا حجّة له في حيازته على حبس بل يغرمون قيمة ما انتفعوا به من ذلك الفيض إن كانت توجد قيمة حالة الانتفاع به، لأنه أخذ بغير حق، وهو ملك للحبس ولمن شاء أن يستأجر ما بقي منه[25].

الماء الموقوف على المدارس:

وعن ماء المدرسة-والمقصود بها المدارس القرآنية والكتاتيب-فقد سئل ابن عرفة عن استعمال مائها من عدمه؟، فأجاب: إن كان من جنس أهلها جاز له ذلك، لأن الحبس(الوقف) لأهل ذلك الصنف، وهو غير معين، فمتى وجد ذلك الصنف جرى حكمه على ما صح لأهلها وإن كان من غير أهل الحبس فلا يجوز له ذلك.

لقد وضع الفقهاء عديداً من قواعد تنظيم عملية تخصيص استعمال المياه الموقوفة، آخذين في الاعتبار شروط الواقف من جهة، وتحقيق منفعة المستخدمين للمياه من جهة

أخرى، فمثلاً: إذا شرط الواقف أن تكون مياه البئر التي وقفها لشرب الإنسان وسقى الحيوان، فلا يجوز الوضوء منها، وخاصة إذا كانت مياه البئر قليلة وفى منطقة قاحلة وإذا شرط الواقف أن تكون المياه لمسجد أو لمدرسة أو لمشفى أو تكية، فلا يجوز الأخذ من تلك المياه لغسيل الملابس أو لنظافة المنزل، أو لسقي الحديقة.[26]

وخلاصة القول يمكن إجمالها فيما يلي:

أ_ إذا كان الموقوف عبارة عن مصدر مائي (بئر، أو عين مثلاً) والهدف منه هو الإنفاق من ريعه على أعمال ومؤسسات ومنافع أخرى، فإن مياه الوقف في هذه الحالة تخضع بالكامل للنظام المعمول به في الأحوال العادية من بيع وشراء، ويكون لها سعر مساوٍ للمياه المعروضة في السوق سواء بسواء، والقاعدة العامة الواجب تطبيقها في المعاملات الوقفية هي أنه لا يجوز تأجير أعيان الوقف أو بيع منتجاته بأقل من سعر السوق، وإنه يفتى دوماً بما فيه مصلحة الوقف، والأنفع لجهته، والأندر لخيره.

ب-إذا كان الموقوف عبارة عن مصدر مائي، وكان هدف الواقف هو توفير المياه للإنسان أو للحيوان أو لري الأرض دون مقابل، فإن المياه الموقوفة لا تخضع لأسعار السوق، بل تقدم مجاناً حسب شرط الواقف، ويتكفل الوقف ذاته بتحمل نفقات تقديمها على الوجه الذي أراده صاحب الوقف.

ج . المياه اللازمة لري الأراضي الزراعية الموقوفة، وهذه المياه يتحمل الوقف الزراعي تكلفتها.

د-المياه التي تلزم لمؤسسات الأوقاف من (مدارس، ومساجد، ومنازل، ومستشفيات... إلخ) يجري احتساب ثمنها باعتباره جزءًا من مصروفات هذه المؤسسات، وتتكفل بدفعها موارد الوقف التي تمول تلك المؤسسات، وانطبق ذلك على بعض أسبلة المياه التي كانت ملحقة بمؤسسات وقفية أخرى، أو كانت مستقلة عنها ولكنها تقدم خدماتها المائية للمترددين عليها.

الخلاصة:

في ضوء ما سبق، يمكن القول إن خبرة نظام الوقف المائي تكشف عن أن قطاع الوقف هو طرف في توفير بعض مصادر المياه، أو توفير خدمة المياه ذاتها، وأن هذا القطاع طرف في إدارة جانب من الموارد المائية لازمة لاستعمال الإنسان والحيوان والري[27].

وبالرغم من أن أغلب تقاليد إدارة المياه في نظام الوقف قد ولّت وتراجعت إلى حد ما نظرا لأسباب متعددة، فإنها تضمنت جوانب عدة ساعدت عل بقائها، ومن أهم هذه الجوانب الآتي:

أ_ عمق المحتوى الإنساني والبيئي الذي حملته الاحكام الشرعية الخاصة بتنظيم العملية المائية.

ب_ يقدم تراث الوقف المائي الكثير من التنظيمات المرتبطة بتنظيم المياه، وكيفية الحصول عليها وماهية طرق لانتفاع بها، وذلك راجع في مجمله للوازع الديني للأفراد الممارسين للقضايا المائية بشكل يومي وعليه فإنّ الوقوف على مثل هذه الإجابة التي جاءت بناء على طرح مسائل مائية، يجعل الباحث أمام ظاهرة تنظيم المعاملات المائية تنظيما يوحي بمحاولة المجتمعات المغربية الابتعاد عما يثير النزاعات المائية بقدر المستطاع، وفي ذلك يُلمس بعدا أخلاقيا راقيا ساد بلاد المغرب في الفترة الإسلامية الوسيطة، علّنا نراجع علاقتنا بموروثنا المليء بالمواقف الإنسانية والحضارية في نفس الوقت.

هوامش البحث:

---

[1]-"الوقف حَبْسٌ لمالٍ؛ مؤبّداً أو مؤقّتاً، عن كلِّ أنواع التصرّف الشخصي من بيع أو هبةٍ أو غيرها، للانتفاع به أو بثمرته في جهات من البرّ العامّة أو الخاصّة، على مقتضى شروط الواقفِ، وفي حدود أحكام الشريعة". د. قحف، منذر، الوقف الإسلامي، تطوّره، إدارته، تنميته، دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1421 هـ / 2000م ص154.

[2] -سورة البقرة، آية 127.

[3] -نور حسن محمد القنوجي، فتح العلامة لشرح بلوغ المرام، ت. أبو عبد الرحمان صلاح دار الكتب العلمية، بيروت، 1336هـ.ج2.ص 130

[4] -الونشريسي أبو العباس التلمساني ت914هـ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.ج7.ص32

[5] -سيد وقار أحمد حسيني/الفكر الإسلامي لتطوير مصادر المياه والطاقة/تقديم محمود عكام /ترجمة سمية زكريا زيتوني/نشر دار الدراسات والترجمة. ص176.

[6] -الونشريسي، م. س، ج7، ص52.

[7] -ينظر تفاصيل هذه المسألة، في نفس المصدر. ص53.

[8] -مجلة الإيمان، العدد 7، السنة الثانية، ص 54.

[9] -البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، المعروف بفتاوى البرزلي، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب، جزء 1، ض 205 وكذا جزء 2 / 409.

[10] -البرزلي، نفس المصدر، جزء 1 /ص206. وكذا جزء 5/ ص 408_409.

[11] -مصطفى بنعلة، مقال تحت عنوان "سجلات الأملاك المحبّسة مصدرا لتاريخ الماء بالمغرب، نموذج حول تادورانت في العصر السعدي، سلسلة عين الشق ص 73.

[12] -ينظر الونشريسي ، مصدر سابق، الجزء 8 ، ص292.

[13] -ينظر الونشريسي، م. س، ج7، ص55.

[14] -ينظر الونشريسي ، م. س،ج7،ص56.

[15] -ينظر في ذلك الونشريسي، م. س، ج7، ص88.

[16] -الونشريسي، م. س، ج7، ص99.

[17] -عبد المنعم الشامي، جغرافية المدن عند العرب، مجلة عالم الفكر، المجلد 9، العدد 1 أفريل، مايو 1978م، ص117.

[18] -حركات (إبراهيم)، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط حتى القرن 9هجري، الدار البيضاء، 1996م.ص217.

[19]-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت 1988 م.ج 4/ ص 434.

[20]-الونشريسي،م. س،ج7،ص340.

[21]-الونشريسي، م. س،ج7،ص340.

[22]-د. مصطفى بنعلة،م. س، ص 71.

[23]-حول تادورانت ، مقال للدكتور مصطفى بن نعلة، م س ص 71.

[24]- **عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي**، من خيرة علماء فاس في عهد الدولة الوطاسية، له مؤلفات منها: أجوبة فقهية، أجاب بها عن أسئلة رفعها إليه القاضي محمد بن خليفة الصنهاجي، وكانت وفاته في ذي الحجة عام 849هـ. **ينظر**: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين،2002. ج 4 ص 127. ومحمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد *الحجوي*(المتوفى: 1376هـ)/ *الفكر السامي* في تاريخ الفقه الإسلامي/ دار الكتب العلمية- بيروت/*الطبعة*: الأولى - 1416هـ- 1995م، ج 2 ص.

[25]-الونشريسي،م. س،ج7،ص275.

[26]-حول قواعد استخدام المياه الموقوفة انظر: عبد الرؤوف المناوي الشافعي، كتاب تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف، تحقيق: مركز البحوث والدراسات بمكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة، والرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، 1998) ج1، ص275-872.

[27]-لمعرفة نبذة عن أوقاف عيون الماء في الجزائر انظر مثلاً: عبد الجليل التميمي، وثيقة أحباس الجامع الأعظم. المجلة التاريخية المغاربية، العدد 7، 1992، ص42-75، حيث تظهر الوثيقة المذكورة أن من بين وقفيات الجامع عشر عيون مياه، وعشر بحيرات. أما في المغرب أنظر مثلاً: أولاد علي عبد السلام، و الغلبزوري بدر الدين، الدور الاقتصادي والاجتماعي لأحباس مدينة تطوان كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، 1994) ص17، حيث يحلل تاريخ شبكة مياه الأوقاف التي كانت تزود مدينة تطوان معتمدة على عيون بسفح "جبل دراسة عبر قنوات من الفخار إلى المساجد، وباقي المؤسسات". وتسمى هذه المياه حالياً باسم "مياه السكوندو".

الكاتب: أ/ وفاء المصمودي
جامعة محمد الخامس/ الرباط/ المغرب

عنوان المقال: ميكيل دي ثربانتس والصراع الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر

البريد الالكتروني: m2ouafaa@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/01/07 تاريخ القبول: 2019/02/21 تاريخ النشر: 2019/03/28

ميكيل دي ثربانتس والصراع الإسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر

Miguel de Cervantes and the Islamic-Christian struggle in the Mediterranean during the XVIth century

الملخص بالعربية:

عاصر الأديب ميكيل دي ثربانتس الصراع القائم بين المسيحية والإسلام خلال القرن السادس عشر، وشارك في مجموعة من المعارك بين الطرفين، كما تعرض للأسر من طرف قراصنة مدينة الجزائر. وقد خلد هذا الأديب مشاركته في هذا الصراع في كتاباته خاصة رواية "الدون كيخوته" الذي تمكن من خلاله من نقل فصول من كل من معركة ليبانتو ومعركة حلق الوادي، كما صور حياة الأسرى المسيحيين ومعاناتهم، وما ارتبط بذلك من استنزاف للقوة البشرية والمالية للبلدان الأوروبية..

كلمات مفتاحية: ميكيل دي ثربانتس، الدون كيخوته، ليبانتو، القرصنة، الأسر، العلوج، الفدية، تنظيم الثالوث المقدس.

Abstract :

The writer Miguel de Cervantes witnessed the conflict between Christianity and Islam during the sixteenth century, from his participation in a serie of battles between the two sides, and from his experience as a captive in Algier. This writer immortalized this conflict in his writings, especially the novel “Don Quichotte”, in

which he recorded both the Battle of Lepanto and the Battle of the Gouletta events, as well as the lives of the Christian captives and their suffering, and the associated depletion of the human and financial strength of the Europe.

Key Words: Miguel de Cervantes, Don Quichotte, Lepanto, Piracy, Captivity, Renegades, Ransom, The Order of the Most Holy Trinity.

شكلت بداية القرن السادس عشر منعطفا تاريخيا بالنسبة للبلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ففيما يتعلق بالضفة الشمالية لهذا البحر، فقد عاشت فيه إسبانيا أزهى فترات تاريخها بعد نجاح الملكين إيزابيلا القشتالية Isabella de Castilla وفردناندو الأركوني Fernando de Aragon من توحيد إسبانيا وطرد المسلمين من غرناطة، وهو الأمر الذي تزامن مع انطلاق المغامرة البحرية التي أفضت إلى اكتشاف العالم الجديد وتدفق المعادن النفيسة على هذا البلد مما مكن الملوك الإسبان من بسط نفوذهم على بعض المراكز في شمال إفريقيا وتكوين إمبراطورية على عهد كل من الملكين شارلكان Charles-Quint وفيليب الثاني Fillipe II ، وقد تزامن هذا الامتداد السياسي والاقتصادي الذي عرفته إسبانيا مع بروز قوة إسلامية انطلقت من شبه جزيرة الأنضول لتكون هي أيضا إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت على كل من شبه جزيرة الأنضول وشبه جزيرة البلقان والمشرق العربي واستطاعت أن تبسط نفوذها على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط إلى حدود الجزائر، ويتعلق الأمر بالقوة العثمانية. مما أدى إلى التقاء حدود الامبراطوريتين العثمانية والإسبانية على ضفتي هذا البحر وتصادم مصالحهما، الأمر الذي أفضي إلى صراع طويل استمر طيلة القرن السادس عشر[1].

خلال نفس القرن، وعلى الأرض الإسبانية، وبالضبط بقلعة هيناريس Henares في قشتالة، ولدت يوم 9 أكتوبر 1547 شخصية ساهمت في

إرساء النهضة الفكرية والأدبية في إسبانيا خصوصا وفي أوروبا عموما، وهي شخصية الأديب ميكيل دي ثربانتس سابيدرا Miguel de Cervantes Saavedra، مؤسس المسرح الإسباني ومبدع رواية "الدون كيخوتي دي لامانشا[2] El Ingeniso Hidalgo Don Quijote de la Mancha".

لم يعش الأديب ميكيل دي ثربانتس بمنأى عن الرهانات السياسية والاقتصادية والعسكرية المشبعة بالتعصب الديني التي كانت تعرفها المنطقة، والتي أفضى إليها الصراع القائم بين الكيانات الكبرى المطلة على البحر الأبيض المتوسط[3]، بل انخرط في هذا الصراع نظرا لكونه عمل جنديا ضمن الحلف المسيحي وشارك في مجموعة من المعارك دارت بين الإسبان والعثمانيين، كما أنه قضى خمس سنوات في الجزائر بعد أن أسره قراصنة هذه المدينة. وقد ظهرت أصداء تجاربه هاته في مجموعة من مؤلفاته مثل مسرحية "سجون الجزائر" "Los banos de Argel" ومسرحية "الحياة في الجزائر" "Los trados de Argel" بالإضافة إلى أنه خصص ثلاثة فصول من روايته العالمية "دون كيخوتي دي لامانشا" لمذكرات أسير إسباني لدى العثمانيين في الجزائر.

سيحاول هذا المقال إبراز بعض مظاهر الصراع الإسلامي المسيحي خلال القرن السادس عشر، من خلال إلقاء الضوء على الشهادات التي قدمها هذا الأديب من خلال التجارب التي خاضها سواء فيما يتعلق بمشاركته كجندي في مجموعة من المعارك التي دارت بين الطرفين الإسباني والعثماني في البحر الأبيض المتوسط أو كأسير في الجزائر.

ثربانتس الجندي

ظهر الأديب ثربانتس على مسرح الأحداث بالبحر الأبيض المتوسط سنة 1569 عندما قرر اختيار حياة الجندية والالتحاق بالجيش الإسباني الذي كان

يسيطر على جزء من إيطاليا، ويعمل انطلاقا منها على إيقاف الضربات العثمانية المتكررة التي كانت تستهدف روما والمسيحية جمعاء[4]، فقد شارك هذا الأديب في معركة ليبانتو سنة 1571، وفي الحملة الإسبانية على قلعة نافارين سنة 1572، كما شارك في الحملة البحرية الإسبانية على تونس سنة 1573، والتي استطاع الإسبان خلالها السيطرة على حصن "حلق الوادي".[5]

وقد قدم ثربانتس شهادته حول معركة ليبانتو في مؤلفه الدون كيخوتي على الشكل التالي:

" علمنا بالمحالفة التي عقدها قداسة البابا بولس الخامس، الطيب الذكر، مع إسبانيا وجمهورية البندقية ضد العدو المشترك وهو الترك. وعرف أيضا أن دون خوان النمساوي الأخ الطبيعي لملكنا الطيب فيليب سيكون القائد العام لهذه العصبة....فألهبت هذه الأنباء حماستي وشجاعتي، وأعطتني الرغبة في الاشتراك في هذه الحملة... ومن حسن الحظ كان دون خوان النمساوي قد وصل إلى جنوة منذ وقت قليل، ومن هنا أبحر إلى نابولي، حيث ينبغي عليه أن يلحق بأسطول البنادقة، وهو ما فعله في ميسينا. وأخيرا شهدت ذلك اليوم السعيد الشهير، يوم معركة لبيانته، وفي هذا اليوم السعيد بالنسبة إلى النصارى، لأنه بدد الخطأ الذي خيل إليهم أن الأتراك لا يقهرون في البحار، ولكن الكبرياء العثماني ترنح في ذلك اليوم".[6]

كان ثربانتس حاضرا إذا خلال مرحلة مفصلية من مراحل الصراع العثماني الإسباني، وسجل بذلك آخر مراحل المواجهات المسيحية الإسلامية التي بدأت مع حملات الاسترداد التي قادتها الممالك الإسبانية ضد الوجود الإسلامي بالأندلس، وتوج بسقوط غرناطة سنة 1492 -الحدث الذي أنهى الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية- وسمح لإسبانيا بالتطلع إلى غزو شمال

إفريقيا واحتلال السواحل المتوسطية الجنوبية،[7] مستفيدة من تدهور السلطات الحاكمة ببلدان شمال إفريقيا (الوطاسيون بالمغرب والزيانيون بنو عبد الواد بالجزائر والحفصيون بتونس)[8]، إلى أن استطاع الحد من طموحها استقرار القرصانان عروج وخير الدين بربروس بمرسى جيجل، وأخذا على عاتقهما مهمة طرد الإسبان من السواحل المتوسطية الجنوبية[9].

لم تكن الإمكانيات المادية والعسكرية المحدودة للأخوين بربروس تسمح لهما بمواجهة عدو قوي من حجم إسبانيا، فتوجها لطلب الدعم من العثمانيين الذين كانوا قد مدوا نفوذهم خلال تلك الفترة إلى مصر سنة 1517 وبدأ زعماؤها يوجهون أنظارهم نحو الغرب. وهكذا عرض خير الدين بربروس على السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520) أن يغزو شمال إفريقيا باسمه ويمنع بذلك الإسبان من الوصول إلى المنطقة الشرقية، وهو ما وافق عليه السلطان العثماني.[10] وأصبحت بذلك الجزائر منذ سنة 1518 ولاية عثمانية تمثل الجبهة الخلفية للإمبراطورية، وعهد السلطان العثماني لولاتها بمواجهة الإسبان والمسيحيين بغرب المتوسط.

بسيطرة العثمانيين على شمال إفريقيا بدأ التراجع الإسباني بهذه المنطقة، فقد أخذت المراكز التي سيطر عليها الإسبان تسقط واحدة تلو الأخرى في أيدي العثمانيين بزعامة خير الدين بربروس، مما جعل نداءات البابا تتعالى من أجل عقد تحالف مسيحي للقضاء على العدو المشترك[11]. وفعلا تم حشد القوى الإسبانية والبندقية والنمساوية والبابوية بالإضافة إلى فرسان مالطا في معركة بروزة على السواحل اليونانية سنة 1538 ضد العدو العثماني المشترك، ولكن المعركة انتهت بانتصار العثمانيين وتكريس سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط، وقد فتح هذا الانتصار عهد التفوق البحري العثماني بالبحر الأبيض المتوسط[12]. كما تلا معركة بروزة فشل الحملة التي جهزها الملك الإسباني

شارلكان على الجزائر سنة 1541 والتي تمت بتشجيع من البابوية وشارك فيها أيضا متطوعون من كافة بلدان أوروبا، وإن كان فشل هذه الحملة يعود بالدرجة الأولى للعوامل الجوية، فقد حطمت عاصفة بحرية جل قطع الأسطول الإسباني على السواحل الجزائرية قبل بدأ المعركة[13]. ونتج عن هزيمة معركة بروزة وفشل حملة شارلكان على الجزائر تعزيز موقف خير الدين وحزبه المؤيد للاستراتيجية الهجومية في البحر الأبيض المتوسط،[14] حيث أصبحت قوة أوجاق الجزائر تشكل خطرا على أوروبا عموما وإسبانيا خصوصا، هذه الأخيرة التي اكتفت بالحفاظ على بعض الحصون في كل من وهران والمرسى الكبير وتلمسان متبنية بذلك خطة دفاعية عوض الخطة الهجومية التي كانت تتبعها قبل الوجود العثماني بالمنطقة[15].

كما أورد ثربانتس، فقد لقيت نداءات البابا صدى لدى القوى الأوروبية، بحيث انتهت إلى النجاح في إبرام الحلف المسيحي المقدس بين الإسبان والبنادقة يوم 20 ماي 1571، والذي شكل الاتفاق على المواجهة المشتركة للأسطول العثماني في معركة ليبانتو في 7 أكتوبر 1571 أهم بنوده، وهي المعركة التي شارك فيها الأديب ثربانتس بحماس، التي أصيب خلالها بجروح بليغة أدت إلى فقدانه القدرة على تحريك ذراعه اليسرى بقية حياته[16]. وقد أسفرت هذه المعركة عن انتصار الحلف المسيحي، واعتبرت أول وأعظم هزيمة تعرض لها الأسطول العثماني من طرف القوى الأوروبية منذ أن أصبحت منطقة شمال إفريقيا ولاية عثمانية، حيث أسرت أو غرقت خلالها أكثر من مائتي سفينة وقتل أو جرح ثلاثون ألف مقاتل وأسر ثلاثة آلاف[17]، وقد شكل الانتصار المسيحي انتصارا نفسيا بالدرجة الأولى، إذ تمكن المسيحيون في هذه المعركة، كما أشار إلى ذلك ثربانتس، من تحطيم أسطورة الأسطول العثماني الذي لا يقهر[18].

حاول الحلف المسيحي الاستفادة من انتصار ليبانتو لتكثيف الهجمات على الممتلكات العثمانية، فقام بتنظيم حملة على حصن نافارين سنة 1572، شارك فيها الأديب ثربانتس أيضا، لكن هشاشة هذا الحلف الذي كان من المفترض أن يستمر مدة اثنى عشرة سنة ظهرت عقب وفاة البابا بيوس الخامس وتراجع جمهورية البندقية عن دعم الإسبان، لتجد إسبانيا نفسها وحيدة في مواجهة الأتراك العثمانيين.[19] مما انعكس على نتائج هذه الحملة والتي كانت جد متواضعة. رغم محدودية حجم نتائج حملة نافارين، فإن الملك الإسباني فيليب الثاني لم يتخل عن آماله في السيطرة على منطقة شمال إفريقيا وقرر القيام بالهجوم على تونس سنة 1573، فنظم حملة على حلق الوادي أسند قيادتها إلى أخيه دون خوان النمساوي Don Juan d'Autriche، لكنه تراجع بعد ذلك ووجه أوامره لقائد الحملة بمغادرة "حلق الوادي"، مكتفيا بترك كتيبة عسكرية قليلة العدد لحراسة هذا الحصن.[20]

كانت نتيجة هذه الحملة الأخيرة جد باهتة، فبعد عام ،أي سنة 1574، قام القبودان باشا علوج علي والقائد سنان باشا بحملة قوية على تونس تمكنا خلالها من طرد الحامية العسكرية الإسبانية بحلق الوادي، وبذلك ضمت المدينة بشكل نهائي إلى الدولة العثمانية، وتم القضاء النهائي على المملكة الحفصية والوجود الإسباني بتونس.[21] يقدم ثيربانتس في مؤلفه "الدون كيخوتي" السيطرة العثمانية على تونس على الشكل التالي:

"في السنة التالية، 1573، علمنا أن دون خوان استولى على تونس من الأتراك، فتأثر السلطان الأعظم لهذه الخسارة، ولهذا استخدم الحيلة المألوفة في قومه، وأصلح مع البنادقة وهم كانوا إلى الصلح أشد توقا. وفي السنة التالية سنة 1574، هاجم سليم حلق الوادي والحصن الذي تركه دون خوان بالقرب من تونس ولم يتم بناؤه...وأخيرا تم الاستيلاء على حلق الوادي والحصن، وقد

وضع أمام هذين الموقعين خمسة وسبعون ألفا من الجنود النظاميين، وأكثر من أربعمائة ألف عربي ومغربي من كل إفريقية ، مع ذخيرة وعدة هائلتين".[22]

شكلت سيطرة العثمانيين على تونس ردا على هزيمة ليبانتو، كما كانت آخر مواجهة عسكرية بين القوتين العثمانية والإسبانية. فقد طويت بعدها صفحة المواجهات الحربية المباشرة بين العملاقين في البحر الأبيض المتوسط، ليأخذ الصراع الإسلامي المسيحي أشكالا أخرى.

ثربانتس أسير في الجزائر

خرج الإسبان والعثمانيون منهكين من مواجهات عسكرية استمرت طيلة القرن السادس عشر[23]، كما خرج الأديب ثربانتس أيضا منهكا بعد أن قضى سبع سنوات من العمل في الجندية، شارك خلالها في ثلاث حملات عسكرية كبرى ضد العثمانيين. وبعد أن قرر سنة 1575 العودة إلى بلده، طلب من قائده دون خوان النمساوي السماح له بالتوجه إلى إسبانيا، وقد استجاب له هذا الأخير وزوده برسالة تزكية موجهة إلى أخيه الملك فيليب الثاني، كما تمكن ثربانتس أيضا من الحصول على رسالة تزكية أخرى موقعة من طرف دون كارلوس الأركوني Don Carlos d'Aragon دوق سيزا Siza، وموجهة إلى ملك إسبانيا ووزرائه. بعد ذلك أبحر على متن السفينة El Sol من نابولي في اتجاه إسبانيا[24].

أثناء إبحار ثربانتس إلى إسبانيا وقعت السفينة التي كان على ظهرها بين أيدي القراصنة الجزائريين واقتيد أسيرا إلى مدينة الجزائر حيث قضى خمس سنوات من حياته في الأسر[25].

ارتبطت حادثة الأسر التي تعرض لها ثربانتس بالتحول الذي طرأ على مظهر الصراع العثماني الإسباني بشكل خاص والإسلامي المسيحي بشكل عام أواخر القرن السادس عشر بعد توقف المواجهات العسكرية الكبرى بين الطرفين وتعويضها بعمليات قرصنية استهدفت السواحل والجزر المتوسطية الأوروبية والسفن التجارية الإسبانية المحملة بالثروات القادمة من العالم الجديد.

إن هذا التحول في الاستراتيجية الحربية لم يكن يعني أن نشاط القرصنة كان وليد تلك المرحلة التاريخية، فقد كانت القرصنة نشاطا سائدا في البحر الأبيض المتوسط منذ القدم، تتعادل فيه الضفة الشمالية مع الضفة الجنوبية، لكنه تزايد بالنسبة لبلدان المغارب مع وصول الأخوين بربروس وخلفائهما إلى المنطقة، حيث أصبحت قرصنة الجزائر تمثل نصف القرصنة الإسلامية أي ربع مجموع القرصنة في البحر الأبيض المتوسط،[26] هذا النشاط الذي كان إلى حدود معركة ليبانتو يمارس من طرف الأساطيل العثمانية ويدخل ضمن استراتيجية حربية عثمانية، ويأخذ عنه الأسطول الجزائري نصيبه حسب نسبة مساهمته فيه[27]، اتخذ أواخر القرن السادس عشر شكل حرب استنزافية تهدف إلى تكبيد العدو خسائر اقتصادية وبشرية أكثر من تدمير قوته، وذلك عن طريق الاستيلاء على سفن العدو وتفريغ حمولتها وأسر ركابها وتحويلهم إلى غنيمة سائغة قادرة لأن تدر أرباحا في عالم التجارة أو تستغل في الخدمات.

شكلت ظاهرة أسر المسيحيين إحدى أهم الظواهر المنبثقة عن ازدهار نشاط القرصنة الجزائرية، وكانت بمثابة صدى يعكس استمرار الصراع المسيحي العثماني عن طريق استنزاف الرأسمال البشري الأوروبي والمتمثل في سياسة إدماج الأسرى المسيحيين في المجتمع العثماني أو عن طريق جني مداخيل مالية نتيجة عملية افتداء الأسرى[28].

1- استنزاف الرأسمال البشري الأوروبي وسياسة دمج الأسرى الأوروبيين:

تسببت ظاهرة أسر المسيحيين في نزيف ديموغرافي في أوروبا، إذ أدت إلى إفراغ السواحل الأوروبية من ساكنتها سواء عن طريق الحملات التي كان يقوم بها القراصنة على السواحل المتوسطية أو عن طريق أسر البحارة والمسافرين أو الجنود المستقرين بالثغور المغاربية المحتلة، مما أدى إلى حرمان أوروبا من ساكنتها النشيطة وطاقاتها الشابة، ومثل بالمقابل [29] قيمة مضافة للإمكانيات الإدارية والعسكرية والبحرية العثمانية، في ظل نظام عثماني يرحب بهؤلاء الوافدين الجدد، ويسعى إلى صهر العناصر الأوروبية الشابة التي تمتلك مهارات مهنية خاصة، وذلك عن طريق إغرائها بالمستقبل الذي ينتظرها إذا هي ارتدت عن دينها واعتنقت الدين الإسلامي ودخلت في خدمة السلطان العثماني[30].

أشار ثربانتس في روايته "الدون كيخوتي" إلى هذه السياسة التي كان يتبعها النظام العثماني، والمتمثلة في استقطاب الأسرى الأوروبيين، خاصة المنحدرين منهم من أصول اجتماعية متواضعة، وذلك من خلال تطرقه إلى بعض النماذج من الأسرى الذين أغرتهم الامتيازات التي تمنحها الدولة العثمانية، وانخرطوا في خدمتها بعد اعتناقهم للدين الإسلامي.

-النموذج الأول: ويتعلق الأمر بشخصية "علوج علي" فيقول عنه: "كان يسمى عادة باسم علج علي فرتكس، ومعنى هذا باللغة التركية المرتد الأجرب، وكان كذلك فعلا...وكان العلج علي على طوال أربعة عشرة سنة عبدا للسلطان الأعظم، ولما بلغ الرابعة والثلاثين من العمر تحول عن دينه، لما أن خدعه تركي، واعتنق الإسلام لينتقم لنفسه، وتميز بشجاعته الفائقة حتى صار ملكا على الجزائر دون أن يمر بالمراتب الوسطى التي اعتاد أن يشغلها محاسيب السلطان، ثم صار أمير البحر، وهو ثالث منصب في الدولة."[31]

يعتبر علوج علي نموذجا للأسرى الأوروبيين الذين نجح العثمانيون في اقتلاعهم من جذورهم وصهرهم في المجتمع العثماني، والاستفادة من مهاراتهم الحربية والبحرية بفضل عملية الارتقاء الاجتماعي التي كانت تسمح بها الدولة العثمانية للمسلمين الجدد. فقد كان علوج علي مجرد ابن صياد فقير ينتمي إلى جزيرة كالابريا الإيطالية، أسر من طرف خير الدين بربروس سنة 1536، وعمل مجدفا لسنوات طويلة على القوادس الجزائرية، ثم اعتنق الدين الإسلامي بعد أن استهوته حياة المغامرة والرفاهية التي كان يعيشها قراصنة الجزائر. فبدأ حياته العملية بعد اعتناقه للدين الإسلامي كقرصان، وتدرج بسرعة في سلم المسؤوليات إلى أن أصبح من أشهر رياس البحر، حيث ساهم في عدة حملات ومعارك خاضها الأسطول العثماني بالبحر الأبيض المتوسط، وبعد تعيينه على رأس إيالة طرابلس سنة 1556 استطاع إخماد الثورة الواسعة التي قادها شيوخ القبائل في هذه الولاية والتي دامت عدة سنوات، ووضع حدا نهائيا لها في 1557، ثم شارك في الحملة على جربة سنة 1560 وفي حصار مالطا سنة 1565 وفي معركة ليبانتو سنة 1571، والتي تمكن خلالها من المحافظة على قطع الأسطول الجزائري رغم الهزيمة التي مني بها العثمانيون، كما قاد الحملة العثمانية على تونس سنة 1574. عين باشا على طرابلس بعد وفاة درغوت كما عين "بكلربك" الجزائر ما بين 1568 و 1571، وبعد هزيمة ليبانتو تم تعيينه في أعلى منصب في البحرية العثمانية وهو منصب "قابودان باشا" الأسطول العثماني، كمكافأة له على تمكنه من الحفاظ على سلامة قطع الأسطول الجزائري خلال هذه المعركة، وترأس عملية إعادة بناء الأسطول العثماني بعد تلك المعركة والتي تمت بسرعة كبيرة. وظل يشغل منصب قبودان باشا إلى أن توفي سنة 1580 بإسطمبول.[32]

- النموذج الثاني: ويتعلق الأمر بشخصية حسن فنزيانو الذي يعتبر نموذجا آخر من الأسرى المسيحيين الذين استطاع العثمانيون إدماجهم في الحياة

السياسية والعسكرية في الجزائر، والذي يتحدث عنه ثربانتس قائلا: "أما أنا فكنت من نصيب أحد البنادقة، وكان من قبل ملاحا، ومن أقرب المقربين إلى العلج علي الذي أسره في البحر، وكان أقسى إنكشاري وجد، وكان اسمه حسن أغا، وصار غنيا جدا وعين ملكا على الجزائر."[33]

عرف حسن فنزيانو مسارا مشابها لمسار حياة علوج علي، فقد أسره درغوث رايس- باشا طرابلس- وهو طفل، وعندما قتل هذا الأخير أصبح من نصيب خليفته علوج علي. وبما أنه كان يتميز بالشجاعة والمهارة وحب المغامرة والمكر فقد نال إعجاب مالكه الذي عهد له بوظائف مهمة في الجزائر بعد أن أصبح حاكما لها[34]، وشارك إلى جانبه في الحملة على حلق الوادي سنة 1574، ثم عين باشا على الجزائر سنة 1577[35].

يحيل مسار حياة العلج حسن فنزيانو على فئة معينة من الأسرى، وهم الأطفال، وهي فئة عمرية نالت اهتماما كبيرا من طرف العثمانيين الذين كانوا يستعينون بها في تطعيم الجيش والبحرية العثمانيتين، في فترة زمنية كان يتم الانخراط فيها في سلك الجندية أو البحرية منذ الطفولة، وكان الحصول على طفل أو مراهق بدأ عوده يشتد يشكل ربحا على حساب الأعداء، خاصة وأن نسبة وفيات الأطفال كانت مرتفعة خلال العصر الحديث، فقد قدرت ما بين عشرين بالمائة وخمسة وعشرين بالمائة، هذا بالإضافة إلى كون الأطفال مثلوا عنصرا هش المقاومة يسهل صهره في المجتمع الإسلامي، لذلك فقد كان النظام العثماني يعمل على الحفاظ على معظم الأطفال الذين وقعوا في الأسر، ويرفض أية مفاوضات حول افتدائهم مهما كان مبلغ الفدية مغريا[36].

وعموما تبرز نماذج الأسرى الذين تحولوا عن الدين المسيحي وأصبحوا "علوجا"، والذين تطرق لهم ثربانتس في روايته، مدى نجاح المشروع السياسي

العثماني المبني على الاعتماد على عناصر اجتماعية دخيلة ذات كفاءة مهنية عالية، وفصلها عن أصولها عن طريق تشجيعها على اعتناق الدين الإسلامي، وصهرها في المجتمع العثماني بهدف الاستفادة من مهاراتها. فباعتماد الإحصاءات التي قدمها الراهب الإسباني الأسير فراي دييكو دو هايدو Fray Diego De Haedo ، والذي وصل إلى الجزائر سنة 1580، وهي نفس السنة التي غادر فيها ثربانتس هذه المدينة، فقد قدر عدد المسلمين من أصول مسيحية بمدينة الجزائر، والذين كونوا فئة اجتماعية عرفت ب"العلوج" بأكثر من ستة آلاف أسرة[37].

2- الاستنزاف الاقتصادي

تمثل الشق الثاني من الانعكاسات المترتبة عن ظاهرة أسر المسيحيين، في ضرب القوة الاقتصادية للأوروبيين عن طريق ما تطلبه تحرير الأسرى الأوروبيين من اعتمادات مالية كان على الأسير أو الحكومات الأوروبية أو الهيئات الدينية المتخصصة في افتداء الأسرى أداءها. وتعكس ظاهرة قبول تحرير الأسرى المسيحيين مقابل المال ابتعاد نشاط القرصنة عن الروح الجهادية التي كانت تحركه، حين كان الجانب الديني حاضرا في كل الأمور المتعلقة بالأسرى في بداية الحضور العثماني بالمنطقة، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى ما أورده صاحب "الزهرة النائرة" إذ يذكر كيف أن خير الدين بربروس جمع فقهاء مدينة الجزائر، واستفتاهم في مسألة افتداء جماعة من أعيان الإسبان، وكان عددهم ستة وثلاثين، مقابل مبلغ قدره مائة وعشرين ألف دينار ذهبي، فاتفقت فتواهم على عدم جواز فداء الأسرى بالمال، لأن هؤلاء من أعيان النصارى وزعمائهم ويتقوى بهم عدو المسلمين.[38] في حين أصبح الأسير أواخر القرن السادس عشر يمثل سلعة مربحة تعمل على تصريف نفسها بنفسها، في ظل مؤسسة كسبية ميركنتيلية هدفها الأساسي هو تحقيق الربح والغنيمة مع السهر على تكبد أقل قدر من الخسائر، حيث تحول رياس العهد الجديد إلى قراصنة هم في نفس

الوقت نوع من التجار ونوع من لصوص البحر يعتبرون مهنتهم مؤسسة حرفية يجب ممارستها بكل الحذر الممكن مع تفادي المعارك بكل الوسائل الممكنة[39].

ومن المؤشرات الدالة على التحول الذي عرفه الهدف من أسر المسيحيين من خلال تجربة ثربانتس:

- البحث عن الربح وتفادي المعارك الخاسرة: بعد أن قرر ثربانتس التوقف عن حياة الجندية والتوجه إلى بلده، أبحر على متن سفينة تمثل جزء من أسطول مكون من أربعة سفن، وقد أدى هبوب عاصفة إلى تحويل مسار هذه السفينة وعزلها عن بقية السفن، حيث فاعترضتها ثلاث سفن قرصنية جزائرية ونجحت في الاستيلاء عليها. يحيل هذا الحادث إلى التوجه الجديد الذي عرفه نشاط القرصنة، هذا التوجه الذي تطرقت له مجموعة من أدبيات الأسر والافتداء، والتي كانت تشير إلى أن القراصنة المغاربيين لم يكونوا يقدمون على مهاجمة أية سفينة أوروبية إلا إذا كانوا متأكدين أن نتيجة المعركة ستكون لصالحهم[40]، وأكده ثربانتس عندما تحدث عن خروج ثلاث سفن قرصنية لتختار ضحيتها بعناية وتهاجم سفينة واحدة، وهذا ما جعل المعركة غير متكافئة وحسم نتيجتها لصالح القراصنة الجزائريين منذ البداية، والذين أصبحوا بهذه الطريقة بمنأى عن أية خسارة.

-عملية تقسيم الغنيمة، والتهافت على امتلاك الأسرى الذين يحتمل أن يكونوا أغنياء، وينتظر أن يتم افتداؤهم مقابل مبالغ مالية مرتفعة، ويلاحظ هذا التوجه من خلال إصرار "دالي مامي"، وهو القرصان الذي أسر ثربانتس، أن يكون هذا الأسير من نصيبه، رغم ملاحظته للإعاقة التي يعاني منها والتي تسببت فيها مشاركته في معركة ليبانتو، ويرجع سبب هذا الإصرار إلى اطلاعه على رسائل التزكية التي كان يحملها ثربانتس، والموجهة من شخصيات سياسية مهمة في

إيطاليا والنمسا إلى شخصيات مهمة في إسبانيا، مما جعله يخمن أهمية أسيره، ويتوقع أن يحقق ربحا مهما من وراء عملية افتدائه المنتظرة[41]. لكن هذا القرصان تعرض لمنافسة حسن فنزيانو، باشا الجزائر، الذي طلب من مالكه أن يبيعه إياه بمجرد أن علم هو أيضا برسائل التزكية التي يحملها هذا الأسير، مستغلا بذلك حق الشفعة الذي كان يعطي لحاكم الجزائر الحق في امتلاك الأسرى مقابل أدائه الثمن الذي بلغوه في السوق. لا يمكن تفسير هذا التهافت على امتلاك أسير يعاني من إعاقة جسدية، إلا بإدراك أهمية الربح الذي يمكن أن يجنى من وراء عملية افتداء أسير من فئة الفرسان. وهذا ما تم حيث قام حسن فنزيانو بشراء الأسير ثربانتس بمبلغ خمسمائة أوقية ذهبية، وطلب منه أداء ضعف ذلك المبلغ إذا هو أراد الحصول على حريته[42].

- أسلوب معاملة الأسرى: اتفقت أدبيات الأسرى والرهبان الفدائين على رسم صورة سوداوية قاتمة لواقع الحياة اليومية للأسرى في مدينة الجزائر، فقد أجمعت على أن الصبغة الأساسية التي ميزت أسلوب التعامل هي القسوة وإسناد الأعمال الشاقة وقلة الطعام وضعف جودته وانتشار الأمراض والأوبئة بين صفوفهم.[43] وهو ما أكده ثربانتس قائلا: "وعلى الرغم من أن الجوع والحرمان عذبانا كثيرا مرارا، ففي وسعي أن أقول دائما أنه لم يحزننا شيء قدر أن نكون شهودا على قساوات لم يسمع بمثلها كان سيدي يسومها للنصارى، فلم يمض يوم دون أن يشنق أو يخوزق بعضهم، أو على الأقل يقطع آذانهم وهذا كله لأسباب تافهة جدا.[44]"، ولكن الأديب يستطرد قوله، في إشارة منه إلى أن انتظار عملية افتداء الأسير تغير من أسلوب المعاملة لأن المالك في هذه الحالة يعتبر أسيره استثمارا ماليا ومعاملة تجارية يحرص فيها على تحقيق أكبر قدر من الربح، مما يتدخل بشكل كبير في تحديد أسلوب المعاملة. بل ويخضع الأسرى لعملية تصنيف تتم معاملتهم على أساس انتمائهم لأي فئة من الأسرى. يقول ثربانتس:

"وقد وضعوني بين أسرى الفدية لما عرفوا أني برتبة نقيب وإن كنت قد بينت لهم أن لا مال عندي للفدية. والسلسلة التي قيدوني بها كانت علامة فدية مقبلة أولى من أن تكون علامة عبودية. وهكذا قضيت حياتي في هذا السجن، بين الفرسان وعلية الناس المنتظر فداؤهم بالمال."[45] وقد كان الأسرى المنتمون إلى فئة "أسرى الفدية" يعفون من العمل، حيث يقول ثربانتس:" وذات يوم كنت على السطح أتدرب على القفز مع ثلاثة من رفاقي، وكان الباقون جميعا في الشغل"[46].

لكن أسلوب التعامل قد يتغير إذا تأخر وصول الفدية، يقول ثربانتس: "في هذه السجون يضع بعض أفراد الناس، كما قلت عبيدهم، خصوصا أولئك الذين تمكنهم أحوالهم من افتداء أنفسهم لأنهم يكونون هناك في أمان حتى تصل فدياتهم. وعبيد الملك الذين ينتظرون الفداء من الأسر لا يعملون مع باقي العبيد ، اللهم إذا تأخر وصول الفدية، إذ لحثهم على الكتابة باهتمام أكبر إلى أوطانهم يرسلون إلى الغاب مع الباقين وهو تعب ليس بالقليل."[47]

-التسامح مع أسرى الفدية والتغاضي عن أخطائهم: لا يمكن إغفال درجة التسامح المبالغ فيها تجاه أسرى الفدية، حيث يلاحظ تغاضي الملاكين عن الأخطاء التي قد يرتكبها أسير من هذا الصنف، ويرجع سبب هذا التسامح إلى مخافة أن يؤدي العقاب إلى التأثير على القوة البدنية للأسير مما يبخس قيمته. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال طريقة التعامل التي حظي بها ثربانتس رغم أنه قام بتدبير أربع محاولات فاشلة للفرار الجماعي للأسرى، وكان دائما يعترف أنه الرأس المدبرة لهذه العمليات، ومع ذلك لم يتعرض للعقوبة بعد فشل محاولاته، فكل ما في الأمر أنه كان يتم تشديد الحراسة عليه. حيث يقول في هذا الصدد: "لكن جنديا إسبانيا واحدا اسمه سابيدرا، استطاع أن يغيظ هذا الرجل القاسي. فقام من أجل استرداد حريته، بأعمال ظل الأتراك يذكرونها

زمنا طويلا، فلم يضربه حسن أغا أية ضربة ولم يأمر بضربه أحدا، ولم يقل له أبدا كلمة خشنة، وكنا نخشى في كل لحظة أن يخوزق هذا الجندي، وهو نفسه خشي ذلك أكثر من مرة."[48]

- الترحيب بالتنظيمات الدينية المسيحية المتخصصة في افتداء الأسرى: لم تنجح محاولات الفرار المتكررة التي قام بها ثربانتس، ولم تؤت رسائل الاستعطاف التي كانت ترسلها أسرته إلى البلاط الملكي الإسباني ليتدخل لفك أسره أية نتيجة، لكنه استطاع الحصول على حريته بفضل مبادرة من رجال الدين الفدائين المنتمين إلى تنظيم "الثالوث المقدس وافتداء الأسرى"[49] L'Ordre de la sainte Trinité et de la rédemption des captifs والذين نظموا رحلة لافتداء الأسرى الإسبان في الجزائر سنة 1580، وقاموا بدفع نصف المبلغ المالي المطلوب لتحرير ثربانتس بعد أن تمكنت أسرته من تدبير النصف الآخر. ويعتبر تنظيم الثالوث المقدس إلى جانب تنظيمات دينية أخرى كتنظيم أمنا الرحيمة L'ordre de Notre Dame de la Merci وتنظيم اللازاريين L'ordre des Lazaristes من أهم التنظيمات الدينية المسيحية التي أخدت على عاتقها مهمة مساعدة الأسرى المسيحيين في البلدان الإسلامية والعمل على تحريرهم، خاصة الأسرى المنتمين إلى إسبانيا، العدو التقليدي للدولة العثمانية، والتي لم تسمح حالة التوتر المستمر معها في حضور أي تمثيل دبلوماسي إسباني يسهر على خدمة مصالح رعايا الملك الإسباني داخل الأراضي العثمانية، لذلك حاولت هذه التنظيمات الدينية ملء الفراغ الديبلوماسي الذي خلفته الأزمات والحروب الطويلة بالحضور إلى الجزائر بهدف تقديم الدعم الروحي للأسرى وافتدائهم، حيث كانت تقوم بحملات في مختلف الأوساط الاوروبية سواء الغنية أو الفقيرة لجمع التبرعات لافتداء الأسرى[50]، وبعد أن تتمكن من جمع مبالغ كافية لافتداء عدد مهم من الأسرى المسيحيين تنظم رحلة إلى أحد البلدان بالضفة الجنوبية

للبحر المتوسط لافتداء بعض المسيحيين المأسورين فيه. وقد كانت هذه البعثات تلقى ترحيبا كبيرا من طرف السلطات المغاربية نظرا للأموال والهدايا التي كانت تحضرها معها من أجل إنجاح عملية الافتداء والتي كانت تمثل نسبة مهمة من مداخيل ولاية الجزائر حيث ساهمت في تدفق الريالات الإسبانية التي كانت تعتبر قطعة أساسية للتداول النقدي العالمي في تلك الفترة، إلى درجة أن الريال الإسباني أصبح العملة الرئيسية للجزائر مدة عشرات السنين،[51] وقد ربط بروديل الازدهار الاقتصادي للجزائر وثراءها خلال الفترة الممتدة ما بين سنوات 1580- 1620 بالسنوات التي بلغت فيها القرصنة الجزائرية أوجها[52].

تجدر الإشارة إلى أن حصول ثربانتس على حريته لم يكن يعني نهاية علاقته مع الجزائر والدولة العثمانية، فقد ظلت تحركات الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط الغربي محط اهتمام الملك الإسباني فيليب الثاني، مما جعله يقوم بإرسال بعثة إسبانية إلى الجزائر ترأسها ثربانتس باعتباره خبيرا في شؤون شمال إفريقيا، في إطار مهمة سرية لدى حاكم حصني وهران والمرسى الكبير، دون مارتان القرطبي Don Martin de Cordova سنة 1581، وكان من مهام البعثة التنقل بين مستغانم ووهران للتفاوض مع السلطات المحلية من أجل عقد اتفاق مع السلطات الإسبانية، وقد استغرقت هذه المهمة أربعة أشهر ما بين ماي ويوليوز 1581.[53] وإن ظلت أهدافها غير واضحة نظرا لغياب أي تقرير رسمي يبين طبيعتها وأهدافها ونتائجها.

خلاصة:

قدم ثربانتس شهادات حية عن الصراع الإسلامي المسيحي عموما والصراع العثماني الإسباني بالبحر الأبيض المتوسط خاصة بمختلف أشكاله سواء المباشرة والمتمثلة في المعارك والحروب، أو غير المباشرة والمتمثلة في نشاط

القرصنة وما يرتبط به من استنزاف قوة العدو البشرية والمالية. وتكمن أهمية شهادة هذا الأديب في كونها تعدت الوصف البسيط للأحداث والأشخاص، بل تميزت بعمق الرؤية، لكونه كان مدركا لحجم الرهانات السياسية والعسكرية بالعالم المتوسطي خلال القرن السادس عشر، مما مكنه من نقل تجربته في الجندية بكل دقة وتمحيص دون عزلها عن سياقها التاريخي، كما أنه لم يكن أسيرا عاديا، فقد كان أديبا ومثقفا، استطاع بأسلوبه ولغته نقل مشاهد الحياة اليومية في الجزائر وحياة الأسرى المسيحيين في هذا البلد ودون قصد من إطارها الجيوتاريخي الضيق إلى مستوى العالمية، وأضفى بأسلوبه الأدبي بعدا عالميا على "الأسطورة المغاربية".[54]

---

[1] عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،2009، الجزء 3، ص 430.

[2] Mika Ben Miled, *Cervantès, soldat à Tunis, captif à Alger avec la relation du siège de la Goulette par les espagnols*, Ed. Cartaginoiseries, 2006, p. 7.

[3] Fernand Braudel, « Les espagnols en Afrique du Nord », in *Revue africaine, n°* 69, Alger 1928, pp. 192- 204.

[4] M.Ben Miled ,op. cit., p. 9.

[5] Ibid., pp. 11, 12, 13.

[6] ميكيل دي ثربانتس سابيدرا، دون كيخوتي دي لامانشا، ترجمة عبد الرحمان بدوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1998، الجزء 1، ص. 63.

[7] F. Braudel, « Les espagnols... ». ,op.cit. , pp. 192-212.

[8] شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية :تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830**، تعريب محمد مزالي، البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983 ، ص ص. 321-323.

[9] عبد الله العروي، م س، ص. 458.

[10] نفسه، ص. 459.

[11] شارل أندري جوليان، م س، ص ص. 335-336.

[12] منور مروش، **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، الجزء 2، **القرصنة بين الأساطير والواقع**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص. 96.

[13] Henri Delmas de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination turque,* Ed. Bouchène,2002, p. 75.

[14] Fernand Braudel, *La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II* , A. Colin 1985 , TII, p. 384.

[15] F. Braudel, Les espagnols, op. cit., P. 229.

[16] M. Ben Miled, op. cit., p. 12.

[17] F. Braudel, *La Méditerranée…*,op. cit., p. 397.

[18] F. Braudel, *La Méditerranée…*, op. cit., pp. 383-386.

[19] M. Ben Miled, op. cit., p. 13.

[20] M. Ben Miled, op. cit., p. 16.

[21] F. Braudel*, La Méditerranée…*, op. cit., p. 409 .

[22] ميكيل دي ثربانتس، م س، ص. 65.

[23] منور مروش، م س، ج 2، ص. 193.

[24] M. Ben Miled, op. cit., p. 16.

[25] Ahmed Abi Ayyad, « Captifs et captivité dans les œuvres de M. de Cervantès, Alger au XVIème Siècle », in *Sources documentaires étrangères, l'Algérie : Histoire et société-un autre regard- Etudes des archives et témoignages en Algérie à l'étranger,* Ed. CRASC, 2005, p. 19.

[26] F. Braudel, *La Méditerranée…*, op. cit., p. 209.

[27] منور مروش، م س، ج 2، ص. 92.

[28] أمين محمد، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر"، ضمن، **دراسات في تاريخ الجزائر الحديث**، أنفو برانت، فاس، 2011، ص. 68.

[29] Bartolomé et Lucile Bennasser, *Les chrétiens d'Allah, Histoire extraordinaire des renégats de XVI et XVIIème siècles*, Ed. Perrin, 2001, p. 268.

[30] Ibid., p. 267.

[31] ميكيل دي ثربانتس، م س، ص. 63.

[32] B et L. Bennasser, op. cit., p. 370.

[33] ميكيل دي ثربانتس، م س، ص. 339.

[34] Diego de Haedo, *Histoire des rois d'Alger*, traduit et annoté par Henri Delmas de Grammont, Ed. Adolphe Jourdan, 1881, P. 168.

[35] Ibid., p. 169.

[36] B et L. Bennasser, op. cit. , P. 360.

[37] Diègo de Haedo, *Histoire et topographie générale d'Alger*, Ed. Bouchène,1998, pp. 64.

[38] محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني بن رقية التلمساني، **الزهرة النائرة في ما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة**، مخطوط في مجموع رقم 2603، المكتبة الوطنية الحامة ، الجزائر ، ص 15. نقلا عن خشمون حفيظة، **مهام مفتدي الأسرى والتزاماتهم الاجتماعية في مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية**، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006-2007، ص. 12.

[39] Henri Delmas de Grammont, *La course, l'esclavage et la rédemption à Alger*, Paris 1885, p.63.

[40] Antoine, Quartier, *L'esclave religieux et ses aventures*, chez Daniel HORTEMELS, p. 8.

- جرمان مويط، **رحلة الأسير مويط**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 1990، ص15.

41 M. Ben Miled, op. cit., pp. 17-21.

42 Latifa El Hassar-Zeghari, *Les captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave à Alger (XVIIème siècle)*, Casbah Edition, Alger,2004, p. 34.

43 Guy Turbet Delof, *L'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI et XVIIème siècle*, Librairie Droz, Genève 1973, p. 112.

44 ميكيل دي ثربانتس، م س، ص .70.

45 نفسه، ص.70.

46 نفسه، ص. 70.

47 نفسه، ص. 70.

48 نفسه، ص. 340.

49 M. Ben Miled, op. cit., p. 24.

50 وولف جون، **الجزائر و أوروبا (1500-1830)**، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص. 215-216.

51 منور مروش، **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني**، الجزء 1، **العملة والأسعار والمداخيل**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص. 42.

52 F. Braudel, La Méditerranée..., op. cit., p. 205.

53 A. Abi Ayyad, op. cit., p. 21.

54 Berbery Legend: عبارة عنون بها الباحث الإنجليزي Godfrey Fisher مؤلفه الذي تناول فيه العلاقات الإنجليزية المغاربية خلال الفترة الممتدة ما بين 1415 و 1830 والذي ركز فيه على مواضيع الحرب والقرصنة والتجارة.

الكاتب: د/ براهمي نصيرة
جامعة تبسة – الجزائر

عنوان المقال: **تموين الثورة التحريرية بمنطقة تبسة 1954 – 1958**

البريد الالكتروني: brahmitebessa@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/01/29 **تاريخ القبول:** 2019/02/25 **تاريخ النشر:** 2019/03/28

تموين الثورة التحريرية بمنطقة تبسة 1954 – 1958

Supply of the Liberation Revolution in Tebessa region 1954-1958

الملخص بالعربية:

لعملية التموين أهمية كبيرة في الثورة وكان لا يمكن لجندي جيش التحرير الوطني ان يكمل مشواره الجهادي لو توقفت أمواله، لذلك أعطت قيادة الثورة أهمية كبرى للعملية المذكورة من خلال تنظيم القواعد التي تسيرها بدقة وتحدد صلاحية الأشخاص القائمين عليها.

من مصادر التموين بمنطقة تبسة التبرعات، الغنائم، الزكاة، الشراء، ولقد وقع التموين في بداية الثورة على عاتق أفراد الشعب، ولم يتقيد المكلفين به بأسلوب معنى بل كانوا يعملون حسب الظروف المتاحة، المهم أن يكون تحركه سريعا واستراتجيا في إطار السرية.

تم تنظيم التموين وفق مانصت عليه قواعد مؤتمر الصومام وأصبح هناك ما يسمى بمسؤول التموين والذي يشرف على مراحل التموين من شراء، نقل، توزيع، تخزين، فضلا عن إرساء قواعد تضبط مهام والتزامات لجان التموين من عراقيل التموين تجميع افراد الشعب بالمحتشدات، فرض حالة الطوارئ، قنبلة للقرى والدواوير، إنشاء المناطق المحرمة، إقامة السدود المكهربة.

كلمات مفتاحية: التموين، الشعب، الثورة، مسؤول التموين، السدود المكهربة.

Abstract :

The operation of the supply was of great importance in the armed struggle and the national liberation army could not complete its revolutionary activities if the supply stopped. Therefore, the leadership of the revolution gave great importance to the process by regulating the rules that it strictly conducts and determining the powers of the people from the sources of catering in Tebessa.

At the beginning of the revolution, the supply was imposed on the people. Their houses and farms were the centers of supply of the mujahideen, and those assigned to them did not abide by a certain method. They worked according to the available conditions. What is important is that their movement in the framework of confidentiality is quick and strategic.

Later, the supply was organized according to the provisions of the rules of the conference of the fasting, so there is a so-called supply officer, who oversees all stages of the supply of procurement, transport, distribution and storage as well as rules governing the most functions and obligations of the supply committees the establishment of the camps and the imposition of state of emergency and the bombing of villages and dwawir and the establishment of prohibited areas and the construction of an electrified dam and follow the policy of the burning land.

.**Key Words:** Supply, people, revolution, supply officer, electrified dam.

مقدمة:

كان غالبية الجزائريين أثناء اندلاع الثورة التحريرية يمتهنون الفلاحة معظمهم بالكاد يوفر قوت يومه نتيجة تطبيقات قوانين السياسة الاستعمارية الجائرة، يقوم الكفاح المسلح على التمويل، التسليح، الدعاية... كما يرتكز على التموين والذي بدوره يتطلب إمكانات مالية، مادية وبشرية واسعة.

يكتسي التموين أهمية إستراتيجية فكان لا يمكن لجندي جيش التحرير الوطني أن يكمل مشواره الجهادي في مواجهة جيش العدو إذا توقف إمداده بالغذاء أو اللباس أو الأدوية... لأجل ذلك سهرت قيادة الثورة على إعطاء أهمية كبرى للتموين من خلال تنظيم القواعد التي تسيّره بدقة وتحدد صلاحيات الأشخاص القائمين عليه، كما بذلت قصارى جهدها من أجل الحصول على أموال كافية بغية تغطية نفقات الكفاح.

- الإطار المكاني والزماني للموضوع:

دراسة في التاريخ المحلي تتطرق إلى تموين الثورة بمنطقة تبسة منطقة حدودية شرقية عرفت في إطار النشاط العسكري هيكلتين الأولى ناحية تبسة 1954 – 1956 والثانية المنطقة السادسة من الولاية التاريخية الأولى 1956 - 1962 والمتمثلة في ذلك الحيز الجغرافي من ولاية تبسة الإدارية الحالية باستثناء الجزء الممتد من بكارية شرقا إلى ونزة بالشمال الشرقي ومن بولحاف الدير إلى العوينات بالشمال الغربي كما تمتد المنطقة السادسة فوق تراب ولاية خنشلة الإدارية الحالية فتشمل أولاد رشاش، ششار، ببار، وتمتد جنوبا إلى الحدود من بني قشة بالوادي.

أما الإطار الزماني فهو الفترة 1954 – 1958 فترة هامة جدا في تاريخ الجزائر تشمل 03 مراحل: مرحلة تصميم الوطنيين الجزائريين على وضع حد نهائي للنظام الاستعماري بالجزائر وتفجير الثورة التحريرية بطاقات مادية وبشرية محدودة جدا، ومرحلة توسيع وانتشار الثورة عموديا وأفقيا، عسكريا وسياسيا وتنظيمها من خلال قرارات مؤتمر الصومام، فمرحلة تكريس وتجسيد فرنسا لاختيارها الحل العسكري للقضاء على الثورة رغم تعدد أوجه إستراتيجيتها سياسة، عسكرية حرب نفسية، قمع وغير ذلك.

إشكالية ومنهج الدراسة:

ماهي مصادر تموين الثورة بمنطقة تبسة؟ والى أي مدى ساهم أفراد الشعب في التموين في فترة الانطلاقة؟، وبمقتضى قرارات مؤتمر الصومام نظمت قيادة الثورة العملية التموينية وماهي مختلف العراقيل التي واجهتها هاته الأخيرة في الفترة 1954 – 1958؟، وقد تمت معالجة هذه الإشكالية باستخدام المنهج التاريخي التحليلي الوصفي الموضوعي المناسب لطبيعة الدراسة.

احتاج جيش التحرير الوطني إلى مواد كثيرة مختلفة لتموينه، مواد غذائية، ألبسة، أدوية[1]، وسائل الكتابة، مواد النظافة، وسائل الحلاقة، وسائل الخياطة والترقيع وغير ذلك من المستلزمات التي يتطلبها النشاط العسكري في جميع صوره وأشكاله.

1- مصادر التموين و أنواعه:

لم تكن مصادر التموين كثيرة بل كانت محدودة جدا نظرا للفقر الذي كان يعيشه السواد الأعظم من الجزائريين وكذلك لطابع السرية الذي كان يكتنف عملية التموين خوفا من قمع السلطات الفرنسية للمدنيين[2].

ويمكن تعداد هذه المصادر المحدودة في الآتي:

الهبات والتبرعات: هي عطاءات[3] كان يقدمها أفراد الشعب طواعية وعن طيب خاطر بنيّة دعم المجاهدين وإطعامهم وكسوتهم وتوفير كل وسيلة من شأنها أن تفيدهم وتيسر لهم القيام بالنشاط الثوري والاستمرار فيه، تُقَدَّم هذه الأداءات دون تحديد كميتها أو مدتها الزمنية لأن ذلك متروك لرغبة الواهب أو المتبرع، يختلف نوع هذه الهبات فقد تكون أغذية، ألبسة، مواد أولية، منتجات زراعية، مواشي[4]، أدوية أو منتجات أخرى[5]، وفي مجال التبرعات تتفق الشهادات الحية على بذل اغلب سكان منطقة تبسة الكثير من أموالهم في سبيل الثورة

وتضحيتهم بثرواتهم من أجلها فقدموا الأموال، الذهب، الفضة، الماشية، الألبسة، الأفرشة، الأغطية، الصوف، المحاصيل الزراعية بمختلف أنواعها من حبوب، تمور، زيوت، خضر، فواكه، فيذكر المجاهد الوردي قتال على سبيل المثال تبرع صالح بن يوسفي البوقصي من قساس بثلث محاصيل وإنتاج نشاطه الفلاحي للثورة وغيره كثيرون[6] مثل محمد الشريف بن يوسف قماطي[7].

في نهاية مارس 1955 عمل مجاهدو تبسة بفضل تبرعات أفراد الشعب من أهل المنطقة على تأمين كميات من التموين كان شيحاني قد طلبها وتم إيصالها إلى أعالي الناس بالأوراس[8]، وتذكر المصادر أنه أثناء اجتماع واد الطرفة بالجرف أحضر المدنيون بما فيهم الأعيان الزرابي، البرانس، صفائح الزيت ومواد مختلفة.[9]

في بداية الثورة كان المجاهدون هم الذين يشرفون على جمع التبرعات مقابل وصولات تبين قيمة ونوع التبرع واسم مانحه. أما لاحقا فأصبح المناضلون هم الذين يتولون ذلك، حيث يقوم المناضل بعد جمعها بتسليمها إلى الجهة المعنية سواء كانت قسمة أو ناحية أو منطقة، ويتلقى مقابل ذلك وصلا والجهة المستَلِمة تلزم بتسليمها كذلك إلى الجهة الأعلى[10].

الغنائم: هي كل ما يفتكُّه جيش التحرير الوطني من أيدي العدو أثناء نشاطه العسكري ويدخل في تموينه، وقد مثلت مصدرا أساسيا منذ بداية الثورة وإلى غاية الاستقلال[11]، وفي إطار المراقبة الدقيقة والصارمة للمواد التموينية تخضع الغنائم هي كذلك للعدِّ والتسجيل ويُمنع على كل قائد أو شخص مسؤول الاحتفاظ بالغنائم لصالحه الشخصي[12]، ومن أنواع الغنائم نجد أبقار الكولون وتذكر المصادر الفرنسية إفتكاك جيش التحرير الوطني تسع

بقرات ملك للمعمرين بزينة فرنو(Bezina Fernaud) وبزينة جورج (Bezina Georges) على بعد 07 كلم جنوب بتيتة في الأسبوع الأول من جانفي 1957[13].

ويذكر المجاهد إبراهيم قاسمي أن هجومات[14] مجاهدي تبسة ظلّت متواصلة بحدود ناحية خنشلة، عين البيضاء، ومن نتائج ذلك غنمهم لأبقار ومواشي الكولون، وعمل جيش التحرير الوطني على وضع هذه الأنعام لدى المدنيين الموثوق فيهم كودائع لصالح الثورة[15]، وأحيانا قام المجاهدون ببيعها بالأسواق التونسية[16].

كما كان تموين الجيش الفرنسي أحيانا مصدر للتموين ومثال ذلك حمولة شاحنتين من تموين جيش العدو وهذا أثناء كمين بوشبكة بودرياس بتاريخ 03 جانفي 1956 بقيادة علي مسعي[17]، كما هاجم جنود ناحية تبسة يوم 12 مارس 1956 مزرعة المعمر قارسيا[18] فاستولوا على سبعة بقرات، وأيضا الهجوم على مزرعة أحد القيّاد

قرب الشريعة يوم 20 مارس 1956 فغنموا خمسين كبش وخمسة خيول[19].

الزكاة: كانت الزكاة أيضا من مصادر تموين الثورة لما تُوجب على المقادير العينية من مواشي، محاصيل، حبوب، إذا بلغت النصاب وقد مثلت مصدرا هاما ومستمرا للثورة[20].

الشراء: كما كان المجاهدون يحصلون على المواد التموينية عن طريق الاقتناء بواسطة المدنيين مناضلين أو تجار[21]، ويذكر المناضل عبد اللطيف حفظ الله بن أحمد أن والده كُلِّف بمهمة اقتناء تموين المجاهدين بمنطقة بوعوّامة بالسطيح سنوات 1955 و1956 وكان يتسلم قوائم احتياجات المجاهدين من قبل مسؤول الفوج أو الفرقة بالمنطقة ويعمل على تأمينها من الأسواق أو حتى من المحلات بقرية الشريعة[22].

وفيما يخص أنواع المؤن نذكر المواد الغذائية المختلفة مثل السكر، البن، العجائن، الزيوت، الحبوب بما فيها القمح والشعير، الطماطم، الملح... وكان يتم شرائها من المحلات ومن مختلف الأسواق المنتشرة والقرى.

الألبسة منها العسكرية والتي يتم خياطتها بورشات جيش التحرير الوطني[23]، كتلك المتواجدة بالتراب التونسي لتلبية احتياجات جنود الحدود الشرقية وقد عززت قيادة الثورة هذه الورشات بـ50 آلة خياطة إضافية للتمكن من إتمام الطلبيات ومضاعفة الإنتاج[24]، وهناك ألبسة أخرى تم صنعها لدى المدنيين مثل القشابية التي تمثل اللباس المميز لرجال تبسة[25].

كما عملت قيادة المنطقة على توفير الأحذية لعناصر جيش التحرير الوطني سواء عن طريق الشراء من الأسواق المنتشرة بالمنطقة أو من الأسواق التونسية[26]، وكان لتبرعات المدنيين دورا كبيرا في توفير هذه الحاجة الماسة ويذكر المناضل حمه حمدادو انه تسلم من احد المدنيين خمس أكياس كبيرة من الأحذية نوع بوطوقاز[27]، كما تبين إحدى الوثائق الأرشيفية تسلم نفس المناضل لعدة هبات منها عشر أحذية من النوع السالف الذكر[28]، وتوضح وثيقة أخرى تبرعات محمد الشريف قماطي لصالح الثورة بهذا المطلب[29]، كما عمل التاجر الميزابي بلالو[30] على تموين المجاهدين بالأحذية والتي كانت يتم صنعها بدهليز محله المخصص لبيع الأقمشة والواقع وسط مدينة تبسة[31].

كما تدخل في تموين جيش التحرير الوطني مواد أخرى مثل الصابون، أدوات الحلاقة، قارورات نقل الماء، الوسائل الصحية، أدوات الخياطة، أدوات الكتابة من ورق وآلات الرقن والسحب وغيرها[32].

فرضت السلطات الفرنسية رقابة صارمة على بيع وشراء الأدوية[33] ورغم ذلك تمكن المناضلون والمدنيون من توفير كميات من الأدوية اسْتُخْدِمت في علاج

المرضى والمصابين من المجاهدين[34]، ومن هذه الأدوية نذكر أدوية الجروح، الرضوض، الكسور، الصداع[35]، ويذكر المجاهد محمد (حمه) حسن أن مصادر الدواء في الفترة من 1955 إلى منتصف 1957 من تدبير وتوفير أفراد الشعب[36]، وكان اقتناؤه وجمعه وتخزينه يتم عن طريق أشخاص معينين لهذا الغرض، وبعد الحصول على الأدوية تسجل ضمن محضر بحضور الصيدلي والممرض والمشرف والذي بدوره يتولى عملية تخزين الأدوية بالمنطقة، ويعود أمر إدارة والإشراف على مخزن الأدوية إلى ممرض المنطقة المعين لذلك[37].

كان القادة يأمرون الأطباء الجزائريين والممرضين العاملين بالمستشفى والمستوصفات الفرنسية بتوفير قدر من الأدوية لصالح الثورة[38]، وفي هذا الصدد يذكر المجاهد الصادق رزايقية أن الممرضين الجزائريين بالمستشفى المدني بتبسة كانوا يقتطعون كميات من أدوية المرضى وهذا لنقلها للمجاهدين بالجبال، كما يذكر أن منطقة تبسة استفادت من بعض التبرعات بالدواء من مدنيين كانوا يسكنون خنشلة، مسكيانة، الضلعة، عين البيضاء، ومن هذه الأدوية نذكر مطهر الجروح، أدوية الصداع والضمادات[39]، وعمل محمد الصالح حبيب والذي كان يشتغل كمستخدم في احد المستوصفات الفرنسية على تزويد المجاهدين بكميات من الدواء[40]، وتذكر الممرضة الزهرة بوراوي أن القائد مقداد جدي طلب من بعض الشّابات العمل بالمستشفى المذكور سابقا وهذا لتزويد الثورة بالدواء وقد تمكنت عن طريقه من دعم المجاهدين بكميات من الأدوية المخدرة والمنومة ومعقم الجروح[41].

2- التموين أثناء بداية الثورة:

ردد بشير شيحاني نائب بن بولعيد في قيادة المنطقة الأولى:"إن سلاحنا في ثكنات عدونا وقوتنا في بيوت الشعب الجزائري"[42]، في بداية الثورة نظرا

للمعطيات والظروف السائدة آنذاك اعتمد جيش التحرير الوطني في تموينه على سكان[43] الدواوير، فكانت أفواج[44] وفرق المجاهدين تمر على العائلات بالأرياف والمداشر وتتناول طعامها، وتمثلت الأُكلات المتوفرة بشكل دائم في الكسكس، الرفيس، الكِسرة[45] والمرق[46]، كما اعتمد المجاهدون في تموينهم على الكميات القليلة من الأغذية التي يأخذونها كزاد لهم فكان كل مجاهد يحمل معه قدرا معينا من المؤونة كالسميد والكسكس والزيت والبصل والذي يعد ضروريا لأهميته الصحية وكذلك السكر والبن أما اللحم والفواكه فنادرا ما تظهر في الوجبات، وبالكاد تسد هذه المحمولات وجبة يوم واحد[47].

لم تكن عملية التموين منتظمة بدقة في بداية الثورة ولم يكن لهذه الأخيرة مخابئ خاصة بالمؤن خاصة في الأشهر الأولى، وكان التموين يتم بصفة مباشرة عن طريق الشعب[48] حيث يتم إطعام المجاهدين ليلا لدى سكان الدواوير، وبالنهار يختفون عن الأنظار، وللنّظرة الحكيمة للثورة تركّز العمل في البداية على جمع المواد الغذائية التي لا تتلف بسرعة والتي تقاوم الظروف الطبيعية، ومن هذه المواد نذكر الروينة، الفرينة، التمور كما عملوا على جمع الحبوب من قمح وشعير ورصدها في أماكن خاصة، ونظرا لما يشكله التموين من أهمية بالغة بالنسبة لسيرورة النشاط العسكري فجنّدت له الثورة أفواجا مهمتها تأمينه بصفة دائمة، وتم تشكيل اللجان الخاصة به منذ الوهلة الأولى وكانت هذه الأخيرة تنتقل بين الدواوير والمشاتي والأعراش والقبائل لجمع الإعانات من الأغذية كما تنقلت كذلك إلى الرديّف بالتراب التونسي أين تحصلت على كميات من المواد، ولم يتقيد المكلفون بجمع التموين في بداية الثورة بأسلوب معين بل كانوا يعملون حسب الظروف المتاحة، إلا أنهم كانوا ملزمين

بأن يكون تحركهم سريعا واستراتيجيا مستغلين كل القنوات والإمكانات ما يسمح بتوفير التموين في إطار السرية[49].

3- تنظيم التموين 1956- 1958:

لأهمية التموين وتأثيره على مواصلة النشاط المسلح أَولت له قيادة الثورة اهتماما بالغا وجعلته من أولويات استراتيجياتها، عملت على تنظيمه أثناء انعقاد مؤتمر الصومام وحددت صلاحيات الأشخاص الموكلين به مسؤول التموين، لجان التموين ورصدت من الأموال ما يكفي لسد أوجه الإنفاق[50].

أوجدت الثورة منصب مسؤول التموين على كل المستويات ففي الولاية يكون برتبة ضابط، وفي المنطقة
برتبة ضابط أول، وفي الناحية برتبة ملازم أول، أما في القسمة فيكون برتبة عريف أول، اضطلع هذا المسؤول بالإشراف على جميع مراحل عملية التموين من شراء، نقل، توزيع وتخزين، بحيث يعمل على اقتناء المواد الغذائية والألبسة والأحذية والأغطية وغيرها من المواد التي يحتاجها المجاهدون من تجار القرى والمدينة بناءا على قوائم الاحتياجات المقدمة، وبعد الحصول على هذه المواد يشرف على حفظها في مخابئ خاصة أعدت خصيصا لهذا الغرض، يتكفل بحراستها عناصر المجاهدين، أما الأنعام من الأغنام والأبقار فيتم إيداعها بشكل مؤقت لدى المدنيين بالأرياف أو يتم تجميعها في مكان واحد، وفي الحالات العسيرة لاسيما حالات الحصار وخشية من اكتشافها من قبل وحدات جيش العدو فإنها تُذبح لإطعام المجاهدين وأفراد الشعب معا لاسيما المعوزين منهم بالأرياف والمداشر[51].

وللإشارة فإنه حدث وأن تم إيداع التموين لدى أفراد الشعب بتبسة بالدواوير والواقعة بالتضاريس الصعبة والبعيدة نوعا ما عن أعين السلطات

الفرنسية، سواء كانت هذه المؤن عبارة عن حبوب أو مواشي لكن بشرط إعلام إدارة المنطقة بذلك[52]، وحتى تحافظ الثورة على كل صغيرة وكبيرة فيما يخص إيراداتها ألزمت كل مسؤول سياسي على كل مستوى بحصر شامل لكل ما يملكه جيش التحرير الوطني من حيوانات وتبرعات وزكاة[53].

من المتفق عليه أنه تم إنشاء لجان بالدواوير والقرى والمدن[54] تتكفل بعدة مهام أساسية[55] منها جمع الأموال والتموين[56] والذي كانت تعد له مخابئ ومراكز خاصة، تخصص هذه اللجان فرق خاصة في الحدادة، الخياطة، صنع الأحذية، صيانة الأسلحة، طحن الحبوب، رعاية الماشية، يشرف عليها عريف التموين، وضِمن هذه اللجان هناك خلايا مكلفة بعملية الشراء، وفضلا عن مهمتها الأساسية فهي تنظم وترتب كذلك المسالك التي تمر بها شبكة الاقتناء، وكثيرا ما استعانت بالنساء وحتى فئة الأطفال، وهناك أيضا خلايا التوزيع مهمتها توزيع المؤن على المراكز، أما خلايا النقل والتخزين فمهمتها استلام المؤن حيث تعمل على حفظها ونقلها[57]، كما تمثلت وسائل النقل[58] في السيارات، الشاحنات، البغال، الأحمرة، الجمال، تستخدم تبعا لطبيعة المنطقة ومشاكلها وأيضا حسب نوع المؤونة[59].

ولضبط عملية التموين أكثر اشترطت الثورة توفر عدد من السجلات والدفاتر والتي يُسجّل بها كل الإيرادات والنفقات على جميع المستويات قسمة، ناحية، منطقة، ولاية، وتم إلزام رؤساء اللجان بتقديم مختلف المحاسبات عن المداخيل المصاريف فضلا عن إلزامهم بإنجاز تقارير دقيقة ومفصلة تُقَدَّم إلى قيادة المنطقة[60] وفي هذا الصدد تبين إحدى الوثائق الأرشيفية للثورة أن الضابط الأول للمنطقة السادسة بتاريخ 09 ديسمبر 1957 طلب من لخضر بن عمار مسؤول اللجنة المدنية بتبسة أن يحضر إلى مدينة فريانة مركز قيادة

المنطقة السادسة في ظرف أسبوع مصحوبا بسجلاته ودفاتره ووثائق حساباته[61]، كما توضح وثيقة أخرى طَلَب قيادة المنطقة بتونس من نوار بن بلقاسم وسي إبراهيم بن يوسف مسؤولا لجان بتبسة الحضور إلى الحدود التونسية مصطحبين معهما السجلات والدفاتر والحسابات المبينة للعملية التموينية من جمع الإيرادات وصرف النفقات لجيش التحرير الوطني بالمنطقة[62].

ولضبط العملية التموينية بمنتهى الدقة والصرامة وللحفاظ على أموال الثورة اشترطت هذه الأخيرة تقديم

مسؤول التموين الأدنى بالقسمة تقرير دقيق ومفصل إلى مسؤول التموين الأعلى مباشرة وهكذا صعودا إلى مسؤول التموين بالولاية[63].

ومن المناضلين الذين تم تكليفهم بجمع الأموال والزكاة ومختلف أصناف التموين بتبسة نذكر على سبيل المثال: لزهاري عابر[64]، قدور قواسمية[65]، الحاج يوسف بابا إسماعيل والذي كان يمثل الواسطة بين بني ميزاب القاطنين بمدينة تبسة وقيادة المنطقة[66]، الوردي بن عثمان سعد[67]، حمه حمدادو والذي كان قطاع تحركه ونشاطه هو مدينة تبسة[68]، محمد بن سلطان باهي[69]، محمد عيدودي بن محمد[70]، موسى لعروسي[71]، محمد خالدي بن بلقاسم، علي خالدي بن الحسين[72].

ولتيسير عملية جمع الأموال والتبرعات وغير ذلك ولإبعاد أي شكوك حول نشاط المناضلين كانت قيادة المنطقة تمنحهم اعتمادات[73]، والاعتماد هو وثيقة تبين تكليف المناضل بمهام وهذا لتسهيل عمله ولتفادي أي عملية ابتزاز قد تحدث[74]، وإذا انتاب المناضل شك في كشف السلطات الفرنسية له فقبل القبض عليه يلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني بالجبل ويبدأ مسيرته

الجديدة كمسلح[75]، هذا إذا لم تكلفه قيادة المنطقة بمهام أخرى بالتراب التونسي[76].

أما فيما يخص مخابئ ومراكز الثورة فلقد عمل جيش التحرير الوطني على حفر مخابئ في المناطق الغابية والأماكن المستترة والتي يصعب كشفها من قبل العدو وأعوانه ومن هذه المخابئ ما يخصص لتخزين التموين سواء كان أغذية، ألبسة، أغطية وأدوية...وأخرى للسلاح، وغيرها يستريح بها المجاهدون[77]، وتم تكليف أفواج من المجاهدين بجلب الذخيرة والتموين بمختلف أشكاله وتخزينه، والسهر على حفظه وحراسته وتحمل مشقة نقله من مكان إلى آخر حسب المتطلبات والاحتياجات[78].

ومن أنواع هذه المخابئ العسكرية التي يُنشِأُها فوج من الهندسة العسكرية للمجاهدين بالجبال والتضاريس الصعبة وقرب المراكز يشرف عليها جندي برتبة عريف والذي هو في نفس الوقت مسؤول المركز في آن واحد[79]، أما المخابئ المدنية تشرف عليها اللجان الشعبية والتي بدورها تكلف المسبلين بحفرها[80] أو حتى بعض الأفراد من عامة الناس لكن بشرط الوثوق فيهم[81]، ويتم إنشاء هذا النوع من المخابئ في الأماكن التي لا تثير شك السلطات الاستعمارية كالإسطبلات، البساتين، المقابر، المنازل، وفي الأماكن المنحدرة وقرب الأودية[82]، يتم فرشها بنبات الحلفاء والديس[83]، كما يتم تلبيس هذه المخابئ بالجبس أو الإسمنت وتسقيفها وترك منافذ بها بغرض التهوئة وجعل لها فوهة(بوابة صغيرة)، تغطى هذه المخابئ بصخرة أو بالأعشاب والأغصان من نفس نباتات المكان، وهناك بعض المخابئ التي تُجْعَلُ فيها رفوف قصد تنظيم وترتيب مواد تموينية معينة، أما الذخيرة الحربية فكانت توضع في صناديق خشبية أو حديدية وسط نفايات النجارة تجنبا لتلفها[84].

ومن الأماكن التي حفرت بها مخابئ بتبسة نذكر قارة الرعيان، حدب البقرات، الغريرة، بوسكيكين، ظهيرة بوجلال، قابل بوجلال[85]، تمصميدة، بئر الحفرة، خشم الكلب، بيرانو بالحدود التونسية[86].

لعبت هذه المخابئ دورا كبيرا في الحفاظ على مختلف تموين وذخيرة جيش التحرير الوطني وحتى على وثائقه والأوراق المالية التي كانت توضع في أواني زجاجية حتى لا تُتْلف، وأحيانا اكتشف جيش العدو هذه المخابئ بفعل وشاية عملائه أو حتى نتيجة اعتراف بعض المجاهدين أو المناضلين المقبوض عليهم والذين تعرضوا إلى أشد عمليات التعذيب[87]، ومثال ذلك اكتشاف مخبأ للتموين بناحية تبسة اثر عملية اشتباك وتفتيش واسعة بتاريخ 30 نوفمبر 1955[88]، وكذلك اكتشاف مخبأين للتموين يوم 09 ديسمبر 1955 اثر عمليات الاستطلاع والتفتيش المتزامنة مع الهجومات التي شنها جيش التحرير الوطني على مزارع الكولون والأشخاص الموالين للاستعمار، كما تم اكتشاف مخبأ آخر بتاريخ 13 ديسمبر 1955 احتوى على مقدار طن ونصف من السكر والفرينة وصندوق من الأدوية وألفي خرطوشة حربية ومنظار[89]، ورغم ذلك تواصل تموين جيش التحرير الوطني وكانت الثورة كلما فقدت مخابئ إلا وسارعت وأنشأت بديلا عنها[90].

أحيانا اسْتُخْدِمت هذه المخابئ لتستّر جيش التحرير الوطني عن أعين العدو وهذا لما تستحيل المواجهة أو في حالات الحصار، وأحيانا مكثوا فيها أثناء تحرير مراسلتهم وتقاريرهم وسحب مناشيرهم وغير ذلك ونميز بين مخابئ مجالس القسمة، الناحية، المنطقة، ويجهل كل مجلس مخبأ المجلس الآخر، واسْتُعمِلت مخابئ أخرى كورشات لصناعة الأحذية أو الألبسة، ومن مخابئ منطقة تبسة نذكر مخبأ محمد بن علي فارس، مخبأ عثمان فارس، مخبأ محمد بن بوبكر

السويح، مخبأ زروال رمضاني، مخبأ محمد رمضاني، مخبأ حمه رمضاني، مخبأ مسعود قرقاح، مخبأ عمران قرقاح[91]، مخابئ جبل نوال، مخابئ جبل بوجلال[92].

في بداية الثورة كان جنود جيش التحرير الوطني يتموّنون لدى أفراد الشعب، لكن بانتشار الثورة وباتساع وعاء التجنيد أنشأ المجاهدون مراكز عديدة يقصدونها للتموّن أو لأخذ قسط من الرّاحة أو لتفكيك وصيانة أسلحتهم أو حتى للتدريب، وتم إنشاء هذه المراكز في شكل مغارات أو دهاليز أو كهوف طبيعية ومن شروط إنشائها أن تكون أراضيها صلبة حتى لا تتأثر بالعوامل الطبيعية كالثلوج، الأمطار، السيول، فضلا عن مراعاة شروط التهوئة، كما أنها لا تقام بالمواقع الإستراتيجية لأن دخول وخروج فرق جيش التحرير الوطني يؤدي إلى كشفها من قبل جيش العدو[93].

هناك من المراكز التي كانت تُعَدُّ بها وجبات الطعام والتي تُنقل إلى فرق المجاهدين حيث يتعذر عليها المجيء إلى هذه المراكز بسبب تواجد جيش العدو بالأماكن القريبة، يتولى النقل المسبلون والمدنيون وأحيانا يحملون الوجبات على أكتافهم وغالبا على ظهور البغال، علما انه في بعض مناطق الولاية الأولى خُصصت بعض المراكز لإطعام أفواج الاتصال وغيرها لأفواج الكومندو، في حين كانت الكتائب تتمون بالمراكز الكبيرة المتواجدة بالمواقع الإستراتيجية، كما خُصصت مراكز أخرى للمرضى والجرحى[94]، ومن مراكز منطقة الدراسة نذكر مركز جبل أم خالد، مركز داموس الحجر، مركز قرن الكبش (جبل العنق)، مركز الغنجاية (ثليجان)، مركز بئر العطوش، مركز القليلة، مركز تازبنت، مركز الدريمين، مركز شقاقة اليهودي، مركز قريقر، مركز تروبية (سردياس)، مركز تازربونت، مركز طويلة، مركز هنشير الزرادمة[95]، مركز جبل الجرف، مركز ارقو وادي هلال، مركز أم الكماكم، مركز الجبل الأبيض، مركز البياض، مركز العلق،

مركز مسحالة، مركز بوجلال، مركز الحوية، مركز جبل نوال، مركز الدكان، مركز عين اليبوش، مركز الدرمون، مركز جبل فوة، مركز ارقو (واد المشرع)، مركز تمطيلية، مركز الخناق الاكحل، مركز خنقة الصفصاف، مركز واد الطاقة، مركز غفون، مركز زواريف، مركز الزريقة، مركز فج النحلة، مركز بوقافر، مركز عين الغرم، مركز فجوج الطين، مركز عين الحامية، مركز الزرداب، مركز بتيتة[96]، مركز الصنايع والذي كان يشرف عليه احد المناضلين وزوجتاه وأحيانا حتى أبناء عمومته وكان تحضير الوجبات به متواصلا دون توقف كما كان يتم إيداع أنعام جيش التحرير الوطني به[97]، بالاضافة إلى مراكز حدودية منها مركز وادي الرياحي، مركز بئر الحفرة، مركز جبل الشعانبي، مركز عين الاكحل، مركز برج المقراني، مركز بيرانوا، مركز جبل السيف، مركز فريانة، مركز القصرين، مركز تالة، مركز مداس، مركز تمغزة، مركز قفصة، مركز الرديف، مركز جبل النقب[98].

يعود سبب كثرة هذه المراكز إلى تزايد عدد جيش التحرير الوطني وكذلك لتحاشي جمع المؤونة في مكان واحد، كما أن توزيع المجاهدين على عدة مراكز يضمن اليقظة والأمن والسرعة في تحضير الطعام وإعداد الكمية اللازمة، وكذلك لاختلاف مواقيت عودة المجاهدين فمنهم من يصل في منتصف الليل ومنهم من يصل في آخره، وهكذا يصبح العدد القليل من المراكز لا يتيسر له إعداد الوجبات اللازمة في وقت قصير، ويسهر على هذه المراكز الكثير من النساء والرجال.

يتولى إدارة هذه المراكز بالنسبة للمنطقة مجاهدون مختارون، أما مراكز الناحية أو القسمة فيُديرها مسبلون ومدنيون مخلصون، ولضبط محاسبات هذه المراكز اشترطت الثورة على أن يكون لكل مركز بطاقة فنية وإدارية كما

أَلزمت مسؤوليهم بمسك سجلات خاصة لتقديم حسابات دقيقة على التموين بدءا من مسؤول التموين بالقسمة صعودا إلى مسؤول التموين بالولاية[99].

تذكر الشهادات الحية أن هناك من المدنيين من كانت بيوتهم مراكز للمجاهدين خاصة أولئك الذين كانوا يسكنون بالمناطق ذات التضاريس الوعرة والبعيدة نوعا ما عن أعين السلطات الفرنسية وأذنابها[100] ومن هذه الديار بيوت الحجاج الخذايرية في برزقال، بيت زواي، بيت عياد براكني بالدكان، بيت علي بن الطيب قماطي الفرشيشي بأم علي[101]، بيت الزين بن زغاد والذي هو احد عناصر جيش التحرير الوطني، مثلت داره مأوى للمجاهدين ومركز لإطعامهم وللاتصالات والاستعلامات وقد أُستشهد جميع أَبنائه سنة 1958 اثر مجزرة ارتكبها الجيش الفرنسي في حق أهل الدوار سنة 1958 بسبب وشاية أحد القومية[102].

في إطار تنظيم التموين قررت لجنة التنسيق والتنفيذ في اجتماعها المنعقد في افريل1958 إقامة توزيع جديد للمهام وتم إنشاء دوائر جديدة منها دائرة التسليح والتموين العام والتي حلت محل المصالح الامدادية الموجودة سابقا، وفي فترة لاحقة وبعد استقرار وحدات جيش التحرير الوطني بالحدود أصبح يتم إيصال التموين إليه حسب طلب قيادة الحدود لما يكفي لمدة ثلاث أشهر للعدد المتواجد فعلا، والمواد المطلوبة هي المعتاد عليها والمقنّنة سابقا وتحتوي على أنواع الحبوب الجافة، العجائن، سكر، بن، زيت وغير ذلك من المواد التموينية، ويشرف على اقتناء الخضر المكلفين في مديرية التموين لصعوبة توزيعها في وقت قصير بسبب سرعة تلفها[103].

4- عراقيل العملية التموينية:

اعترضت الثورة مشاكل عويصة أثرت على سيرورة العملية التموينية حتى أنه في فترات معينة انعدم طعام المجاهدين إلى درجة أنهم اقتاتوا من الأعشاب والحشائش لاسيما أثناء بداية الثورة وفرض حالة الطوارئ والتي صعبت من مهمة المكلفين بجمع التموين وخاصة في المناطق المحاصرة، ومن هذه العراقيل نذكر:

ترحيل وتجميع السكان في المحتشدات والمراقبة المستمرة من طرف قوات العدو وبالتالي محاولة عزل[104] جيش التحرير الوطني ومهاجمة كل مصادر تموينه، وإحصاء السكان وتوزيع المواد الغذائية بدقة وتفتيش المنازل ومحاصرة مداخل ومخارج المدن والقرى والأرياف ومراقبة تحركات المجاهدين.

قَنبلة قرى ودواوير بكاملها بسبب أنها تدعم الثورة ونهب وإتلاف المحاصيل الزراعية وقطع الأشجار المثمرة وتسميم المياه الصالحة للشرب[105]، ومراقبة جميع التحركات بالأرياف والقرى والجبال أثناء ما عرف بالتربيع (الكادرياج) مما أدى إلى اكتشاف الكثير من مخابئ التموين خاصة بالجبال الجرداء والمناطق العارية، والحصار الاقتصادي على الولاية الأولى والمراقبة الشديدة وعمليات التجويع ومصادرة المحاصيل الزراعية، وتوسيع المناطق المحرمة وتطبيق سياسة الأرض المحروقة[106] والنشاط القمعي للمصالح الإدارية المتخصصة[107] المنتشرة عبر تراب المنطقة[108] وإنشاء السدود المكهربة[109]، ورغم هذه الإجراءات القاهرة استمر المدنيون بالمدن والقرى والمداشر والأرياف في تموين الثوار بمختلف المواد التموينية من غذاء وألبسة وأدوية ومختلف الحاجيات الضرورية التي كانت تتطلبها العملية التّحريرية[110].

في نهاية هذا العرض المتعلق بتموين الثورة في منطقة تبسة للفترة 1954-1958 نصل إلى الاستنتاجات التالية:

- اعتنق أفراد الشعب الجزائري الثورة منذ الانطلاقة وتحملوا أعباء التموين بنسبة مئة بالمائة خاصة في المرحلة الأولى، فكان طعام ولباس جيش التحرير الوطني على عاتق الفلاحين بالدواوير والمداشر والقرى وسخّروا بيوتهم ومزارعهم وأنعامهم لخدمة الثورة.

- تم تنظيم وضبط التموين فأصبح هناك ما يسمى بالمشرف على التموين والذي يضطلع بجميع المراحل المتعلقة به من شراء ونقل وتوزيع وتخزين، واختصت اللجان بجمع الأموال والمواد التموينية المختلفة وإعداد المخابئ وترتيب المسالك وغير ذلك.

- اشترطت قوانين الثورة توفر دفاتر وسجلات ووثائق لإثبات تفاصيل العملية التموينية وكل ما تعلق بجمع الإيرادات وصرف النفقات.

- كان لمراكز ومخابئ جيش التحرير الوطني أهمية كبيرة في إيداع وحفظ التموين، كما أدى المناضلون من أفراد الشعب الدور الريادي في جمع وتخزين المواد التموينية.

- واجهت الثورة عراقيل كثيرة في بحثها عن التموين إلا أنه بتكثيف وتوحيد الجهود تمكنت من تذليل هذه الصعاب وتأمين إمدادها.

---

[1] – أصدرت الحكومة الفرنسية مرسوم رقم 28 بتاريخ 28 أكتوبر 1955 يمنع اقتناء المواد الكيميائية (الأودية) والكحول دون رخصة من السلطات المختصة، انظر:

Mohamed Guentari: Organisation politico-administrative et militaire de la révolution algérienne 1954– 1962, vol 01, office des publications universitaires, (Alger), 2000, p 300.

[2]- شهادة محمد (حمه) حسن: مقابلة شخصية معه يوم 16 مارس 2015 بمنظمة المجاهدين لولاية تبسة.

[3]- تبرعات المدنيين بمختلف العطاءات لصالح الثورة كثيرة جدا لا تعد ولا تحصى ومنها على سبيل المثال تبرع عدة فلاحين ومزارعين من ناحية سوق أهراس بتاريخ 11 جانفي 1956 بـ 138 كبش و94 خروف. أنظر: جريدة البصائر: ملف يوميات الأزمة الجزائرية، العدد 350، 20 جانفي 1956، ص 06 .

[4]- بوبكر حفظ الله: التموين والتسليح إبان ثورة التحرير الجزائرية 1954 - 1962، دار العلم والمعرفة، الجزائر، 2013، ص60.

[5]- شهادة حمه حمدادو: مقابلة شخصية معه بتاريخ 19 فيفري 2014 ببيته بتبسة.

[6] - شهادة الوردي قتال: مقابلة شخصية معه بتاريخ 25 ديسمبر 2014 ببيته بتبسة.

[7] – وثيقة أرشيفية: أرشيف ملحقة متحف المجاهد محمود قنز ولاية تبسة، أرشيف غير مصنف.

[8]-عمر تابليت: الأوفياء يذكرونك يا ...عباس لغرور، دار الألمعية، (قسنطينة، الجزائر) ص 82 .

[9] - Mohamed Laarbi Madaci: les tamiseurs de sable Aures- Nememcha 1954- 1959, p114 .

[10] - شهادة محمد الصالح رشراش: مقابلة شخصية معه بتاريخ 05 ماي 2015 ببيته بتبسة.

[11] - شهادة إبراهيم قاسمي: مقابلة شخصية معه بتاريخ 08 مارس 2015 بمنظمة المجاهدين لولاية تبسة.

[12] - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص60 .

[13] – archive de la wilaya de Constantine, Préfecture de Constantine (centre de liaison), bulletin N° 06 informations du 05 au 06 Janvier 1957.

[14]-كانت الغنائم مصدرا أساسيا للتموين في كامل التراب الوطني لذلك لم يتردد المجاهدون في مهاجمة مزارع الكولون فبتاريخ 06 ديسمبر 1955 تم الهجوم على مزرعة جيانت في بيزو،

وإشعال النيران بها وغنم 06 أبقار و85 رأس من الغنم أنظر: جريدة البصائر: ملف يوميات الأزمة الجزائرية، العدد 345، 16 ديسمبر 1955، ص 05 .

[15] - شهادة إبراهيم قاسمي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[16] - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 39 .

[17] - شهادة لسود مسعي: مقابلة شخصية معه بتاريخ 25 أفريل 2015 ببيته بتبسة.

[18] - جريدة البصائر: ملف يوميات الأزمة الجزائرية، العدد 359، 23 مارس 1956، ص 08 .

[19] - جريدة البصائر: ملف يوميات الأزمة الجزائرية، العدد 360، 30 مارس 1956، ص 06 .

[20] - شهادة الصادق رزايقية: مقابلة شخصية معه بتاريخ 12 سبتمبر 2015 ببيته بتبسة.

[21] - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 61 .

[22] - شهادة عبد اللطيف حفظ الله: مقابلة شخصية معه بتاريخ 20 أفريل 2015، ببيته بتبسة .

[23] - شهادة حمه هنين: مقابلة شخصية معه بتاريخ 23 ديسمبر 2014 بمقر جمعية الجبل الأبيض لولاية تبسة.

[24] - عبد المجيد بوزبيد: الإمداد خلال حرب التحرير الوطني، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 72 .

[25] - شهادة احمد حفظ الله: مقابلة شخصية معه بتاريخ 16 مارس 2015 بمنظمة المجاهدين لولاية تبسة.

[26] - شهادة بوزيان براهمي: مقابلة شخصية معه بتاريخ 20 نوفمبر 2015 ببيت شقيقه عبد الحميد.

[27] - شهادة حمه حمدادو: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[28] – وثيقة ارشيفية: الارشيف الخاص للمناضل حمه حمدادو.

[29] - أرشيف ملحقة متحف المجاهد محمود قنز ولاية تبسة، أرشيف غير مصنف.

[30] - من عائلة من بني ميزاب من غرداية والتي قدمت إلى تبسة سنة 1924 حيث استقرت بالمنطقة وبالضبط بوسط المدينة، عموما مارست هذه العائلة تجارة الأقمشة بتبسة

ولازالت على هذا الأمر إلى حد الآن. شهادة سليمان بلالو: مقابلة شخصية معه بتاريخ 20 افريل 2016 بمحله بتبسة.

31 - المقابلة نفسها.

32 - جمال قنان: لمحة تاريخية عن جيش التحرير الوطني، أعمال الملتقى الدولي حول نشاط وتطور جيش التحرير الوطني، المنعقد بفندق الأوراسي من 02 الى 04 جويلية 2005، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954 ، الجزائر، 2010، ص 68 .

33 - عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، ج 01، دار العثمانية، (الرغاية، الجزائر)،2013، ص 308 .

34 - شهادة بلقاسم فرصادو: مقابلة شخصية معه بتاريخ 30 سبتمبر 2015 ببيته بتبسة.

35 - شهادة الصادق رزايقية: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

36 - شهادة محمد(حمه) حسن: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

37 - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 41 .

38 - شهادة عبد اللطيف حفظ الله: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

39 - شهادة الصادق رزايقية: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

40 - شهادة بلقاسم فرصادو: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

41 - شهادة الزهرة بوراوي: حصة إذاعية، اذاعة تبسة يوم 08 مارس 2000.

42 - يوسف مناصرية: الأسلاك الشائكة وحقول الألغام، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 16 .

43 - تميز أول شتاء للثورة بقساوته وكان المدنيون هم في حد ذاتهم يعانون نقص الغذاء أنظر:

Alistaire Horne: Histoire de la guerre d Algérie, TR :Yves du Guerny en collaboration avec Philippe Bourdel, Dahleb, Alger , p107.

44 - أثناء بداية الثورة كان بكل دوار مناضل أو أكثر، وكانت أفواج المجاهدين لمّا ترغب في تناول وجبة طعام ما عليها إلى الإتصال بذلك المناضل والذي يكون أمام أمرين إما أن تكون

حالته ميسورة فيكلف عائلته بإعداد الطعام، أو أن تكون عكس ذلك، فيطلب من العائلات المقتدرة إعداد وجبة الطعام، وبعد تحضيرها يُخبر المجاهدون فيدخلون الدوار ويتناولون ما تم إعداده من مأكولات. شهادة الصادق رزايقية: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

45 - كان الثوار يمرون وأحيانا يبلغ عددهم 150 مجاهد يدخلون الدوار ويتناولون الوجبة وغالبا هي طعام الكسكسي، ولما يتأهبون للخروج يقدّم لكل مجاهد كِسرة للتزود بها فيتساءلون:"هل النسوة كن يحضِّرن الكسكسي أم يطهون الكِسرة؟".شهادة ابراهيم قاسمي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

46 - المصدر نفسه.

47 - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 57 .

48 – عبر كامل تراب الجزائر تحمل الفلاحين أعباء الثورة وتحولوا إلى مكافحين رئيسيين وربطوا نضالهم من اجل تحرير الأرض واسترجاع السيادة الوطنية، انظر:

Mohamed Teguia: L'Algérie en guerre, Office des publications universitaires, Alger, p 169.

49 - بوبكر حفظ الله :المرجع السابق ، ص54، ص ص 57-59 .

50 - المرجع نفسه، ص 57 .

51 – المنظمة الوطنية للمجاهدين: التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع لتسجيل أحداث الثورة التحريرية من جانفي 1959 إلى 05 جويلية 1962، التقرير السياسي، الجزء01، ص ص 55-56، ص ص 22-25 .

52 - شهادة لسود مسعي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

53 – وثيقة أرشيفية: الأرشيف الخاص للمناضل حمدان سعدي.

54 – المنظمة الوطنية للمجاهدين: التقرير الولائي لكتابة تاريخ الثورة بتبسة، الملتقى الجهوي بقسنطينة المنعقد من 08 الى 10 ماي 1983، ص 03.

55 - المنظمة الوطنية للمجاهدين: الندوة الولائية لكتابة تاريخ الثورة (تبسة)، المنعقدة في09 و10 سبتمبر1984، ص 12 .

[56] - شهادة بلقاسم فرصادو: مقابلة شخصية،المصدر السابق.

[57] - نظيرة شتوان: الثورة التحريرية 1954-1962 الولاية الرابعة نموذجا، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتورا في التاريخ المعاصر، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2008، ص 394 .

[58] - نستطيع أن نميز نوعين من النقل فالأول مدني يقوم به المدنيون بما فيهم المناضلون في المدن والقرى إلى مراكز جيش التحرير الوطني، وتختلف المواد المنقولة بين مواد غذائية، أدوية، أسلحة، ذخيرة، كما تختلف وسائل النقل فتكون السيارات والشاحنات بالمدينة وعلى ظهور البغال والأحمرة والجمال في البوادي، أما النوع الثاني فهو النقل العسكري فيما يخص الأسلحة والذخيرة والتي تنقلها دوريات المجاهدين وقد يستعينون بالفدائيين مستعملين الوسائل السالفة الذكر، ويتم النقل غالبا ليلا. أنظر: المنظمة الوطنية للمجاهدين: التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل أحداث الثورة التحريرية من 20 أوت 1956 الى 31 ديسمبر 1958، ص 102 .

[59] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 56 .

[60] - شهادة محمد الصالح رشراش: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[61] – وثيقة أرشيفية: الأرشيف الخاص لحمدان سعدي.

[62] – وثيقة أرشيفية: الأرشيف الخاص لحمدان سعدي.

[63] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 82 .

[64] - وثيقة أرشيفية: أرشيف جمعية 04 مارس 1956 للبحوث التاريخية والدراسات تبسة، أرشيف غير مصنف.

[65] - وثيقة أرشيفية: أرشيف متحف المجاهد محمود قنز تبسة، أرشيف غير مصنف.

[66] - شهادة سليمان بلالو: مقابلة شخصية، المقابلة السابقة.

[67] – وثيقة أرشيفية: الأرشيف الخاص لحمدان سعدي.

[68] - شهادة حمه حمدادو: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[69] – وثيقة أرشيفية: أرشيف جمعية الجبل الابيض تبسة، أرشيف غير مصنف.

[70] – وثيقة ارشيفية: ارشيف متحف المجاهد: محمود قنز تبسة، ارشيف غير مصنف.

[71] – وثيقة ارشيفية: ارشيف جمعية 04 مارس 1956 للبحوث التاريخية والدراسات، تبسة، ارشيف غير مصنف.

[72] - شهادة احمد حفظ الله: مقابلة شخصية،المصدر السابق.

[73] - هذه الاعتمادات لتيسير مهام المناضل وإبعاد أي شكوك حول مصداقيته، لكنها إذا سقطت في أيدي جيش العدو فإنها تعرض ذلك المناضل وعائلته للخطر، لذلك يعمل المناضلون غالبا لإخفائها في مكان ما تحت التراب، أو بوضعها بقنينة زجاجية وإذا أحس المناضل بخطر ما فإنه يلجأ إلى إعدام هذه الوثيقة عن طريق حرقها، وعموما كان المناضلون بالمنطقة مجال الدراسة لا يحبّذون التعامل بالوثائق ويخشون حملها أو إظهارها. شهادة إبراهيم قاسمي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[74] – المصدر نفسه.

[75] - شهادة حمه حمدادو: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[76] - شهادة حمه هنين: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[77] - شهادة إبراهيم قاسمي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[78] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص79 .

[79] - المصدر نفسه.

[80] - نفسه، ص80 .

[81] - شهادة إبراهيم قاسمي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[82] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 80 .

[83] - شهادة خالد فتحون: مقابلة شخصية معه بتاريخ 09 ماي 2015 ببيته بتبسة

[84] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق،ص 80 .

[85] - شهادة محمد الصالح رشراش: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[86] - شهادة عبد الله سعدي: مقابلة شخصية معه بتاريخ 25 مارس 2015 ببيته بتبسة.

[87] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 80 .

[88] - جريدة البصائر: ملف يوميات الأزمة الجزائرية، العدد 344، 09 ديسمبر1955، ص 07 .

[89] - جريدة البصائر: ملف يوميات الأزمة الجزائرية، العدد 346، 23 ديسمبر 1955، ص 08، ص 06 .

[90] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 80 .

[91] - المصدر نفسه، ص ص 80-81، ص 124.

[92] - شهادة أحمد حفظ الله: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[93] - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 64 .

[94] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 81 .

[95] - جمعية الجبل الأبيض لتخليد وحماية مآثر الثورة، أشغال ملتقى دور مناطق الحدود إبان الثورة التحريرية،(تبسة)، ص 178 .

[96] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 112 .

[97] - شهادة محمد (حمه) حسن: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[98] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص 112 .

[99] - المصدر نفسه، ص 112، ص ص 81- 82 .

[100] - شهادة حمه هنين: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[101] - شهادة لسود مسعي: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[102] - عمار جرمان: من حقائق جهادنا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، (عين مليلة، الجزائر)،2009، ص 234 .

[103] - احمد قادري: تواجد جيش التحرير الوطني الجزائري بالحدود التونسية وتطورات أنظمته، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني المنعقد في فندق الأوراسي بالجزائر من 02 إلى 04 جويلية 2005 ،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة نوفمبر1954، ص 339 .

[104] - Yves Courrière: la guerre de l'Algérie (le temps des léopards), Rahma, Alger, 1993 , p 587.

[105] - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 40، ص ص 59- 60، ص 55 .

[106] - التقرير الجهوي للولاية الأولى المقدم للملتقى الوطني الرابع: ج1، التقرير السياسي، المصدر السابق، ص ص 55-56 .

[107] – أنشأها جاك سوستال في الجزائر المستعمرة في 05 سبتمبر 1955، أنظر:

Bernard Crochet, Gerard Piouffre: Guerre d'Algérie, Nov édit, Paris, 2007 , p 122.

[108] – شهادة حمه هنين: مقابة شخصية، المصدر السابق.

[109] - شهادة الصادق رزايقية: مقابلة شخصية، المصدر السابق.

[110] - بوبكر حفظ الله: المرجع السابق، ص 56 .

الكاتب: ط.د /آلاء ياسين دياب
جامعة دمشق/سوريا

عنوان المقال: رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء اشكالية التأليف

البريد الالكتروني: alaayasendyab@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/01/15 تاريخ القبول: 2019/02/04 تاريخ النشر: 2019/03/28

رسائل اخوان الصفاء و خلاّن الوفاء اشكالية التأليف

The aspects The Rasail ikhwan l safa wa khillan al wafa
Epistles of the Brethen of Purity and Loyal Friends

الملخص بالعربية:

يحاول لا يزال اخوان الصفا مجهولي الهوية و لا تزال الآراء تتضارب حول حقيقتهم، و قد قدم الباحثون فرضيات عديدة محاولين الاهتداء الى معرفتهم.بعد العرض الموجز لهذه الفرضيات سأقدم فرضيتي التي تقول ان ابن المقفع هو مؤلف الرسائل ،ثم وقعت الرسائل في يد أبي حيان التوحيدي ،فاستكمل بناءها ،وعند اكتمالها أعلن عنها في مجلس الوزير ابن سعدان(1)،ثم أضيفت اليها بعض الإضافات من قبل الأفراد الذين انتسبوا الى جماعة اخوان الصفاء،سأحاول أن أدعم رأيي بما تسنى لي من أدلة و شواهد.

كلمات مفتاحية: إخوان الصفاء، رسائل ، التأليف.

Abstract

ikhwān al-ṣafā' are still anonymous, and opinions are still conflicting about what they are, and the researchers have presented many hypotheses trying to find their knowledge. After the brief presentation of these hypotheses, I will present my hypothesis that the son of the muqafa is the author of the letters, and then the letters were signed by Abu Hayyan al-Tawhidi. He completed their construction. Upon completion, it was announced in the Council of Minister Ibn Saadan. They have joined the Brotherhood of Siva, and I will try to support my opinion with all the evidence I have.

Key Words: *ikhwān al-Ṣafā', The Rasā'il, Authoring ikhwān al-Ṣafā', The Rasā'il, Authoring.*

1. مقدمة

عُرف إخوان الصفاء وخلّان الوفاء من خلال رسائلهم الّتي ظهرت في البصرة، فقد ضمنوها آراءهم وأفكارهم الّتي كتبوها في اثنتين وخمسين رسالةً، وهم جماعةٌ يكتنفها الغموض من كل جانبٍ، فلابدّ أن نتعلّق بكلّ يقينٍ صدر منهم؛ نظراً لكون معظم الدّراسات تمحورت حول ما كُتِب عنهم حيث إنّهم "**...صنّفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة، عِلميّها وعَمليّها، وأفردوا لها فهرستاً وسمّوها رسائل إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء...**"[(2)]، وأوّل المصادر التّاريخيّة الّتي تحدثت عن إخوان الصّفاء كان الإمتاع والمؤانسة للتوحيديّ، ثمّ نُقلت روايته مع بعض محاولات التّفسير في عددٍ من المصادر اللّاحقة له [(3)] ؛ لذلك يقدم هذا البحث محاولة جادة من أجل تحديد أسماء مؤلّفي الرسائل، فقد تعدُّدت الآراء حول أسماء مؤلّفي الرسائل، واختلف الباحثون في معرفة حقيقة إخوان الصّفاء، وتسميتهم، والمكان الذي بثّوا منه دعوتهم الفكريّة والإصلاحيّة، فهدف البحث إلى تقديم فرضية تقول: إنّ **ابن المقفع** هو مؤلف الرسائل، ثمّ وقعت الرسائل في يد **أبي حيان التوحيدي**، فاستكمل بناءها، وعند اكتمالها ، أعلن عنها في مجلس الوزير ابن سعدان، ثمّ أضيفت إليها بعض الإضافات من قبل الأفراد الذي انتسبوا إلى جماعة إخوان الصفاء.

2. الإطار النظري:

من المتّفق عليه أنّ أوّل إشارة إلى إخوان الصّفاء وردت في خبر التَّوحِيديّ عندما سأله الوزير عن مذهب زيد بن رفاعة :" **قلت: لا يُنسب إلى شيءٍ، ولا يعرف برهطٍ، لجيشانه بكلّ شيءٍ، وغليانه في كلّ بابٍ، ولاختلاف ما يبدو من بسطة تِبيانه، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعةً جامعةً لأصناف العلم وأنواع الصّناعة؛ منهم أبو سُلَيمَان محمد بن مُعشرٍ البُيستيّ ويعرف بالمَقدِسِيّ، وأبو الحَسَن علي بن هَارون الزَّنجَانِيّ، وأبو أحمد المِهرَجَانِيّ والعُوفِي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم. وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصّداقة، واجتمعت على القدس والطّهارة والنّصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنّهم قرّبوا به الطّريق إلى الفوز**

برضوان الله والمصير إلى جنّته. و ذلك أنّهم قالوا: الشريعة قد دُنّست بالجهالات، واختلطت بالضّلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلّا بالفلسفة، وذلك لأنّها حاويةٌ للحكمة الاعتقاديّة والمصلحة الاجتهاديّة، وزعموا أنّه متى انتظمت الفلسفة اليونانيّة والشّريعة العربيّة فقد حصل الكمال، وصنّفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة، عِلميّها وعَمليّها، وأفردوا لها فهرستاً وسمّوها رسائل إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبثّوها في الورّاقين، ولقنّوها للنّاس[(4)]".

انقسم الباحثون حول أمانة أبي حيان التوحيّدي، فالبعض يشك في صحة أمانته وتجرده في كل ما أودعه كتبه[(5)]، وهو حين يذكر عدد الرسائل يقارب الحقيقة، وكذلك حين يصف مضمون الرسائل، لكن إجماع الباحثين كان على رفض نسبة الرسائل إلى من ذكرهم أبو حيان، وعدم التسليم بهذه الأسماء كان هاجس الباحثين عن حقيقة إخوان الصفاء، **وأهم الفرضيات التي قدمها الباحثون:**

1. أنّ زيد بن رفاعة والمقدسي، والزنجاني، والمهرجاني والعوفي جمعوا الرسائل ولم يؤلفوها[(6)].
2. نسبة الرسائل إلى المجريطي[(7)].
3. نسبة الرسائل إلى بعض الأئمة[(8)].
4. نسبة الرسائل إلى بعض متكلمي المعتزلة [(9)].
5. نسبة الرسائل إلى بعض الصابئة[(10)]. كل هذه الفرضيات أشبعت بحثاً و دراسة.

إنّ هذا الاستعراض السّريع لايرسم شخصية واضحة لمؤلفي هذه الرسائل، ولايحدّد معالمَ دقيقةً لهم، لكنّه يدعونا إلى التّفكير والتّساؤل، فهناك أشياءُ تدفعني إلى الاعتقاد في أنّ مؤلف رسائل إخوان الصفاء هو عربي الحياة، فارسي الأصل:

أوّلها: يعدّ التوغل في النثرية، بما يتخلّلها من رواية القصص، وذكر الأمثال من الأساليب الوافدة من معالم الثقافة الفارسية. **"النثر الفني بالمعنى الصحيح كان أثراً من آثار الحياة الإسلاميّة الجديدة وحدها، وأنّ الكتابة الفنية الصحيحة كان الفرس قبل غيرهم هم الذين نهضوا ببعثها"**، هذا الرأي قال به الدكتور طه حسين[(11)] والدكتور عبد اللطيف

حمزة، وكان من أوائل القائلين بهذا الرأي الأستاذ وليم مارسيه الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس(12)، وهذا ما أؤيدّه فلا سبيل لإنكار فضل الفرس في هذا المجال، لكن عارضه الدكتور زكي مبارك (13). و رواية القصص ترد كثيراً في نصوص الرسائل، حيث يقول إخوان الصفاء: " **واعلم أنّه في الزمان السالف ذكروا أنّه كان رجل من الحكماء رفيقاً بالطب، دخل إلى مدينة من المدن، فرأى عامّة أهلها بهم مرضٌ خفيٌ لا يشعرون بعلتهم ، ...(14)"** . ويقولون في موضع آخر : " **وذلك أنّه كان رجل حكيم له أولاد صغار، وكان فيهم جماعة أذكياء فهماء نجباء، وكان فيهم جماعة أغبياء بله جهلاء...(15)"**

ثانيها: ما جاء في الرّسالة الجامعة: " **تدبر يا أخي هذا الكلام، وتبين هذا المقال تخرج بمعرفته من الجهال، وتصير إنساناً كاملاً، ترقى به إلى درجات الكمال والتّمام، إن شاء الله تعالى(16)"**، ثمّ يستتبع إخوان الصفاء حديثهم بتحديدِ مزايا الإنسان الكامل في رسالة تداعي الحيوان على الإنسان يصفونه:" **بالعالم الخبير، الفاضل الذكي المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدّين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشّامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة، الملكي الأخلاق، الرباني الرأي ، الإلهي المعارف، الصمداني، فقال: الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلّا على الظالمين وصلوات الله على خاتم الأنبياء ، وخلاصة الأصفياء ، محمد وآله أجمعين(17)"**

ثالثها: القصّ الحيواني(18)، فالخيال الإسلامي لم يتأثر بالأساطير اليونانية، نظراً إلى طابعها الوثني لكن تأثّر بالخيال الهندي، الذي شذّبه ولاءَمه الخيالُ الفارسيّ، حيث يقول إخوان الصفاء :" **ثمّ نظر الملك إلى الطوائف الحضور هناك فرأى الببغاء قاعدة على غصن شجرة بالقرب، وهي تنظر وتتأمل كل من يتكلم من الجماعة الحضور، وينطق بحكاية كلامه وأقاويله، فقال له الملك: من أنت؟ قال: أنا زعيم الجوارح من الطيور(19)"**

رابعها: أنّ الرّسائل لم تكن أوّل تجربة بالكتابة لمؤلفيها، والدّليل أنّ مؤلفّ الرّسائل كان ممسكاً بزمام السّياق، فيلجأ إلى التطويل بالجمل أحياناً، ويميل إلى القصر أحياناً؛ لإحاطة رأيه وأفكاره وتقديمها للقارئ بأسلوب إقناعيّ، فيستوفي غرضي الطول والقصر. كما نجده يدّس تارةً بعض التقنيات الأسلوبية، وموجهه الأسلوبي في كل هذا هو الإقناع، فيبقى نصّه

يحتال على قارئه، ويصوّر ويشبّه ويسرد ويطيل ويقصر، حتى يتأكدّ أنّ القارئ أصبح من مناصريه في رأيه ، فهل هذا إلّا أسلوب الضليعين بالكتابة؟!

خامسها: النبض السّياسي الخفي الذي يشعر به القارئ ولا يتلمّسه، وإجادة التّعاطي أيضاً مع المسائل التنظيميّة للمجموعات السّريّة، كل هذا لم يعرف عن العرب، لكن "**الفارسيّ يمتاز بالحكمة والسّياسة**[20]"، وفي هذا يقول إخوان الصفاء:" **وقد نرى أيها الأخ البار الرحيم ...أنه قد تناهت دولة أهل الشر وظهرت قوتهم وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنقصان، واعلم بأن الدول والملك ينتقلان في كل دهر وزمان**[21]"، وتبعاً لذلك فإنّي سأقدّم محاولةً تكشف عن مؤلّف إخوان الصفاء، وآمل أن أكون قد استوفيت جوانب اكتمالها.

ابن المقَفَّع هو مؤلّف الرسائل

وجدت تقاطعات كثيرة تكاد تجعل من أعمال ابن المقفع ورسائل إخوان الصفاء نسيجاً متآلفاً في وجوهٍ عديدةٍ منها:

أولها: أنّ ابن المقفع أدرك عصر الانتقال من الدّولة الأموية إلى الدّولة العباسية ، وشعر بحاجة هذا الدّولة الناشئة إلى ثقافة مغايرة عمّا سبق، و" **هو من الذّين شرعوا للكتّاب يومئذ شرعة جديرة هي الأخذ بثقافات كثيرة وعدم الاكتفاء بالثقافات العربية البسيطة**[22]"، فهو من أوائل الكتاب الذين استلهموا الثقافة الفارسية، وأخذوا من منابعها، وفي هذا يلتقي مع إخوان الصفاء الذين يظهر تأثرهم الواضح بالثقافة الفارسية، وإيرادهم لأبيات شعرية فارسيّة خيرُ ما يدّل على ذلك، حيث يرد في الرسائل قول الشاعر الفارسي:

بی ا تادل وجان بـخد اوند سـباریم   اندوهـ درم وغم دین ارنهـ داریم

جان رازبي دين و ديانت بفروشيم   واين عمر فنار ابره غزو كذاريم[23]

ثانيها: توجه ابن المقفع نحو الإصلاح الاجتماعي[24]، حيث يقول " **الناس رجلان :وال ومولّى عليه، والأزمنة أربعة على اختلاف حالات الناس فخيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح**

الراعي والرعية ، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم في الرد عنهم، والغيظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضتهم..[25] " ، وهذا ما نجد صداه يتردّد بقوة في رسائل إخوان الصفاء، فقد رسموا صورة عامة لمدينتهم فهي:" **مدينة روحانية فاضلة شريفة** "[26] ، وأهلها " **أخيار فضلاء، مستبصرين بأمور النفوس وحالاتها، وما يتبع ذلك من أمور الأجساد وحالاتها** "[27]

ثالثها: الفكر السّياسي المشترك بينهما، بالنسبة إلى ابن المقفع فالأثر السّاساني واضحٌ في كتابَي "الأدب الكبير[28] و"الأدب الصغير[29]"، وبعض الباحثين أرجع أصولهما إلى كتابَي "سياسه نامه" و" كايوس نامه"، فهذا الكتابان يوضّحان لنا بجلاء العقلَ الفارسيَّ المتحضّر الذي استأثرت السّياسة بأعظم حظٍ من تفكيره وعنايته، فالتّشابه في الرؤية السّياسّية بين ابن المقفّع وإخوان الصفاء أمرٌلم يكن بدواعي المصادفة!.

حيث ذكر إخوان الصفاء ما ورد في بعض الكتب المنزلة : " **أيّها السلطان إنما جعلتك خليفتي في أرضي، وألقيت عليك اسماً من أسمائي، وملكتك رقاب عبادي، وبسطت يديك في بلادي؛ لتنصف المظلوم من الظالم**[30]"، وقولهم في موضع آخر : " **وعليك يا بنيّ بعشر خصال أخرى يصلح الله تعالى بها ملكك ، ويثبت بها سلطانك...**[31]".

رابعها : الفكر الفلسفيّ، فقد ترجم ابن المقفع كتب المنطق، وهذا ما أكدّه ابن النديم والقفطيّ وابن أبي أُصَيبِعَة وصاحب كشف الظنون[32]، وذكروا مع ذلك أنّ ابن المقفع ترجم كتاباً آخر في المنطق هو (المدخل) المعروف باسم (إيساغوجي) تأليف (فورفوريوس الصوري)[33] ، كما يقول صاعد الأندلسي في طبقاته : " **إنّ أوّل علم عني به من علوم الفلسفة هو علم المنطق والنجوم، فأمّا المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدّولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، فإنّه ترجم كتب أرسطاليس المنطقية الثّلاثة وهي: 1.كتاب قاطاغورياس أو المقولات العشر. 2. باري أرمينياس أو العبارة . 3. أنالوطيقا أو تحليل القياس**[34]"، حيث يقول إخوان الصفاء: " **ممّا يدلّ على أنّ أرسطاطاليس صاحب المنطق يرى هذا الرّأي ويعتقده، كلامه في الرّسالة المعروفة بالتّفاحة**[35]".وقولهم في موضع آخر: "**ممّا يدلّ على أنّ فيثاغورس صاحب العدد ، وهو من الفضلاء الحكماء، كان يرى هذا الرّأي ويعتقده، كلامه في الرّسالة الذّهبية، ووصيّته لديوجانس**[36]".

خامسها: الأسلوب، فقد ذكر العلامة محمد كرد علي في كتابه " نصوص الأجداد" ما نصُّه:" **لم يعرف لمتقدمٍ ولا لمتأخرٍ أن نقل إلى اللسان العربي شيئاً في الأدب والعلم لا تحسّ فيه أثر اللغة المنقول عنها إلّا ابن المقفّع**[37]"، وجمل الرسائل جملٌ طويلةٌ تشبه ما يعرف من كلام ابن المقفّع في كتبه، وفي الرسائل آثارٌ للأسلوب الفارسيّ، والحرص على ذكر أسماء للمدن والأشخاص أيضاً، كما كان ديدن ابن المقفع في كتبه، ويظهر التشابه في مواضع عديدة في الرسائل، منها "...**أو هل لك أن تخرج من ظلمة أهرِمَن حتى اليزدانَ قد أشرق منه النور في فسحة أفريحون؟ أو هل لك أن تدخل إلى هيكل عاديمون....**[38]"، وبعض القصص تتقارب في المعنى واللفظ أيضاً، كما نجد عند ابن المقفع وإخوان الصفاء أسلوب السّهل الممتنع، الذي طُوِّعَ لتناول مختلف الموضوعات، فأسلوب ابن المقفع "...**فيه احتفاءٌ كثيرٌ بالمعنى، وفيه عناية باختبار اللفظ، لا يتكلف فيه سجعاً، ولا يعرف فيه زينة**[39]...". وبذلك يكون "... **رمزاً للكتابة الكلاسيكية القديمة**...". لأنّ " ...**أسلوب ابن المقفع هو أسلوب الحديث الممتاز؟ والحديث الممتاز لا يكون إلّا خطابة أو جدلاً أو مناظرة...**[40]"، كما أنّ أسلوب ابن المقفع يتشابه مع أسلوب الرسائل[41] في سرد الحكم والأمثال والقصص[42] فقد كان ابن المقفع لا يأخذ نفسه بإحكام الصلة بين العناصر السّردية، فيضع مرجانةً إلى جنب ياقوتةٍ كما كان هنالك تشابه في المواضيع، فالمواضيع تفرقت وتعددت، فتارةً يتحدث عن الصديق[43] ، وتارةً يتحدث عن الأخلاق وثالثة عن السّلطان، ورابعة عن محاسبة النفس. وهنالك تشابه في طريقة التناول أيضاً، فكان ابن المقفع يعرض للكلام عن مسألة، فيجمع ما قاله حكماء الفرس والهند والعرب، ويضم إلى هذا ما كان يصنعه من الحكم على مثالها، ثمّ يعرض رأيه فتتألف أقواله مع أقوالهم. واتبع إخوان الصفاء المسار نفسه في عرض آرائهم "**فإن من أسلوب إخوان الصفاء عرض مختلف الآراء حول الفكرة التي يناقشونها، ثمّ يقدمون اعتقادهم إمّا بالتصريح... أو بالتلويح والرمز والإشارة...**[44]"، إضافة إلى الإكثار من صيغة المبني للمجهول، والتشابه في اللجوء إلى القص الحيواني لغايات التورية والرمز والإخفاء.

سادسها: القلق الوجودي "**وبإيجاز كان هذا الرجل من أولئك القليلين الذين يشغلهم البحث دائماً عن الحقيقة أين هي؟ وأنا أزعم أنه لولا شكوك ابن المقفع الدينية، لما كان للفرق المذهبية التي ظهرت بعده في الدولة العباسية كل هذا الشّأن. وأنا أزعم أنّه لولا**

خطراته العقلية وملاحظاته الشّخصية. لما تنبهت أذهان الكلاميين بعده إلى مثل هذا الحد[45]". وإلّا فما هذا الكلام الذي لا نهاية له في طبيعة الأديان؟ وما هذه البحوث التي لانهاية لها كذلك في مسألة " حرية الإرادة"؟ وفيم كل هذا العمل القائم بين الفرق الدينية من معتزلة ومرجئة وجبرية ورافضة وخوارج والمزدكية والمانوية؟! وقد تعرض إخوان الصفاء لهذه المسائل، حيث يقولون " **ولكن أشرّهم على أهل الدّين والورع، وأضرّهم على العلماء، وأشدّهم على عداوة الحكماء، هذه الطّائفة الظّلمة المجادلة المخاصمة الكفرة الفجرة الّذين يخوضون في المعقولات، وهم لا يعلمون في المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات، وهم لا يحسنون الرّياضيات، ويتكلّمون في الإلهيات وهم يجهلون في الطبيعيات، ويتصدّرون في المجالس، ويتجادلون في أشياءَ لا تفيد في الدّين علماً، ولا تنتج في الحكمة فائدةً، مثل كلامهم في التَّعديل والتَّجويز والجزء الّذي لا يتجزّأ، وما شاكلها من المسائل المموّهة المزخرفة الّتي لا حقيقة لها، ولا وجود، إلّا في الأوهام الكاذبة، ولا يصحّ للمدَّعي فيها حجّةً، ولا السّائلِ عنها برهاناً** [46] "، وقولهم أيضاً : " **أمّا مسألة المشيئة والإرادة فهي أيضاً من إحدى مسائل الخلاف وأمهاتها بين العلماء**[47]"

سابعها : المنهجية في العرض، فهو ينتقل بك من حكمةٍ إلى أخرى ، ومن مثلٍ إلى قصة، كما تظهر في كتاباته نماذج يونانية وفارسية وإسلامية متجاورة ،حيث يقول : "**وللعقولِ سجياتٌ وغرائزُ بها تقبل الأدب، وبالأدبِ تنمى العقولُ وتزكو، فكما أن الحبة المدفونة في الأرضِ لاتقدر أن تخلعَ يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرضِ بزهرتها وريعها ونضرتها ونمائها إلا بمعونةِ الماء الذي يغورُ إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة، فكذلك سليقةُ العقلِ مكنونةٌ في مغرزها من القلبِ: لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدبُ الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها**[48] " ،

وفي الرسائل نجد : " **ثمّ دعا رسول الله ﷺ أن يعزّ اللهﷻ الإسلام بأحد رجلين: إما بأبي جهل أو بعمر بن الخطابﷺ...وهكذا فعل موسىﷺ لما دخل في أول مبعثه مصر...فهل لك يا أخي، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن تبادر وتركب معنا في سفينة النجاة التي بناها أبونا نوح ﷺ ...أو هل لك يا أخي أن تصنع ما عمل فيه القوم كي ينفخ فيك الروح فيذهب عنك اللوم، حتى ترى الأيسوع عن ميمنة عرش الرب ...**[49]"

ثامنها : التوليفة الحضارية: حيث "**إنّه إذا صحّ أن يكون تاريخ الدّول الإسلامية في أزهى عصورها، قد حظي برجلٍ تتمثل فيه الحضارات الشّرقية القديمة كلّها في أحسن أثوابها، كما تتمثل فيه العواطف الإنسانية كلّها في أنبل صورها وأرقى درجاتها لما كان هذا الرجل غير عبد الله بن المقفع**[50] ". كما تحدّث الدّكتور طه حسين عن ثقافة ابن المقفع اليونانية والرومانية[51]، وجاء في مقدمة كتابه كليلة و دمنة "**كتاب كليلة و دمنةٍ مما وضعته علماء الهند على لسان الطير والوحش وغير ذلك، في الحكم والأمثال**[52]".

ويلتقي ابن المقفع مع إخوان الصفاء في الطابع الفكري العام، ففكر ابن المقفع " **فكرٌ نخبويٌ، وأدبه أدب مجالس، ذو طبيعة أرستقراطية بسمات حضارية إنسانية في بناء دولة قوية يقودها الفكر، ويسود فيها (العقل)و(العدل) بمفهومه العلميّ الدقيق، كما تعمّ فيها (الثقة) بين حاكم طاهر جاد مخلص، ومحكوم مطيع سعيد، واثق، آمل، آمن في حياته، وعلى ماله، فهو فكر يمخض النصح للجميع: يوجه (الحاكم) في سياسة الرعية، وفي حياته الشّخصية نفسها، ويربي المحكوم على السّلوك السّوي، ممّا يجعل الحاكم قوياً يُهاب تقديراً لا خوفاً، ويحترم إجلالاً لا نفاقاً، قدوة لمن دونه: ولاة و مواطنين فيضمن بذلك ولاء رعية، وقوة نظام**[53] ". أمّا إخوان الصفاء فيقولون: " **واعلم يا أخي أن دولة الخير يبدأ أولها من قوم علماء حكماء وخيار فضلاء يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً أن لا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحدٍ في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة**[54] "

تاسعها: التشكيك في الانتماء العقائدي، فقد تعرض الطرفان لاتّهامات تبدأ بالتشكيك وتنتهي بالزندقة، فالعلّامة المحقق أبو الريحان البَيروني، قال في كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة : "...**وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة، فإنّه تردّد بين الفارسية والهندية ثمّ العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه قاصداً تشكيك ضعيفي العقائد في الدّين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانيّة، وإذا كان متّهماً فيما زاد لم يُخِل عن مثله فيما نقل**[55]"، هذا الاتّهام بضعف العقيدة وصل عند بعد الباحثين إلى الرّمي بالزندقة، لكن هذه الشّكوك والآراء التي أوردها كل من ذكر ذلك افتقرت إلى برهانٍ قاطعٍ أو دليلٍ دامغٍ ، "**وتبقى بعد ذلك زندقة ابن**

المقفع تخمينات ينقضها كلام ابن المقفع نفسه في آثاره، وهو لم يضر الإسلام بل كانت أفكاره ذات نفعٍ فيه، وللحكام لو عملوا فيها في محاربة الآفات الوافدة[56] ". وقد تعرض الإخوان لاتهّامات لاتقلّ تطرفاً، فهناك من ظن أنّ أهداف إخوان الصفاء تتلخص في " **محاولة القضاء على الإسلام، وفي تأسيس دولة، بهدف إحياء العقائد الفارسية، ولهذا يجب الحذر من كل كلمة وردت عنهم، لما فيها من إضلال الإنسان**[57]"،وتحت هذا يندرج ما قاله الإمام الغزالي في رسائلهم " **إنّ من نظر في كتبهم فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسنها وحَسُنَ اعتقاده فيها فيسارع إلى قبول باطلهم، ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم، لما فيها من الغدر والخطر ، كما يجب صون من لا يحسن السّباحة عن مزالق الشّطوط**[58]".

عاشرها : العقلية الجدلية: ابن المقفع والإخوان والمعتزلة تعاطوا الفكر السّياسي، وربطوا بين الفلسفة والدّين، كما تداولوا قضية الإرادة، فكانت أساس فلسفتهم، وحركاتهم السّياسية تدور حول فكرة الاختيار، فالعدل في مفهومهم هو أنّ الله خلق الإنسان وخلق فيه قدرةً تسبق الفعل، يكون بمقتضاها مسؤولاً، إن فعل خيراً جازاه وإن فعل شراً عوقب بسببه. فعقل ابن المقفع ينزع دائماً إلى المثل الأعلى، وأثر هذه النزعة واضحٌ في أخلاقه وكتاباته وطريقة فهمه طبائع الناس والأشياء، وقد أكدّ الباحثون أنّ عقلية ابن المقفع الجدلية قد أثّرت في العقل الشّرقي عامّةً . وأخيراً الغاية الخفية فابن المقفع في كلّ كتبه كان ناقلاً[59] ومؤلّفاً، ويجب ألّا يغيب عن أذهاننا أن لابن المقفع غرضاً خفياً رمى إليه فيما نقله وفيما اختاره لينقله، فهو ناقلٌ حريصٌ على أن ينقل فلسفة الحضارات القديمة إلى العرب، ومؤلّف لأنّه كان يُعمِلُ أسلوبه فيما ينقله، وكذلك إخوان الصفاء.

وبعد ما ذكرت أعتقد أنّ الرّسائل صادرةٌ من نفس القلم الذي كتب الأدب الكبير والصغير وكليلة ودمنة، ومن نفس الرجل الذي نقل ما استطاع أن يصل إليه من تراث الأمم القديمة. فلكتب ابن المقفع وحدةٌ تميّزها والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان: لماذا لم يصرّح ابن المقفع بنسبة الرّسائل إليه كما فعل في مؤلّفاته الأخرى؟ لابدّ من ذكر أنّ ابن المقفع لم ينسب كل كتبه إليه، وكتاب" عهد أردشير " الذي ذكره مسكويه دليلٌ على ذلك . حيث لم يذكر مسكويه ولا غيره من المؤرخين مؤلفاً أو مترجماً لهذا الكتاب. لكنّ الدكتور عبد اللطيف حمزة[60] نسبه إلى ابن المقفع، وأورد أدلته على صحة ذلك[61].

إذن اعتماداً على ما عرضت، واستكمالاً لفرضيتي، أنَّ ابن المقفع هو مؤلف الرسائل، لكن ولأنّه في مثل هذه الحالات غالباً ما تتأخر الصياغة النهائية عن الصيغ الأولية التي تكون في الأصل بسيطةً وقصيرةً ، ثمّ تتعقّد وتطول بفعل عوامل وظروف وإسهامات وإضافات؛ لذلك أرى أنّ الرسائل قد وقعت في يد أبي حيان التّوحيدي، فاستكمل بناءها، وعند اكتمالها ، أعلن عنها في مجلس الوزير، وهذا الرأي أشار إليه أحد الباحثين، لكنّه اكتفى بهذه الإشارة دون أي إثبات، " **...كما كشف عن أسماء بعض جماعة إخوان الصفاء، التي قد يكون أبو حيان التّوحيديّ واحداً منها...**(62)".

وأدلتي أوجزها في:

أولاً: يشترك ابن المقفع والتّوحيديّ في النسب الفارسيّ(63)،فأبو حيان "...**شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري**...(64)"، كما يشتركان في الشّكّ في العقيدة، والرّمي بالزندقة مما دعا ابن الجوزي للقول عنه " **إنّه أعظم زنادقة الإسلام**".كما قيل عنه :"**الضّال، الملحد، أبو حيان، علي بن محمد بن العباس، البغدادي، الصوفي، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية، ويقال: كان من أعيان الشّافعية**....(65)".

ثانياً: لابدّ لنا أن نذكر أنّ أبي حيان أوّل من ذكر إخوان الصفاء، وأنّه الوحيد من معاصريه الذي قدّم تعريفاً موجزاً بالرّسائل وبمؤلفيها، وقد ورد في حديث أبي حيان عن إخوان الصفاء : "... **وبثّوها في الورّاقين**(66)"، إذا كان الأمر كذلك " **لِم لم يذكر هذه الرسائل أحدٌ قبل أبي حيان؟ لِم لم يذكرها شيخ الوراقين ابن النديم؟**(67) ".

ثالثاً :الفكر الاعتزالي عند أبي حيان: " **كان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشّعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان جاحظيّاً يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه...** (68) ". وهذا يفسر الأرضية الجدلية العامّة التي بناها ابن المقفع للرسائل وكنت قد أوضحتها فيما سبق، ثمّ صقلها التّوحيديّ بنفحاته الاعتزالية.

رابعاً : ثقافته الموسوعية: "...**فهو شيخٌ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء**(69)". وفي هذه الثقافة الموسوعية يتقاطع مع ابن المقفع و الإخوان، وهذا ذكرته فيما سبق.

خامساً: منهجيته في كتبه: **"ثمّ إنّ أسلوبه في تقسيمه إلى ليال، وذكره ما دار في كلّ ليلة على سبيل الحديث والحوار...هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة، كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك**(70)"، أيضاً يقول التوحيدي واصفاً كتابه البصائر والذخائر: "**وإنما أتباعد قليلاً، وأتقارب قليلاً، وأذكر فصلاً نحواً، وفصلاً كتابياً، وفصلاً كلامياً وفصلاً فقهيّاً وفصلاً فلسفيّاً وفصلاً لغويّاً وفصلاً شعريّاً، وأشبع من ذلك كله بما أحتملُ من الاعتراض والبحث والتفسير**(71)"، وفي هذه المنهجية يلتقي مع أسلوب ابن المقفع في كتبه ، ومع أسلوب الإخوان في رسائلهم، وهذا ممّا أوضحته فيما سبق.

سادساً: التّشابه في بعض الموضوعات، كالتشابه في مفهوم الصداقة بين أبي حيان وابن المقفع والرسائل الإخوانية(72)، وغيرها...

سابعاً: الأسلوب الأدبيّ ذو الصبغة الفلسفيّة، حيث يقول:" **يُوذن لي في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة، حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، وأركب جدد القول من غير تقية ولاتحاش ولا محاوبة ولا انحياش**(73)". فأسلوبه في الكتاب أسلوب أدبيّ راقٍ كعهدنا في كل كتابته، يحبّ الازدواج والإطناب ويطيل في البيان والتصوير.

ثامناً : ترحاله وسفره: بناءً على ما ذكره في كتبه ومنها ما ذكره في كتابه الإمتاع والمؤانسة " **كنت بنيسابور سنة سبعين وثلثمائة...**" ، وما جاء في كتاب خلاصة التوحيدي يثبت ذلك " **في تلك الظروف راح أبو حيان يطوف شرقاً وغرباً، من بغداد إلى سر من رأى (سامراء) إلى سمرقند، إلى الريّ، إلى جرجان، إلى جندسابور، إلى مكة التي حجّ إليها سيراً على الأقدام بصحبة جماعة من الصوفية، إلى شيراز التي كانت نهاية المطاف...**(74)"، وتبعاً لهذا رجحت وقوع الرسائل في يديه، إضافة لما تمنحه مهنته في الوراقة من الاطّلاع على ما لا يطلع عليه غيره.

تاسعاً: كتاب الهوامل والشّوامل لأبي حيان التوحيدي: وإنّي لأفترض أنّ أبا حيان في الهوامل والشوامل جاهرَ في الأسئلة، وفي الرسائل صرّح بالأجوبة: ومن المسائل التي تعرّض لها أبو حيان في الهوامل والشوامل: مسألة (متى تتصل النفس بالبدن ومتى توجد فيه أفي حال ما يكون جنيناً أم قبلها أم بعدها) وهذا يتصل بما ذكره الإخوان في الرسالة الثالثة

والعشرون[75]، ومسألة (سئل بعضهم إذا فارقت النفس الجسد هل تذكر من علومها شيئاً أم لا فأجاب بأنها تذكر المعقول كله ولا تذكر المحسوس) وهذا يتصل بما ذكره الإخوان في فصل كيفية خروج النفس من القوة إلى الفعل[76]، ومسألة (ما معنى قول بعض العلماء إن الله عم الخلق بالصنع)، وهذا يتصل ما ذكره الإخوان في الرسالة العاشرة[77] ومسألة طبيعية واختيارية (لم كان الإنسان محتاجاً إلى أن يتعلم العلم)[78].

عاشراً: صلته بأبي زيد بن رفاعة وبأبي اسحق الصابئ ، وكلاهما ممن دارت الشّبهات

حول اسميهما كمؤلّفينِ للرسائل: "**هذا كلّه وأقول: كان سبب إنشاء هذا الرسالة في (الصداقة والصديق) أنّي ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير، فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدبير أمر الوزارة، حيث كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على أدلالها جارية. فقال لي ابن سعدان: قد قال لي زيدٌ عنك كذا و كذا. قلت : قد كان ذلك. قال: فدوّن هذا الكلام، وصله بصلاته مما يصحّ عندك لمن تقدم. فإن حديث الصدق حلوٌ ، ووصف الصاحب المساعد مطربٌ(79)**" . أمّا صلته بأبي إسحق الصابئ فتظهر في إيراده لبيت شعري أنشده أبو إسحق: "**وأنشدني أبو إسحق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي في أحوال الزمان:**

أيا ربّ : كلُّ الناسِ أبناءُ عَلّةٍ أما نعثرُ الدنيا لنا بصديق؟[80] "

3. **<u>خاتمة :</u>** ولاستكمال ما بدأته، يكون ابن المقّفع هو المؤلف، وأبو حيان التوحيدي هو من عدّل الرسائل، و صرّح بها، وقد سبق لي أن قدمت ما يدعم هذا الرأي، وأخيراً بقي أن أقدم الصورة الكاملة التي تختزل رأيي، إذا عُدنا إلى ما ختم به إخوان الصفاء فهرست الرّسائل: " **تمت فهرست رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وأهل العدل وأبناء الحمد، وأرباب الحقائق، وأصحاب المعاني...**[81] ". هذا الاسم لم يرد كاملاً إلّا في فهرست الرسائل، فقد ذُكر في المصادر التاريخية ب" رسائل إخوان الصّفاء وخلّان الوفاء"، وقد يكون المراد حفظ الحقيقة لأصحابها. أمّا (إخوان الصفاء وخلان الوفاء، وأهل العدل وأبناء الحمد، وأرباب الحقائق، وأصحاب المعاني). فأرى أنّ أول مقطع من هذا الاسم، كان من ابن المقفع، بإيحاء من "قصة الحمامة المطوقة" في كتابه "كليلة و دمنة" "" **قال الملك للفيلسوف : قد فهمت مثل المتحابّين**

يقطع بينهما الكذوب الخائن النّمام ، وما يصير إليه أمره، فأخبرني عن إخوان الصّفاء..."[82] . أمّا المقطع الثاني "وأهل العدل وأبناء الحمد" ، فأضيف من قبل التوحيدي ، بما يتلاءم مع توجهاته الاعتزالية، وأمّا المقطع الثالث "وأرباب الحقائق، وأصحاب المعاني"، فأضيف من قبل الأفراد الذين انتسبوا لجماعة إخوان الصفاء. "**إخوان الصفاء لم يعلنوا في البداية صراحةً عن وجود جمعيتهم للنّاس جميعاً، إذ كانت في مرحلة استقطاب المستجيبين والمؤيدين عن طريق هدايتهم وإرشادهم وفق نظام دقيق خطّه الإخوان و ساروا على نهجه، ولهم فروع و مراكز مختلفة في بلدان مختلفة ينشرون من خلالها الرّسائل السّرية آنذاك**[83]"والمراد منه إضفاء صبغة الفرق الباطنيّة السّرية على الجماعة. قال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون : "....**إنّ الغموض في كتاباتهم مقصود لأنّ من عادة الفلاسفة حماية أفكارهم بالرموز والاصطلاحات على شاكلة الفرق الباطنيّة**[84] ".

ويمكن أن نعبّر عمّا أرمي إليه من خلال الجدول الآتي:

	المؤلف	استكمل بناءها	في حدود 373 هجري أعلن عنها التوحيدي في مجلس الوزير	
	ابن المقفع	التوحيدي		الأفراد الذين انتسبوا إلى الجماعة
في الفترة بين	136هجري_158هجري	370_360 هجري		بداية القرن الرابع الهجري
اسم الجماعة	إخوان الصفاء وخلّان الوفاء	أهل العدل وأبناء الحمد		أرباب الحقائق وأصحاب المعاني
	مرحلة النشأة	مرحلة التكوين	مرحلة الإعلان	مرحلة الظهور وإرسال الدعاة

4. **الشكر والتقدير** : كما لا يسعني إلّا أن أتقدم بالشكر إلى **الدكتورة رائدة الدالي أستاذ الفلسفة العربية في جامعة دمشق**، فلذكرها ولعطائها كل الإجلال والاحترام.

الهوامش:

1) **الوزير** : هو أبو عبد الله العارض، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان كان وزيراً لصمصام الدولة بن عضد الدولة من سنة 372 إلى سنة 375. انظر: أبو حيان التوحيدي ،**الإمتاع والمؤانسة**، صححه و ضبطه و شرح غريبه ، أحمد أمين، أحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر و التوزيع، مصر د. ط ، ،1942م:4_5.
2) انظر: أبو حيان التوحيدي ،**الإمتاع والمؤانسة** :4_5.

3) كان التَّوحِيديّ أوّل من أشار إليهم، لكنّه لم يحدد زمن ظهورهم ، ثمّ نقل عنه كل من القَفطِيّ والبَيهَقِي ما كتبه. انظر: جمال الدين القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء** ، مطبعة السّعادة، القاهرة، د. ط ، 1326هجري: 46. وانظر أيضاً: شمس الدّين محمد بن محمود الشهرزوري، **نزهة الأرواح و روضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة** ، تحقيق عبد الكريم أبو شويرب ، جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة. د. م ، الطّبعة الأولى ، 1988م:305
4) أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**: 5_4/2
5) أبو حيان التوحيدي، **المقابسات**، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ، د. د، دمشق، د. ط، د.ت: 41
6) انظر: رائدة نهار الدالي ، **الله والعالم في فلسفة إخوان الصفاء**، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة مخطوطة، ، إشراف الأستاذ عبد الحميد الصالح، المشرف المشارك الأستاذ الدكتور محمود خضرة، دمشق،2011م: 13_14 .وانظر أيضاً: محمد فريد حجاب، **الفلسفة السياسية عند إخوان الصفاء** ، قدم له الأستاذ عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، د.م، 1982م: 40.
7) انظر: إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**، قدم لها الدكتور طه حسين، د. ط ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،2005م: 38_ 43. وانظر أيضاً : إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، **الرسالة الجامعة**، تحقيق جميل صليبا ، د. د، دمشق، د. ط 1948م:6/1.
8) انظر: إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، **الرسالة الجامعة**. مصطفى غالب ، دار صادر ، بيروت، د. ط ، 1974م : 526/2. وانظر أيضاً: عارف تامر ، **حقيقة إخوان الصفاء وخلان الوفاء**، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، د. ط، 1957م: 9.وانظر: المحبي، **خلاصة الأثر**، تحقيق مصطفى وهبي، المطبعة الوهبية ، القاهرة، د. ط، 1276هجري:4/ 6. وانظر أيضاً: **الرسالة الجامعة**، تحقيق جميل صليبا: 1/ 6.

9) انظر: جمال الدين القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**: 46. وانظر أيضاً: عبد الحميد الصالح ،**المدخل إلى تاريخ الفلسفة**، المطبعة الجديدة، دمشق، د. ط، 1966م: 82_83.

10) الباحث محمد عبد الحميد الحمد قدّم هذا الافتراض. انظر: محمد عبد الحميد الحمد ،**إخوان الصفاء والتوحيد العلوي**، د .د، الرقة د. ط،1998م: 78

11) انظر: طه حسين ، **من حديث الشعر والنثر**، دار المعارف، القاهرة، د. ط، 1965م: 12.

12) انظر: عبد اللطيف حمزة، **ابن المقفع**، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1965م :117.

13) انظر تفصيل ذلك: زكي مبارك، **النثر الفني** ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1934م: 13 وما بعدها.

14) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:13/4.

15) **نفسه**:23/3.

16) إخوان الصفاء وخلان الوفاء، **الرسالة الجامعة المنسوبة للحكيم المجريطي** ، تحقيق جميل صليبا ، المجمع العلمي العربي ، دمشق، د. ط، 1949م:1/ 668

17) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**: 376/2.

18) قيل إنّ أول من ابتكر هذا الفن رجل اسمه (إيزوب) في القرن السّادس أو السّابع قبل الميلاد. و يرى غيرهم أنّه وزير سليمان عليه السلام ويرى آخرون أيضاً أن لقمان الحكيم الذي ذكرته الكتب المقدسة. ويعدّ كتاب " كليلة و دمنة" من الروائع الأدبية العالمية في ميدان القص الحيواني". انظر: دكتور عبد اللطيف حمزة ، **ابن المقفع**: 178_179.

19) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:245/2

20) الجاحظ ، **البيان والتبين**، تحقيق: عبد السلام هارون، د. ط، دار الفكر، بيروت، د.ت: 137/1.

21) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:131/1

22) عبد اللطيف حمزة ، **ابن المقفع**: 235. **"أسبق الكتاب جميعاً إلى الآداب الفارسية، يأخذها من منابعها الأصلية...** " .

23) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:178/1

24) انظر: عبد الله بن المقفع ، **آثار ابن المقفع**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م: 341

25) ابن المقفع ، **الأدب الكبير**، تحقيق أحمد زكي باشا: مقدمة

26) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:171/4

27) **نفسه**:171/4_172

28) انظر: عبد الله بن المقفع، **آثار ابن المقفع** : 245.

29) انظر: **نفسه**: 281.

30) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:142/3

31) **نفسه**:144/3

32) نقلاً عن كتاب **ابن المقفع** ، عبد اللطيف حمزة: 137 .

33) **نفسه** : 138 .

34) صاعد الأندلسي ، **التعريف بطبقات الأمم**، مطبعة السعادة، القاهرة، د. ط، د.ت: 255

35) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:30/4

36) **نفسه**:30/4

37) عبد الله بن المقفع ، **كليلة و دمنة**، حققها و قدّم لها الدكتور عبد الوهاب عزّام، تصدير الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، د. ط، د.ت: من تصدير الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي: 6.

38) **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**:4/ 18_17. " **ما يروى عن الرجل الحكيم الذي كان وزير خيشوان ملك الهياطلة_ على ما يُحكى عنه في التواريخ _ أنّه لما قصده فيروز ملك الفرس لقتاله بجموعه...**"، وانظر أيضاً : 22 " **ومما يدلّ على صحّة ما قلنا إحراقُ البراهمة أجسادهم وهم حكماء الهند**"، وانظر أيضاً : 49"**...وإليها أشار بلوهر ليوزاسف حين قال الملك لوزيره...**"

39) عبد اللطيف حمزة ، **ابن المقفع**:234

40) **نفسه**: 236

41) انظر: خصائص الأسلوب في الرسائل : منال إسماعيل عجوب ، **الإنسان والأدب في رسائل إخوان الصفاء**، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق، د. ط، 2010م:283_305." فنجد فيها الأسلوب العلمي الذي يعتمد على التّحليل والشّرح والتّقرير والعرض، وهذا ممّا يناسب الموضوعات العلمية والفلسفية الّتي لا تتطلب الكلام البلاغي المزخرف. كما نجد فيها الأسلوب الأدبي المشوّق الذي يجذب القراء؛ لأنّه يعتمد على الإكثار من التّشبيهات والصور والأقوال المشهورة؛ لإيصال المعلومات الفلسفية إلى أذهان القراء...تتشابه الرّسائل جميعها وعلى اختلاف موضوعاتها بالصياغة الفنية وبوحدة الأسلوب الإنشائي وبطريقة عرض الأفكار..." و لا تخلو الرّسائل من أسلوب الاستطراد، وظاهرة التّكرار واضحة في الرسائل.

42) القصة وجدت قبل ابن المقفع وهذا مما لا يداخله الشّك، فقد وجدنا ظلالها في الأدب الجاهلي، ثم أتى القرآن ليرسخها كجنس أدبي مستقل. لكن ابن المقفع هو الذي أعاد إحياءها و فتح بابها للناس من خلال الإكثار من ذكر القصص والاستشهاد بها و البناء عليها.

43) انظر: عبد الله بن المقفع ، **آثار ابن المقفع:** 309

44) رائدة نهار الدالي ، **الله والعالم في فلسفة إخوان الصفاء**: 9

45) عبد اللطيف حمزة ، **ابن المقفع**: 245.

46) **رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء**:3/ 328_440، الرّسالة الأولى في الآراء و الدّيانات ، فقد تعرّضوا في هذه الرّسالة لمعظم الأمور الخلافيّة مثل خلق القرآن ، والإرادة ، والمشيئة ، والجبر، والقدر، والذّات والصّفات ، والخلق.

47) **نفسه**:3/ 323

48) ابن المقفع ، **الأدب الصغير**، تحقيق أحمد زكي باشا: 76

49) **رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء**:4/ 17_18

50) **نفسه** : 248.

51) انظر: طه حسين، **من حديث النثر والشّعر**: 72_73.

52) عبد الله بن المقفع ، **كليلة و دمنة**، حققها و قدّم لها الدكتور عبد الوهاب عزّام: 27. نقلاً عن الترجمة الفارسية لنصر الله بن عبد الحميد.

53) عمر بن قينة ، **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي** ، الطبعة الأولى، دار سامة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2000م.: 5.

54) **رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء**:1/ 156

55) أبو الريحان البيروني ، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو أمر مرذولة**. د. د، لندن، طبعة لندن، 1887م:34

56) عمر بن قينة ، **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي**: 5.

57) عبد اللطيف العبد ، **الإنسان في فكر إخوان الصفاء** ، مكتبة الأنجلو المصرية، د. م، د. ط، د.ت: 5.

58) الإمام الغزالي ، **المنقذ من الضلال** ، تحقيق محمد محمد جابر، د. د، القاهرة، د. ط، د.ت: 32.

59) هنا لابدّ أن نذكر، أنّ بعض الباحثين أشاروا إلى أنّ مؤلفات ابن المقفع من تأليفه وليس من ترجمته:

انظر: الأستاذ أحمد كمال زكي ، **الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري**، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، د. ط، 1958م: 457_458.

انظر: ليلى حسن سعد الدين ، **كليلة و دمنة في الأدب العربي**، دراسة مقارنة ، مكتبة الرسالة ، عمان، د. ط، د.ت: 235

انظر: محمد غفراني الخراساني ،**عبد الله بن المقفع**، الدار القومية للطباعة والنشر، د. م، د. ط، د.ت: 220_248

انظر: هاملتون جب، **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة الدكتور إحسان عباس ، والدكتور محمد يوسف نجم، والدكتور محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، د.ت: 312_313

60) هذا الكتاب تجده في الجزء الأول من كتاب" تجارب الأمم" مسكويه . وهو يشغل نحواً من ثمان وعشرين صفحة من صفحات هذا الجزء. انظر: مسكويه، **تجارب الأمم**، د. د، لندن، طبعة لندن، 1913_1917م: 99_ 227

61) انظر: عمر بن قينة ، **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي و الكواكبي**: 6_7 وانظر أيضاً: عبد الله بن المقفع، **آثار ابن المقفع**: 310

62) جمال الغيطاني ،**خلاصة التوحيدي**، **مختارات من نثر أبو حيان التوحيدي**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د. ط، 1995م: 11

63) **ابن المقفع**: قبل اسلامه : روزبه بن داذويه، وبعد اسلامه: عبدالله. كان والده يتولى خراج فارس من قبل " خالد بن عبد الله القسري" أمير العراقيين، فاتهم بالاختلاس من مال الدولة، فأمر به يوسف بن

عمر الثقفي الذي تولى إمارة العراقيين بعد خالد، فاعتقل وضرب على يده حتى تقفعت أي تشنجت، فقيل له: ابن المقفع. والمقفع هذا، فارسي الأصل، نشأ في الأهواز، ومات على دين بني قومه الأصلي . ولد ابنه في "جور"، ونشأ على مجوسية أبيه، متثقفاً بثقافة الخاصة من بني قومه، مستعرباً متضلعاً في اللغة العربية وآدابها. وقد تبع الولد سنة أبيه. واتخذ صناعته قواماً لمعيشته، فكتب ل"داود بن هبيرة" في الدولة الأموية التي قضى فيها ستاً وعشرين من سني حياته. ولما ارتفع هلال الدولة العباسية في سماء الشرق. اتصل ابن المقفع ب"عيسى بن علي" ثمّ أسلم على يده فيما بعد. ثمّ اتصل بأعمام الخليفة المنصور. وترجم للمنصور كتباً عديدةً على ما يذكره المصنفون .إلا أنّه لم يتصل به. جمع ابن المقفع العلم في زمانه من أطرافه . فألف بين ثقافتي العرب والعجم. وأتقن اللغة الفهلوية (فارسية الامبراطورية الساسانية) اتقاناً فريداً لم يتوفر عليه سوى القليلين من بني قومه. وحذق العربية وجلى فيها. انظر: فكتور الكك ، **ابن المقفع أديب العقل**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1986م:5_6_7.

64) انظر: ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء**، الناشر دار المأمون ، د. م ، د. ط ، 1355هجري: 1/ 125_126

65) الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق شعيب الأرنؤوط_ محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ط،1983م :88

66) أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين: 4_5 .

67) محمد عبد الحميد الحمد ، **إخوان الصفاء والتوحيد العلوي** : 78

68) انظر: ياقوت الحموي ، **معجم الأدباء**:123/1

69) انظر: **نفسه**:124/1_125

70) أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**:5_6

71) أبو حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر** ، تحقيق الدكتورة وداد القاضي، دار صادر ،بيروت، د. ط ، د.ت:67

72) انظر: أبو حيان التوحيدي ، **الصداقة والصديق**، تحقيق الأستاذ علي متولي صلاح، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ط، 1972م: 11

73) أبو حيان التوحيدي ، **لإمتاع والمؤانسة**:21

74) جمال الغيطاني، **خلاصة التوحيدي**: 9

75) **رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء**:2/ 319

76) **رسائل إخوان الصفاء و خلان الوفاء**:3/ 40

77) **نفسه**:4/ 224

78) (مسألة وسألت - أيدك الله - عن آلام الأطفال ومن لا عقل له من الحيوان). وأيضاً (مسألة ثم قلت - أيدك الله - سئل ابن العميد لم لم يتفق الناس في التعامل على المثامنة بالياقوت والجوهر أو بالنحاس والحديد والرصاص دون الفضة والذهب) ، و(مسألة ذكرت - أيدك الله – مسائل). انظر: أبو حيان

التوحيدي ، **الهوامل والشوامل**، تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د. ط ، 1951م:7

79) أبو حيان التوحيدي، **الصداقة والصديق**: 11 وانظر أيضاً: أبو حيان التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**:7_8

80) أبو حيان التوحيدي، **الصداقة والصديق** : 11. كما ورد ذكر ابن اسحق الصابئ في كتاب **الإمتاع والمؤانسة**:3/ 212_213.

81) **رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء: 1**/ 47

82) عبد الله بن المقفع ، **كليلة و دمنة**، عبد الله بن المقفع، حققها و قدّم لها .الدكتور عبد الوهاب عزّام: 159.

83) منال إسماعيل عجوب، **الإنسان والأدب في رسائل إخوان الصفاء**: 44

84) طه حسين ، **تجديد ذكرى أبي العلاء**، دار المعارف، مصر، ، د. ط ،1945م: 138

الكاتب: د/ محمد بوطيبي
قسم التاريخ، جامعة المدية.

عنوان المقال: نظام الحكم و الإدارة في المدية خلال الفترة الاستعمارية 1840-1940.

البريد الالكتروني: bt.med@hotmail.com

تاريخ الارسال: 2019/02/04 تاريخ القبول: 2019/03/12 تاريخ النشر: 2019/03/28

نظام الحكم و الإدارة في المدية خلال الفترة الاستعمارية 1840-1940.

System of government and administration in Medea during the colonial period 1840-1940.

الملخص بالعربية:

تمثل فترة الاحتلال الفرنسي في المدية إحدى الحلقات التاريخية للمنطقة، المفقودة في الكتابات العربية، لذلك حاولنا السبق لكتابة تاريخ المدية خلال الفترة الإستعمارية، وذلك بتناول جانبا هاما من السياسة الفرنسية في المدية. فقد تطرقنا في هذه الدراسة للتقسيم الإداري ونظام الحكم في المدية منذ 1840 إلى غاية 1940، لتسيير شؤون المنطقة و احكام السيطرة عليها.

كلمات مفتاحية: التيطري، المقاطعة الادارية للمدية، نيابة عمالة المدية، المدية، تاريخ المدية.

Abstract :

The period of the French occupation in Medea is one of the historical episodes of the region, lost in the Arabic literature, so we tried to write the history of Medea during the colonial period by addressing an important aspect of the French policy in Medea.

In this study, we discussed the administrative division and the system of governance in Medea from 1840 until 1940, to manage the affairs of the region and the rules of control.

Key Words: Titri, the administrative district of Medea, the prosecution of the workers of Medea, Medea, the history of Medea.

مقدمة:

لقد تداول في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر اسم التيطري على المدية، وهي التسمية التي كانت سائدة خلال فترة الحكم العثماني في الجزائر 1518-1830، بحيث كان يطلق على حاكمها اسم الباي، وهي التسمية التي حافظت عليها السلطة الفرنسية في بداية الاحتلال فقد استعانت بالبايات الذين عينهم لحكم المدية، فعشية الحملة الفرنسية الأولى على المدية قام الجنرال كلوزيل بتنصيب مصطفى بن الحاج عمر*بايا على مدينة المدية[1]، بموجب القرار الصادر في 16 نوفمبر 1830، الذي يلغي بصفة رسمية منصب الباي السابق مصطفى بومزراق، الذي أظهر العداء للفرنسيين. وكان مقر حكم الباي الجديد يتواجد في الحي العمومي بالمدية، بحيث حدد المرسوم في بنوده المسؤولية المنوط بها للباي الجديد،[2] غير أن حكم مصطفى بن عمر* في المدية لم يدم طويلا، حيث تم تنصيبه مرة أخرى بايا على مليانة وشرشال ما بين 9-14 سبتمبر1931.[3]

نظام الحكم والإدارة في المدية عشية الاحتلال:

بعد تولي الجنرال كلوزيل منصب الحاكم العام للجزائر، قام بحملة عسكرية على المدية بنفسه، وبعد تنفيذ مهمته قام تنصيب العديد من البايات على في المناطق التي كانت خاضعة لحكمه، منهم الباي محمد على التيطري عام1835 ، وهناك قائمة لأسماء البايات الذين تم تعينهم في هذه المناصب خدمة للسياسة

الفرنسية منشورة بجريدة لومنيتور دالجي بتاريخ 15 أكتوبر 1835. وما يشار إليه أنه خلال تنصيب الباي الجديد محمد بن الحسين بتاريخ 15 سبتمبر 1835 حاكما على المدية في الجزائر من طرف الماريشال كلوزيل، وزوده بأكثر من 600 بندقة و30000 وحدة خرطوش للدفاع عم ملكه بالمدية، الذي لم يستطيع دخول المدية إلى غاية 1836، حيث تم اعتراضه من طرف قبائل بني يعقوب، التي نهبت كل الثروات والممتلكات التي كان يحملها معه، ولما وصل إلى قبيلة حسان بن علي ألقي عليه القبض رفقة العناصر المرافقة له، وتم سجنهم قرابة ثلاثة أشهر، مصونين لغاية مستقبلية .

لقد تدارك الجنرال كلوزيل الأمر، وأنقذ الموقف بتوجيه حملة لتحرير الباي، فبعد تحريره زوده بأكثر من600 بندقية،5000 خرطوشة، و6000 فرنك فرنسي قديم، واستلم الباي محمد مهامه في المدية، غير أنه مع بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر، والتي تزامنت مع اخضاع المنطقة للسلطة الفرنسية بدأت تطلق على المدية مصطلحات القسم أو نيابة العمالة. إذ لم تعرف المدية تنظيما إداريا واضحا في المدية إلى غاية صدور أمرية 29 جويلية 27 أوت 1842، التي قسمت تراب نيابة عمالة المدية إلى ثلاثة أغويات (أغاليك)، بموجب المادة الأولى على النحو التالي:

- ✓ آغوية الجنوب (القبالة).
- ✓ آغوية الشرق.
- ✓ آغوية الجنوب الغربي المعروفة عند أهالي التل.

لم يشمل التقسيم الإداري الجديد منطقة موزاية ضمن عمالة المدية، وكذلك تراب الدواير وأولاد عبيد التي كانت لا تدخل في آغوية المدية، بل كانت تصنف ضمن قبائل المخزن. وتشمل الآغاويات الثلاث المناطق التالية:

* **آغوية الشرق**: على رأسها الآغا سي لخضر بن الحاج، وخليفته قويدر بن عبد الله. وتشمل تراب قبائل سيدي أحمد بن يوسف (المشربة)، الربعية، أولاد علان، السحاري، العذاورة، أولاد بركات، أولاد موسى، أولاد مرين، جواب، أود بوعرف، أولاد فراح، أولاد عمر، أولاد السلامة، أولاد إدريس، أولاد عبد الله، أولاد سيدي عيسى، أولاد سيدي هجرس، أولاد سيدي علي بن دواب، أولاد نايل.

***آغوية الجنوب**: على رأسها الآغا محمد بلخضر وخليفته بلحسن بن الطيب، وتضم القبائل التالية:

أولاد مختار، أولاد حمزة، أولاد أحمد، الخماقنة، الزناخرة، العبدلي، موادة الغرابة والشراقة، رحمان، التيطري (أولاد دباد، أولاد عثمان)، السواري، ديمال، المفاتح، أولاد معرف، أولاد ناجي، أولاد ذايد، أولاد هديم.

* **بايلك الجنوب الغربي**: لقد عين على رأسها الآغا سيد أحمد مول العود (صاحب الحصان)، وخليفته سي عمر بن الحاج العربي. ويضم بايلك الجنوب الغربي قبائل أولاد عنتر، أولاد هلال، غريب، وامري، حناشة، الهواورة، بني حسن، حسان بن علي، هوارة بني يعقوب، بني ميسرا، أولاد سيدي أحمد بن يوسف، موزاية. أما قبائل المخزن* فكانت تشمل الدواير والعبيد.[4]

قبائل المخزن طابور ثالث لخدمة الاحتلال الفرنسي في المدية:

لقد اعتمدت السياسة الفرنسية على بعث قبائل المخزن في كل عمالات الجزائر، ومنها نيابة عمالة المدية، كما جاء في رسالة نابليون الثالث إلى الحاكم العام مكماهون، والتي تبين السياسة الفرنسية المنتهجة من طرف الإدارة الفرنسية في الجزائر. التي نصت على توسيع فرق المخزن بين القبائل ومنها نيابة المدية. فخلال فترة الستينات من القرن الماضي كان قطاع المدية يحتوي على

قبيلتين مخزنيتين مثل باقي المقاطعات، وهما الدواير (العبيدات)، أو الزمالة[5] اللذين ورثتا هذه المكانة منذ تواجد الحكم العثماني في المدية.

لقد استفادت السلطات الفرنسية من التنظيمات الإدارية والعسكرية والاجتماعية التركية في الجزائر، بحيث انتهجت نفس السياسة المطبقة على السكان المحليين، وذلك بكسب قبائل معينة على حساب القبائل الأخرى بغية الاستعانة بها لتهدئة الأوضاع الأمنية وإخضاع المناطق المجاورة، مع تعديلات جزئية بالرفع من عدد المخازنية. وقامت بتطبيق ذلك في سور الغزلان (أومال) التي كانت تابعة للقطاع العسكري بالمدية، سيدي بلعباس، ووهران. خاصة وأن السلطات الفرنسية كانت تعتبر أن قبائل المخزن التقليدية على الحدود التلية للمدية كان ينتابها الشعور بالإحساس لخدمة الفرنسيين والمحافظة على مكانتها السلطوية على حساب القبائل المحلية الأخرى.[6]

وبالفعل فقد ركزت السلطات الفرنسية على أربعة قبائل مخزنية هي: قبائل التيطري، الدواير، العبيد، وقبيلة أولاد أحمد بن ساعد، بحيث قامت السلطات الفرنسية بإعفاء هذه القبائل من الضرائب المفروضة على الأراضي والممتلكات. وعدم اخضاع أهاليها للمتابعات والأعمال الشاقة والضرائب على الثروة الحيوانية الخاصة بهم. فكانت السلطات الفرنسية ترى ضرورة تجنيد حوالي 100 فارس و100 شاب من المشاة من خيرة شباب القبائل المذكورة، للقيام بخدمة سلطة الاحتلال في عهد الحاكم العام مكماهون. مقابل أن يعطى لكل فارس سلاح باسم الحكومة الفرنسية، يتألف من سيف، مسدس، وبندقية، كعلامة مميزة، ولباس موحد يتمثل في زمداني أو برنوس أسود، وحاشية حمراء تلف على رأس الحصان أو الجمل الذي يمتطيه الفارس. أما الجنود المشاة فيعطى لكل عنصر منهم بندقية صوان خلال فترات الحروب أو تدهور الأوضاع الأمنية، أو الفترات التي تستدعي القيام بتلك المهام، أما في

الظروف العادية فيتم جمع الأسلحة في مخازن البرواقية أو المولاجم (Moudjalem).

كما تقوم قبائل المخزن بالاعتناء بتوفير من 100 إلى 150 فرس أو جمل تستخدمها الجيوش الفرنسية للنقل والتموين والإسعاف في حالة الحروب.[7] ومقابل هذه الخدمات العسكرية كان هؤلاء المرتزقة يتقاضون مبلغا ماليا معين.فكان يتقاضى الفرسان والمشاة يوميا فرنكا فرنسيا واحدا، مع حصة من البسكويت والسكر والقهوة، وحصة من الشعير للفرس، ويحرمون من ذلك في حال تغيبهم عن مهامهم، في الوقت الذي يتلقى فيه قايد المخزن أجرا شهريا يقدر ب 100 فرنك فرنسي شهريا.

عموما فقد قدرت الميزانية السنوية المخصصة للقبائل المخزنية الأربعة بما يلي:

المؤشر	مدة العمل	الأجر الفردي	فرنك سنويا
4 قياد	سنة	100 ف شهريا	4800
200 فارس	60 يوم	1 ف يوميا	24000
400 من المشاة	45 يوم	1 ف يوميا	18000
المجموع	//	//	46800

أجور رجال قبائل المحزن[8]

المدية فرع إداري (subdivision) :

لقد أطلق على المدية إداريا مصطلح الفرع الإداري خلال فترة الأربعينات، بحيث عرف فرع المدية (subdivision de médéah) تقسيما جديدا بموجب الأمر الصادر بتاريخ 21 أوت/ 3 أكتوبر 1846، الذي قسم المدية إداريا إلى ثلاث دوائر(cercles) وخليفة واحدة (khalifa)، كما جاء في نص المادة الأولى من الأمرية، وهي:

- ✓ دائرة المدية.
- ✓ دائرة أومال (سور الغزلان).
- ✓ دائرة بوغار.
- ✓ وخليفة الأغواط.

لقد عينت السلطات الفرنسية حاكما على الدوائر الثلاث برتبة باش آغا، وهذه الدوائر هي الأخرى بدورها قسمت إلى آغاويات، يحكمها أغوات خاضعين لسلطة الباش آغا. وتم تنصيب حكام على هذه الدوائر بموجب المادة الثانية من أمرية 1846.

* **فدائرة المدية:** كان يحكمها الباش آغا سي أحمد مول العود (صاحب الحصان)، ويخضع لسيادته أربع أغويات هي:

- ✓ آغوية المدية التي كان يحكمها في تلك الفترة سي عمر بلحاج العربي، بصفته آغا من الدرجة الأولى وتشمل نطاق: غريب، وامري، حناشة، ريغا، هوارة، حسن بن علي، وزرة، بني يعقوب، وموزاية.
- ✓ آغوية الدواير: على رآسها الآغا من الدرجة الأولى قويدر بن شورار. وتضم قبايل الدواير، أولاد ذايد، أولاد سيدي ناجي، أولاد هدين.
- ✓ قايدة العبيد: لها رأسها الحاج موسى قايد القياد. وتضم قبائل العبيد وبني حسن.
- ✓ قايدة الربعية: على رأسها الآغا قويدر بن عبد الله قايد القياد، وتضم جهات الربعية، أولاد سيدي امحمد بن يوسف.

***دائرة أومال (سور الغزلان):** وتشمل الجهات الشرقية والجنوبية الشرقية للمدية، عين على رأسها الحاكم بومزراق وهو ابن مصطفى بومزراق الحاكم آخر بايات التيطري، والذي قاوم الاحتلال الفرنسي عشية نزول الفرنسيين على شواطئ سيدي فرج 1830، وقاد لواء المقاومة عشية الجملة الفرنسية الأولى

على المدية، بحيث عينت السلطات الفرنسية ابنه بصفة آغا من الدرجة الثانية على الدائرة. وقسمت آغوية أومال إلى خمسة قيادات هي:[9]

✓ قايدة ديرة العليا: على رأسها قايد القياد بولحية بن عيسى. تضم قبائل أولاد دباب، أولاد عثمان، جواب أود مرين، أولاد فرحات، أولاد إدريس، أولاد بوعرف، أولاد بركات.

✓ قايدة ديرة السفلى: كان يحكمها في تلك الفترة طابية بن الحاج بصفته قايد القياد. ويشرف على قبائل أولاد عبد الله، أولاد سلامة، أولاد سيدي عامر، أولاد علي بن داوود، اولاد سيدي عيسى.

✓ قايدة العذاورة: على رأسها قايد القياد عبد القادر بن محمد، الذي يحكم مناطق: العذاورة، أولاد سيدي موسى فقط.

✓ قايدة الركنة: على رأسها قايد القياد محمد بن قويدر. وتضم أولاد سالم، بني عمر، بني حدو، الحمازة.

✓ قايدة أولاد مختار الشراقة: على رأسها قايد القياد بلحاج بن كشيدة. وتضم قبائل أولاد مختار الشراقة، أولاد سلامة، مويعدات الشراقة، صحاري التل، صحاري الكثبان، أولاد نايل، أولاد ضية، أولاد مشني.

* **دائرة بوغار:** التي كانت مقسمة إلى خمس آغويات، هي كالتالي:

✓ آغوية: بوغار عليها آغا من الدرجة الثانية، وهو قويدر بن ميمون، وتضم قبائل العبادلية، أولاد عنتر، أولاد هلال، الزناخرية، أولاد حمزة، أولاد أحمد، المفاتحة.

✓ قايدة أولاد علان: على رأسها قايد القياد يحي بن عبو، وتضم قبائل أولاد علان، أولاد معرف، السواري، الدهيمات.

✓ آغوية البواعيش: كانت تحت حكم الآغا سليمان بصفته آغا من الدرجة الثالثة، الذي كان يحكم قبائل البواعيش، أولاد سيدي عيسى أوسنق، أولاد سيدي عيسى السواقي.

- ✓ قايدة أولاد مختار الغرابة: على رأسها قايد القياد محي الدين بن دهيليس، وتضم قبائل أولاد مختار الغرابة، أولاد سيدي عيسى لحداب.
- ✓ آغوية أولاد شعيب: على رأسها آغا جديد، وتتكون من قبائل أولاد شعيب، الرحيان أولاد ساعد بن سلطان، أولاد نايل، أولاد سيد أحمد وأولاد خومي.[10]

*خليفة الأغواط: وعلى رأسها الخليفة سي أحمد بن سالم وهو أحد رجال الذين كانوا تابعين للأمير عبد القادر خلال فارة المقتومة. وهي بدورها كانت مقسمة إلى قسمين، هما:

- ✓ **آغوية الجنوب**: وعلى رأسها الآغا طبية بن عمر، آغا من الدرجة الثانية، وتضم قصور: الأغواط عين المهدي، تاجمونت، العوالى، القصر العريان، الصافية، تاجرونة، وتشمل أيضا قبائل معمرة، الحجاج، أولاد صالح، أولاد سيدي عطا الله، الغزلية، سيد العايبة، أولاد يحي بن سالم، أولاد نايل، مخاليف، جرب و أولاد عيسى.
- ✓ **أغاوية جبل عمور**: على رأسها مسعود آغا، وتشمل قبائل أولاد يعقوب، أولاد علي بن عمر، أولاد سيدي أحمد بن سعيد، أولاد ناصر، أولاد سي ابراهيم، أولاد سيدي عبد الله، رحمانة.[11] ومعروف تاريخيا بأن الجزائر قسمت في بداية عهد الاحتلال إلى مناطق مدنية وأخرى عسكرية، ومنها نيابة عمالة المدية التي شهدت هذا التقسيم. فقد قسم تراب المدية إلى إقليمين، جزء مدني* والآخر عسكري**، حيث يقتصر النوع الأول خاصة على المناطق التلية والثاني على المناطق الجنوبية من خلال ما لحضناه في هذه الدراسة، بحيث حدث هذا التقسيم بموجب القرار الملكي الصادر بتاريخ 15 أفريل 1845، الذي نص على التنظيم والتقسيم الإداري للجزائر.[12]

فقبل النصف الأول من القرن التاسع عشر 1848 أشار بيكي Béquet للجهاز الإداري الذي كانت تتشكل منه إدارة المدية المتشكل من الأعضاء الآتي ذكرهم:

- ماري مونج (Mary Monge): القائد الأعلى أو. جوان(Jouin.O): قائد المكان تولى مهام مفتش المدني. ديفوق (Dufoug): رئيس المكتب العربي. دي سانت إموند (De Saint Amand): المراقب المالي. ماني (Maigne): موثق. جافين (Javin): قائد الهندسة. كوري (Coret): طبيب عام. ديبلا (Duplat): صيدلي عام. فور (Faure) : قابض ممتلكات العامة. بريكورو (Pequereau) : قابض الضرائب. بايون(Payon) : معلم. وثلاثة تجار: هم ايافو، ماتيو وجورج.[13]

لقد استعانت السلطات الفرنسية بالسكان المحليين في الحكم، لمساعدتها في الجوانب الادارية والأمنية وإخضاع الأهالي الجزائريين. وكان يشرف على حكم المدية في الأربعينات مجموعة من الحكام العرب يمثلون السلطة الفرنسية، وهم باش أغا المدية، على رأس آغوية المدية، أغا الدواير، قايد العبيد وقايد الربعية. هم على التتالي: المدية، بوغار، والأغواط.

- الباشا غا سي امحمد مول العودة.

آغا المدية: عمر بن الحاج العربي.

-آغا الدواوير: قويدر بن شورار

- قايد العبيد: الحاج موسى قايد القياد

- أغا الربعية: قويدر بن عبد الله قايد القياد.

أما المنطقة الجنوبية الشرقية: تتكون من قايدة أولاد علان، قايدة أولاد مختار الشرقية، وآغوية أولاد نايل

الشراقة. وعلى رأسها بن يحي آغا الأغوات وخليفته أويحي أو العربي.[14]

فقد ذكر أوكتاف تيسي (Teissier Octave) في كتابه المنشور 1865 بأن مقاطعة المدية خلال هذه الفترة كانت تمثل أحد الفروع العسكرية (SUBDIVISION)، تابعة للقطاع العسكري بالبليدة (LA DIVISION DE

BLIDA)، والذي يشرف على الفروع العسكرية التالية: (البليدة، المدية، دلس، أومال (AUMEL)، المدية، مليانة، الشلف (ORLEONS VILLE)، في الوقت ذاته يتكون الفرع العسكري للمدية من ثلاثة فروع عسكرية (SUBDIVISION)* هي:

1- الفرع العسكري بالمدية: الذي يتكون من الباش أغوات الجنوب الإثني عشر.[15]

- دائرة بوغار: الواقعة حوالي 80 كلم جنوب المدية، وهي تضم أغوات (أغاليك) بوغار، أولاد مختار، البواعيش، أولاد شعيب، بمجموع إثني عشر قبيلة.[16] فكانت دائرة بوغار عبارة عن مركز للتخزين والتموين العسكري في المدية في منتصف الأربعينات يشرف عليها القائد موني بصفة قائد فرقة، وقائد أعلى للجيش في المنطقة. قوارد: ليوتنو، رئيس المكتب العربي. تيسي: نقيب، قائد الهندسة الوحدة الثقيلة.[17]

- دائرة الأغواط: الواقعة على تخوم الشمالية للصحراء، بمسافة تبعد عن المدية ب 396 كلم. تتكون من 34 قبيلة من أولاد نايل.كما جاء في نص الرسالة التي بعثها بها القائد بليسي للإمبراطور عشية 9 ديسمبر 1952.[18] وقد كان يطلقون عليها خليفة الأغواط، التي تمتد إلى تخوم الصحراء، حيث كانت تتكون خليفة الأغواط من عشر قبائل وتسعة قصور، في الأغواط، عين المهدي، تاجمونت وغيرهم... ومن أشهر من حكامها نذكر الخليفة سيد أحمد بن سالم أخوه يحي.[19]

ففي الأربعينات من التاسع عشر كانت دائرة بوغار تضم آغوية بوغار، على رأسها الآغا قويدر بن ميمون[20]، الذي وصفه الجنرال فرتنسوا شارل دي باريلDu Barail, François-Charles أثناء تكليفه بمهامه الجديدة في مدينة بوغار بالرجل الحكيم، الحذر من أعدائه، وأنه كان على دراية تامة بشؤون البلاد،

تحت إمرة النقيب بوفالي Bauvallet، وهو الذي قدم خدمة هامة للجنرال دي بريال على حساب أبناء جهته .كيف لا وهو الذي أشار عليه باتخاذ موقع لقوته قرب المكان المسمى مجبر، حيث أقام دي بريال ثكنة عسكرية لقواته فرقة التدخل العسكري، مقابل حصول العميل بن ميمون على الأرضي المتبقية التي سلبت من السكان المحليين مقابل خدمة المستعمرة الفرنسية.[21] هذه الثكنة التي كتب عنها دولافيل، بأنه خلال رحلته إلى جهات بوغار هيأ طريقا بريا يربط ثكنة مجبر بالطريق الواصل بالأغواط.[22]

وتكلم القائد دي بريال عن النقيب فريكوfricot الضابط السابق للقيادة العليا في الجيش الفرنسي، الذي استفاد وقتها من التقاعد النسبي خلال تواجده في بوغار. [23]كذلك آغوية البواعيش التي كان يحكمها الأغا سليمان بن الطاهر، وكان هذا الأخير أخا لأحد القادة الذين كانوا تابعين للأمير عبد القادر.[24] أما آغوية بني سليمان فكانت تابعة لعمالة للجزائر وقتها وليس (لمقاطعة) المدية، ومن الذين تولوا تسيير حكم بني سليمان الآغا سيدي علي العلوش.[25]

إحداث نظام البلديات في المدية:

عرف الجانب الإداري في المدية تنظيما إداريا بظهور ما يسمى البلدية، فقبل استحداث منصب رئيس البلدية في المدية كان يشرف على إدارة شؤونها المحافظ المدني (le commissaire civil)، لكن بغية توسيع الإدارة المحلية في الجزائر كما جاء في التقرير الرسمي، الذي رفعه للإمبراطور نابليون الثالث بتاريخ 30 ديسمبر 1956، الذي صدر في الجريدة الرسمية الفرنسية تحت رقم 4288، فقد تم إلغاء منصب المحافظ المدني في كل من المدية، أرزيو وبجاية، وتم تعويضه بمنصب رئيس بلدية.[26]

لقد تم ترسيم بجاية والمدية إداريا إلى بلديات تابعة للسلطة الفرنسية على التتالي ما بين سنتي 1850/1848، وتم ترقيتهما رسميا إلى بلديتين بموجب المرسوم الامبريالي بتاريخ 17 جوان 1854، كما استحدث محاكم الصلح في بجاية، وتعمير المنطقتين، وبذلك لا جدوى لبقاء منصب المحافظ المدني الذي تم تعويضه برئيس البلدية.[27] فالحكومة العامة الفرنسية أقدمت على تأسيس العديد من البلديات في الجزائر عام 1854، بحيث استحدثت بلدية قسنطينة بموجب مرسوم 24 أفريل 1854، والذي أردف بمرسوم آخر في 17 جوان 1854، الذي نص على تأسيس بلديات: المدية، مليانة، شرشال، تنس، معسكر، تلمسان، بجاية، سطيف، وقالمة، في إطار فرض السيطرة الفرنسية في الجزائر، كما ذكر الماريشال فايون Marchal vaillant بأن نظام البلدية يعتبر من الوسائل الأكثر ضمانا وفاعلية لتعزيز السلطة الاستعمارية في الجزائر، والبلدية تكمل الوطن الأم للمهاجرين الفرنسيين والأوربيين في الجزائر. وحتى الأهلي نفسه يجد صورة الجماعة في البلدية.[28]

فخلال عام 1877 كان يشرف على بلدية المدية رئيس البلدية دودي يوسف (Daudet Joseph)، بمساعدة نواب قسم رؤساء البلديات وهم كاربي فرانسوا (Corpy François) قسم الداميات، لوجون بول(Le Jaune Paul) قطاع الداميات، أومري جرمان (Omary Germain).[29]

فبلدية المدية عرفت تنظيما أكثر مع نهاية القرن العشرين، كما هو موضح في الاجتماع المحلي المنعقد بتاريخ 30 ماي 1896 تحت رئاسة السيد بواسي (M. BOISSET)، والذي تم فيه توزيع عضوية اللجان في المجلس البلدي على النحو التالي:

- ✓ المالية لدراسة السنة المالية 1896 والمكملة لعام 1897، التي كان يشرف عليها السادة: حندوش، ساجو موفازان، دوني لويس، ريقلي كالمي، سعدية عياش، سبعاوي، بابا علي.
- ✓ اللجنة الإدارية المكلفة بالقباضة، الادارة، والمدارس:المكونة من أرنال، بورغال، ديني هنري، هوفمان، سلفستر، كاسبياني، دارمون جوزيف، تلمساني، العربي سي حسان.
- ✓ لجنة الأعمال الخيرية و المساعدات، والجوانب المتعذر إصلاحها، تكونت من السادة: م.نيكولا لويس: ريشارد، بيني، كروزات، روبار، سلطان اسحاق، مول العود، ولد رامول. وقد تشكل مكتب الخدمات الخيرية من ثلاثة أعضاء إداريين وهم: م كورجي، بايلي، والعربي سي حسان.[30]

لقد تطور النظام الإداري في الولاية التي عرفت تداول عدة رؤساء بلديات علىا البلديات التابعة للمدية، ومنهم رؤساء الذين حكموا المدية وقصر البخاري عام 1877:

البلدية	المدية	قصر البخاري
الرئيس	دودي جوزيف	Ribet (Jean-Esprit
النواب		Etienne (Joseph.)[31]

ومن الذين تولوا منصب رؤساء البلديات ذات الصلاحيات الكاملة عام 1925 في بلديات المدية نذكر منهم مايلي:

البلديات	المدية	الداميات	البراوقية	اللودي	بوغار	قصر البخاري
رئيس	Daudet Edmond	Clarion Emil	Jamot Édouard	Lazard Jean	Alecsandri Albert	Feraud paul
النواب	Pruvosl René Abou David	Mazard joseph Bourgade nirgile	Ferraliat célestin	Dupoizal augustin	Carlotti André	Basihiem Victor[32]

فإلى غاية 1936 ظل التقسيم الإداري للمدية يتكون من ست بلديات كاملة الصلاحيات، وثلاث بلديات مختلطة، كما جاء في بيان مولاي مصطفى، أحد النواب المرشحين للمجلس الإداري في قائمة فيدرالية المنتخبي المسلمين.[33]

لقد شهدت نيابة عمالة المدية توسيع بلدياتها على غرار التوسعيات التي قامت بها الإدارة الفرنسية على مستوى التراب الوطني، فخلال هذه الفترة تم إحداث توسيع إداري تم احداث 42 بلدية مختلطة، وتوسيع 11 بلدية مختلطة على مساحة ترابية تقدر 5834609 هكتار، وتضم 926329 ن. وخلال الفترة الواقعة ما بين 25 أوت 1880 والفاتح أكتوبر 1881 تم تأسيس 39 بلدية مختلطة على الفترات التالية:

الفترة	عدد البلديات
25 أوت 1880	21
الفاتح ديسمبر 1880	20 بلدية
21 ديسمبر 1880	4 بلديات

7 مارس 1881	2 بلديات،

فقد وزعت هذه البلديات على العمالات الثلاث على النحو الأتي: 11 بلدية مختلطة في عمالة الجزائر، 8 بلديات في عمالة وهران، 20 بلدية في مقاطعة قسنطينة. في الوقت الذي تم توسيع 17 بلدية قديمة، [34] منها بلديتي البرواقية وقصر البخاري باعتبارهما البلديات الأم، بموجب الأمر التأسيسي في الفاتح ديسمبر 1880، وأصبحت سارية المفعول الفاتح جانفي 1881. [35]

في الوقت ذاته تم توسيع بلدية قصر البخاري على حساب قبائل عزيز التي كانت تابعة من قبل لبلدية ثنية الحد، والتي كانت تمثل اقليما قياديا للسلطات الفرنسية (territoire de commandement).[36] وقد وصف لنا الجنرال شارل فرانسوا دي باريال في منتصف القرن التاسع عشر Du Barail, François-Charles (1820-1902) قصر البخاري بأنها كانت مركزا لاستراحة القوافل القادمة من المدية باتجاه الصحراء، كما ذكر منازلها المبنية من الطوب المحاطة بالحجارة، تتخللها بيوت للدعارة التي تسكنها بنات نايل(النايليات).[37]

ومن المعروف أن نظام البلديات خلال الفترة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر كان متغيرا وليس ثابتا، وهذا ما نستشفه من خلال وثائق الإدارة الفرنسية، بظهور بلديات واختفاء بلديات أخرى على مستوى التقطيع الإداري للجزائر، بحيث يحدث أحيانا أن تتحول البلديات من بلديات كاملة الصلاحيات إلى بلدات مختلطة، حين توسع رقعتها الجغرافية على حساب الدواوير والأعراش التي تضم السكان المحليين (الأهالي).

فمن خلال احصائيات الحكومة الفرنسية، نجد بأن المقاطعة الإدارية (arrondissement) للمدية كانت تضم ثلاث بلديات مختلطة قبل تاريخ الفاتح أكتوبر 1881، وهي: بلديات بن شكاو، البرواقية، وقصر البخاري من ضمن 169

بلدية مختلطة كانت موجودة في الجزائر خلال نفس الفترة المذكورة. في الوقت ذاته كانت المدية تتكون من بلديتين اثنتين أهليتين تابعتين للأقاليم العسكرية (أقاليم الوصاية) هما الأغواط والجلفة، من مجمل 21 بلدية كانت تابعة للحكم العسكري بنوعيها المختلطة والأهلية، حيث مثلت البلديات المختلطة خلال شهر أكتوبر 1881 ست بلديات فقط، والباقي 15 هي بلديات أهلية، تقع تحت الحكم العسكري في الجزائر.[38] كما يبينه الجدول التالي:

نوع البلدية		الجزائر	وهران	قسنطينة	المجموع
الإقليم المدني	كاملة الصلاحيات	77	54	65	169
	مختلطة	26	19	32	77
الإقليم العسكري	مختلطة	3	3	//	6
	أهلية	5	3	3	15[39]

توزيع البلديات بمختلف انواعها في المناطق العسكرية والمدنية (أكتوبر 1881).

فإلى غاية الفترة الواقعة قبل 1884 كانت المدية تتكون من أربع بلديات كاملة الصلاحيات هي المدية، البرواقية، بوغار، بوغاري (قصر البخاري) وثلاث بلديات مختلطة.[40]

فالمعروف أن البلديات الصلاحيات تكون في المناطق التي تكثر فيها العناصر الفرنسية بكثرة، مع العلم بتن اليهود فقد منحت لهم الجنسية الفرنسية بموجب قانون كريميو 1870.

- ✓ فبلدية البرواقية كانت تضم وقتها 874 ن 397 فرنسي، 98 يهودي و 327 أهلي، منهم وتتربع على مساحة قدرها 2177 هكتار.

- ✓ بلدية بوغار: تمتد من أولاد حمزة إلى واد الشلف على مساحة تقدر ب 12555 هكتار، بتعداد سكاني قدر بحوالي 2006 ن، منهم 477 أوربي، 20 يهودي، 1403 من الأهالي.
- ✓ بوغاري: وهي الأخرى كانت بلدية كاملة الصلاحيات، تمتد من أولا حمزة حتى الشلف، بتعداد 2110 ن، منهم 205 أوربي، 72 يهودي، و 1788 ن من الأهالي.
- ✓ بلدية المدية: وتضم الداميات، مركز اللودي، تمزقيدة، ودواوير أخرى بمساحة تقدر ب 16527 هكتار، و كتلة سكانية تقدر ب 19250 ن، موزعين علة النحو التالي: 2876 فرنسي، 1460 يهودي، 14296 من الأهالي وعناصر أجنبية أخرى.[41]

بالإضافة إلى المناطق التي يسود فيها النظام المدني، فهناك مناطق تابعة للحكم العسكري، في جنوب المدية، وهي التي يسود فيها النظام العسكري الإقليم أو النطاق العسكري، (TRRETOIRE DE COMME NDMENT) حيث تكون تابعة للفرع العسكري بالمدية (subdivision de Médéa)، الخاضع لسلطة القطاع العسكري(SUBDIVISION)، بحيث نميز في منصف الثمانينات وجود نمطين في الإقليم العسكري، الذي يحتوي بلديتين اثنتين مختلطتين وأربع بلديات أهلية،[42] وهذا النظام يسود فيه الحكم العسكري، باعتبار أن معظم سكانه هم من العناصر المحلية.

لقد ساد نظام البلديات المختلطة في مركز مقر الجلفة والأغواط فقط قبل عام 1884. أما نظام البلديات الأهلية فساد في مادون ذلك في المناطق الجنوبية التابعة للفرع العسكري في المدية.ومن البلديات التي ساد فيها نظام الحكم الأهلي هي كالآتي:

✓ نظام البلديات المختلطة في بوغار: في قبائل أولاد علان، أولاد زكري، البشيش، التبتري، الدهيمات، أولاد مختار الشراقة، المويعدات، السحاري، سيدي عيسى، الأحداب، رحمتن الغرابة، رحمان الشراقة، المويعدات الغرابة، قصر الشلالة، الزناخة، الغرظ، السواقي، الكرك، سيدس داوود، أولاد ثابت، أولاد أحمد، الرشايقة، المقد، دوي، الحساني، بني معيدة وبني لنت.

✓ نظام الأهلي في الجلفة: ويسود في المناطق كل المنطقة باستثناء مركز بلدية الجلفة، كما هو الحال في قبائل أولاد: (أوماني، سيد أحمد، عبد القادر، الغويني، بوعبد الله، العبازيز، زنينة، الرقاد الشرقية والغربية، الخناتة، الطوابة، يحي بن سالم، لعور، المحاش، سحاري العثية،سحاري الخبيزات، سيدي يونس، وقبيلة بن علية).

✓ نظام البلديات الأهلية في الأغواط، ويسود في قصور (تاجموت، عين المهدي، الحوايطة، الصافية، الحيران)، بالإضافة إلى قبائل (أولاد زيان و بن شاعة، سيدي عطا الله، اولاد محمد وأولاد زيان)، وقبائل المخاليف الزرق، والمخاليف الجرب.

✓ نظام البلديات الأهلية في غرداية، ويسود مركز غرداية، بريان، القرارة، بوورة، مليكة، العطوط، بني يزقن، بني ابراهيم، بني عواقين، بني سيسين، بني خويلد، عين عمر، عين عجاجة، قبائل (الرويسات وبني ثور، سيد عقبة، الشعانبة بوروبة، والشعانبة البرازقة القليعة).[43]

أما نظام البلديات المختلطة فيسود في المناطق التي يكثر فيه السكان المحليين ويقل فيها السكان الأوربيين، خاصة في الأرياف والدواوير، في بلديات البرواقية، قصر البخاري و بوغار.

✓ فبلدية بن شكاو: تشمل مركز بن شكاو، حسن بن علي، أولاد فرقان، دوار المراشدة، أولاد الطريف، وزرة، الزعاطيط، بني يعقوب، الهواورة، الشراربة،

أولاد ابراهيم وأولاد ملال. بحيث يطبق هذ النظام على السكان المحليين البالغ عددهم 18460ن، منهم 18141 أهلي، و255 فرنسي. يتوزعون على مساحة تقدر ب 668055 هكتار.

- ✓ بلدية البرواقية المختلطة: وتشمل: تقع تحت حكم المتصرف المدني بالبرواقية، وتشمل الدواوير التالية: وامري، حناشة، واد واغات، بني حسين، سغوان، الرطال، أولا ذايد، زاد الشعير، الربعية وأولاد معرف. هذه المناطق التي يبلغ سكانها خلال تلك الفترة حوالي 22474 ن، منهم 22387 من السكان المحليين، و68 فرنسيا، يتزعةن على مساحة قدرها 12549 هكتارا.
- ✓ البلدية المختلطة لقصر البخاري: يدير شؤونها متصرفا إداري في الدواوير التالية: المفاتحة، العبازيز، أولاد مختار، بوغزول، أم الجليل، أولاد عنتر، قبيلة العبادلية، عزبز أولاد هلال. الذين يتوزعون على مساحة تقدر ب 217249 هكتار، تحوي 18202 ن، أغلبهم من العناصر المحلية ب 18149 ن، و 47 فرنسيا.[44]

فالبلديات كاملة الصلاحيات تطورت وأصبحت ست بلديات خلال عام 1887، على النحو التالي:

- ✓ بلدية المدية بموجب مرسوم 8 جوان 1854، وتضم أراضي تمزقيدة وجزء من أرض أوغات oughat.
- ✓ بلدية البرواقية بموجب مرسوم 29 جانفي 1869.
- ✓ بلدية بوغاري بموجب مرسوم 29 جانفي 1869، تضم هذه الأخيرة أجزاء من تراب أولاد حمزة.
- ✓ بلدية بوغار 14 سبتمبر 1870، تضم قسم من أولاد عنتر وأولاد حمزة.
- ✓ بلدية الداميات (تشمل دوار هرونة).

✓ بلدية اللودي*(تضم قسم من تمزقيدة وأوغات) اللتين تم استحداثهما بموجب مرسوم 29 جانفي 1887.[45]

لقد نصت المادة الأولى من مرسوم 29 جانفي 1887، وبناء على جملة من القوانين والدراسات* بأن المناطق التابعة لبلديات الداميات، اللودي باعتبارها مناطق آهلة بالسكان الأوربيين، التابعة لموزاية ودوار تمزقيدة تعبر بلديات كاملة الصلاحيات في المدية، كما صنف المرسوم نفسه فرق واد جوته (دوار وامري)، وأولاد مسعود (دوار أوغات)، وبلدية البرواقية المختلطة أقاليم مدنية تابعة للجزائر.

وأكد المرسوم السابق الذكر أن دوار هوارة وبلدية بن شكاو المختلطة ستكون مستقبلا ضمن تراب دائرة (مقاطعة) المدية، وهي بدورها تابعة لعمالة الجزائر. في الحين فإن البلديات المركزية يطلق عليها بلديات كاملة الصلاحيات، بحيث أن بلدية اللودي تتشمل: قطاع اللودي، مركز سكان موزاية، جزء من دوار تمزقيدة، فرقة واد جوته (دوار وامري) وفرقة أولاد مسعود (أوغات). في الحين تضم بلدية الداميات قطاع الداميات ومعظم هوارة.[46]

غير البلديات المختلطة تمثلت في بلديتي بوغار والبرواقية، بعد توسيع دوائرها، وبموجب المرسوم الحكومي الصادر بتاريخ 14 ديسمبر 1877 أصبحت البرواقية بلدية مختلطة، وبوغاري بمرسوم حكومي صادر بتاريخ 25 أوت 1880.[47]

نيابة عمالة المدية وحكامها:

من المعروف أن السلطات الفرنسية قامت بإلغاء ظرفي لنيابة عمالة المدية (sou préfecture) بموجب الأمر الصادر في 30 أفريل 1863، وأصبحت الفرع الإداري لبلدية المدية تابعا لمقاطعة البليدة بموجب أمر 13 أكتوبر 1858.[48]

فقد كتبت جريدة لومونيتور"" في هذا الشأن مقالا بتاريخ 19 اكتوبر 1958بعنوان مناظرات سياسية وأدبية، جاء فيه بأن:"... الملك نابليون المكلف بشؤون الجزائر والمستعمرات قرر انشاء خمس نيابات عمالات (sous préfecture) تابعة للعمالات (département) الثلاث في الجزائر، وهي:

- ✓ نيابتا عمالتا المدية ومليانة في عمالة الجزائر.
- ✓ نياباتا عمالتا معسكر وتلمسان في عمالة وهران.
- ✓ نيابة عمالة في قسنطينة".

كما نشرت الجريدة ذاتها مقالا آخرا على نفس الصفحة بعنوان: 'تقرير إلى الامبرطور'، جاء فيه بأنه بموجب مرسوم 31 ديسمبر 1856، الذي نص على انشاء ثلاث مفتشيات مدنية، وثمانية وعشرين بلدية في الجزائر. فالجهة الوصية طلبت من حاكم الإمبراطورية الفرنسية ضرورة انشاء ست نيابات عمالات وخمس مفتشيات مدنية، نظرا لأن هذه المناطق التي تحكم من طرف ضباط عامين عرفت توسعا وتنموا ملحوظا، ويقصد بها المدية، مليانة، معسكر، تلمسان، سطيف وقالمة. أما المفتشيات المدنية فهي أومال، نمور nemeurstd في وهران، جيجل، سوق أهراس وباتنة.[49]

وتشير المعلومات التاريخية بأن مقاطعة المدية (ARRONDISSENT DE MEDEA)[50] كان يحكمها حاكما برتبة سو بريفي (sous préfet)[51] ، ومن بين الذين تولوا هذا المنصب نذكر: لويس أوسكار غرد louis oscar garde. كان نائب محافظ للمدية عام 1880.[52] هذا الأخير جاء بعده الحاكم كارل carleتم تعينه على المقاطعة الإدارية لخميس مليانة[53] بتاريخ 31 جانفي 1883، وتم استخلافه بالنائب فيقورو أوقست vegouroux auguste، الذي كان يشغل نفس المنصب بقسنطينة.[54]

وتم تعيين الصحفي لويس بيار بيشي échet نائبا لعمالة المدية بتاريخ 12 فيفري 1886، وهو الآخر الذي لم يدم حكمه للمدية طويلا [55]، فسرعان ما عين بيشي خلفا له بعد 19 جوان 1886 نائب محافظ لعنابة.[56] في الوقت الذي تم استخلافه بنائب عمالة تلمسان، المدعو delmarés ديلمراس.[57]

وفي إطار التغييرات التي طرأت على الفئة الحاكمة في بعض العمالات الجزائرية تم تعيين م جوليان M.JULIEN حاكما على نيابة عمالة المدية (سو بريفي)، بعدما كان يشغل هذا المنصب بتلمسان[58] في مكان الحاكم السابق دالمراس (M.DALMARéS) بموجب مرسوم 20 فيفري 1894، بعدما كان يشغل نفس المنصب في عمالة تلمسان.[59] وتم تصنيف عمالة في الدرجة الثالثة إلى جانب عمالات الشلف وباتنة، معسكر وسيدي بلعباس، في الوقت الذي تم تصنيف عمالات تيزي وزو ومستغانم وعنابة في الدرجة الأولى، بينما صنفت نيابات عمالات مليانة، تلمسان، بجاية، سكيكدة وسطيف في الدرجة الثانية بموجب مرسوم 20 فيفري 1894.[60]

كما تم تعيين الحاكم مولموند الذي كان في نفس المنصب بمعسكر نائب محافظ مكان سابقه قاريبي garipuy. الذي أعفي من منصبه بموجب مرسوم 23 ماي 1896. [61] بعد ذلك تم تعيين لربورغ lerebourg[62]* الذي انهيت مهامه في ايفيان في مكان مولموند moulmand، الذي كان على رأس نيابة عمالة المدية، والذي تم نقله لتولي نفس المهمة في سيفري بإيفيان الفرنسية civry، بموجب مرسوم 21 أكتوبر 1898. [63]وبموجب الحركة الإدارية التي أحدثها مرسوم 9 جوان 1905 تم تعيين لوربورغ حاكما على المدية الذي شغل منصب الكاتب العام في الجزائر العاصمة مكلف بشؤون الأهالي الجزائريين والشرطة العامة، خلفا للكاتب العام السابق السيد بلونشار، الذي عين بدوره حاكما على عمالة سطيف، في الوقت الذي تم تعيين م غودان M (André Pierre Theodore)

Godin، الذي كان يشغل منصب المراقب العام في قطاع الشرطة والأمن للحكومة العامة في الجزائر على مقاطعة المدية.[64] وهو الذي تحصل على ميدالية من الرئيس الفرنسي بتاريخ 12 أفريل 1905، بناء على اقتراح وزير الداخلية في 15 أفريل من نفس السنة.[65]

وبتاريخ 17 مارس 1909 تم تعيين جياكوبي M. GIACOBBI الكاتب العام من الدرجة الثالثة حاكما على المدية في مكان غودان godin، الذي شغل نفس المنصب في مقاطعة برينيولس الفرنسية.[66] أما بموجب قرار 23 جانفي 1926 تم تعيين فالور Valeur الذي كان متصرفا في إحدى البلديات المختلطة تم تعيينه نائب محافظة المدية مكان سابقة أرموند Armand، هذا الأخير الذي تم تعيينه نائب مستشار للحكومة العامة في الجزائر.[67]

ومن نواب العمالات الذين توالوا حكم المدية نذكر أيضا بكزاني (M.CAZAGNE)، وهو نفسه الذي تم تعويضه بالحكم كبيلافي CAPILAFI 26 أوت 1932.[68] وبموجب مرسوم السادس جوان 1939، وباقتراح من وزير الداخلية، طبقا للمادة 75 من قانون 31 ديسمبر 1937، تم تعيين السيد أزي aze الحاكم السابق لمقاطعة باتناي الفرنسية حاكما جديدا على المدية خلفا للحاكم السابق روبير m. robert[69] والثاني في مقاطعة باثني الفرنسية أي بأحداث تبادل في المناصب، بموجب المرسوم الرئاسي ألبار لو بران Albert Lebrun الذي خول لوزيرة الداخلية ألبار سارو Albert Sarraut، بتعيين هذا الأخير نائب محافظ لعمالة المدية.[70]

وتعاقب على منصب نيابة العمالة الحاكم جيل برماس jules périmasse، الذي تم استخلافه بعد التقاعد بمنتدب الحكومة العامة فرانسوا لافون François Lafond في مستهل عام 1948.[71]

الخـاتمة:

قصد إحكام السلطات الفرنسية هيمنتها وسيطرتها علة المدية فقد قامت بترتيبات سياسية عسكرية وإدارية في المدية.

لقد حافظت فرنسا على الترتيبات الادارية والعسكرية في المدية عشية الاحتلال الفرنسي للمدية واستعانت بالعناصر المحلية توطئة لتثبيت كيانها في المدية، لكن ما لبثت أن طورت هذه الادارة، لكي يتماشى مع النظام الإداري المعمول في فرنسا.

لقد ساير النظام الإداري والعسكري والسياسي في المدية النظام العام المنتهج في الجزائر منذ فترة الاحتلال الفرنسي للبلاد.

ساد النظام المدني في الجهات الشمالية للمدية، حيث عرفت المدية نظام البلديات الكاملة الصلاحيات في المناطق التي يكثر فيها المستوطنين الأوربيين، والبلديات المختلطة التي تسود في المناطق التي يتفوق فيها العنصر المحلي عن العنصر الأوربي.

لقد عرفت مقاطعة المدية تطبيق النظام العسكري في المناطق الجنوبية التي كانت تابعة لها، والذي ساد إلى غاية 1947.

عرفت المدية تسميات مختلفة منها التيتري والمدية، لكن مصطلح المدية هو الذي ساد أكثر في المراسلات الإدارية والكتابات التاريخية، لأنه له صلة بتأسيس المدية منذ العهد الروماني السابق.

لقد تطورت المدية من مفتشية إلى مقاطعة إدارية إلى نيابة عمالة يحكمها سوبريفي، فهي التي يطلق عليها الكتاب الفرنسيون اسم المقاطعة حيانا والعمالة تارة أخرى.

إن دراستنا للجانب الاداري للمدية لم يغط كافة الجوانب الإدارية ونظام الحكم، نظرا لخصوصية المقال التاريخي في المجلة من جهة، ومن جهة أخرى صعوبة الغوص في مثل هذه المواضيع التي نفتقد فيها للمادة المعرفية في معالجة مثل هذا الموضوع.

إن الموضوع المدروس هو موضوع خصب مفتوح للباحثين للخوض في كتابة مثل هذه المواضيع أو في كتابة التاريخ المحلي للمدية، باعتباره واجب وطني ملقى على عاتقنا.

الهوامش:

[1] docteur Baudens, Relation de l'expédition de Médéa, publiée par Vict, p.201.

[2] Ministère de la guerre, collection des actes du gouvernement; 1893,p 40.

* لم يكن الباي بن عمر محظوظا، نظرا للمشاكل التي صادفته في المدية، ولم يستطع حكم شرشال ومليانة بنفس الصفة، مما جعل السلطات الفرنسية تستقدمه إلى الجزائر مقابل جراية مكافئة له. أنظر:

le comte Walewski, Un mot sur la question d'Afrique, J- N.Barba, paris,1837, p10.

[3]P. de ménerville, Dictionnaire de la législation algérienne, paris :imp gosse,1853, p9,10.

* لقد استعانت السلطة الفرنسية بقبائل المخزن التي كان بايلك التيطري يستخدمها في العهد العثماني، بحيث كانت تستفيد من الحصانة ومن دفع الضرائب مقابل حماية ومراقبة الحدود وتقديم المساعدة في الحروب. حول الموضوع انظر:

Napoléon, lettre sur la politique de la France, Algérie adressé par l'empereur au maréchal Dr mac Mahon, imp impériale, paris, p.63.

[4] P. de ménerville, opcit, 1853 10.

[5] Napoléon, lettre sur la politique...; opcit, p.66,67.

[6] IBID,p.67,68.

[7] IBID,p.68.

[8] Napoleon, opcit, p. 69.

* أومال: هي مدينة سور الغزلان اليوم.تقع أسفل جبل ديرة، في مكان العوزية في العهد الروماني، واحد القلاع التركية خلال الفترة العثمانية في الجزائر، وأصبحت مركزا عسكريا في عهد الدوق أومال في 27 ماي 1846، كانت تابعة لمقاطعة المدية. حول الموضوع أنظر:

Anonyme; Combat es-serrouj; in revue du Midi; 01-06-1901; no6;p27.

[9] P. de ménerville, opcit, 1853,p11.

[10] P. de ménerville, opcit, 1853,p12.

[11] ibid,p12.

[12] Béquet, L'Algérie en 1848 ; tableau géographique, p.67

* الفرع العسكري هو جزء تابع للقطاع العسكري.

[13]

[14] Béquet, opcit, p458.

[15] Octave Teissier, Algérie, géographie, histoire, statistique,1865,p. 58,63.

[16] IBID, p. 58,63.

[17] Bequet ;opcit, 256.

[18] Octave Teissier, Algérie, géographie, histoire, statistique, description des villes, villages et hameaux, organisation des tribus, bastide, libraire, Alger, 1865,p.58,63.

[19] Béquet, opcit, p460, 461.

[20] IBID, p459.

[21] Du Barail, François-Charles, Mes souvenir1851-1864, 2[ed], paris, 1898, p6,7.

[22] R. de La Ville, Souvenirs et campagnes, opcit, p120.

[23] Du Barail, opcit, p6,7.

[24] Béquet, opcit, p459.

[25] Béquet, opcit, p457.

[26] J.B. SIREY. Recueil général des lois et des arrêts: en matière civile, criminelle, commerciale.., paris, 1856, p177-18

[27] IBID, p177-18

[28] Annuaire des deux mondes; histoire générale des divers états, bureau de la rêve des mondes, 1854/1855, Paris: 1855, p114.

[29] Bulletin officiel; n°4, 1877,p137.

[30] Anonyme, « rendez vous » in j courrier de Médéa, n°1,31-05-1896, p.3.

[31] Bulletin officiel; n°4, opcit, p136 137.

[32] Département d'Alger, Tableau des municipalités: communes de plein exercice, mai 1925, 1925, p.10.

[33] Moulay Moustafa, « qui n'entendant qu'un cloche n'entent qu'un son» in j l'écho de la presse musulmane, n°34, 18-07-1936, p.1,2.

[34] Louis Truman. État actuel de l'Algérie: publié d'après les documents officiels. 1861-1882, imp administrative et GLE Galerie de l'expression, Alger, 1881, p51,52.

[35] IBID, p53.

[36] IBID, p49.

[37] Du Barail, opcit, p5.

[38] Louis Truman,op.cit, p.62,63.

[39] IBID, p.61.

[40] Cortès, Léon. Monographie de la commune de Médéa, imp algérienne, Alger: 1909, p12,13

[41] G.G.A, tableau général au 30 septembre des commues pleins exercice mixtes et indigènes; imp association ouvrière p. Fontana; Alger; 1884; p.8.

[42] IBID; p9

[43] IBID; pp23-25.

[44] IBID. P.9.

[45] GGA. Tableau général des communes d'Algérie au1er janvier 1892, imprimerie Fontana compagnie, Algérie 1892, p24.

* جاء هذا الاحداث بناء على 5 أفريل 1884، وبموجب مرسوم 32-10-1875، بموجب مرسوم 30-04-1861، بمقتضى التحقيقات القاضي بتكوين بلديات اللودي والداميات. واللجنة النقابية وقطاع الداميات واللودي. ومشاورت جماعات المنطقتين، ومداولات مجلس المدية ولجان المحلية لبن شكاو والبرواقية، وبناء على رأي المجلس العمومي للجزائر ومجلس الحكومة، وبناء على اقتراح الحاكم العام بالجزائر تم استحداث البلديتين. أنظر:

L'école de droit d'Alger, in Revue algérienne et tunisienne de législation et de jurisprudence, T3, imp librairie de l'académie, Alger,1887,p.55.

[46] L'école de droit d'Alger, opcit, pp 55,56.

[47] GGA, Algérie. Tableau général...; opcit, p25.

[48] P. de ménerville, Dictionnaire de la législation algérienne, V2,1860-1866, Alger, 1877, p17.

[49] « Rapport à Lempereur »,in Journal des débats politiques et littéraires, n°,19-10-1858, p1.

[50] طبقا للقوانين الفرنسي فإن العمالة يتم احداثها بمرسوم، ويكون على رأسها حاكما برتبة سو بريفي، بينما العمالة الأم يكون علاا رأسها بريفي. أنظر:

Dalloz, Jurisprudence générale. Supplément au Répertoire méthodique et alphabétique de législation de doctrine et jurisprudence 19, paris:1897, p728,729.

[51] تتمثل مهام سو بريفي التي حددها مرسومي 13 أفريل و 31 ديسمبر 1861 في نفس مهام بريفي، موزعين على ثلاث رتب المحددة على العمالات التي حددها مرسوم 20 فيفري 1864، حيث أن تنظيم وإدارة مجلس العمالة لم يتغير منذ صدور مرسوم 7 جويلية 1864، ويقتصر نظام العمالات خاصة في المناطق العسكرية أكثر منها المدنية. وكان ذلك النظام يعمل به في النظام الخاص، وكانت القرارات المعمول بها في بلديات العمالات لا تأت من المجالس العمالات، ولكن عن طريق قائد القطاع للإقليم. تقوم المجالس العمالية في الجزائر بنفس المهام التي تقوم بها نظيرتها في فرنسا. طبقا لمرسوم 12 جويلية 1856 بموجب مرسوم الصدر في الجزائر في 19 ديسمبر 1868 الخاص بالتنظيم الإداري. والمرسوم التطبيقي 14 جويلية 1898. الذي ينص على تطبيق نفس القوانين السائدة في فرنسا في مجالس عمالات الجزائر، باستثناء القانونين المعدلين في مرسومي 14 جويلية 1889 للمادتين 10، 14 من قانون 22 جويلية 1889. وطبقا لمرسوم 27 أكتوبر، يقوم حاكم البريفي بتعيين مجلس العام أو رئيس مكتب العمالة. حول الموضوع أنظر

Dalloz, Mm, IBIDو1897, p728,729.

[52] bulletin officiel, 1872-1882, imp administrative,1885, p.175,176.

[53] j le rappel, no 4715, 10-02-1883,p3.

[54] Bulletin officielle, opcit,n°2,46,année1883,p2.

[55] Académie des sciences, Mémoires de la Société national d'agriculture, sciences et art, T4, 1908, P291.

[56] Bulletin officiel, n°7, 1886,p154.

[57] Nouvelles algériens» in r L'Avenir de Bougie, n°118,30-06-1868, p3.

[58] Bulletin officiel, n°3, 1894,p45.

[59] ibid,1894, P.45.

[60] ibid,1894, P.46,47.

[61] ibid,n°6,1896, P.247-248.

*[62] Lerebourg (Edmond- Marie- Louis) : محافظ عمالة وهران، خريج المعهد المتعد التقنيات، ضابط في فرقة الرماية البحرية على التوالي عام 1884. اشتغل عون إداري ومتصرف إداري في بلدية مختلطة في الجزائر، نائب محافظ في سيفري الفرنسية والمدية، كاتب عام في حكومة الجزائر والقارون العليا. حاكم لو lot. ووهران عام 1909، حيث قدم خدمة مدتها 13 سنة للدولة الفرنسية. حول الموضوع أنظر:

IBID,n°7, juin 1910, P.388.

[63] Bulletin officiel, opcit, n°10, 1898, P.372-374.

[64] IBID, n°2, 1905, P19.

[65] Revue de la prévoyance et de la mutualité: bulletin, 1905, p 495,496.

[66] Bulletin officiel, opcit, n° 3, Mars 1907, p117.

[67] ibid,n°1,1926, P.26.

[68] Préfecture de la sein, Recueil des actes administratifs de la Préfecture du parité municipale 1932,n° 9, imp municipale hôtel de ville, p.1111.

[6]9 Bulletin officiel, opcit, n°6, juin 1939, p261.

[70] ibid, n°6, 1939, Pp.256-261-262.

[71] « dans l'administration départemental » in j l'Algérie française, n° 3021, 18-02-1948.

الكاتب: د/أحمد سامى بدوى زيد
جامعة الوادى الجديد- مصر

عنوان المقال: ظاهرة تقبيل الأقدام فى العصر العثمانى (699-1342هـ /1300-1924م) فى ضوء تصاوير المخطوطات

البريد الالكتروني: Ahmad.samy1991@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/01/29 تاريخ القبول: 2019/02/21 تاريخ النشر: 2019/03/28

ظاهرة تقبيل الأقدام فى العصر العثماني (699-1342هـ /1300-1924م) فى ضوء تصاوير المخطوطات

The phenomenon of foot kissing in the Ottoman era (699-1342 AH / 1300-1924) in the manuscripts

الملخص بالعربية:

يتناول البحث ظاهرة تقبيل الأقدام فى العصر العثمانى فى ضوء تصاوير المخطوطات ، ويتعرض البحث إلى تاريخ وفكرة تقبيل الاقدام قبل العصر الإسلامى ثم مرورا بالعصر الإسلامى ، وعن طريق تصاوير المخطوطات خلال العصر العثمانى بتركيا يعرض البحث فكرة تقبيل الأقدام وأشكالها والغرض منها ونماذج خاصة بالتصاوير فى مدرسة التصوير العثمانى.

كلمات مفتاحية: تصاوير- المخطوطات – العثماني – تقبيل – الولاء.

Abstract :

The research deals with the phenomenon of kissing the feet in Ottoman era in the light of the manuscripts. The research deals with the history and idea of kissing the feet before the Islamic era and then through the Islamic era and through the photocopies of the manuscripts the Ottoman in Turkey. The research presents the idea of kissing the feet and their shapes and purpose. In Ottoman school.

أهمية الدراسة :

تعتبر دراسة النواحى الحضارية فى التاريخ الاسلامى من خلال تصاوير المخطوطات مازالت فى مراحله الأولية فى حين أن الجوانب الأخرى نالت قسطا أكبر من الأهتمام لا سيما الجانب الفكرى والسياسى منها ، وتعد دراسة ظاهرة تقبيل الأقدام من خلال التصاوير فى المخطوطات كالمرآة الصافية التى تعكس لنا جزء حضارى للدولة العثمانية بأدق تفاصيله ، ولكن لماذا قام بذلك ؟ وماهى المناسبات التى قاموا بها ؟ وهل اتخذت لأشخاص بعينهم ؟ ولماذا لم يتخذ رجال الدين موقف تجاه هذا الأمر ؟ ، وسوف نحاول الإجابة عن هذه الاستفسارت من خلال الدراسة.

أهداف الدراسة :

أولا: تهدف هذه الدراسة إلى تناول ظاهرة تقبيل الأقدام فى العصر العثمانى وذلك من خلال تصاوير المخطوطات .

ثانيا: تهدف الدراسة إلى توضيح فكرة تقبيل الأقدام ، وأصلها وتطورها على مر التاريخ الإسلامى ، والتعرف على أى مدى التزم الفنان بتطبيق ما كان على أرض الواقع من عدمه .

ثالثا: تهدف الدراسة إلى التعرف على المراسم التى تتم فيها تقبيل الأقدام وأسبابها .

منهج الدراسة :

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفى التحليلى الذى يقوم على توصيف عناصر ومناظر التى تتضمن ظاهرة تقبيل الأقدام بالمخطوطات العثمانية وتحليلها ومقارنتها بالوصف التاريخى.

مقدمة:

لقد شهد التاريخ الإسلامى على العديد من الظواهر الغريبة والتى تأثر بها المسلمون بالعصور اللاحقة له ، وإن كانت هذه الظواهر بعيده كل البعد عن

منهج وتعاليم الدين الإسلامى الحنيف ، وتعد ظاهرة تقبيل الأقدام أو ظاهرة الخضوع وتقديم الولاء والطاعة من تلك الظواهر التى اتخذها المسلمون عن العصور السابقة له ، وقد سجلت لنا المنمنمات المزخرفة للمخطوطات هذه الظاهرة .

تاريخ تقبيل الأقدام: Date of kissing feet

لقد ظهرت تلك الظاهرة المعروفة بظاهرة تقبيل الأقدام قديما قبل العصر الإسلامى ، وكان استخدامها دليلا على الولاء والطاعة والمبايعة(1) للحاكم ، وقد ظهرت أيضا فى العصر الإسلامى .

تقبيل الأقدام قبل العصر الإسلامى :

لقد عرفت ظاهرة تقبيل الاقدام خلال العصر الساسانى لمبايعة كسرى ، وهى البيعة المشهورة لهذا العهد فهى تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الزيل وهى العهد على الطاعة حتى صارت حقيقة عرفية (2).

تقبيل الأقدام فى العصر الإسلامى :

وكانت المبايعة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مصافحة بالأيدى (3) كما صار الأمر فى العصر الإسلامى فى بعض عصورها ، كما ذكر القلقشندى أن الوزير " يدخل الوزير المجلس ويسلم بعد دخولة ثم يقبل يدى الخليفة ورجليه " (4)

وتتم مراسيم البيعة للخليفة الجديد وفق ترتيب ونسق منظمين، تتولى الإشراف عليها دار التشريفات بدار الخلافة ، حيث يجلس فيه الخليفة لتقديم البيعة، ويقف بين هذه الصفوف كبار رجالات الدولة من العسكريين. أما رجالات الدولة من أصحاب الوظائف الديوانية فيقفون على يمين الشباك ويساره ، فإذا حضر الخليفة، رُفعت الستارة، فيُقبّل الجميع الأرض ، ثم يجلس الخليفة متوجهًا إلى القبلة (5) ومما سبق ومن خلال تتبع أساليب ولاية الحكم فى الدولة الإسلامية ،

نلاحظ أن البيعة هى الطريقة الأساسية فى تولية الحاكم ، حيث أنه سواء تم العهد إليه ، أم لا ، فإنه لابد من أخذ البيعة من أهل الحل والعقد [6].

مناظر تقبيل الأقدام فى تصاوير المدرسة العثمانية

kissing the feet in the miniatures of the Ottoman school:

الأتراك [7] من الشعوب الإسلامية التي أسهمت بشكل كبير فى صرح الحضارة الإسلامية ؛ وقد أقام الأتراك العديد من الدول والدويلات والأمارات خلال العصر الاسلامى، ويكفى أن نشير إلى أن عدد هذه الدول والدويلات تجاوز العشرين ، وكان أهم هذه الدول بطبيعة الحال الدولة السلجوقية[8] ، والدولة العثمانية [9].

وتمثل مدرسة التصوير العثمانية دورا بارزا في الفن الإسلامي من بين مدارس التصوير الإسلامي، نظرا لطول الفترة الزمنية التي عاشتها (699-1342هـ/1300-1924م) وما أنتجته من مخطوطات كثيرة موضحة بالصور بحسب أسلوبها الفني، فضلا عن اختلاف موضوعاتها ما بين مخطوطات أدبية وتاريخية ودينية وعلمية، فقد وجدت الفنون عناية فائقة في عهد السلطان محمد بن مراد الثاني وبخاصة فن التصوير، والذي أستقدم المصورين وأجتذب حول بلاطة فى استانبول الكثير من رجال العلم والأدب والفن، وأصبح بلاطة مقصد الوافدين[10]، وجاء بايزيد الثاني بعد الفاتح الذي ورث عن أبية رعايته للفنون وحبة للشعر، ولكنه كان يختلف مع أبية فى موقف كل منهما من فن التصوير إذا كان الفاتح يعجب بالتصوير الأوربي؛ بينما بايزيد يعجب بالتصوير الفارسي فأمر بإخراج كل الأجانب من القصر، وجاء السلطان سليم الأول بن بايزيد

الثانى والذي اتسعت دولته أتساعا كبيرا في الشرق والغرب، والذي أثرت بشكل مباشر على الفنون حيث كان ينقل الفنانين المهرة إلى استانبول [11].

ويعتبر عهد السلطان سليمان القانونى العصر الذهبي لفن التصوير العثماني، وكذلك عهد السلطان مراد الثالث [12] فقد أزدهر التصوير العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني الذي انشأ في بلاطة مرسم كان يعمل فيه فنانون أتراك إلى جانب فنانين أجانب [13] وفى عصر السلطان مراد الثالث بل فن التصوير ذروته إلى جانب عنايته بالفنون التطبيقية الأخرى، وكانت الدولة حريصة على إخراج فنانين المصنوعات على أحسن وجه [14] ومرت الدولة العثمانية بمراحل من التقلص بدأ في التفاقم في عصر السلطان محمد الرابع ومن ثم كان أخر السلاطين عبد المجيد الثاني 1924م [15].

فكرة تقبيل القدم (تقديم الولاء والطاعة) فى تصاوير المدرسة التركية العثمانية :

The idea of kissing the foot (providing loyalty and obedience) in miniatures of the Ottoman Turkish school:

وفقا للتراث الإسلامى ، فإن التنصيب العلنى المهيب للعاهل الجديد يتميز ايضا بمراسم البيعة ، أداء يمين الولاء من جانب كبار وجهاء الدولة والعلماء وقادة الجيش [16] فكان الحاكم الجديد ، فور اعتلائه على قسم الطاعة المتبع فى الإسلام من كبار مسئولى الدولة المسمى بالبيعة كما هو متبع لدى جميع حكام المسلمين ثم يوزع الأكراميات والتى ألغيت فى العصر العثمانى عام 1757م [17].

تحدثت بعض المراجع عن الوصف التاريخى لحفل التنصيب على عرش (بيرم تخق) عرش الأحتفال أمام باب دار السعادة بقصر طوبقابو ، وكان السلطان يتلقى التهنئة وفروض الولاء من (قيزلر أغاسى) رئيس الخصيان بالقصر ثم من السلحدار أغا (حامل السيف) ثم من كبير خدم القصر ويأتى بعد ذلك نقيب الأشراف ليدعو للسلطان ويبيعه كبار الموظفين ليقدموا آيات الولاء[18] ، فإن

وفاة السلطان يعقبها فى اليوم نفسه المناداة بخلفه ، وعندما يلفظ السلطان آخر أنفاسه يعلم القيزلر أغا الصدر الأعظم بذلك ويدعو هذا الأخير للإجتماع فى السراى كبار رجال الدولة وهم : المفتى وأمير البحر ونقيب الأشراف وأغا الأنكشارية وقاضى العسكر وقاضى الأستانة وعندما يجتمعون فى المكان المسمى "ستة أوضة" يذهب رئيس الخصيان السود ويعلمان الوصى على العرش رسميا الخبر ، ويذهب السلطان الجديد إلى "ستة أوضه" يساعده هذان الموظفان الكبيران ويجلس على الأريكة ليتقبل خضوع كبار الموظفين الذين يحيوه بوضع شفاهم على ردائه ولكن الصدر الأعظم يقبل قدمه ليعبر عن جميع الأمة [19]

وأول عمل ملكى يقوم به السلطان الجديد هو إثبات الصدر الأعظم والمفتى فى منصبهما ، ثم يذهب إلى مسجد السراى ليقدم حمده لله تعالى وليتقبل خضوع كبار موظفى حاشيته فيتقدمون كل حسب رتبته وينحنون باحترام زائد ويلمسون الأرض بيدهم اليمنى ثم يرفعونها إلى شفاههم ومن ثم إلى جبينهم وبعدها ذيل ثوب السلطان ويدعى هذا سلام الخضوع (يمين بوس) [20].

ولقد ظهر العديد من التصاوير التى تتضمن مناظر لتقبيل قدم السلطان أو أهداب السلطان العثمانى من قبل العديد من الشخصيات العثمانية كالصدر الأعظم والذى يدل على تقديم الولاء للمجتمع المدنى ، كما كان أغا الأنكشارية يقوم بتفبيل قدم السلطان أو أهداب السلطان والذى يدل على تقديم الولاء للمجتمع العسكرى ، **وتنقسم ظاهرة تقبيل قدم السلطان إلى :**

<u>(أ): تقبيل قدم السلطان من قبل رجال الدولة (الصدر الأعظم):</u>

(A) kissing the feet of the Sultan by the men of the state (the great chest):

لقد شاركت رجال الدولة فى تولية السلاطين ، ويظهر الصدر الأعظم ينحنى ليقبل قدم السلطان أو أهداب ثوبه وهذا بمثابة تقديم فروض الولاء والطاعة ، ولكن الصدر الأعظم يقبل قدميه إذ يعتبر أن يمثل جميع الأمة [21] ، ويظهر

ذلك فى مخطوط سليمان نامة[22] لوحة (1) والتى تمثل كبار موظفي الدولة يقدمون فروض الطاعة والولاء إلى السلطان سليمان[23] بمناسبة اعتلائه عرش السلطنة [24] ، ونرى بها السلطان سليمان جالسا على عرشه في زيه الرسمي ويركع أمامه الصدر الأعظم ليقبل أهداب ثوبه ليعلن فروض الولاء للسلطان ، وتظهر أيضا فى تصويرة أخرى من نفس المخطوط لوحة (2) والتى تمثل السلطان سليمان القانونى يستقبل إبراهيم باشا ، ونرى بها السلطان سليمان يجلس على عرشه فى قاعة العرش ويركع أمامه الصدر الأعظم ليقبل قدم السلطان ليعلن ولائه .

<u>(ب) تقبيل قدم السلطان من قبل العسكرين (أغا الأنكشارية) :</u>

(B) kissing the Sultan's feet by the military (Aga Anakshary):

لقد شاركت عناصر الفرق العسكرية فى تولية السلاطين ، ويظهر أغا الآنكشارية[25] ينحنى ليقبل قدم السلطان أو أهداب ثوبه وهذا بمثابة تقديم فروض الولاء والطاعة ، ويؤكد أيضا الدور الرئيس الذى يقوم به الانكشارية فى تولية السلاطين العثمانيين [26] ، ويظهر ذلك فى مخطوط نزهة الأسرار والأخبار (سفر سكتوار) [27] لوحة (3) والتى تمثل حفل اعتلاء السلطان سليم الثاني[28] العرش في بلجراد ، ويظهر في الصفحة اليمنى السلطان سليم الثاني جالسا على العرش ينحني أغا الأنكشارية ليقبل أهداب ثوب السلطان فى حضور كبار رجال الدولة والأنكشارية[29] ، كما تظهر فى مخطوط هنرنامة[30] لوحة (4) والتى تمثل حفل تنصيب السلطان بايزيد الأول[31] العرش ، ونرى السلطان بايزيد الأول على عرشه داخل خيمته ويركع أمامه قائد الأنكشارية (أغا الانكشارية) ليقبل ثوب السلطان بايزيد ومن حوله كبار رجال الدولة ، ويظهر فى نفس المخطوط لوحة (5) والتى تمثل حفل تنصيب السلطان محمد الثانى[32] في أدرنة ، ولوحة (6) والتى تمثل تتويج السلطان بايزيد الثانى[33] ، و لوحة (7) والتى تمثل تتويج

السلطان سليمان القانونى ، ونرى بهم أغا الأنكشارية راكعا ليقبل قدم أو أهداب السلطان فى حضور رجال الدولة المدنيين والعسكريين.

الخاتمة وتضمنت أهم النتائج :

- أوضحت الدراسة أن ظاهرة تقبيل الأقدام كانت من الموروثات القديمة التى اتخذها المسلمون عن غيرهم من الحضارات السابقة مثل الحضارة الفارسية ، وإن كانت تركها المسلمون خلال العهد الأول ؛ إلا أنها عدت مرة أخرى ويرجع السبب باختلاط المسلمون بالفرس .
- بينت الدراسة أن ظاهرة تقبيل الأقدام كان الغرض الأساسى منها التعبير عن الولاء والخضوع للسلطان أو الحاكم .
- أوضحت الدراسة أن ظاهرة تقبيل قدم السلطان فى العصر العثمانى اقتصرت عليه فقط ، وكان تقبيلها من قبل كبار رجال الدولة والقادة العسكرين وذلك لتعبر عن الولاء المجتمع المدنى والعسكرى .
- أبرزت تصاوير المدرسة العثمانية صور عديدة لأغا الأنكشارية يقبل قدم السلطان ، وعند الرجوع للمصادر التاريخية تؤكد أن الأنكشارية الدور البارز فى تنصيب هؤلاء السلاطين .

فهرس اللوحات

لوحة (1) كبار موظفى الدولة يقدمون فروض الطاعة والولاء الى السلطان سليمان بمناسبة اعتلائة عرش السلطنة ، مخطوط سليمان نامة ، بتاريخ 965هـ/1558م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم.H.1517.

ثروت عكاشة : التصوير الفارسى والتركى ، ص316 ، لوحة 202.

Atil (E); Turkish Art, New York, 1980,f.80 ,p.17.

لوحة (2): السلطان سليمان القانونى يستقبل إبراهيم باشا ، مخطوط سليمان نامة ، بتاريخ 965هـ/1558م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم.H.1517.

Atil(E); Suleymanname the illustrated history of Suleyman the magnificent ,New York ,1986, pl.24.

لوحة (3) الصفحة اليمنى : حفل اعتلاء السلطان سليم الثانى العرش فى بلجراد، مخطوط نزهة الأسرار والأخبار (سفر سكتوار) ، 976-977هـ/1568-1567م، بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم .H.1339. .

ثروت عكاشة : التصوير الفارسى والتركى ، ص318 ، لوحة 204.

Feher (G) ; Turkish miniatures from the period of the Hungary's Turkish occupation ,Budapest, 1978,pl.XLvII(A).

لوحة (4) حفل تنصيب السلطان بايزيد الاول العرش ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم H.1523.

. And(M); Turkish miniature painting,Istanbul,1982 ,p68

لوحة (5) حفل تنصيب السلطان محمد الثانى فى أدرنة ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/ 1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم H.1523.

Atasoy (N) & Cagman (F), Turkish Miniature Painting.,pl.23.

لوحة (6) تتويج السلطان بايزيد الثانى ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/ 1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم H.1523..

Ertuy(A); Huner Name Minyaturies ve sanateilari,Istanbul,1969,pl.XvII.

لوحة (7) تتويج السلطان سليمان القانونى ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/ 1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم H.1523.

Necipoglu (G) ; Architecture ceremonial and power the topkapi palace ,new york ,1971,pl.38,p.58.

Gagman(F), Tanindi(Z); The TopKapi Saray museum the albums and illustrated manuscripts , 1986,pl.13 ,p36.

اللوحات

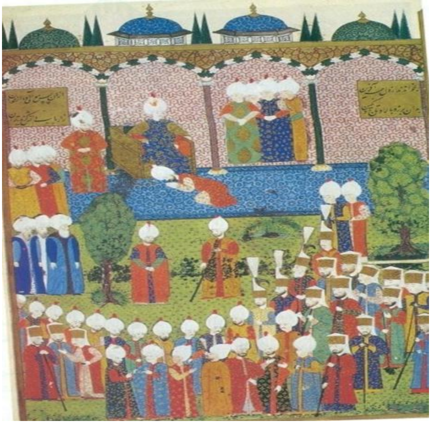

لوحة (1) كبار موظفي الدولة يقدمون فروض الطاعة والولاء الى السلطان سليمان بمناسبة اعتلائة عرش السلطنة مخطوط، سليمان نامة ، بتاريخ 965هـ/1558م، محفوظ بمتحف طوب قابي سراي بإستانبول برقم.H.1517.

ثروت عكاشة : التصوير الفارسى والتركى ، ص316 ، لوحة 202.

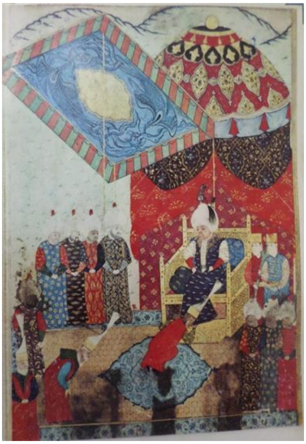

لوحة (2): السلطان سليمان القانونى يستقبل إبراهيم باشا ، مخطوط سليمان نامة ، بتاريخ 965هـ/1558م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقمH.1517. .

Atil (E); sulymanname , pl.24.

لوحة (3) الصفحة اليمنى : حفل اعتلاء السلطان سليم الثانى العرش فى بلجراد، مخطوط نزهة الأسرار والأخبار (سفر سكتوار) ، 976-977هـ/1567-1568م، بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم .H.1339. .

ثروت عكاشة : التصوير الفارسى والتركى ، ص318 ، لوحة 204.

Feher (G); Turkish Miniature ,pl.XLvII(A)

لوحة (4) حفل تنصيب السلطان بايزيد الاول العرش ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقمH.1523 .

And(M) : turkish miniature painting the ottoman period ,p68.

لوحة (5) حفل تنصيب السلطان محمد الثانى فى أدرنة ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/1584م، محفوظ بمتحف طوبقابي سراى باستانبول برقم H.1523.

Atasoy (N) & Cagman (F), Turkish Miniature Painting.,pl.23.

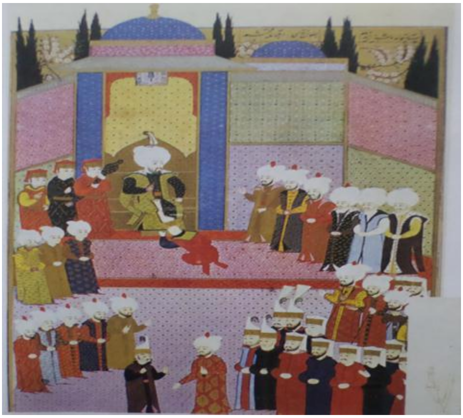

لوحة (6) تتويج السلطان بايزيد الثانى ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/ 1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم H.1523..

Lewis (R) : Every day life in ottoman turkey, pl. 2.

Ertuy(A.),HunerName,pl.XvII.

لوحة (7) تتويج السلطان سليمان القانونى ، مخطوط هنرنامة ، الجزء الاول ، 992هـ/ 1584م، محفوظ بمتحف طوبقابو سراى باستانبول برقم H.1523 .

Necipoglu (G) : Architecture ceremonial,pl.38,p.58.

cagman (F) ,yenal (E) : topkapi the palace,pl.13 ,p36

هوامش

(1) **البيعة :** هى العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميرة على أن يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين لاتباعة فى شىء، وتعتبر البيعة جزءًا أساسيًا من منظومة الحكم في دار الخلافة، ولذلك كان لا بد للقائم بأمر المسلمين من الحصول عليها؛ لاستكمال إضفاء الشرعية على حكمه ، عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة بن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر) ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، القاهرة ، 2001م ، ص261، محمد عبد الله القدحات : مراسيم تولية الخلفاء وولاة عهودهم في العصر العباسي الأخير (550-656هـ – 1155-1258م) مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة السلطان قابوس ، 2015م ، ص208-209.

(2) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة بن خلدون ، ص261.

(3) عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة بن خلدون ، ص261.

(4) أبى العباس القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1914م ، ج3 ص499.

(5) محمد عبد الله القدحات : مراسيم تولية الخلفاء ، ص208-209.

(6) أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتها ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، 1959 م ، ج2 ، ص 50 .

(7) ذكر ابن خلدون فى أنساب الترك أنهم من ولد كومر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث فى التوراة وهم ماواق وماذاى وما غوغ وقطوبال وما شخ وطيرش وعدا ابن إسحاق منهم ،انظر: ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت808هـ): ديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر المعروفة بمقدمة ابن خلدون ،ج 5،ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس ،خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر ،بيروت ، لبنان ،2001م، ص3.

(8) **السلاجقة:** هم أخلاط من الترك ، كانوا يصيفون فى بلاد البلغار ، ويشتون فى تركستان ، وينهبون ماطرقوة وكان من مقدميهم رجل يقال لة دقاق فولد سلجوق، انظر : المقريزي(تقي الدين أبى العباس احمد بن على بن عبد القادر العبيدى المقريزي ت845هـ):السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1 ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،1418هـ-1997م،ص136 ، وينسب السلاجقة إلى سلجوق بن تفاق أو دقاق الجد الأعلى للسلاجقة العظام، وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرية ظهرت فى القرن الخامس للهجرة الحادي عشر الميلادي ،انظر الأصفهاني (عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني): تاريخ دولة ال سلجوق شركة طبع الكتب الغربية ،القاهرة،1318هـ،1900م،ص5، للمزيد انظر محمد عبد العظيم أبو النصر ،السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ، مؤسسة عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2002 م ، ص ص1-22.

(9) عبد الله عطية عبد الحافظ : دراسات فى الفن التركي ، مكتبة النهضة العربية، القاهرة ،2007م، ص3.

([10]) أبو الحمد فرغلى :التصوير الإسلامي نشأته وموقف الإسلام منة وأصوله ومدارسة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ،2000م ، ص340 .

([11]) نعيمة الشيشيني :التصوير الإسلامي التركي ، مجلة عالم الفكر ،العدد 32، نوفمبر ،1985م،ص822.

([12]) أبو الحمد فرغلى : التصوير الإسلامي ، ص340.

([13]) حسن الباشا : فنون التصوير في مصر ، دار نافع ،القاهرة ، د.ت، ص156 .

([14]) نعيمة الشيشيني :التصوير الإسلامي ، ص822.

([15]) أبو الحمد فرغلى : التصوير الإسلامي ، ص340 .

([16]) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1993م ، ص249.

([17]) يلمازا أوزوتانا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سلمان ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، استانبول ، 1990م ، مج2 ، ص280.

([18]) سمية حسن محمد إبراهيم : صور الاحتفالات فى المخطوطات العثمانية دراسة أثرية فنية ، دكتوراة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، قسم الآثار الإسلامية ، 1982م ، ص240.

([19]) مرادجه دوسون : نظم الحكم والإداره ، ص49.

([20]) مرادجه دوسون : نظم الحكم والإداره ، ص49-50.

([21]) مرادجه دوسون : نظم الحكم والادارة ، ص49.

([22]) **مخطوط سليمان نامة :** هو مخطوط مؤرخ بعام 965هـ/1558م ، محفوظ فى مكتبة متحف طوبقابو سراى تحت رقم 1517، ألفه الشاهنامجى فتح الله عارف جلبى بناء على تكليف من السلطان سليمان القانونى ، ويتناول أمجاد السلاطين العثمانيين ، ويتألف المخطوط فى الأصل من خمسة أجزاء ، والجزء الخامس يعرف باسم سليمان نامة ، ربيع حامد خليفة : مدارس التصوير ، ص 250. للمزيد ، انظر ،

Atil(E); Suleymanname the illustrated history of Suleyman the magnificent ,New York ,1986,p.55-57.

([23]) كان السلطان سليمان عاشر سلاطين ال عثمان فبمجرد وصول خبر موت أبية فصد القسطنطينية ودخلها في يوم 16 شوال سنة 926هـ الموافق 30 سبتمبر سنة 1520 م وكان في انتظاره على إفريز السراي جنود الانكشارية فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا المعتاد توزيعها عليهم عند تولية كل مللك ، وفى صبيحة

17 شوال جرت رسوم المقابلات السلطانية فوفد الأمراء والوزراء والأعيان يعزون السلطان بموت والدة ويهنئونه بالحكم في أن واحد وهو يقابلهم بملابس الحداد ، وعند الظهر وصل إلية خبر قدوم الجثة فخرج لمقابلة النعش خارج المدينة وسار في الجنازة ، انظر ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مطبعة محمد أفندى ، حوش قدم بمصر المحمية ، 1893م ، ص ص 60-61 .

([24]) كان حصول الحاكم الجديد فور اعتلائه العرش على قسم الطاعة المتبع في الإسلام من كبار مسئولي الدولة المسمى البيعة كما هو متبع لدى جميع حكام المسلمين ثم يوزع مبلغ كبير لكل فرد من أفراد وحدات تشكيلات مركز الجيش المسماة " قابوقولو" حسب رتبة كل منهم ، ويسمى ذلك إكرامية الجلوس ، وأخر إكرامية للجلوس دفعت في 1757 م ، ثم ألغيت بعد هذا التاريخ ، انظر يلمازا ازوتانا : تاريخ الدولة العثمانية ، مج 1، ص 280.

([25]) **أغا الأنكشارية :** اختلف فى أصل كلمة أغا وقيل تركية من المصدر أغمق ومعناه الكبر وتقدم السن وقيل إنها من الكلمة الفارسية اقا وتطلق فى التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وكان يطلق على قائد الانكشارية أغا الأنكشارية ، للمزيد ، مصطفى بركات : الألقاب والوظائف العثمانية دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات (1517-1924م) ، دار غريب ، القاهرة ، 2000م ، ص173 .

([26]) أحمد سامى بدوى زيد : الفرق العسكرية العثمانية فى تركيا فى ضوء تصاوير المخطوطات منذ بداية العصر العثمانى حتى نهاية القرن 13ه/19م دراسة اثرية فنية ، ماجستير ، كلية الآثار،جامعة جنوب الوادى ، قسم الآثار الاسلامية ، 2016م ، ص590.

([27]) **مخطوط نزهة الأسرار "الأخبار" في سفر زكتوار :** هو مؤرخ بعام 976هـ / 1569م ، محفوظ بمكتبة طوبقابو سراى (خزينة رقم 1339) ، كتبه أحمد فريدون باشا ، ويتناول أخبار حملة زاكتوار التى قام بها السلطان سليمان القانونى فى عام 974هـ/1566م ، وحتى تاريخ وفاته وجلوس ابنه السلطان سليم الثانى على عرش البلاد ، و يتألف من 305 ورقة مقاس 25X39 سم ، يضم 20 منمنمة ، وهي على الارجح من رسم النقاش عثمان اشهر فناني الفترة الكلاسيكية ، انظر،ربيع حامد خليفة : مدارس التصوير الإسلامى ، ص250.

Arslannturk(A.),Borekci(G.) : Nuzhet-I esrarul-ahyar der-ahbar-I sefer-I sigetvar sultan Suleyman'in son seferi,Istabul,2012,p.6.

Atil(E.) : Turkish Art the art of book,1980,p.167.

(28) توفى السلطان سليمان القانوني سنة 1566م بعد أن أشتد علية المرض فخلفه أبنه سليم الثاني فطلب منة الأنكشارية توزيع الهبات عليهم كالعادة فرفض ثم أرغم على ذلك بعد ان تمرد ضباطهم ، انظر ، نزار قازان :سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الأنكشارية ، دار الفكر اللبنانى ، بيروت ، 1992م ، ص، 57.

(29) الأنكشارية : هى كلمة عربية وقد حرفت عن اللغة التركية عند ترجمتها وهى " يتى تشارى " وترسم بالتركية يكيجرى ونجد الكلمة مكونة من مقطعين الأول يكى بالنون الخيشومية بمعن جديد ، جرى بالجيم المشوبة بمعنى العسكر ، فيأتى المعنى الكامل الجند الجديد أو الجيش الجديد ، للمزيد ، أمانى بنت جعفر الغازى : دور الأنكشارية فى إضعاف الدولة العثمانية ، دار القاهرة ، القاهرة ، 2007م ، ص21.

(30) **مخطوط الهنرنامة :** مخطوط مكون من جزئين ، الجزء الأول مؤرخ بعام 992هـ /1584م ، محفوظ متحف طوبقابى سراى برقم 1523، استغرق كتابته خمس سنوات من عام 987هـ /1579م حتى 992هـ /1584م ويتناول الفترة من عثمان غازى إلى سليم الأول ، نسخه الخطاط بوسنالى سنان بن محمد ، واسهم نقاش عثمان بمشاركة عدد أخر من الرسامين فى عمل صور هذا المخطوط والبالغ عددها 45 تصويرة ، ربيع حامد خليفة : مدارس التصوير ، ص **276.**

(31) تولى بايزيد الحكم بعد استشهاد والدة ، ولم يكن بايزيد اقل حماسة من أبية في الفتوحات وكان بايزيد سريعا فى تنقلاته الحربية بين الجهتين والبلقانية حتى أطلق علية الصاعقة ، وفى ميدان القتال نصب الجيش بايزيد فعلى حين أن أخاه الأكبر يعقوب كان مرشح أعيان التركمان فإن بايزيد وهو بن سيدة يونانية كان مرشح العناصر حديثة العهد بالإسلام ، وقد أخفى أنصار بايزيد مخططاتهم حتى تم قتل يعقوب انظر ، أحمد عبد الرحيم : في أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ،القاهرة ، ط2 ، 1986م ، ص 50. إسماعيل ياغى : الدولة العثمانية فى التاريخ الحديث ، مكتبة العبيكان ، الرياض ،1996م ، ص 40.

(32) توفى مراد في 5 شباط سنة 1451 م فخلفه ابنة محمد ، ولقد أستهل السلطان الجديد حكمة بأن أمر بأخيه أحمد فقتل ومن ذلك الحين انتهت عادة قتل السلطان أخوته إلى أن تكون قاعدة شبة مطردة ، كلما أرتقي عاهل عرش السلطنة وذلك بسبب من التجارب الفاجعة التي عانتها الأجيال السابقة ، انظر

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب العربية ، ترجمة نبيه امام فارسى ، منير البعلبكى ، دار العلم ، بيروت ، 1973م ، ص ص 429-430 .

([33]) توفى محمد الفاتح وكان بايزيد فى آماسية ، وعندما علم بالخبر أسرع بالحضور إلى الأستانة وفى أثناء ذلك حصلت فتنة بالأستانة ، حيث قام رؤساء اليكجريين بالهجوم على بيوت الوزراء الذين خابروا سراجما بن السلطان محمد والى قرمان يومئذ بوفاة أبية لميلهم إلى توليته السلطنة ، وقتلوا محمد باشا الصدر الأعظم فجاء بايزيد فى مدة ثمانية أيام فلأجل إطفاء الفتنة عفا عن الجميع وعين للصدارة إسحاق باشا ، انظر ، إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بالتحفة الحليمية ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، 1988م ، ص70.

الكاتب: **د/أميرة المقطون بن نصير**
جامعة الزاوية /ليبيا

عنوان المقال: الهيئات والأحزاب السياسية ودورها في نشر الوعي الوطني بالقضية الليبية بالداخل
(1943-1949م)

البريد الالكتروني:amirabnnosir@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/01/14 **تاريخ القبول:** 2019/02/15 **تاريخ النشر:**2019/03/28

الهيئات والأحزاب السياسية ودورها في نشر الوعي الوطني بالقضية الليبية بالداخل
(1943-1949م)

الملخص بالعربية

العديد من زعماء البلاد وقادة المقاومة وعدد كبير من أبناء ليبيا هاجروا إلى الدول المجاورة بسبب سياسة الفاشست التعسفية، وأصبح هناك جاليات ليبية كبيرة في أغلب الدول المجاورة لليبيا ، وقد حاولت إيطاليا عن طريق سفرائها وقناصلها فرض سطوتها عليهم، ورغم كل المتاعب والعراقيل التي تعرضوا لها إلا أن الفئة المثقفة منهم استطاعت أن تظهر نشاطها، وقد حانت الفرصة المناسبة لهؤلاء عند قيام الحرب العالمية الثانية في 3 سبتمبر 1939م والتي دخلتها إيطاليا إلى جانب دول الحلفاء في 10 يونيو 1940وفي هذه الأثناء شكلت الهيئات والأحزاب السياسية محوراً أساسياً في بلورة الوعي الوطني بأهمية القضية الليبية واستقلال ليبيا سواء في داخل البلاد أو خارجها، وأفرزت جذور النضال السياسي، ونتج عنها مخرجات تمثلت في وحدة واستقلال البلاد، بالرغم من الاختلاف في الأيديولوجيات ووجهات النظر بين منتسبيها، ومن خلال هذا البحث سنسلط الضوء على أهم الهيئات والأحزاب السياسية التي تركت بصماتها واضحة وجلية على الساحة الليبية ، وعلى الدور الذي اضطلعت به على المستوى المحلي حتى تحقق الوحدة والاستقلال لليبيا، وسيتم تقسيم البحث إلى محورين، تناول الأول منها أهم الهيئات والأحزاب السياسية التي تكونت في برقة وطرابلس وفزان، وخصص الثاني لدراسة دورها في نشر الوعي الوطني في الداخل ، وخاتمة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث وقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات الاستفتاحية: الهيئات، الأحزاب السياسية، الوعي الوطني، القضية الليبية.

Abstract

Many leaders of the country and leaders of the resistance and a large number of the people of Libya to migrate to neighboring countries because of the policy of fascist and arbitrary, and there are large Libyan communities in most of the neighboring countries of Libya, Italy has tried through its ambassadors and consuls to impose their authority on them, and despite all the difficulties and obstacles that have been exposed But the educated group of them was able to show their activity. The right time came for them when the Second World War took place on September 3, 1939, which Italy entered along with the Allied Powers on June 10, 1940. Meanwhile, political bodies and parties formed a central axis in the crystallization The national awareness of the importance of the Libyan cause and the independence of Libya both inside and outside the country, and the roots of the political struggle, and resulted in the outputs of the unity and independence of the country, despite the differences in ideologies and views among its members, and through this research we will highlight the most important bodies and political parties Which left its mark clear and clear on the Libyan arena, and the role played by the local level until the unity and independence of Libya, and the research will be divided into two axes, the first dealt with the most important bodies and political parties that were formed in the tenderness and Tripoli and Fezan, In its role in spreading national awareness at home, and a conclusion to the main findings of the research and the list of sources and references.

Keywords: bodies, political parties, national awareness, Libyan issue.

المقدمة:

اضطر العديد من زعماء البلاد وقادة المقاومة وعدد كبير من أبناء ليبيا إلى الهجرة إلى الدول المجاورة وذلك بسبب سياسة الفاشست وفظائعهم ، وبسبب فشلهم في طردهم من بلادهم.

وبالتالي أصبح هناك جاليات ليبية كبيرة في أغلب الدول المجاورة لليبيا، كتونس، ومصر، والسودان، والحجاز، وفلسطين، وبلاد الشام وغيرها، وقد حاولت إيطاليا عن طريق سفرائها وقنصلها فرض سطوتها عليهم ، ورغم كل المتاعب والعراقيل التي تعرضوا لها إلا أن الفئة المثقفة منهم استطاعت أن تظهر نشاطها، وذلك عن طريق محاولة نشر المقالات في الصحف العربية، وعقد اللقاءات والاجتماعات ومحاولة تدوين القضية الليبية، ووضع الأسس التي يمكن من خلالها التخلص من السيطرة الإيطالية.

وقد حانت الفرصة المناسبة لهؤلاء عند قيام الحرب العالمية الثانية في 3 سبتمبر 1939م والتي دخلتها إيطاليا إلى جانب دول الحلفاء في 10 يونيو 1940م أي بعد أقل من سنة واحدة منذ اندلاعها، وأصبحت ليبيا ميداناً من ميادينها إلى أن لحقت الهزيمة بإيطاليا في أواخر 1942م.

وفي هذه الأثناء شكلت الهيئات والأحزاب السياسية محوراً أساسياً في بلورة الوعي الوطني بأهمية القضية الليبية واستقلال ليبيا سواء في داخل البلاد أو خارجها، وأفرزت جذور النضال السياسي، ونتج عنها مخرجات تمثلت في وحدة واستقلال البلاد، بالرغم من الاختلاف في الأيديولوجيات ووجهات النظر بين منتسبيها، وهكذا نجد كأمر واقع في هذه الفترة التي ندرسها، أوضاعاً سياسية في برقة تختلف عن تلك التي في طرابلس، اتخذت كل منها اتجاهاً مختلفاً من حيث منطلقاته، وأسلوب عمله، وأهدافه، وكانت في كل من الإقليمين اتجاهات انفصالية، وأخرى وحدوية، ومطالب، وشروط، وآمال، وتطلعات تكونت حولها بعض التجمعات في شكل حركات، وأحزاب، وهي التي سنتولى تقديمها من خلال البحث في كل إقليم على حدة، كما كان واقع الأمر في ذلك الوقت، وسيتم تقسيم

البحث إلى محورين، تناول الأول منها أهم الهيئات والأحزاب السياسية التي تكونت في برقة وطرابلس وفزان، وخصص الثاني لدراسة في دورها في نشر الوعي الوطني في الداخل، وخاتمة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث وقائمة المصادر والمراجع.

أولاً- أهم الهيئات والأحزاب السياسية في برقة وطرابلس وفزان:

تهيأت الظروف الدولية للنشطاء الليبيين بالداخل والخارج عند قيام الحرب العالمية الثانية وانضمام إيطاليا لها، فلم يقفوا مكتوفي الأيدي بل سعوا بكل جهودهم من اجل التخلص من الاحتلال الإيطالي والحصول على استقلال البلاد فتكونت في هذه الأثناء العديد من الهيئات والأحزاب التي كان لها دور بارز في تنشيط العمل السياسي ونشر الوعي القومي وتشكل في كل من برقة وطرابلس، وسنتناول كل واحدة منها على حدا.

- الهيئات والأحزاب السياسية في برقة:

لم يكن العمل السياسي في ليبيا وليد لحظة دخول إيطاليا الحرب وإنما مر بمخاض طويل غير فترات تاريخية مختلفة، فقد وجد منذ فترة الوجود العثماني، وكذلك أثناء الاحتلال الإيطالي تم فترة السيطرة الإنجليزية والفرنسية على كل من طرابلس وبرقة وفزان وفيما يلي استعراض للهيئات التي تأسست في برقة أثناء فترة الإدارة البريطانية على ليبيا.

1- جمعية عمر المختار:

تأسست أثناء وجود المهاجرين الليبيين في مصر، وبدأ هؤلاء في العمل السياسي بفكرة تأسيس جمعية باسم جمعية الشهيد عمر المختار وذلك تخليداً لذكراه، وقد ظهرت إلى حيز الوجود باعتماد قانونها الأساسي في 31 يناير 1942م بالقاهرة[(1)]، وأقبل للانضمام إليها أعداد كبيرة من المشتركين حتى وصل عددهم مع نهاية سنة 1943م حوالي ألف عضو، واستمرت الجمعية تمارس نشاطها في مصر حتى أواخر سنة 1942م، عندما توقف نشاطها هناك لتستأنف عملها من جديد في برقة، ومنذ ذلك الوقت ضمت ثلاثة أقسام وهي قسم الثقافة وقسم الرياضة، وآخر للمساعدات الاجتماعية، وتمكنت الجمعية من السيطرة على

الحراك السياسي والثقافي في مدينتي بنغازي ودرنة، ومنذ بداية تأسيسها كانت تؤيد إمارة الأمير محمد إدريس السنوسي على البلاد، مما جعله يؤديها، ويؤكد ذلك الرسالة التي بعث بها إلى القائمين عليها في 16 مايو 1943م، وأشار إلى رغبته في أن يكون لها عدة فروع[2]، وقد وصل عددها إلى خمسة عشر فرعاً، وبقى قانونها الأساسي الذي تم التصديق عليه من لجنتها المركزية ببنغازي في آخر شهر أبريل 1944م، هو نفسه الذي وضع بتاريخ 31 يناير 1942م، والملاحظ أن سياسة وتطلعات الجمعية كان مرآة عكست سياسية وتطلعات أعضاءها الذين كان أغلبهم ممن تلقى تعليمه خارج البلاد، وتأثر بآراء التحرر العربي، كما أنهم عايشوا جامعة الدول العربية، وسعوا أن تكون بلادهم عضوا فيها وبالتالي كان توجههم العلني توجهاً ليبياً وحدودياً.

وبعد قيام الإمارة البرقاوية في 1 يونيو 1949م، وظهور قانون الجمعيات والصحافة، عادت الجمعية للظهور من جديد تحت اسم الجمعية الوطنية بعدما توقف نشاطها لفترة من الزمن، وأصبحت من أكثر القوى السياسية نفوذاً في برقة[3].

وفي أول انتخابات لمجلس النواب البرقاوي في الخامس من يونيو 1950م فاز ثلاثة من أعضاء الجمعية، ولعل عدم تمكن جمعية عمر المختار من الاستمرار وقيام ما يعرف بالجمعية الوطنية البرقاوية هو عدم استيعاب الأولى لعامة الشعب من سكان البادية واستمرار موالاتها للإنجليز ورغبتهم في فصل البلاد.

2- رابطة الشباب الإسلامي:

تكونت هذه الرابطة على يد مجموعة من الشباب المعتدل عندما قرروا إنشاء جمعية وطنية معارضة باسم رابطة الشاب وتم تأسيسها في أوائل سنة 1945م، وأنظم إليها وعدد من الضباط السابقين في الجيش الليبي ممن تم تسريحه في يونيو 1943م[4].

وكان الغرض من تأسيسها حسب لجنتها هو "خلق جيل يؤمن بقوميته ووطنه، والسعي في مكافحة الجهل والتعاون بين الشباب لربط علاقاته القومية، ومكافحة التقاليد الرجعية ..."[5]

ويعزي بعض المؤرخين أن الغرض من تكوينها هو تعريف الإدارة البريطانية أن دعوة الاستقلال ليست محصورة في أذهان أعضاء جمعية عمر المختار فقط وإنما هي هدف للجميع[6].

وبوصول رابطة الشباب الإسلامي عامها الثاني أي في ديسمبر 1946م أصبح لها فروعاً في كل من المرج ودرنة وعدد آخر من المناطق، وعلى الرغم من تقبل أعضاء الرابطة لفكرة الوحدة الليبية إلا أنها أيدت الساسة القدامى في ميولهم الإقليمية، وعندما حل الأمير إدريس السنوسي التنظيمات السياسية في 7 ديسمبر 1947م شمل ذلك القرار رابطة الشباب الإسلامي، ورغم ذلك لم يتوقف نشاطها الاجتماعي.

3- الجبهة الوطنية البرقاوية:

تشكلت هذه الجبهة في 9 أغسطس 1946م وهو نفس اليوم الذي خطب فيه الأمير إدريس السنوسي في ذكرى تأسيس الجيش معلناً فيه عن تشكيلها بقوله" ... وبعد عودتي وجدت شيوخ القبائل فكروا في تشكيل جبهة وطنية تتمثل فيها كل عناصر البلاد تمثيلاً شكليا مؤقتاً للغرض الأسمى بغض النظر عن التوسع في إكثار عدد المنتخبين في الوقت الحاضر...، آمل أن تكونوا في عونها وأن تشدوا أزرها حتى تبلغوا بمجهودها الغاية المنشودة وهي الحرية والاستقلال"[7] وفي بداية تأسيس هذا التنظيم أطلق عليه اسم " جبهة الدفاع البرقاوية" ثم تغير الاسم إلى "الجبهة الوطنية البرقاوية" وتكونت في البداية من 15 عنصر يمثلون أغلب قبائل برقة.

ويمكننا القول: أن الجبهة الوطنية البرقاوية هي عبارة عن تجمع سياسي مهجن يجمع بين الساسة القدامى وجيل الشباب ليشكل توازن في البلاد، وأعلن عن تأسيسه الأمير إدريس السنوسي ليكون البديل السياسي للحركة السنوسية ويفصلها عن ممارسة النشاط السياسي في البلاد وحصر دورها في الجانب الديني الإصلاحي وبتاريخ 22 يناير 1947م أطلقت ميثاقها الوطني الذي تلخص في أهدافها ومطالبها التي تسعى إلى تحقيقها والتي تمثلت في الاستقلال تحت حكم الأمير وتأسيس حكومة وطنية وعلم وطني والانضمام

لعضوية الجامعة العربية، وإحراز الوحدة الليبية شريطة بقاء الأمير إدريس السنوسي أميراً للبلاد[8].

ولعل السبب من وراء قيام الأمير بتأسيس هذا الكيان هو بروز وتنامي نشاط جمعية عمر المختار كأول وأقوى تنظيم سياسي يستند إلى قاعدة شعبية عريضة، ولتكون الجهة البرقاوية سنداً موثوقاً به مكوناً من أبناء عمومته والمقربين منه، وحتى يستطيع مجابهة التحولات التي ستحدث في البلاد وتحويلها لتصب في صالح الإمارة السنوسية ولتصبح هذه الهيئة مطلع العام 1947م الشرعية الوحيدة للتمثيل في برقة إلى أن تم حل جميع التنظيمات في 7 ديسمبر 1947م بقرار من الأمير وحصرها في جهة واحدة تمثلت في المؤتمر الوطني البرقاوي[9].

4-المؤتمر الوطني البرقاوي:

بعد ما أمر الأمير إدريس بحل جميع التنظيمات دعاها إلى الاندماج في جهة متحدة تتألف من ممثليها، وتم الاتفاق على إنشاء المؤتمر البرقاوي في مطلع يناير 1948م وتكون المؤتمر في بدايته من 67 عضواً عينهم الأمير إدريس وكانوا يمثلون القبائل وسكان المدن في برقة كلها ثم زاد عددهم ليصل إلى حوالي 71 عضو، وادعى المؤتمر أنه يمثل وجهات النظر المختلفة، وأصبح بمثابة الهيئة السياسية الوحيدة في برقة، ولم يكن المؤتمر في حقيقته حزباً سياسياً بالمعنى الحقيقي للحزب لأن العامل المشترك بين أعضائه لم يكن التقارب الفكري والأيديولوجي وإنما تقارب في الوضع الطبقي والاجتماعي[10].

وبعد حوالي شهر من تأسيسه أي بتاريخ 14 فبراير 1948م نشر المؤتمر بياناً أعلن فيه مبادئه التي خلصت إلى وجوب التأييد على لإمارة السيد إدريس السنوسي، ووجوب التمسك بوحدة البلاد واستقلالها، وأبلغ جميع الأحزاب والهيئات السياسية في طرابلس بهذه المبادئ طالباً منها ضم جهودها إليه لتحقيق الاستقلال والمحافظة عليه، وأعلن عن ترحيبه بكل اقتراح يفيد القضية الوطنية.

وكان الهدف من تكوين المؤتمر على ما يبدو هو رسم برنامج لمستقبل البلاد على أساس الاستقلال والإمارة السنوسية ولفت أنظار العالم الخارجي إلى تصميم الشعب بأن تكون له الكلمة العليا في تقرير مصيره بنفسه[(11)].

وقد حرص المؤتمر على أن يضم ممثلين عن الأقليات اليهودية واليونانية في برقة، وضم أعضاء ممن يتعاملون مع الإدارة البريطانية، كما حرص على اتخاذ أسلوب الانتخاب والاقتراع والتصويب، وانتهت مهمة المؤتمر الوطني البرقاي 5 مارس 1950م ليحل محله الهيئة النيابية البرقاوية[(12)].

ورغم حل المؤتمر إلا أنه واصل أعماله وعقد اجتماعاته كبرلمان الإمارة ووضع قانون انتخابات مجلس النواب البرقاوي في 5 يونيو 1950م.

وعند النظر بشكل عام للهيئات السياسية التي تكونت في برقة نجد أن أغلبها كان وليد المرحلة وتكونت بناء على نضج سياسي للتخلص من الاستعمار وتحقيق الاستقلال والوحدة رغم اختلاف وجهات نظر بعض أعضائها، ويؤخذ عليها أنها كانت مرحلية ولم تخطط للمدى البعيد لكي تستمر في ممارسة العمل السياسي.

- الهيئات والأحزاب السياسية في طرابلس:

لم يك العمل السياسي ومحاولة التنظيم الحزبي وهيكلة المؤسسات الحزبية في طرابلس وليدة لحظة هزيمة إيطاليا وتخلص الليبيين من سيطرتها وإنما كان العمل السياسي فيها موجوداً ومتزامناً مع الوجود الإيطالي في ليبيا، وبعد ما خرجت إيطاليا مهزومة في الحرب العالمية الثانية ما إن تحررت منطقة طرابلس من الطليان، حتى عقد أعيانها البارزون اجتماعات في 25 يناير 1943، للبحث في الوضع الداخلي للبلاد، لاستئذان السلطات البريطانية في تنظيم جماعات سياسية، وقدموا طلباً لرئيس الإدارة البريطانية بخصوص ذلك، ولكنه رفض بحجة أن الحرب لا تزال قائمة، وأن الوقت الملائم لمباشرة النشاط السياسي يتحدد بعد تقرير مستقبل البلاد.

وفي نفس السنة قام وفد من المهاجرين بتونس بزيارة إلى ليبيا، رتبها لهم الإنجليز نظير مساعدتهم لقوات الحلفاء أثناء زحفها على تونس، دامت هذه الزيارة خمسة عشر يوماً، عقد الوفد خلالها اجتماعاً مع أعيان طرابلس في مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية، وقد حضر هذا الاجتماع العديد من النشطاء السياسيين ، تجدد العمل السياسي هناك وفيما يلي سنستعرض أهم الأحزاب التي قامت في طرابلس من الفترة 1943- 1948م.

1-الحزب الوطني:

بتاريخ 25 يناير 1943م عقد الأعيان البارزون في طرابلس اجتماعا للبحث في الوضع الداخلي للبلاد، وقاموا بتقديم عريضة للسلطات البريطانية من اجل تنظيم الأحزاب، وكان رد السلطات على ذلك الرفض بحجة أن الحرب ماتزال قائمة[(13)].

إلا أن ذلك لم يثنى مثقفي ونشطاء طرابلس عن عزمهم فعقدوا اجتماع آخر في مايو 1943م طالبوا فيه بالاستقلال، واستمروا في العمل السياسي تحت مظلة النوادي الأدبية إلى أن استقرت الأمور بيد الإنجليز.

عاد الكثير من المهاجرين الطرابلسيين وزاد بذلك نشاطهم في البلاد وتأسس ما يعرف بالنادي الأدبي الذي افتتح له عدة فروع في الإقليم ولم يكن النادي إلا واجهة أدبية واجتماعية لأنشطة سياسية، ونجح أعضاءه في تأسيس حزب تحت اسم الحزب الوطني في 8 أبريل 1946م والذي بدأ سرياً ليصبح أول حزب سياسي في طرابلس برئاسة علي الفقيه حسن، ووقع أعضاء الحزب على ميثاقه الذي تضمن أهدافه، وواصل أعضاء الحزب الوطني خمسة عشر عضواً، وافتتح له عدة فروع في عدد من المناطق، ودعى أعضائه إلى وحدة واستقلال ليبيا رغم اختلاف وجهات النظر بين منتسبيه[(14)] ومن بين المناطق التي تم افتتاح فروع للحزب فيها مدينة سرت بتاريخ 24 فبراير 1947م، وفرع آخر في الزنتان 17 أبريل وكذلك فرع في يفرن في 25 مايو من نفس العام، وعدة مناطق أخرى، وحاول أعضاء

ورئيس الحزب في فتح فروع له في فزان إلا أن الإدارة الفرنسية لم توافق على الطلب الذي تقدموا به[15].

ولعل عدم التنسيق والخلافات الداخلية التي لازمت الحزب جعل قيادته تتغير إلا أنه ظل حزباً شعبياً يمارس نشاطه وسط الجماهير وأصبحت له قاعدة شعبية لأنه عبر عن طموحات الشعب وأمانيه في نيل الاستقلال والوحدة.

2-الجبهة الوطنية المتحدة:

كون مجموعة عن زعماء وأعيان طرابلس لجنة للاجتماع بالوالي البريطاني في طرابلس عندما كان مجلس وزراء خارجية الدول الكبرى يبحث في قضية المستعمرات الإيطالية في باريس، فذاعت شائعات بأن منطقة طرابلس قد تعاد إلى إيطاليا تحت الوصاية وأعربت هذه اللجنة عن رفضها لأي نوع من الوصاية[16]، واستمرت هذه اللجنة في الاجتماعات لدراسة الأوضاع وتطور بها الأمر لتشكيل هيئة رسمية عرفت نفسها عند التأسيس بأنها "هيئة سياسية وطنية، غرضها الدفاع عن استقلال ليبيا ووحدتها[17].

إلا أنها لم تكن حزباً بالمعنى الحقيقي للحزب، وأعلن عن تشكلها رسمياً 13 مايو 1946م وقد جمع بعض من أعضاءها بين عضويتها وعضوية الحزب الوطني، وأصبح للجبهة الوطنية عدة فروع في مختلف أنحاء البلاد حتى وصلت إلى 18 فرعاً بعد سنة واحدة من تأسيسها، وكانت الديباجة التي أقسم عليها أعضاء الهيئة تبدأ بعبارة بعد الاطلاع على المبادئ السامية الشريفة إلا وهي الاستقلال والوحدة والانضمام إلى جامعة الدول العربية تحت إمارة السيد إدريس المهدي السنوسي..." وهذا ما يؤكد تأييدها للإمارة السنوسية على البلاد، على الرغم من أنها لم تعلن ذلك عند نشر أهدافها لأول مرة.

وأشارت مراسلات وبيانات ومذكرات الجبهة الوطنية المتحدة أنها كانت تمثل تياراً سياسياً عبر عن طموحات واردة غالبية أهالي طرابلس المناوئين للتدخل الأجنبي للأقليات الأجنبية، وكان لوجود الشيخ محمد أبو الإسعاد العالم مفتى طرابلس على راسها عظيم الأثر

لدى القوى السياسية والوطنية في مختلف أقاليم البلاد [18]، وهذا ما اكسب الجبهة مكانتها، وأصبحت تمثل احدى أهم أركان الحياة السياسية في ليبيا في ذلك الوقت.

3-الكتلة الوطنية الحرة:

انبثقت هذه الكتلة عن الحزب الوطني، وتشكلت رسمياً 30 مايو 1645م وذلك بعد انشقاق أحمد الفقيه حسن عن الحزب الوطني وتكوينه لها مع أخيه على الفقيه حسن وعدد آخر من النشطاء والمهتمين بالشأن السياسي[19].

وفي اليوم التالي لنشأتها أصدرت الكتلة الوطنية بيانها الأول والذي عبر عن بواعث تأسيسها وأهم ما ورد فيه مطالبتها بحقوق الشعب الليبي من استقلال وحرية، والانضمام إلى جامعة الدول العربية وقد ورد هذان المبدآن من ضمن المبادئ والأهداف التي نادت بهم الجبهة الوطنية المتحدة ولما يكونا من ضمن مبادئ وأهداف الحزب الوطني.

وصاحب ظهور الكتلة جو يسوده التجهم واضطراب الأعصاب نظراً لأن قضية البلاد كانت محفوفة بالمخاطر والأطماع واستهلت الكتلة نشاطها بالإعلان عن قيامها كحزب سياسي ذو توجهات عروبية وأسست جريدة كان لسانها الناطق عرفت باسم "الكتلة"، ومن الواضح أن حزب الكتلة كانت له ميول نحو حكومة جمهورية إذ جاء في مذكراته التي أرسلها للجامعة العربية بأنها تريد بناء ليبيا على القواعد التالية:

1- وحدة ليبيا بحدودها المعروفة من مصر شرقاً إلى تونس غرباً، ومن السودان جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً.

2- استقلال ليبيا التام الذي لا تشوبه شائبة

3- الانضمام إلى جامعة الدول العربية[20].

ومن خلال هذه المطالب أو القواعد نلاحظ أن أعضاء الكتلة لم يعبروا على قبولهم للأمير إدريس السنوسي رئيساً للبلاد.

وظهر من خلال المناشير التي تصدرها الكتلة أنها تناصب العداء للإدارة العسكرية البريطانية ففي 15 فبراير 1947م أرسلت لها تطالبها بتسلم الإدارة للشعب ليدير شؤونه

بنفسه، وأن يرشح أصحاب الكفاءات، وأن كل ذلك لا يتم إلا بمعرفة الكتلة الوطنية واستشارتها لأنها صاحبة الحق في تمثيل الشعب.

وردت عليها الإدارة البريطانية بأن "الحكم للإدارة باعتبارها نائبة الدول الأربع الكبرى إلى أن يتم تقرير مصير البلاد، وأن ادعاء الكتلة أنها الممثلة الوحيدة للشعب فهو أمر مرفوض وادعاء كاذب[21].

ولم تكتف الكتلة بهذا الحد وإنما كان لها العديد من الوقفات أسوة بغيرها من الأحزاب التي تشكلت في البلاد.

4- حزب الاتحاد المصري الطرابلسي:

تشكل هذا الحزب في بدايته من اثنين من أعضاء الكتلة الوطنية الحرة وهما علي رجب، ويوسف المشيرقي بعدما انفصلا عنها، وتم الاعتراف به من الإدارة البريطانية في 16 ديسمبر 1946م، وتتلخص أهداف الحزب من خلال ميثاقه في عدة نقاط أهمها:

1- اتحاد طرابلس مع مصر وانضوائها تحت التاج المصري على أساس السيادة المشتركة مع تمتع طرابلس بسلطة تشريعية وإدارية مستقلة

2- اعتبار طرابلس وبرقة وفزان قطراً واحداً لا يقبل التجزئة أو التقسيم.

3- مقاومة أي إنكار أو مجهودات يراد بها فصل جزء من أجزاء القطر عن جسم الأمة[22].

وقد أصدر الحزب بياناً ضمه أهدافه وجاء فيه دعوته التي وجهها الليبيين ودعاهم فيها للاتحاد مع مصر، موضحاً أن مصر تعاهدت بالاتحاد مع ليبيا، وكان هذا أول بيان له، وبعد ذلك ارسل بيان آخر إلى الأحزاب الثلاثة في طرابلس، ضمنه نفس الأهداف بالإضافة إلى أنه "... لا مانع من أن تناط نيابة الملك إلى الأمير المعظم السيد محمد إدريس السنوسي ضماناً للوحدة الشاملة بين أجزاء القطر الطرابلسي"[23].

وعند التمعن في هذا البيان والبيان الأول نلاحظ قصر النظر بالنظر لدى أصحابهما إذ أنه يدعو لوحدة إقليم طرابلس مع مصر كمرحلة أولى والتي تبعد عنها قرابة الف كيلو متر، ويفصلها عنها إقليم برقة، والليبيين مازالوا يتخبطون في تقرير مصير بلادهم ولم يستطيعوا توحيد جهودهم فكيف لهم أن يتحدوا مع مصر.

ولم تلق دعوة الحزب للاتحاد مع مصر التأييد داخل الأوساط الوطنية في طرابلس، ووصفت الكتلة الوطنية الحرة تصريحاً كان قد أدلى به رئيسه أثناء خطابة في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، "بأن صاحبه تجرأ على حقوق الأمة الليبية وادعى تمثيلها زوراً، وأن قائلها لا يمثل إلا نفسه....وليس له من المكانة ما يخوله التحدث باسم الليبيين"(24)، كما أن الحزب الوطني فقد وصفه بأنه "لم يحتط في تصريحه ولم يتوخ الحقيقة ولم يؤمن بالوعي السياسي الذي يغشي العالم اليوم ويأبى هذا التصريح ويرفضه"(25).

وفي بداية الأمر كانت الحكومة والصحف المصرية مؤيدة للوحدة التي دعا إليها الحزب، ولكن سرعان ما غضت الطرف عنها نظر لأنها لا تريد التورط مع بريطانيا في خلافات لا طائل منها.

ولم يزد عدد أفراد الحزب عن ثلاثمائة بحسب تقديرات الإدارة البريطانية ورغم زعم مؤسسه أنه يفوق ثلاثون ألف ، وكانت فروعه قليلة العدد فكان له فرع في جنزور وسوق الجمعة وآخر في صرمان، كما أنه آرائه لم تلق رواجاً لا في ليبيا ولا حتى في مصر(26).

وعند النظر إلى الجو السياسي الذي كان يسود طرابلس خلال هذه الفترة نلاحظ أنه وحتى نهاية سنة 1946م، أصبح في الإقليم حوالي أربعة أحزاب أسست في نفس العام، ولو امعنا النظر في ذلك لوجدنا أن هذا الأمر يتماشى مع سياسة الإنجليز المعتمدة على نظرية "فرق تسد" والتي هدفوا من خلالها لضرب القوى الوطنية بعضها ببعض، وقد نجحت هذه السياسة في تحقيق هدفها من خلال اختلاف الأحزاب في هذه المرحلة على شكل الحكم.

5-هيئة تحرير ليبيا:

تأسست في القاهرة على يد كل من بشير السعداوي وأحمد السويحلي ومحمود المنتصر وعدداً آخر من الوطنيين وتم تأسيساها في 8 مارس 1947م، ومنذ البداية حددت الهيئة الهدف من تأسيسها والذي تمثل في السعي لوحدة واستقلال البلاد والسعي بكافة الطرق المشروعة لتوحيد الصفوف وتوجيه الجهود واجتناب كل ما يدعوا للشقاق والخلاف[27].

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الغرض من تأسيس هيئة تحرير ليبيا فيذهب البعض إلى أن الهدف من تأسيسها هو تنسيق الجهود بين الزعماء الطرابلسيين، ويذهب آخرين أن قيامها كان من أجل أن تقابل لجنة التحقيق الرباعية التي تشكلت لفحص أحوال المناطق التي كانت تحت السيطرة الإيطالية[28].

ولقد لعب عبدالرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية دوراً مهماً في تأسيسها ووجه رسالة إلى الليبيين طلب فيها منهم الالتفاف حول هذه الهيئة بما فيها من رجالات يسعون لتحقيق وحدة واستقلال ليبيا وفور تأسيس هذه الهيئة والإعلان عنها توجه السيد بشير السعداوي ورفاقه إلى زعماء الأحزاب والهيئات لأقناعهم بتوحيد الخطاب الوطني أمام الرأي العام، العربي والدولي وبالأخص أمام هيئة الأمم المتحدة واللجان المنبثقة منها والمختصة في البحث في القضية الليبية، وكان بشير السعدواي على علاقة طيبة بمختلف أطياف المجتمع الليبي سواء في برقة أو في طرابلس أو في فزان، واستطاع من خلال اتصالاته بهم وعلاقاته الطيبة معهم أن يوحد الرأي العام بأهمية الوحدة والاستقلال.

ولم تمض فترة طويلة على إنشاء الهيئة حتى بدأ الوطنيين يسألون على سبب بقاء الهنية في مصر وأحجام أعضاءها عن القدوم لطرابلس ويأملون قدومهم على وجه السرعة بالأخص مع الوقت العصيب الذي كانت تمر به البلاد، وفي 27 فبراير وصل أعضاء الهيئة إلى ليبيا قادمين من مصر عن طريق البر مروراً بدرنة ومنها إلى بنغازي التي قابل فيها رئيسها الأمير إدريس السنوسي واطلعه على برنامج الهيئة الذي يسعى لتنظيم الصفوف ووحدة واستقلال البلاد[29].

ولعل اختيار الطريق البري ابتداء من إقليم برقة وصولاً إلى طرابلس مروراً بعدة مناطق رسالة أريد منها وحدة التراب الليبي ولتهيئة الأجواء مع الجانب البرقاوي ونوع من الدعاية للهيئة عند نزولها إلى طرابلس، وأصبحت الهيئة هي الأبرز على المشهد السياسي في إقليم طرابلس إلى أن تأسس المؤتمر الطرابلسي في مايو 1949م، وصرح زعيمها بشير السعداوي بأنه يعمل لصالح الوطن دون الانتساب إلى أحد الأحزاب القائمة في البلاد [(30)].

6-حزب العمال الطرابلسي:

أنشئ هذا الحزب في الأول من سبتمبر1947م، وجمع عددا من عمال الميناء والمصانع والشركات العامة، وتم تأسيسه على مبدأ أن جميع الليبيين على اختلاف عناصرهم ومعتقداتهم سواسية إزاء الحقوق الوطنية ما داموا عاملين مخلصين في العمل لقضية الوطن والصالح العام [(31)].

وكان الغرض من تأسيسه كما جاء في بيانه "ليناصر العامل ويأخذ بيده ويحمي حياته ويرشده بالطرق القويمة السديدة ويسيره إلى أقوم طريق حتى يسترد مركزه وحقه الضائع والمهضوم" [(32)].

كما أنه هدف إلى المطالبة بوحدة البلاد واستقلالها، والانضمام إلى الجامعة العربية، وأضاف في بيان لاحق "تحت حكومة دستورية يرأسها الأمير إدريس السنوسي" وقد جمع الحزب بين العمل النقابي والعمل السياسي وقد يرجع السبب في ذلك هو محاولة استقطاب الطبقة العاملة لكثرة عددها ولكونها أكثر الطبقات تأثراً بالمتغيرات التي تحدث في البلاد، ويمكن القول أن حزب العمال هو من أرسى قواعد العمل النقابي في ليبيا، وبالتالي يمكن اعتباره مؤسساً للحركة النقابية العمالية بعد الاستقلال.

وتم الاعتراف به من قبل الإدارة البريطانية وكان برئاسة الشيخ بشير المقريني ابن حمزة، وقدر عدد أعضاءه بحوالي خمسين عضوا على حسب ما أوردته الإدارة البريطانية في

تقريرها، وفي يناير 1949م، أبلغت الإدارة رئيس الحزب بأنها تعتبر حزبه منحلاً ولم تعد تعترف به كحزب سياسي في البلاد[33].

7- حزب الأحرار:

أسسه الصادق بن ذراع أحد وكلاء الحزب الوطني السابقين، وأصدر في يناير 1948م بياناً وجهه لليبيين جاء فيه "نظراً لما تعانيه البلاد من تفرقة في المشارب وتبادل في الأذهان، ....وبناء على خطورة الموقف ودقة الظرف أخذ بعض المفكرين يتفاهمون ويحللون القضية على وجه الواقع ونضجت الفكرة بينهم فنتجت عن تأسيس حزب دعوه "حزب الأحرار"...وركزوا أغراضه على الاستقلال ووحدة طرابلس وبرقة وفزان والالتحاق بالجامعة العربية تحت حكومة دستورية يرأسها سمو الأمير محمد المهدي السنوسي... [34].

ومن خلال البيان الذي أدلى به الحزب نلاحظ أنه لا يختلف في مبادئه عن الأحزاب التي سبقته، إلا بمناداته العلنية بإمارة السيد إدريس.

واعترفت الإدارة البريطانية به في 11 مارس 1948م إلا أنها أعلنت عن حله في يناير 1949م وأبلغت رئيسه بذلك.

8-المؤتمر الوطني الطرابلسي:

انبثق هذا المؤتمر عن حركة الهيجان الشعبي التي أعقبت الإعلان عن مشروع بيفن-سفوروزا الذي تم طرحه في الأمم المتحدة في 8 و 9 مايو 1949م ودعى إلى وضع البلاد تحت الوصاية وإزاء هذه التحركات وحركة العصيان والمظاهرات التي عمت البلاد دعى مجموعة من الوطنيين إلى عقد مؤتمر وطني في 14 مايو عقد بمقر الجبهة الوطنية المتحدة وحضره ما يقارب 200 من شخص من زعماء ورجالات السياسة والمنظمات والأحزاب السياسية تدارسوا من خلاله الحالة الراهنة للبلاد واتفقوا على الاستمرار بحالة العصيان حتى يسقط المشروع الاستعماري[35].

وعلى أثر ذلك تأسس ما يعرف بالمؤتمر الوطني الطرابلسي، وأصبح المحرك الرئيسي للقيادة السياسية في إقليم طرابلس، ويعد المؤتمر الوطني هيئة سياسية ظهرت دون تنسيق سابق أي أنها ولدت من الحراك الشعبي عقب مشروع بيفن سفورزا، وبعد فشل المشروع تولد لدى الشعب شعور بأن تحركهم تحت قيادة واحده هو الذي أسقط المشروع فبدأ التأييد يزداد لهذه الهيئة، وبالأخص بعد نزول بشير السعداوي لطرابلس قادماً من مصر في 16 مايو 1949م وانضمامه إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر مما أعطى دعماً قوياً له، وبالأخص عندما تم انتخابه رئيساً لحزب المؤتمر، وضم الحزب نخبة من القيادات وأعضاء من الأحزاب وبقيت محتفظة باستقلاليتها، ووضع المؤتمر ميثاقاً وطنياً لخص فيه المطالب والمبادئ الأساسية لنشاطه وتكون الميثاق من خمس مبادئ أساسية هي:

1- للأمة الليبية وحدها الحق في تقرير مصيرها.

2- السعي لأنهاء الحكم المؤقت القائم في ليبيا بأجزائها الثلاث.

3- المحافظة على وحدة القطر الليبي وعدم قبول تجزئته بأي حال.

4- اعتبار أي هيئة أو جماعة لعبت اليد الأجنبية في تكوينها خارجة عن الأمة الليبية.

5- الاستقلال التام الناجز لكل ليبيا تحت التاج السنوسي(36).

ولاشك أن من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور هذا الحزب إضافة إلى الرفض الشعبي لمشروع بيفن سفورزا، هو عدم وجود شخصية يتفق عليها الليبيين في السابق، وما أن ظهر هذا الحزب بزعامة بشير السعداوي سرعان ما التف حوله أغلب القيادات السياسية والزعامات الموجودة في البلاد.

وبعد ما تأسس حزب المؤتمر أصبحت الأحزاب الأخرى الحزب الوطني والكتلة والأحرار والعمال والاتحاد الطرابلسي المصري كلها حبر على ورق من الناحية العملية.

وفي هذه الفترة الحاسمة من تاريخ ليبيا الوطني فأن أغلب الأحزاب تجاهلت وتخطت خلافاتها الشكلية حول قضية الإمارة السنوسية واتفقت على ضرورة المزاوجة في حساباتها

بين وحدة واستقلال ليبيا بأقاليمها الثلاثة، وبين السنوسية باعتبارها أحد أهم فصائل حركة التحرر الوطني والاعتبارات المحلية والعربية والدولية التي شكلت الرصيد السياسي للحركة السنوسية.

9-حزب الاستقلال:

يعتبر هذا الحزب من حيث النشأة والتأسيس من آخر قائمة الأحزاب في التسلسل التاريخي للنشأة فقد أعلن عن تأسيسه قبل إعلان استقلال ليبيا بأقاليمها الثلاث، وارتبط اسمه بمؤسسة سالم المنتصر، وتأسس في طرابلس في يوليو 1949م واتخذ من مدينة مصراته مقراً له، ولم يكن هذا الحزب مخالفاً للإجماع الوطني المطالب بالاستقلال والوحدة وامتداد الإمارة السنوسية إلى إقليم طرابلس(37).

وطالب حزب الاستقلال بحق الشعب في اختيار شكل النظام السياسي الذي يرتضيه من خلال جمعية وطنية، كما طالب بتشكيل لجنة منتخبة تضم ممثلي الأحزاب، وسعى للتعاون مع إيطاليا للوصول إلى الاستقلال وناصره في ذلك المهاجرون الإيطاليون في طرابلس وأصبحوا المحرك الرئيسي لتوجهاته رغم تعارض هذا التعاون مع الشعور الوطني في ليبيا، وقد اتهم الحزب بتلقيه دعم من إيطاليا مما دعى رئيسة سالم المنتصر بأن يقوم بنفي ذلك وأكد أن حزبه لم يتلق أي مساعدات مادية أو حتى أي تعليمات أنه غير مرتبط بأي عهد أو تحالف مع أي جهة أجنبية(38).

واستطاع الحزب فتح فروع له في عدة مناطق منها منطقة غريان واستمر نشاطه حتى ما بعد فترة الاستقلال، وكان برنامجه الدفاع عن قضية الوطن وانضمام ليبيا إلى الجامعة العربية وأن تكون مستقلة استقلالاً تاماً تحت حكومة وطنية دستورية ديمقراطية، وبصفة عامة فإن إقليم طرابلس تمتع بتعدد الأحزاب والهيئات السياسية فيه باختلاف أيديولوجياتها وتوجهاتها.

النشاط السياسي في فزان:

بالإضافة إلى هذه الهيئات والأحزاب السياسية التي تكونت في كل من برقة وطرابلس كان هناك نشاط سياسي في إقليم فزان وبالرغم من عزلة المنطقة نظراً للسياسة إلى اتبعتها فرنسا بعدما استولت عليها إلا أن أهلها لم يكونو بمعزل عما يدور في البلاد وحاول بعض الوطنيين إيصال صوتهم للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ونشر الوعي بين سكان المنطقة.

وبالرغم من أن السلطات الفرنسية ادعت أنها لم تمنع تكوين الأحزاب أو الهيئات السياسية في فزان، كما ادعت أن أحداً من السكان لم يتقدم بطلب من أجل ذلك وعزت الإدارة هذا الأمر لفقر السكان وانشغالهم بتوفير لقمة العيش وعدم وجود وقت لديهم للاشتغال بالسياسة، وحقيقة الأمر أن الإدارة الفرنسية لم تسمح بممارسة العمل السياسي إذ أنها لم توافق على افتتاح فروع لبعض الأحزاب الطرابلسية في فزان مما جعل بعضها يتقدم بالشكوى من هذا الأمر[39].

إلا أن بعض الوطنيين استطاعوا الاتصال بطرابلس بطريقة سرية ونتج عن ذلك إنشاء حركة سرية في سنة 1946م برئاسة عبدالرحمن البركولي وتمكن أعضاء هذه الحركة بالاتصال مع الزعماء الطرابلسيين والتنسيق معهم وتعظيم جهودهم، وتكونت هذه الحركة بمعرفة أحمد سيف النصر ومباركته باعتباره المسئول المكلف من قبل الإدارة الفرنسية بالإدارة المحلية في فزان، وتمثلت ولم تبعد مطالب الحركة عن المطالب التي نادت بها القوى الوطنية في برقة وهي الوحدة والاستقلال وإمارة السنوسي على البلاد، ولعل عدم اختلاف القوى الوطنية في فزان على الإمارة السنوسية راجع إلى التبعية الضمنية للسيد أحمد سيف النصر للحركة السنوسية.

وعندما اكتفت السلطات الفرنسية هذه الحركة القت القبض على بعض أعضائها، ولكن نشاطها لم يتوقف فعندما وصلت لجنة التحقيق الرباعية طالبت فزان بالوحدة والزعامة السنوسية، واستمر قمع السلطات الفرنسية بعد مغادرة اللجنة للمنطقة فألقت

القبض على محمد بن عثمان الصيد نائب رئيس الجمعية واستمر في السجن إلى أن تم اطلاق سراحه بناء على طلب من مفوض الأمم المتحدة في ليبيا أدريان بلت(40).

ولعل أسلوب الحزم والصرامة لدى الإدارة الفرنسية هو من ولد ردود الأفعال لدى السكان ولم تكن تلك الجمعية رد الفعل الوحيد على هذه السياسة وإنما برزت عدة مشكلات أخرى منها الثورة التي قادها عبدالقادر بن مسعود وعرفت بأحداث القلعة في 16 يونيو 1949م وراح ضحيتها عدد كبير من أبناء فزان، وعلى أثرها بدأ الفرنسيون يشعرون بالخطر وبذلك ازدادت الرقابة والحصار على الأهالي، وفي المجمل فإن فزان لم تعرف الوعي السياسي والتجمعات الحزبية بالشكل الذي عرفته المناطق الأخرى وبالتالي ظلت كماً مهملاً في الصراع الوطني.

ثانياً- دور الهيئات والأحزاب السياسية في نشر الوعي الوطني بالداخل:

كانت الهيئات والأحزاب السياسية كثيرة ومتعددة وانتشرت في الأقاليم الثلاث ووقع ودفع عليها القيام بدور ثقيف المواطنين ورفع الوعي الوطني بينهم بأهمية الاستقلال والوحدة. واضطلع بهذا الدور وبشكل كبير في إقليم برقة جمعية عمر المختار التي كانت الصوت الوطني الأول الذي نادى بالاستقلال مقرونا بالوحدة، وكانت المؤسسة الوحيدة التي حاولت تحقيق الإنجازات بالأخص في مجال التعليم والثقافة والرياضة وعدد من النشاطات الأخرى، وأخذت على عاتقها القيام بهذه الأنشطة باعتبارها لا تمثل حزباً يسعى إلى الحكم وإنما هي أول هيئة عرفتها البلاد وكانت موجهة لكافة أبناء الشعب بما قامت به من مظاهرات واحتجاجات وإصدارها لجرائد ومجلات لإذكاء الشعور الوطني ودفاعاً عن حقوق الشعب وتحقيقاً لمطالبه(41).

وأصدرت الجمعية صحيفتي (عمر المختار والوطن)، وكانت تعبر من خلالها على إرادة الشعب وتطلعاته نحو الاستقلال والوحدة، وانتقدت على الدوام تباطؤ الإدارة البريطانية في إجراء الإصلاحات بالبلاد، وكان نشاط جمعية عمر المختار ملحوظاً في برقة فقامت بأعمال

جليلة منها محو الأمية وتعليم اللغات الأجنبية بالإضافة إلى أعمالها الوطنية، وأسست ما يعرف بنوادي العمال والشباب في أغسطس 1945م[42].

وافتتح القسم الثقافي للجمعية في نوفمبر 1946م ندوة أسبوعية تهتم بالمناظرات والمناقشات الأدبية والاجتماعية، كان الهدف منها نشر ثقافة الوحدة الوطنية، ويحضرها عامة الشعب، بالإضافة إلى المثقفين والمتعلمين، وأخذت المشاعر الوطنية في النمو وأصبحت فكرة الاستقلال تراود أغلب أبناء برقة، وقامت جمعية عمر المختار بتأسيس فرقة الكشاف في سنة 1947م، وكان الغرض منها أبعاد الشباب عن أوكار الفساد والحانات ومنحهم فرصة القيام برحلات ترفيهية وتثقفية عمقت من خلالها روح الوحدة والآخاء.

وبرز دور الجمعية كذلك عندما بدأت مفاوضات الوحدة بين طرابلس وبرقة في يناير 1947م ، حيث أخذت على عاتقها نشر البيانات للشعب داعية إياه بالتآزر والتكاثف، وحملت الوفد البرقاوي مسؤولية فشل المفاوضات[43]، وعندما قرر الأمير حل الجمعية في 12 ديسمبر 1947م نزلت عند أوامر ودعت الشعب إلى التلاحم ونبذ الفرقة والالتفاف حوله.

وعلى الرغم من حلها إلا أنه سمح لها بممارسة النشاطات الثقافية والرياضية والاجتماعية، وعند قدوم لجنة التحقيق الرباعية إلى برقة في مايو 1948م، وجهت جمعية عمر المختار نداء إلى أبناء الوطن دعتهم فيه إلى التعبير عن مطالبهم أمامها، وطالبت منتسبها بعدم القيام بأي نوع من أنواع التظاهر أو العنف وأنه يتوجب عليهم الإجابة على أسئلة اللجنة بكل ما يشرف الوطن، كما أن فرعها في درنة أصدر بياناً بتاريخ 24 أبريل 1948م أهم ما ورد فيه أن ليبيا وحدة لا تتقبل التجزئة ورغبتها هي الاستقلال التام، والمناداة بالأمير أدرس ملكاً على ليبيا والانضمام للجامعة العربية.[44]

بالإضافة إلى ذلك فالجمعية واكبت كل الأحداث السياسية التي مرت بها البلاد فعندما أعلنت بريطانيا اقتراحها في مؤتمر وزراء الخارجية بأن تكون وصية على برقة في سبتمبر 1948م، قامت الجمعية بمخاطبة الشعب وبينت لهم خداع بريطانيا ونقضها لعهودها،

وطالبت الشعب بالتآزر والاتحاد وحذرتهم من مغبة إدارة بريطانيا للبلاد، وكان دورها مؤثراً بشكل كبير في التعبئة الشعبية ضد كل المؤامرات التي تحاك ضد البلاد وتصدت لمشروع بيفن سفورزا في 15 مايو 1949م، وقام عدد من منتسبيها بقيادة المظاهرات وتنظيم الاحتجاجات، كما تصدت لمشروع استقلال برقة، واعتبرته مناورة بريطانية ترمي إلى العمل على تقويض أركان الوحدة، وكان لسان حال صحيفتها الوطن هو المعبر عن رفضها لكل ما يعيق تحقيق استقلال ليبيا الموحدة، وبعد إعلان استقلال برقة في 1 يونيو 1949م، تم إصدار قوانين الجمعيات فعادت جمعية عمر المختار للظهور من جديد تحت اسم الجمعية الوطنية، وأصبحت من أكثر القوى السياسية نفوذاً في برقة، وكان لها دور في معارضة قيام جيش لبرقة بدعم بريطاني واعتبرته مؤامرة على استقلال الوطن وخيانة له وتوطيد الاحتلال الأجنبي وسلب لحرية الشعب وهدم لكيانه[45].

وبعد تحولها إلى جمعية وطنية نشرت قانونها الأساسي الذي يضم تحقيق وحدة واستقلال ليبيا تحت التاج السنوسي، والدفاع عن حقوق الشعب والمحافظة على كيان الوطن بتنوير الرأي العام الوطني، والملاحظ أن إذكاء الشعور الوطني بأهمية القضية الليبية ووحدة واستقلال البلاد قد التزمت به الجمعية من خلال خطين متوازيين الأول عبرت عنه في شكل نشرات ومطبوعات انتقدت فيها الإدارة البريطانية والخط الثاني تمثل في معالجة قضية الاستقلال والوحدة.

بالإضافة إلى جمعية عمر المختار والدور الذي اضطلعت به في نشر الوعي الوطني بأهمية القضية الليبية في داخل الوطن كان هناك رابطة الشاب الإسلامي فهي كذلك أخذت على عاتقها القيام بنشر الوعي الوطني من خلال انتقاداتها المستمرة للإدارة البريطانية ودعمت فكرة استقلال البلاد، ولكن كثيراً ما توقفت نشاطاتها بسبب الخلافات بين منتسيها، كما لا ننسى الدور الذي قامت به الجبهة البرقاوية في هذا المجال ومطالبتها المستمرة بالوحدة والاستقلال وكذلك المؤتمر الوطني البرقاوي الذي تأسس بعد حل الأحزاب ودمجها في جبهة واحدة في 15 يناير 1948م، وقد لعب هذا المؤتمر دوراً حاسماً في التعبير عن تطلعات وأماني أهالي برقة عندما كانت الدول الكبرى تبحث مصير المستعمرات الإيطالية[46].

وبالرغم من هذا الزخم في طرح أهمية استقلال ووحدة البلاد إلا أن الدور الأكبر وقع على عاتق جمعية عمر المختار فيما قامت به من أعمال استطاعت من خلالها تقريب وجهات النظر بين مختلف طوائف الشعب في إقليم برقة.

أما في إقليم طرابلس فكما أشرنا سابقاً فقد تعددت الأحزاب والهيئات السياسية وتباينت وجهات النظر، ولكن أغلبها كان يسعى نحو الاستقلال والوحدة رغم اختلافها في شكل النظام السياسي للبلاد، فعندما تأسس الحزب الوطني كأول حزب في البلاد جاء في ميثاقه أنه يعبر عن تطلعات الشعب ومن بين أهدافه توجيه أبناء الشعب للتعبير عن طموحاتهم في نيل حقوقهم والوصول بهم إلى الوحدة والاستقلال والرفع من مستواهم للوصول إلى مصاف الشعوب المتقدمة(47)، وأخذ أعضاء الحزب الوطني منذ البداية في مواجهة الإدارة البريطانية بتقديم المذكرات لها مطالبين فيها الرفع من المعاناة التي كانت يعانيها الشعب على كل المستويات اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، واعتبر هذا الحزب حزباً شعبياً يمارس نشاطاته وسط الجماهير من عقد الندوات والمحاضرات وغيرها من الأنشطة، ومنها البيان الذي أصدره في نوفمبر 1946م بمناسبة وعد بلفور ووزعه على المواطنين، وانتهز أعضاء الحزب المناسبات الدينية والوطنية لدعوة الناس للحمة الوطنية كدعوته لإضراب عام بمناسبة الذكرى السادسة والثلاثين للاحتلال الإيطالي، وكان الحزب على اتصال بالأمير إدريس السنوسي بالرغم من عدم الدعوى لإمارته، إلا أنه أصبح حلقة وصل بين إقليم طرابلس وبرقة، وعندما علم أعضاء الحزب بقدوم لجنة التحقيق الرباعية، أصدروا بياناً حثوا فيه أبناء الوطن على التكاثف والمطالبة بالوحدة والاستقلال، مما أثار استجابة لدى الهيئات السياسية الأخرى فأصدرت بياناً مشتركاً أجمعت فيه على مطلبي الوحدة والاستقلال وكانت هذه البيانات والنداءات تلقى قبولاً لدى أبناء الشعب الذي خرج في مظاهرات يومي 17 و 18 فبراير 1948م ضد سياسة الإدارة الإنجليزية، كما أن الحزب الوطني كان سباقاً إلى حشد الجماهير وتكتلها لمواجهة مشروع بيفن سيفورزا في 9 مايو 1949م ونظم الاحتجاجات وقاد المظاهرات وكان من ضمن الأحزاب التي أسهمت في تأسيس المؤتمر الوطني العام فيما بعد.

بالإضافة إلى الدور الذي قام به الحزب الوطني فقد اضطلعت الجبهة الوطنية المتحدة والتي كانت من ضمن ركائز النظام السياسي في طرابلس بدور هام في دعوة الليبيين للتكاتف والوحدة والإضراب ضد أي محاولة لهدم معول البناء في البلاد، فنجدها تدعو إلى الإضراب العام ضد مقررات مؤتمر باريس الذي اقترح وضع طرابلس تحت الوصاية الإيطالية، ولاقت هذه الدعوى صدى واسعاً في مختلف أنحاء الإقليم[(48)].

وعندما أعلن عبدالرحمن عزام في ندائه للشعب في طرابلس عن إنشاء هيئة تحرير ليبيا توجس المواطنين من ذلك فبادرت الجبهة الوطنية بإصدار بيان عبرت فيه عن سرورها بإنشاء الهيئة في هذه المرحلة الخطيرة ودعت أبناء الشعب للتعاون مع كل من يعمل لخدمة الوطن وناشدته للتضامن ونبذ الشقاق والفرقة.

ومما لا شك فيه فإن الجبهة الوطنية كانت من أقوى الهيئات السياسية تأثيراً في إقليم طرابلس قبل قدوم هيئة تحرير ليبيا وتكوين المؤتمر الوطني، وقد تصدرت المشهد السياسي هناك فقبيل قدوم لجنة الاستفتاء بأيام قليلة نشطت الجبهة في توعية الشعب بماهيتها ودعته لتوحيد إجاباته وبأن لا يرضو بغير الاستقلال التام، وأضحت تمثل تياراً سياسياً يعبر عن طموحات غالبية أهالي إقليم طرابلس المناوئين للتدخل الأجنبي والأقليات الإيطالية الداعية لإعلان الحماية الدولية، كما عملت الجبهة على أن تكون حلقة وصل بين القيادات السياسية في برقة ممثلة في الأمير إدريس وهيئة تحرير ليبيا ممثلة في بشير السعداوي من أجل قضية الاستقلال[(49)].

كما أن الكتلة الوطنية الحرة انتهجت منذ تأسيسها نهج الالتحام بالجماهير وبأن تكون صوت الشعب، وهذا ما أكدته في كثير من بياناتها وبالأخص الموجهة للإدارة البريطانية وعبرت فيها عن توجهاتها السياسية والفكرية المناهضة للإدارة، ولم تستطع الأخيرة منع عناصر الحزب من مزاولة أنشطتهم التحريضية بين الأهالي كالمطالبة بتشكيل مجلس وطني استشاري يدير شئون البلاد خلال مرحلة تقرير المصير وصدرت البيانات ووزعت المنشورات على الأهالي لإشراكهم في قضايا الوطن وحثهم على عدم التفريط في الحقوق، وكانت في كثير من الأحيان تنشر هذه البيانات في الشوارع وعلى جدران المساجد معتبر نفسها حاملة لواء الصراحة والمقاومة، ومن أهم القضايا التي أولتها الكتلة اهتماماً قضية تعريب الجهاز

الإداري في البلاد، والتصدي للهجرة الإيطالية إلى ليبيا من أجل عودة الاحتلال، بالإضافة إلى ذلك فأنها تابعت مجريات السياسة العالمية والتصريحات الخاصة بليبيا وطالبت الشعب على أثرها بالتصدي لكل ما يحاك ضد بلاده ووصل الأمر بالكتلة الوطنية إلى الدعوة لاجتماع الهدف منه تقرير شكل الحكومة التي تحكم البلاد مستقبلاً واختيار رئيس الدولة، فما كان من الإدارة البريطانية إلا الرد عليها بأن حكم البلاد سيبقى على عاتقها إلى حين تقرير المصير وعارضت الاقتراحات التي تقدمت بها الكتلة[50].

وطالبت الكتلة الوطنية المواطنين بأن يكونوا صفاً واحداً أمام اللجنة الرباعية، كما شددت في بياناتها على مساعدة الهيئات السياسية في البلاد، وكان من أهم نشاطاتها تنظيم المحاضرات لعامة الشعب عن الهجرة والتطور السياسي في ليبيا وجهاد الأمم العربية وأوضحت من خلالها أهمية أن تكون البلاد مستقلة سياسياً وإدارياً.

ويتضح أن الكتلة الوطنية الحرة نجحت في تكوين قاعدة شعبية قادرة على التعبير والمعارضة، ولم يقتصر نضال الكتلة السياسي على الدفاع عن إقليم طرابلس فقط وإنما اهتمت بقضية فزان كذلك فأرسلت برقية إلى وزراء خارجية الدول الأربعة شرحت فيها الأوضاع الراهنة هناك وأكدت على أن الإدارة الفرنسية في الإقليم إدارة مؤقتة للحفاظ على الأمن إلى أن تنال البلاد استقلالها[51].

أما حزب الاتحاد المصري فمن خلال تتبع نشاطه فإنه لم يظهر له تأثير كبير في القاعدة الشعبية بإقليم طرابلس وكان يدعو في بعض الأحيان إلى دعوات غريبة كدعوته للمواطن في طرابلس قبيل قدوم لجنة التحقيق الرباعية بالوحدة مع مصر وترك ما دون ذلك، وقد أثارت هذه الدعوى غضب واستهجان الأوساط الوطنية في طرابلس، ومع أن مطلبه كان الدعوة للاتحاد مع مصر إلا أنه كان يدعو للوحدة بالداخل أولاً، فعند فشل مفاوضات الوحدة بين طرابلس وبرقة في يناير 1947م شكل الحزب وفداً للذهاب إلى برقة لإزالة ما علق في نفوس البرقاويين من شك في موقف مواطنيهم الطرابلسيين من الوحدة ودعى الوفد لمواجهة لجنة التحقيق بما يلزم من تكتل وتساند واتحاد، ومن المواقف التي تحسب للحزب سعى رئيسه لإصدار فتوى من دار الإفتاء المصرية عن حكم رغبة بعض المواطنين بأن تتولى الإشراف على بلادهم حكومة أجنبية لا صلة لها بالإسلام فأصدر الأزهر فتواه بأن موالاة

الكافر خروج عن الدين[52] ، وكان لهذه الفتوى أثر كبير على عامة الشعب بالأخص خلال زيارة للجنة الرباعية، على العكس تماماً من هيئة تحرير ليبيا التي دل اسمها على أنها تعتبر البلاد محتلة من قبل البريطانيين والفرنسيين فعلى أثر نشأتها نشرت نداء إلى الشعب الليبي مؤكدة فيه على ضرورة التضامن وتوحيد الجهود في سبيل الاستقلال، وأكدت بأنها مستعدة للتعاون مع كل من أراد أن يخدم الوطن، ولن تذخر جهداً في سبيل توحيد الجهود بين الهيئات أمام لجنة الاستفتاء، وقبل وصول اللجنة إلى طرابلس كانت هيئة تحرير ليبيا توجه الجماهير للرد على أسئلتها وذلك بحثهم على المطالبة بالوحدة والاستقلال والانضمام إلى جامعة الدول العربية، وأغفلت موضوع الإمارة السنوسية، وعمدت الهيئة في مجال التوعية والإعلام إلى إصدار نشرة أسبوعية تضمنت العديد من الفقرات التوعوية ساقتها لأبناء الشعب في شكل قوالب صحفية، كما أن حزب الأحرار عمل على نشر الوعي الوطني وذلك من خلال أهدافه التي صاغها وكان الغرض منها إلغاء القوانين الإيطالية وأن يتولى أبناء الشعب الوظائف الإدارية والقضائية في البلاد وكان له دور مهم في عرض مسارات القضية الوطنية داخل البلاد، أما حزب العمال فلم يعمر طويلاً ولذلك فإن تأثيره لم يكن قوياً إلا أنه كان يدعو الشعب في بياناته إلى وحدة الصف، وكان ينشر بين المواطنين فكرة أن لا خلاف بين الأحزاب وأن الكل متحد في المبادئ وأنها جميعاً تتجه لأهداف وأغراض واحدة تهم كل ليبي مخلص لبلاده، وتتلخص في تحقيق استقلال ليبيا موحدة بكامل أجزائها ورغم هذا فأن الحرب بخلاف جميع الأحزاب لم يؤيد هيئة تحرير ليبيا التي زاولت نشاطها إلى حد ما كهيئة مركزية للعمل على نجاح برنامج زيارة اللجنة الرباعية، ولذلك نادى بخلافها جميعاً بإمارة إدريس السنوسي[53]، ويلاحظ أن الإطار الذي سار فيه وتحرك من خلاله هذا الحزب كان متسقاً مع الواقع السياسي والاجتماعي مما جعله أقرب إلى الكيان النقابي منه إلى التنظيم الحزبي.

وهكذا نرى أن الأحزاب والهيئات السياسية حاولت بذل جهدها في نشر الوعي الوطني بين الليبيين كل حسب ما يراه من أدوات مناسبة له أما عن طريق الصحف أو عن طريق النداءات والبيانات أو النشرات ولم تول جهداً في سبيل ذلك.

الخاتمة

نلاحظ مما تقدم أن الجماعات السياسية تكونت في كل من برقة وطرابلس خلال الفترة 1943– 1949م بصورة منفصلة، الواحدة عن الأخرى، وكان مرد ذلك إلى الظروف الجغرافية والتاريخية والسياسية، وكذلك البنية الاقتصادية والاجتماعية المختلفة والتي استفحلت بسبب مطامح شخصية إقليمية، ومصالح أجنبية دولية، من أجل تكريس واقع التجزئة المتاح حينذاك لخلق ثلاثة كيانات منفصلة في هذا البلد الواحد.

فالمساحات الشاسعة التي تفصل مواقع العمران عن بعضها كان لها دورها في تعميق هوة الانفصال بين هذه الأجزاء، والبنية الاقتصادية والاجتماعية المختلفة في كل جزء خلقت أوضاعاً اجتماعية متميزة داخل الشعب الواحد، فبرقة في ذلك الوقت كانت في جملتها مجتمعاً بدوياً قبلياً، باستثناء بعض المراكز الحضرية في مدن بنغازي ودرنة وربما المرج، وقد استطاعت الحركة السنوسية أن تستوعب تلك القبائل ضمن دعوتها الدينية التي اتخذت فيما بعد طابعاً سياسياً، وبذلك تمكنت من الانفراد بقيادتها في حدود ذلك الجزء من أرض الوطن، أمَّا طرابلس الغرب فهي في جملتها مجتمع ريفي زراعي تتخلله مجموعة من المراكز الحضرية على طول الساحل، وفي مراكز معينة في الدواخل، وذلك عدا بعض المناطق الرعوية البدوية التي لم تُشكل ثقلاً يُذكر، وبذلك قامت الزعامات في شكل عائلات في أماكن مختلفة في المدن والريف مستغلة بقية الهياكل القبلية التي فقدت قوتها وأصبحت مجرد خيوط اجتماعية ضعيفة تربط مختلف العائلات التي تنتمي إليها.

أما منطقة فزَّان، فنظراً لضعف مواردها، وقلة عدد سكانها، وتعدد أصولهم، وانضوائهم في مجموعة من الواحات على مساحات شاسعة متباعدة، والظروف السياسية الخاصِّة التي فُرضت عليهم، جعلته بمعزل عن التيارات السياسية التي كانت تدور في الجزأين الباقيين.

وقد استاء الأجنبي من هذه المعطيات البيئية، وبذل أقصى الجهود من أجل تسخيرها لخدمته، فالإيطالي الغازي كان همه الحيلولة دون قيام جبهة موحدة في مواجهته،

والإنجليزي سار في نفس الاتجاه، فأقام في برقة كياناً متميزاً عن ذلك الذي في طرابلس، والفرنسي حاول فصل فزَّان عن بقية البلاد وضمها إلى مستعمراته متعاوناً في ذلك مع من رأى في مصلحتهم التقاء بمصالحه.

وهكذا فالجماعات السياسية في برقة وطرابلس وخلال الفترة 1943 – 1949 لم تحدث من فراغ، بل كانت لها جذورها التاريخية ضمن المعطيات البيئية والاجتماعية والسياسية للبلاد، وظهرت في برقة ملتفةً حول الزعامة السنوسية التي استمدت قوتها من النظام القبلي الذي يكون الغالبية السكانية في البلاد، وبذلك لم يكن في الواقع السياسي لذلك الجزء مجالاً لرفض تلك الزعامة في أساسها، فاتخذت المعارضة برنامجاً يتناسب مع إمكانياتها المحدودة، أما في طرابلس فتعددت الزعامات بتعدد العائلات، وتعددت الانقسامات والحساسيات، فلم توفق في تأسيس القيادة الموحدة، وكانت تحت ضغط الحاجة، تلجأ إلى الزعامة في برقة من أجل خلق قضية مشتركة.

حدث هذا تحت ضغط الحرب ضد الإيطاليين، وتكرر أثناء الاستعداد في الحرب في المهجر، ثم أخيراً خلال الفترة موضوع الدراسة 1943 – 1949م فترة الكفاح من أجل الاستقلال والوحدة.

فالجماعات السياسية التي تكونت خلال هذه الفترة إنما هي في واقع الأمر استمرار التي تكونت في مرحلة تاريخية سابقة يُمكن أن نتبع بداياتها مع بداية الغزو الإيطالي، عندها لم تتمكن تركيا من خلق قيادة موحدة تضم البلاد جميعها، وتحرك جميع إمكانياتها وتسيطر على مختلف التيارات فيها، وربما يرجع فشلها في ذلك الوقت إلى ضعفها عسكرياً، وفقرها اقتصادياً، وتخلفها تكنولوجياً، وقصورها عن تدارك الموقف ضمن المعطيات التي تحدثنا عنها، فضاعفت بذلك الفرصة الوحيدة التي ربما كانت نقطة تحول في تاريخ البلاد وتوجيه مسيرتها السياسية ، ومن خلال تتبع الهيئات والأحزاب السياسية ودورها في نشر الوعي الوطني بأهمية القضية الليبية بالداخل.

يلاحظ أنها في إقليم برقة لم تكن بالزخم العددي الذي كانت عليه في طرابلس، وكانت جمعية عمر المختار على رأسها ووقع عليها الدور الأكبر في نشر الوعي الوطني ونزولها لمختلف طبقات المجتمع، بينما كان جل اهتمام باقي الهيئات في هذا الإقليم في محاولة تدويل القضية والتصدي لمحاولات إجهاضها في مهدها.

على عكس إقليم طرابلس الذي تميز بالتعددية في الهيئات والأحزاب السياسية وحتى أن عدد كبير منها تأسس في عام واحد، ولا شك أن هذه التعددية ساهمت في زرع بذور الانشقاق التشرذم، إذ تم تأسيس تعسة أحزاب خلال خمسة سنوات ناهيك عن تلك التي ماتت في مهدها بعد بعضة شهور، ويبدو أن ذلك راجع إلى غياب الإطار الفكري الجامع فأغلب هذه الهيئات والأحزاب كان هدفها بسيط ومؤقت وهو الاستقلال ولم يكن لديها رؤية جامعة وقادرة على استقطاب الجماهير والمحافظة على ولائها وبالتالي ظل دورها متمحوراً في قضية الاستقلال والوحدة والعمل على تبصير أبناء الشعب بأهمية هذه القضية دون النظر لأبعد من ذلك ووضع أيديولوجيا لكي تستمر في المستقل أي بعد حصول البلاد على استقلالها.

ومع ذلك فإن الأحزاب قد بذلت جهوداً لا تنكر وعملت بما سنحت لها ظروف البلاد في توعية أبناء الشعب وكانت السمة الغالبة عليها السمة الوطنية، ومع ذلك لم يكن لها تحرك عملي من أجل رفع المعاناة عن المواطنين ولم تمتلك السلطة لانتزاع حقوقهم من الإدارة الإنجليزية وربما يكون هذا سبب انفضاض العديد من أبناء الشعب عنها والتفافه حول هيئة تحرير ليبيا، وبعدها الالتفاف حول المؤتمر الوطني الطرابلسي برئاسة بشير السعداوي، إذ أن أغلب الأحزاب كانت تدعو نظرياً إلى تكوين جبهة واحدة، وفي الوقت ذاته كانت تدعو إلى أن عدم إقرار أي اتفاق تعقده أي هيئة سياسية دون موافقة باقي الأحزاب سيكون مآله للفشل.

الهوامش:

(1)محمد بشير المغربي، وثائق جمعية عمر المختار صفحة من تاريخ ليبيا، مؤسسة دار الهلال، 1992م، ص9-10.

(2)محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، 1948م، ص394-395.

(3)محمد يوسف المقريف، ليبيا بين الماضي والحاضر صفحات من التاريخ السامي ميلاد دولة الاستقلال، المجلد 1 مركز الدراسات الليبية أكسفورد، الفرات للنشر والتوزيع، 2004م، ص219.

(4)مجيد خذروي، ليبيا الحديثة ، دراسة في تطورها السياسي، ترجمة نقولا زيادة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1966م، ص86-87.

(5)جريدة برقة الجديدة، السنة الرابعة العدد 858، بتاريخ 23 فبراير 1947م، ص2.

(6)سامي الحكيم، حقيقة ليبيا، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م، ص19.

(7)جريدة برقة الجديدة، السنة الرابعة، العدد 776، بتاريخ 11 أغسطس 1946م، ص3.

(8) مفتاح السيد الشريف، نشأة الأحزاب ونضالاتها، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، 2010م، ص192.

(9) إبراهيم فتحي عميش، التاريخ الساسي ومستقبل المجتمع المدني في ليبيا، ج1، برنيق للطباعة والترجمة والنشر، 2008م، ص192.

(10) صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970م، ص83.

(11) دي كاندول، الملك إدريس حياته وعصره، الناشر: محمد سيد بن غلبون، لندن، 1989م، ص87.

(12) صحيفة الوطن، السنة السادسة، العدد 217، بتاريخ 28 فبراير 1950م، ص1 العدد 218، بتاريخ 7 مارس 1950م، ص2.

(13) مجيد خذوري، مرجع سابق، ص99.

(14) إبراهيم عميش، مرجع سابق، ص200.

(15) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة، العدد 1094، بتاريخ 7 يناير 1947م، ص5.

(16) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة العدد 899، بتاريخ 12 مايو1946م، ص2

(17) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة، العدد 901، بتاريخ 14 مايو 1946م، ص2.

(18) إبراهيم عميس، مرجع سابق، ص208.

(19) محمد مسعود جبران، صفحة مطوية من نضال الشعب الليبي على الفقيه حسن والكتلة الوطنية الحرة، مجلة الشهيد، العدد المزدوج 897، أكتوبر، 1986- 1987م، مركز دراسة جهاد الليبيين، طرابلس، ص245.

(20) نقولا زيادة، ليبيا من الاستعمار الإيطالي حتى الاستقلال، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1967م، ص61.

(21) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة، العدد 1132، 23 فبراير، 1947م، مصدر سابق، ص2.

(22) ملف سالم إلى خيثم، ملف رقم 12، وثيقة رقم 22، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات، شعبة الوثائق والمخطوطات، طرابلس.

(23) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة، العدد 1084، بتاريخ 25 ديسمبر 1946م، ص4..

(24) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة، العدد 1214، بتاريخ 28 مايو 1947م، ص1.

(25) جريدة طرابلس الغرب، السنة الخامسة، العدد 1215، بتاريخ 29 مايو 1947م، ص1.

(26) صلاح العقاد، ليبيا المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970م، ص60.

(27) ملف اللجان والأحزاب رقم36، وثيقة رقم59، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، شعبة الوثائق والمحفوظات

(28) مجيد خذوري، ليبيا الحديثة، مصدر سابق، ص114، محمد فؤاد شكري، ميلاد دولة ليبيا الحديثة وثائق تحريرها واستقلالها، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1957م، ص16.

(29) صحيفة الوطن، السنة الثالثة، العدد 113، بتاريخ 2 مارس 1947م، ص2.

(30) جريدة طرابلس الغرب، السنة الخامسة، العدد 1208، بتاريخ 21 مايو 1947م، ص2.

(31) عقيل البربار، حركة التحرر الليبية في القرن العشرين، مجلة الشهيد، العدد 31، المركز الوطني للدراسات التاريخية، 2011م، ص67.

(32) جريدة طرابلس الغرب، السنة الخامسة، العدد 1308 سبتمبر 1947م، ص2.

(33) جريدة طرابلس، العزب، السنة السادسة، العدد 1695، بتاريخ 5 يناير 1949م، ص2.

(34) جريدة طرابلس الغرب، السنة السادسة، العدد 1400، بتاريخ 8 يناير 1948م، ص2.

(35) جريدة طرابلس الغرب، السنة السابعة، العدد 1801، بتاريخ 15 مايو 1949م، ص2

(36) صحيفة الوطن، السنة الرابعة، العدد 191، بتاريخ 30 أغسطس 1949م، ص2.

(37) محمد عثمان الصيد، محطات من تاريخ ليبيا، مذكرات محمد عثمان الصيد، أعدها للنشر طلحة جبريل، طوب للاستثمار والخدمات، الرباط، المغرب، 1996م، ص49 -50.

(38) آمال السبكي، استقلال ليبيا بين الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية 1943- 1952م، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1990م، ص16، جريدة طرابلس الغرب، السنة الثامنة العدد 2543، بتاريخ 16 نوفمبر، 1951م، ص1.

(39) محمد عثمان الصيد، مرجع سابق، ص30- 31.

(40) مجيد خذوري، مرجع سابق، ص128.

(41) صحيفة الوطن، السنة الرابعة، العدد 92، بتاريخ 23 سبتمبر 1947م، ص1.

(42)مفتاح السيد الشريف، مرجع سابق، ص152.

(43)صحيفة الوطن، السنة الرابعة، العدد 58، بتاريخ 28 يناير 1947م، ص3، صحيفة برقة الجديدة ، السنة الخامسة العدد 974، بتاريخ 26 نوفمبر 1947م، ص4.

(44)صحيفة الوطن، السنة الخامسة العددين 71، 73، 24 أبريل، 4 مايو 1948م، ص2.

(45) صحيفة الوطن السنة السادسة، الأعداد 176، بتاريخ 1 فبراير 1949م، ص1، والعدد 200، بتاريخ 10 نوفمبر 1949م، ص1، السنة السابعة، العدد 211، بتاريخ 17يناير 1950م، ص1، صحيفة الوطن السنة السابعة، العدد 216، بتاريخ 21 فبراير 1950م، ص1.

(46) نقولا زيادة، مصدر سابق، ص158.

(47) مفتاح السيد الشريف، مرجع سابق، ص163.

(48) جريدة طرابلس الغرب، السنة الرابعة العدد 902، بتاريخ 16 مايو 1946م، ص4.

(49) وثيقة رقم 56، بتاريخ 27 نوفمبر 1946م، المركز الوطني للمحفوظات والدراساتالتاريخية، شعبة الوثائق والمحفوظات، طرابلس.

(50)جريدة طرابلس الغرب، السنة الخامسة، العدد 1210، بتاريخ 23 مايو 1947م، ص2.

(51) جريدة طرابلس الغرب، السنة الخامسة، العدد 1522، بتاريخ 2 يونيو 1948م، ص2.

(52)ملف رقم 196، وثيقة رقم1، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس.

(53)جريدة طرابلس الغرب السنة الرابعة، العدد 1365، بتاريخ 26 نوفمبر 1947م، ص6-7.

الكاتب: أ/ محمدالبشير رازقي
كليّة العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة تونس

عنوان المقال: الكتابة التاريخيّة والدولة الوطنيّة في تونس والجزائر (1956- 1970):الأبعاد الأكاديميّة ورهانات بناء الدولة الوطنيّة

البريد الالكتروني:Rezgui.medd@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/01/04 تاريخ القبول:2019/02/22 تاريخ النشر: 2019/03/28

الكتابة التاريخيّة والدولة الوطنيّة في تونس والجزائر (1956- 1970):الأبعاد الأكاديميّة ورهانات بناء الدولة الوطنيّة

: Historical Writing and the National State in Tunisia and Algeria (1956-1970): Academic dimensions and national state building bets

الملخص:

تعتبر عمليّة الكتابة وخاصّة الكتابة التأريخيّة منتج حضاري ووليدة عصرها وسياقاتها التاريخيّة. ومن خلال هذا المقال، الذي كانت إشكاليّته الرئيسيّة تبيّن علاقة الكتابة التاريخيّة في الجزائر وتونس بين سنتي 1956 و1962 بالدولة الوطنيّة الناشئة، برز لنا أهميّة علم التاريخ في مرحلة بناء الدولة الوطنيّة خلال القرن العشرين سواء في تونس أو الجزائر. وأنّ أنّ العمليّة التأريخيّة في تونس والجزائر بين السنتي 1956 و1962 تشابكت بقوّة مع ظروف بناء الدولة الوطنيّة. فالمؤرّخ مثلما ساهم في بناء الدولة، ينغمس أيضا في أزماتها وتوتّراتها من خلال اندماجه في العمل السياسي نفسه أو بالمعارضة أو بالاستشارة أو التنظير المعرفي من خلال دراسته للماضي من أجل فهم الحاضر واستشراف جيّد للمستقبل.

وقد لاحظنا بعض الاختلافات بين التجربة التأريخيّة الجزائرية والتجربة التأريخيّة التونسيّة. فالأسطوغرافية الجزائريّة تمحورت بشدّة حول التاريخ السياسي وخاصّة فترة حرب التحرير. عكس التونسيّة التي بدأت فعليّا من خلال دراسة العصر الوسيط (الأغالبة، الفاطميين...)، ولا يمكن أن نفصل رهان المدرسة التاريخيّة التونسيّة حين دراستها هذه الدولة المستقلّة عن المركز العبّاسي في المشرق بمعزل عن رهان الدولة الوطنيّة بقيادة

بورقيبة في إيجاد شرعيّة لنفسها، خاصّة في ضلّ اشتداد الصراع البورقيبي الناصري بين من يدعوا للقوميّة والعروبة ومن ينادي للقطريّة الضيّقة و"التونسة" أو "الهويّة التونسيّة".

Abstract :

The process of writing, especially historical writing, is a civilized and nascent product of its age and its historical contexts. Through this article, whose main problem was the relationship between historical writing in Algeria and Tunisia between 1956 and 1962, the importance of the history of national nation building during the twentieth century, whether in Tunisia or Algeria, has emerged. In addition, that the historical process in Tunisia and Algeria between 1956 and 1962 was strongly intertwined with the conditions of national state building. The historian, as he contributed to the building of the state, is also immersed in crises and tensions through his integration into the political work itself or in opposition or consulting or cognitive theorization through his study of the past to understand the present and a good outlook for the future.

We have noted some differences between the Algerian historical experience and the Tunisian historical experience. The Algerian mythology has focused heavily on political history, especially the period of the war of liberation. Unlike the Tunisian one, which was actually started through the study of the Middle Ages (the Aghlabids, the Fatimid's ...), and we cannot separate the Tunisian historical school bet when studying this independent state from the Abbasid position in the Orient. In the wake of the intensification of the Nasserite Bourguiba conflict between those who call for nationalism and Arabism and those who call for a narrow Qatari, "Tunisian" or "Tunisian identity."

مقدّمة:

يعتبر علم التاريخ من أهمّ آليّات بناء الدول، بل يمكنللتاريخأن يساهم في بناء جغرافيّات "جماعات متخيّلة" وتاريخ "قومي" مشترك يشرعن وجود الدولة في حدّ ذاتها[1]. فالمؤرّخ كما ساهم في بناء الدولة ينغمس أيضا في أزماتها وتوتّراتها من خلال اندماجه في العمل السياسي نفسه أو بالمعارضة أو بالاستشارة[2]. بل يمكن له أن يقدّم تصوّرا خاصّة به لمسألة الدولة ويصنّفها بطريقة تفضيليّة أو تحقيريّة[3].

من هذا المنطلق سوف نحاول من خلال هذه الورقة أن نطرح مجموعة من التساؤلات تتمحور حول علاقة المؤرّخ بالدولة، وعلاقة الدول المتحرّرة من الاستعمار ببناء الجامعات وأقسام التاريخ فيها، وعلاقة كلّ ذلك ببناء ذاكرة للوطن. وسوف نأخذ البلاد التونسيّة والجزائريّة كنموذجين تفسيرين خلال الفترة الممتدّة من 1956 و1970.

وقد اعتمدنا في الإجابة عن التساؤلات الرئيسيّة لهذا البحث على أطروحة محمّد الطالبي "الدولة الأغلبيّة: التاريخ السياسي (184- 296/ 800- 909). هذا الكتاب هو في الأصل أطروحة دكتوراه بدأ الطالبي بإنجازها في باريس في خمسينات القرن العشرين ونشرت نسختها الفرنسية سنة 1966، وترجمت عن دار الغرب الإسلامي سنة 1985. واعتمدنا أيضا على كتاب المؤرّخ التونسي فرحات الدشراوي "الخلافة الفاطميّة بالمغرب (296- 365/ 509- 975): التاريخ السياسي والمؤسّسات". وهذا العمل أنجزه الدشراوي في إطار نيل شهادة دكتوراه الدولة في السوربون منذ بداية الستينات، وناقش عمله سنة 1970، وترجم سنة 1994. أمّا العمل الثالث فهو للمؤرّخ التونسي الهادي روجي ادريس "الدولة الصنهاجيّة: تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 الى القرن 12

ميلادي (2 أجزاء)، هذا العمل هو أطروحة دكتوراه أنجزها الباحث في خمسينيات القرن العشرين ونشرها سنة 1962 وترجمت سنة 1992.

أمّا الأعمال الذي سوف نعتمد عليه لدراسة علاقة الدولة الوطنيّة الجزائريّة بالمؤرّخ وبنشأة أسطوغرافيا جزائريّة فهي منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثقافيّة بالجزائر، وخاصّة مجلّة "إنسانيّات" وقد استفدنا من عدد مهمّ من مقالاتها.

فماهي علاقة الكتابة التاريخيّة في الجزائر وتونس بين سنتي 1956 و1962 بالدولة الوطنيّة الناشئة؟

1- الدولة الوطنيّة في تونس: تجدّد الكتابة التاريخيّة والرهانات السياسيّة

إذا ما نظرنا الى الأسطوغرافيا التونسيّة من زاوية نظر زمنيّة نجد أنّ أعمال مؤرّخي الخمسينات والستينات اعتمدوا مناهج بحث جديدة ومصادر طريفة بالمقارنة مع أحمد ابن أبي الضياف مثلا في القرن التاسع عشر، حسن حسني عبد الوهاب في أوّل القرن العشرين. فمن خلال تتبّعنا للمصادر والمراجع التي اعتمد عليها الهادي روجي ادريس في عمله عن الدولة الصنهاجيّة نجد طرافة وتنوّع بين الأجناس الأدبيّة والتاريخيّة وتنوّع اللغات المكتوبة بها هذه المدوّنة المصدريّة[4].

ونشير هنا الى الدور المهمّ الذي لعبه التكوين الذي تلقّاه هذا الجيل من المؤرّخين في الجامعات الفرنسيّة. ففي تلك الفترة كانت مدرسة الحوليّات هي الصوت الأعلى أكاديميّا في الجامعات الفرنسيّة. من هنا اعتمد الطالبي والدشراوي وادريس على مجموعة متميّزة من المناهج. فثلاثتهم استغلّوا لأوّل مرّة في الدراسات الأكاديّة التونسيّة "الأدب المناقبي" ضمن بحث تاريخي، فالهادي

روجي ادريس اعتمد على "مناقب أبي إسحاق الجبنياني" و"مناقب محرز ابن خلف" وهو أحد أشهر الأولياء الصالحين في البلاد التونسيّة. الى جانب المدوّنات الفقهيّة وكتب "أحكام السوق"[5]. بل الأهمّ هنا تمّ الاعتماد على مخطوطات لم تنشر.

ومن المسائل الفارقة أيضا في هذه الأعمال هو الاعتماد على مراجع من لغات متعدّدة (عربيّة وفرنسيّة وانجليزيّة والإيطاليّة). هذا التمكّن من اللغات الأجنبيّة ساعد المؤرّخ على الانفتاح على نظريّات، مسارات بحثيّة جديدة في التاريخ. كما نسجّل تسلسلا واضحا لهيكلة النصّ من خلال الاهتمام بالجانب السياسي والاقتصادي والثقافي دون اغفال البعد الديمغرافي، هذا مع تركيزه على آليّة التفريق بين الظرفيّات الخارجيّة التي تتعرّض لها الدولة (غزوه بني هلال مثلا) وبين الظرفيّات الداخليّة (الصراع على السلطة). كما أنّ هذه الأعمال التاريخيّة وبصفتها أطروحات جامعيّة مؤطّرة اعتمدت على فهرسة دقيقة للأماكن وأسماء الأعلام والمدن والقبائل الى جانب فهرسة المواضيع.

هذا على مستوى الشكل، أمّا على مستوى المضمون فقد لاحظنا أنّ التاريخ السياسي طغى على بقيّة الأغراض التاريخيّة خاصّة مع محمد الطالبي[6]، مع ميل فرحات الدشراوي لتاريخ المؤسّسات سواء الاقتصادية والمالية والعسكريّة والقضائيّة[7]. أمّا الهادي روجي ادريس فقد كان الأشمل، فقد خصّص الجزء الأوّل من عمله الى التاريخ السياسي، أمّا الجزء الثاني فقد اهتمّ بالحياة العائليّة (الزواج، الغذاء، اللباس...) والاجتماعيّة والحياة الاقتصاديّة (النظام العقّاري، الضرائب) و"الإنتاج الزراعي والصناعي والمنجمي"، الى جانب الحياة الدينيّة والثقافيّة والفنيّة.

هذا الثراء المنهجي الذي ميّز أعمال المدرسة التاريخية التونسية في عقد الخمسينات وبداية الستينات يرجع أساسا الى تكوّنهم في الجامعات الفرنسيّة. نشير أيضا أنّ الميل النسبي للتاريخ السياسي في أعمال مؤرّخينا الثلاثة سببه تأثّرهم بالوضعيّة السياسيّة الجديدة الما بعد استعماريّة التي أصبحت تعيشها البلاد التونسية. كما أنّ تركيزهم على مراحل من تاريخ البلاد التونسية تتميّز أوّلا باستقلالها على السلطة العبّاسيّة وخاصّة بإشعاعها العلمي والسياسي والحضاري سببه "هاجس الوحدة الوطنية" خاصة في ضل "حرص الخطاب الرسمي على توطين الشعور بوجود أمّة تونسية لها خصائصها وميزاتها التاريخية والحضارية"[8]. فالدولة ساهمت وسهّلت عمل مؤرّخيها هنا، فالطالبي نجده في المقدّمة يشكر "السيّد محمود المسعدي كاتب الدولة التونسيّة للتربية القوميّة الذي أتاح لي بتعييني في باريس فرصة استكمال أبحاثي على أحسن وجه"[9].

استخدم الطالبي في أطروحته مصطلح "دولة أغلبيّة" رغم الاحترازات الابستيمولوجيّة والمنهجيّة الكبيرة التي تحيط باستخدام هذه الصفة، بل أنّ الكاتب ألحّ في أطروحته على البعد الاستقلالي لهذه الإمارة الأغلبيّة عن المركز العبّاسي، واستخدم في عدد من المواضع مصطلح "استقلال"[10]. الطالبي أيضا ضلّ وفيّا لموروث المدرسة التاريخية التونسيّة خاصّة بالتأثر بابن خلدون في تحليل سبب نشأة الدولة وانحدارها، أي الإشارة الى "الرسم الثلاثي" الذي "خصّص لاستعراض ولادة الدول والحضارات المرتبطة بها وازدهارها ثمّ ذبولها وموتها". وهذا التمشّي المنهجي وظّفه الكاتب في تحليل سيرورة الإمارة الأغلبيّة من النشأة للسقوط[11].

أمّا فرحات الدشراوي وهو الذي سوف يحمل مستقبلا صفة الأستاذ الجامعي ووزير الشؤون الاجتماعيّة في فترة حكم الحبيب بورقيبة فقد تمثّل

بطريقة إيجابية الوجود الفاطمي ونقد بشدّة الظلم الذي تعرّضت له هذه الفترة من قبل الدارسين حيث "إنّ هذا الموقف المعادي الذي اتخذه أصحابه في دراسات تدّعي أنها علميّة، يبدو بمثابة الانحياز الواضح الموروث عن تحيّز، بل قل نفور المصادر العربيّة القديمة تجاه الفاطميّين...ويعتبر تاريخ الفاطميين بالمغرب بعيدا كلّ البعد عن كونه تاريخا شاحبا"[12]. من خلال هذا المثال نجد القفزة المنهجيّة المهمّة التي حقّقتها المدرسة التاريخية التونسيّة خاصّة من التعامل بحرفيّة ومهنيّة وحياديّة مع الوثائق بدون تحيّزات مذهبية أو دينية، من دون إغفال تواجد ضلّ الدولة الوطنيّة الناشئة من خلال هذه الأعمال. وذلك ما نستشقّه من خلال سيرورة هذه الأعمال نفسها إذ نلاحظ تركيز هذه الأطروحات الثلاثة على الفترات التي استقلّ فيها الحكم المحلّي في افريقية عن المركز العبّاسي. فقد تطوّر تاريخ المغرب في العصر الوسيط من حكم العرب خلال الفترة الأغلبيّة مع وجود استقلال نسبي عن المركز، وقد تحدّث الطالبي عنهم، مرورا بالحكم الفاطمي وهو حكم مزج بين الفاطميين من أهل الشرق وبين "البربر" من أهل البلاد وتحدّث عنهم الدشراوي، ونجد ثالثا الفترة الزيريّة وهي فترة حكم محليّة بامتياز إذ حكم في هذه الفترة السكّان الأصليّين، أو بعبارة عبد الله العروي "المغرب يستعيد استقلاله"[13]. فبعد أن كان "المغاربة يعبرون عن ذاتهم تعبيرا عكسيا، أي على صورة الرفض" نجدهم في فترة حكم إفريقية "تحت حكم بني زيري" أي الدولة الصنهاجية، هم رأس الدولة وعمادها[14]. الهادي روجي ادريس من جهته أعجب بهذه الفترة التاريخية من البلاد التونسيّة وخاصّة دور أهل البلاد وعبّر عن هذه الفترة ب"الملحمة الصنهاجيّة"[15]، رغم احتياط الكاتب نفسه من الانبهار المفرط بالفترة التاريخيّة وعدم السقوط في "الإفراط بتمجيده"[16].

يمكن القول أنّ استقلال البلاد التونسية ساهم في إرساء مدرسة تاريخيّة جديدة وبعث منتج اسطوغرافي متميّز عن أسطوغرافيا المرحلة الأولى في القرن التاسع عشر(ابن أبي الضياف نموذجا) والتي تميّزت بالسرد التاريخي السياسي مع تجنّب التأويل والاستنتاج والمقارنة مع بروز "الوطن التونسي" كمركز للأحداث وخاصّة العائلة الحسينيّة، وأسطوغرافيا المرحلة الثانية مع بداية القرن العشرين (حسن حسني عبد الوهاب نموذجا) والتي إن حافظت على التسلسل السياسي الخطّي إلا أن عبد الوهاب أدمج البعد التأويلي والتفسيري وجعل كتابه "خلاصة تاريخ تونس" متمركزا حول البلاد التونسيّة لا حول العائلة الحاكمة، من هنا أعطى بعدا جديدا لمصطلح "قطر" الذي استخدمه ابن أبي الضيف في "إتحاف أهل الزمان في ملوك تونس وعهد الأمان". مع وصولنا للمرحلة الثالثة مباشرة بعد استقلال البلاد التونسيّة من الاستعمار الفرنسي نجد بزوغ مدرسة تاريخية تونسيّة تركّز على الاشعاعات الحضاريّة التي ميّزت تاريخ البلاد التونسيّة، خاصّة منذ بروز الحكم الذاتي للبلاد جغرافيا (الأغالبة) أو مذهبيّا(الفاطميين) أو سياسيّا عن طريق السكّان الأصليين (بني زيري الصنهاجيين). هذه الفترة تميّزت بصرامتها المنهجيّة وبتأثّرها بالمدرسة التاريخيّة الفرنسيّة وبتمحورها حول الدراسة التاريخيّة للمجال الجغرافي التونسي.. وهذا ما أكّده محمد لزهر الغربي

« Les premiers travaux d'histoire moderne ont été consacrés, au lendemain de l'indépendance, à l'espace tunisien »[17]

حيث تمحورت الكتابات التاريخية التونسية في تلك الفترة على الوحدة المجاليّة أو الترابيّة "Unité territorial "، مع التركيز على كيان سياسي (الأغالبة أو الفاطميين) واجتماعي (بني زيري، أو الشيعة) واضح ومحدّد، من هنا نحصل

كهيكلة ميّزت هذه الكتابات الأسطوغرافيّة على علاقة تشابك بين السكّان والفضاء والسلطة.

« Liens établis entre une population, un espace et un pouvoir »[18]

والدولة الوطنيّة كانت تحتاج لشرعنة وجودها على المستوى المعرفي والتاريخي والهويّاتي. من هذا المنطلق نفهم النقد الكبير الذي وجّهه الطالبي والدشراوي وادريس للمؤرّخين الفرنسيين الذي عالجوا تاريخ البلدان المغاربيّة قبل 1956 [19]. نفس هذا النقد وجّهه العروي للأسطوغرافيا الفرنسيّة في الفترة الاستعماريّة حيث أن "التأليف الاستعماري كان مليئا بالأحكام السلبية"[20].

والمؤرّخ في تونس كما أبرز ذلك عبد الحميد هنيّة ضلّ لفترة طويلة سجينا للدولة، فمنذ ابن أبي دينار في القرن السابع عشر الذي ساهم في إضفاء بعد مجالي للدولة وصولا الى مؤرّخي الفترة المعاصرة الذين انخرطوا في مشروع بناء الدولة ضلّ المؤرّخ في البلاد التونسيّة من أهمّ مشيّدي هذا الإطار المؤسّساتي المسمّى "دولة"[21]. كما أنّ رهان الدولة الوطنيّة في تونس شجّع أيضا على إبراز وإحياء شخصيّات تاريخيّة من ماضي البلاد مثل حنّبعل ويوغرطه وهاميلكار والكاهنة. فالكاهنة مثلا "المرأة البربريّة الشهيرة" صيغت حولها سرديّات تاريخيّة طويلة ومتشعّبة، بل تصل أحيانا الى درجة التخيّل على مدى عصور طويلة[22]. ودول الاستقلال استرجعت شخصيّة الكاهنة كرمز للهويّة الوطنيّة الرافضة للاستعمار، بل أنّ الدولة الوطنيّة التونسيّة استرجعت أيضا شخصيّة حنّبعل، حيث نجد أن الرئيس الحبيب بورقيبة دائما ما كان يعبّر عن إعجابه بهذه الشخصيّة، بل أُدرج حنّبعل في الكتب المدرسيّة بعد سنة 1956 كشخصيّة محوريّة في التاريخ التونسي[23]. وهذا ما أبرزه بوضوح الباحث عبد الناصر جماعي في أحد مقالاته إذ بيّن أنّ التاريخ التونسي لطالما تمّ تناوله

بالمقارنة مع تواريخ أخرى، والمؤثّر الأكبر في استرجاع هذه الإحالات التاريخيّة هي الدولة

« La plus puissante de toutes ces références était l'Etat » ، وفي هذا الإطار قامت الدولة الوطنيّة في شخص الحبيب بورقيبة ببناء "أمّة" "Nation" لها تاريخها الخاص. ومن أجل هذا الهدف دمج في الكتب المدرسيّة التونسيّة دراسة الحضارات القديمة مثل الحضارة "القبصيّة" والقرطاجنيّة والرومانيّة، وخاصّة إعطاء أهميّة للولايات التي برزت في الفترة الاسلاميّة المستقلّة عن المركز السياسي في الشرق مثل الأغالبة والفاطميين والزيريين والحفصيين والحسينيين، دون إغفال تسليط الضوء على شخصيّات مهمّة في تاريخ البلاد مثل علّيسة وحنّبعل وتاكفاريناس.

« On n'oublie pas de mettre en évidence des personnages tels que Elyssa, Hannibal, Tacfarinas, Jugurtha, saint Augustin, Kussayla, Al Kahina... »[24]

الدولة الوطنيّة التونسيّة منذ 1956 من خلال الكتاب المدرسي وظّفت التاريخ من أجل صياغة هويّة جماعيّة مرتكزة على مجموعة من الصور من الماضي بعضها متخيّل والآخر مُؤَوّل ونجد ما تمّ إخراجه عن سياقه التاريخي.

2- الكتابة التاريخيّة الجزائريّة والدولة الوطنيّة:

الاسطوغرافية الجزائريّة منذ 1962 لم تنئ بنفسها عن مفهوم الدولة الوطنيّة. وقد تجلّى ذلك في عدّة مجالات، حيث برزت العمليّة التأريخيّة كآليّة شرعنة و"أدلجة" انطلاقا من الكتاب المدرسي[25]. فالكتاب المدرسي في الجزائر يعطي "تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر حجما مبالغا فيه...هذا الإفراط يفيد

أهداف غرس الانتماء الجزائري لدى المتعلّم"، هذا مع "وجود خطاب تاريخي يستند الى معطيات مفصولة عن سياقاتها التاريخيّة" و"مقاربة سياسيّة لا تراعي الأحداث التاريخيّة"[26].

يمكن القول أنّ أزمة حرب التحرير الجزائريّة ألزمت علم التاريخ أن يكون لاحقا لساسة الدولة. الدولة في هذا الإطار تحاول قدر استطاعتها أن تصطنع تاريخا وطنيّا ومتخيّلا جماعيّا يساهم في بناء هذا الكيان الجديد بحكم أنّ "كلّ تاريخ وطني هو حدث مصطنع ولا يتردّد في اللجوء الى مقاربات ذات تاريخ غائي"، هنا حسن رمعون افترض أنّه "ربّما غرس كلّ من صدمة السيطرة الكولونياليّة والخطاب الأحادي الذي حمله إيديولوجيّو الاستعمار في المستعمر فكرة أنّ على ممارسته التأريخيّة أن تقلّد منوال الخصم ولو أدّى ذلك الى إنتاج خطاب مضاد تعرض به الآخر ليصبح هذا الخطاب بعد بناء الدولة الوطنيّة وسيلة لإضفاء الشرعيّة على السلطة السياسيّة"، من هنا تخلّى التاريخ بنسبة معيّنة عن وظيفته البيداغوجيّة والمعرفيّة وأصبح يدور في مدار السياسة، وقد تجلّى ذلك في أبرز تمظهراته حسب حسن رمعون في الكتاب المدرسي الجزائري[27]. أيضا على مستوى المنهج لا يمكن عزل مرحلة ما بعد الإستعمار عن السياسات التعليميّة والتربويّة، وعلاقة كلّ ذلك ببناء هويّة وطنيّة وذاكرة للدولة[28].

حسن رمعون ركّز كثيرا على دور مادّة التاريخ في تاريخ الجزائر المعاصر خاصّة من زاويته الأكاديميّة والبيداغوجيّة في بناء ذاكرة "الدولة الوطنيّة" سواء من ناحية الكتب المدرسيّة، أو التوظيف والاستغلال السياسي لهذا التاريخ، خاصّة الفترة الفاصلة بين سنتي 1954 و 1960[29].

نلاحظ أيضا من خلال المدرسة التاريخية الجزائريّة التي ارتبطت زمنيّا بالدولة الوطنيّة عن طريق مؤرّخين مثل مولود قايد (1916- 1998) ومحمد

الشريف الساحلي (1906- 1989) ومصطفى لشرف (1917- 2006) ومحفوظ قداش (1926- 2006) أنّ هذه الكتابات صبغت بالجوانب السياسيّة والتوتّرات والصراعات التي عاشها الجزائر المستعمر، بل أن عددا كبيرا منهم كان مناضلا الى جانب كونه مؤرّخا مثل محفوظ قدّاش. هذه المدرسة الوطنيّة تناولت أطروحاتها الجامعيّة أو أبحاثها الأكاديمية موضوعات مثل الحركة الوطنيّة الجزائريّة وأبعادها السياسية والاجتماعية، والوجود الأجنبي في الجزائر في الفترة الاستعمارية وإشكاليّات التعايش. أيضا المؤرّخ الجزائري الذي عايش الدولة الوطنيّة ركّز خاصّة على الفترة التاريخية الفاصلة بين سنتي 1954 و1962 وكلّ انعكاسات هذه الفترة اجتماعيّا واقتصاديا وسياسيّا على المجتمع الجزائري[30]، فقد أصبحت هذه الفترة التاريخيّة فترة أيقونية في الأسطوغرافيا الجزائريّة، بل أنّ المؤرّخين الجزائريّين المعاصرين والمهتمّين بتاريخ الزمن الراهن في الجزائر مازالت تشغلهم بشدّة حرب التحرير الجزائريّة[31].

هذا التمركز الشديد للأسطوغرافيا الجزائريّة حول الدولة الوطنيّة، وبروز حقل التاريخ السياسي كحقل ريادي بالمقارنة مع بقيّة الحقول الأخرى وتركيز المؤرّخين على مرحلة الثورة الجزائريّة خاصّة بين 1954 و1960 يعدّ من أهمّ أسبابه هو طبيعة الإنتاج التاريخي الاستعماري. فالمؤرّخين الفرنسيين خلال الفترة الاستعماريّة في الجزائر أنتجوا مجموعة من الأدبيّات تمحورت حول فرنسا مع تصوير الجزائر مجرّد تابع ولاحق. بل نحتت الأسطوغرافيا الفرنسيّة هويّة للجزائر ورسّخت ذاكرة متخيّلة عن هذا البلد، هذا الابتكار لهذه الهويّة كان مدعّما مؤسّساتيّا وأكاديميّا من قبل السلطة الفرنسيّة وجامعتها، أو من خلال البعثات العلميّة والاستكشافية أو جمعيّات علم الآثار، وهذا ما أكّده فؤاد سوفي من خلال مقال له بعنوان "تاريخ وذاكرة: الأسطوغرافيا الكولنياليّة". هنا يصبحالإنتاج التاريخي غرض سياسي بامتياز يتنقّل بين اختراع وتركيب للماضي

وتوظيفه لخدمة أهداف الحاضر بعيون تنظر للمستقبل. وقد نتج عن هذه السيرورة بروز رجال علم وسياسة مرموقين في صياغة تاريخ الجزائر مثل أندريان باربروغر "Andrien Berbrugger" (1801- 1869)، أو بروز مجلاّت علميّة مثل المجلّة الإفريقيّة "Revue Africain". هذا الاختراع المؤسّساتي والأكاديمي لتاريخ الجزائر من قبل الاحتلال الفرنسي وبالاشتراك مع علماء ومؤسّسات علميّة فرنسيّة ساهم بشدّة في بروز مدرسة جزائريّة تاريخيّة في مرحلة بناء الدولة الوطنيّة متمركزة بشدّة حول نفسها، وحول مفهوم الجزائر المستقلّ ومتوجّسة من الانتاجات الي أنتجها الآخر عن الجزائر[32]. وهذا أيضا ما جعل الفترة التاريخيّة الفاصلة بين سنتي 1954 و1962 تحتكر العدد الأكبر من بحوث مؤرّخي بداية تأسيس الدولة الوطنيّة لما تتميّز به هذه الفترة من مقارعة الاستعمار وهزيمته. من هذا المنطلق ساهمت الجامعة الجزائريّة ومن ضمنها قسم التاريخ منذ سنة 1962 في بناء "رهان مؤسّساتي" وإرادة سياسيّة في بناء دولة وطنيّة. من هنا تموضعت الجامعة الجزائريّة "في سياق موسوم بالسياسة الإراديّة للسلطة السياسيّة التي برزت مع الاستقلال"، وهذه السياسة "تجد مَعِينَها في الإيديولوجيا الشعبويّة التي ستكون المرجع الأساس للدولة المستقلّة بعدما طبعت طويلا الجناح الراديكالي للحركة الوطنيّة"[3433]. إذا فقد ساهم الاستعمار الفرنسي، سواء الاقتصادي منه أو السياسي والثقافي، بطريقة أو بأخرى في "نشأة الوعي الوطني"[35]. هذه العوامل ساهمت في جعل "حرب التحرير (1954- 1962) في الجزائر حدثا مؤسّسا للدولة الوطنيّة، إنّه يشغل مكانة خاصّة في إعداد التاريخ الوطني وتعليمه"، وحرب التحرير تعتبر "الحدث المهمّ في بناء الوعي الوطني في الجزائر، وتعتبر أيضا المهمّ والمؤسّس للدولة الوطنيّة التي انبثقت مع استقلال البلاد". وقد ساهمت "مادّة التاريخ" في ترسيخ هذه الفكرة عبر مأسستها أكاديميّا من خلال تدريسها في التعليم الابتدائي والثانوي[36].

الخاتمة:

نستنتج في الأخير أنّ العمليّة التأريخيّة في تونس والجزائر بين السنتي 1956 و1962 تشابكت بقوّة مع ظروف بناء الدولة الوطنيّة، مع ملاحظة أنّ الجزائر كانت أكثر تركزا من تونس حول التاريخ السياسي من خلال أيقنة فترة حرب التحرير (1954- 1962).

وظّف التاريخ سياسيّا من خلال الأكاديميا بواسطة الأطروحات الأولى المنجزة من طرف باحثين محليّين مثل الطالبي والدشراوي والهادي روجي ادريس، وقد تبلور هذا التوظيف خاصّة من خلال إبراز الإرادة الاستقلالية التي ميّزت تاريخ البلاد التونسيّة عن المشرق منذ الفترة الأغلبيّة. أيضا تمّ إخضاع الكتاب المدرسي في تونس والجزائر لإرادة الدولة الوطنيّة، وتمّ تصميمه لغايات سياسيّة بحتة.

نستنتج أيضا أنّ الأسطوغرافيا الجزائريّة وخاصّة التونسيّة شهدت تقدّما على مستوى منهج الكتابة التاريخيّة بالمقارنة مع المرحلة الأولى والمرحلة الثانية من الكتابة التاريخية العربية. فلم تكتفي هذه الكتابات الحديثة بالسرد التاريخي بل انتقلت للتأويل والاستنتاج مع دراسة تاريخ المؤسّسات والتاريخ الثقافي والاجتماعي (الهادي روجي ادريس مثلا). في المقابل قامت بتنويع مدوناتها المصدريّة (أدب نوازل، أدب مناقب وغيره) بالاعتماد على اطلاع واسع على اللغات الأجنبيّة.

لكن نلاحظ بعض الاختلافات بين التجربة التأريخيّة الجزائرية والتجربة التأريخيّة التونسيّة. فالأسطوغرافية الجزائريّة تمحورت بشدّة حول التاريخ السياسي وخاصّة فترة حرب التحرير. عكس التونسيّة التي بدأت فعليّا من خلال دراسة العصر الوسيط (الأغالبة، الفاطميين...)، ولا يمكن أن نفصل رهان

المدرسة التاريخيّة التونسيّة حين دراستها هذه الدولة المستقلّة عن المركز العبّاسي في المشرقبمعزل عن رهان الدولة الوطنيّة بقيادة بورقيبة في إيجاد شرعيّة لنفسها، خاصّة في ضلّ اشتداد الصراع البورقيبي الناصري بين من يدعوا للقوميّة والعروبة ومن ينادي للقطريّة الضيّقة و"التونسة" أو "الهويّة التونسيّة".

نقول في الأخير أنّه لا يمكن أن نعزل ظروف نشأة مدرسة وطنيّة تاريخيّة في تونس والجزائر عن التجاذبات والظرفيّات السياسيّة التي عاشها المغرب العربي في الخمسينات والستينات من القرن العشرين.

الهوامش:

[1] بيندكت أندرسن، **الجماعات المتخيّلة: تأمّلات في أصل القوميّة وانتشارها**، ترجمة: ثائر ديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2011

[2] Alain Guery, « L'historien, la crise et l'État », *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, Année 1997 Volume 52 Numéro 2 pp. 233-256, in, persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1997_num_52_2_279564

[3] Werner, Karl-Ferdinand, « L'historien et la notion d'État »,*Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, Année 1992 Volume 136 Numéro 4 pp. 709-721, in, persee.fr/doc/crai_0065-0536_1992_num_136_4_15149

[4] الهادي روجي اديس، **الدولة الصنهاجيّة: تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 الى القرن 12 ميلادي**، ترجمة: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، 1992، 2 أجزاء

[5] محمد الطالبي، الدولة الأغلبيّة. **التاريخ السياسي (184- 296/ 800- 909)**، ترجمة: المنجي الصيّادي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1995، ص. 13

[6] نفس المرجع

[7] فرحات الدشراوي، **الخلافة الفاطميّة بالمغرب (296- 365/ 909/ 975): التاريخ السياسي والمؤسّسات**، ترجمة: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، 1994

[8] نور الدين الدقّي، **تونس من الإيالة الى الجمهوريّة (1814- 2014)**، المنشورات الجامعيّة بمنّوبة، 2016، ص. 220

[9] محمد الطالبي، ص. 11

[10] محمد الطالبي، ص. 42

[11] محمد الطالبي، ص. 789 وما بعدها

[12] فرحات الدشراوي، ص. 623 -624

[13] عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، (3 أجزاء)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، 2016، ص. 137 وما بعدها

[14] عبد الله العروي، ص. 237 وما بعدها.

[15] الهادي روجي ادريس، الجزء الثاني، ص. 445

[16] الهادي روجي ادريس، الجزء الثاني، ص. 451

[17] *Mohamed LAZHAR GHARBI,* « L'historiographie tunisienne de la période moderne et contemporaine et son espace », *Les Ouvrages Du CRASC,Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, in, crasc.dz/ouvrages/index.php/fr/accueil/30-savoirs-historiques-au-maghreb-constructions-et-usages/90-l'historiographie-tunisienne-de-la-période-moderne-et-contemporaine-et-son-espace*

[18] ibid

[19] فرحات الدشراوي، ص.15 وما بعدها

[20] عبد الله العروي، ص. 17

[21] Abdelhamid Henia, « Quand l'historiographie tunisienne se fait prisonnière de l'État », in, *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages*, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2006, p. 97- 105

[22] Abdelmajid Hannoum, « Historiographie et légende au Maghreb : la Kâhina ou la production d'une mémoire », *Annales. Histoire, Sciences Sociales*, Année 1999 Volume 54 Numéro 3 pp. 667-686

[23] Zytnicki Colette. Driss Abbassi, « Entre Bourguiba et Hannibal, Identité tunisienne et histoire depuis l'indépendance ». In : *Outremers*, tome 94, n°356-357, 2e semestre 2007. La colonisation culturelle dans l'Empire français. pp. 336-338 ; http://www.persee.fr/doc/outre_1631-0438_2007_num_94_356_4300_t1_0336_0000_2

[24] Abdennaceur Jemaï, « Les élèves, l'histoire et l'identité acceptée. Quête identitaire et visées institutionnelles : cas de la Tunisie », *Carrefours de l'éducation*, 2005/2 (n° 20), p. 159-174, in, cairn.info/revue-carrefours-de-l-education-2005-2-page-159.htm

[25] محمد غانم (تحت إشراف)، **المعرفي والإيديولوجي في الكتاب المدرسي: العلوم اللاإنسانية في التعليم الثانوي**، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعيّة والثقافيّة، الجزائر، 2012

[26] محمد غالم، "التاريخ في الثانوي: الكتاب المدرسي"، ضمن: محمد غانم(تحت إشراف)، **المعرفي والإيديولوجي في الكتاب المدرسي: العلوم الأنسانيّة في التعليم الثانوي**، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعيّة والثقافيّة، الجزائر، 2012، ص. 107- 131

[27] حسن رمعون، "التاريخ الوطني والممارسات السياسيّة والإنتمائيّة (الهويّاتيّة): قراءة في الكتب الرسميّة المتداولة في المدرسة الجزائريّة"، **مجلّة إنسانيّات**، الجزائر، العدد 3، 1998، عدد خاص بعنوان: الذاكرة والتاريخ، ص.7- 33

[28]**Nouria** Benghabrit Remaoun و **Hassan** Remaoun, « Ecole, colonisation et Post-indépendance », *Insaniyat / إنسانيات*, 6 | 1998, 121-129

[29] Hsaan ramouan, L'Etat national et sa mémoire : le paradigme histoire, in, L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en sciences sociales et humaines, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2008, p. 149- 159

[30] Fouad SOUFI, « Mahfoud Kaddache, un historien à l'Université d'Alger », in, Ouanassa SIARI TENGOUR- Aissa KADRI, *Générations engagées et mouvements nationaux. Le XXème siècle au Maghreb*, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2012, p. 23- 30

[31] Ouannassa Siari Tengour, « La guerre d'Algérie à l'épreuve de l'écrit », in, *Histoire contemporaine de l'Algérie. Nouveaux objets*, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2010, p. 167- 180

[32]Fouad Soufi, Histoire et mémoire : « L'historiographie coloniale », *Insaniyat*, N 3, 1998, p. 53-69

[33] حسن رمعون، "الجامعة نتاجا للتاريخ ورهانا مؤسّساتيّا: حالة الجزائر والعالم العربي"، **إنسانيّات**، عدد 6، 1998، عدد خاص بعنوان: المدرسة: مقاربات متعدّدة، ص. 51- 63

[35] عبد الله العروي، ص. 600 وما بعدها

[36] **حسن رمعون**، « تدريس حرب التحرير (1954-1962)، ضمن كتب التاريخ القديمة و الجديدة في المدرسة الجزائرية »*Insaniyat/إنسانيات*,عدد 39- 40، 2008، ص.51- 71

الكاتب: أ . د. بلعربي خالد
قسم التاريخ – جامعة سيدي بلعباس

عنوان المقال: الشيخ محمد بن يوسف السنوسي
صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان-

البريد الالكتروني: belarbi.tlemcen@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/02/04 تاريخ القبول: 2019/03/02 تاريخ النشر: 2019/03/28

الشيخ محمد بن يوسف السنوسي صورة من واقع المشهد الثقافي في حاضرة تلمسان

الملخص بالعربية:

يحاول هذا المقال التعرض لشخصية علمية بارزة عاشت في العهد الزياني خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، هذه الشخصية تتمثل في الفقيه العالم الشيخ محمد بن يوسف التلمساني الذي رسم، معالم المشهد الثقافي لحاضرة تلمسان كغيره من العلماء التلمسانيين.

خلال هذه الفترة التاريخية أين بلغ الحراك الثقافي أوجه، سنتعرض إلى هذه الشخصية العلمية من حيث نشأته، و تحصيله العلم، و إفادته العلم، ثم أهم المؤلفات التي تركها و التي تعبر عن رغم غزارة علمه وسعة اطلاعه .

كلمات مفتاحية: محمد بن يوسف السنوسي- تلمسان-

Abstract :

This article attempts to expose a prominent scientific figure who lived in the erea of Zianide during the ninth century AH fifteenth century AD, this personality is represented by the world jurist Abu Abbas Ahmed bin Mohamed Ben Zakri Tlemceni, , like other Tlemcenian scientists during this historical period where the cultural mobility reached, we will look at these.

The scientific personality in terms of its origin, the collection of science, and its testimony science, and then the most important works that Leaving them, which express despite the abundance of knowledge

مقدمة:

شهدت تلمسان في عهد الزيانيين حضورا متزايدا في مجالي العلم، فقد نبغ فيها و أحوازها عدد من الأعلام المرموقين، لعل من أبرزهم فيمن حاز قصب السبق في العلم و المعرفة، الفقيه العالم المتفنن الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي.

إن تسليط الضوء علة هذه الشخصية التلمسانية العريقة ليس الغرض منه إخراجها من طي النسيان و التنويه بتراثها المخطوط و المطبوع فحسب مع أنه في حد ذاته مطلب ملح و مشروع،بل إن ذلك من شأنه-أيضا-أن يمدنا بالمعطيات الضرورية التي نكون في غنى عنها إذا مارمنا رسم معالم المشهد الثقافي لحاضرة تلمسان في عصر بلغ الحراك الثقافي أوجه، و أضحى الاستقطاب العلمي ظاهرة العصر.

سنحاول في هذا البحث رصد مختلف أطوار هذه الشخصية العلمية ، و ما كان له أثر في مجتمعه و ما قدمه من إضافة إلى رصيد المعرفة الإسلامية في عصره .الحياة الثقافية بتلمسان في عصر الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، و التعرف على البيئة الفكرية التي عاشت فيها هذه الشخصية العلمية، و بالتالي إدراك أهمية مساهمة عصر السنوسي في تطور الثقافة العربية الإسلامية في بلادنا، و دور الشيخ السنوسي في تلك المساهمة.

لقد دأب بعض المستشرقين : و من تأثر بهم من الباحثين المسلمين في الحكم على الإنتاج الثقافي في بلادنا دون القيام بدراسة تمحيصية له، ذاهبين إلى أنه دخل عصر الانحطاط و الجمود الفكري منذ سقوط الدولة الموحدية، و حجتهم في ذلك تدهور الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة آنذاك، غير أنه إذا عدنا إلى كتب التراجم و غيرها من الكتب التي ألفت خلال هذا العصر لا نجد مبررا لهذه الاتهامات التي وجهها هؤلاء المستشرقين، فالذي نلاحظه من تطور فكري بعد هذه الفترة يدحض كل تلك الآراء، و ما الدراسات التي قام عدة باحثين في هذا المجال إلاّ دليل قاطع على معارضتهم لهذه المزاعم، انطلاقا من أن الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي عامة ظلت تزدهر و تنمو حتى بعد سقوط دولة الموحدين، و إذا أخذنا المغرب الأوسط الذي كانت تحكمه الدولة الزيانية و عاصمته تلمسان، فإن الحركية الثقافية به كانت نشيطة و فعالة، و قد عاش السنوسي في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي أثناء حكم بني زيان لبلاد المغرب الأوسط.

1-الحركة العلمية بتلمسان في عصر السنوسي:

إن الذي نريد التأكيد عليه هو أن الحياة السياسية القلقة و المتدهورة التي عاشتها الدولة الزيانية خلال هذه الفترة نتيجة سلطة بعض الأمراء العرب و نفوذهم داخل الدولة، و التدخل الحفصي و المريني في شؤون العرش الزياني، لم تؤثر بشكل كبير على الحياة الفكرية فيه، أو تعرقل نموها إذ لم يمنع ذلك من تطور العلوم و ظهور الكثير من فطاحل العلماء خلال هذه الفترة [1]

و يلاحظ أن الكثير من الأحداث السياسية ساهمت في دفع الحركة الفكرية و إثرائها أثناء عصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي و من أمثلة ذلك أن عهد أبو العباس أحمد المعتصم بن أبي حمو الثاني، الملقب بالعاقل (834 – 866 هـ / 1431 – 1462م) و الذي تعرض إلى محاولات إنقلابية و ثورات من قبل منافسيه من البيت الزياني. لم ينسيه ذلك تشجيع العلم و العلماء و هي الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها أبو حمو موسى الزياني الثاني، كما تشير إلى ذلك بعض النصوص التاريخية، كما أن عهد أبو عبد الله محمد الرابع الثاني الذي حكم دولة بني زيان بتلمسان من سنة 873 – 910هـ/ 1408 – 1505م الذي شهد حالة اللاإستقرار نتيجة التدخل الحفصي في شؤون دولته بقيادة أبو عمرو الحفصي. لم يمنع الحركة الفكرية من التطور، فقد استطاع خلال هذه الفترة الإمام الشيخ السنوسي من تأليف "العقيدة الكبرى" في عشرة أوراق و سماها "**عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل و ربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدئ عنيد**" تعرض فيها السنوسي لأهم عقائد الأشعرية ثم قام بشرحها في كتاب سماه "عمدة أهل التوفيق و التسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد [2]، و العقيدة الوسطى " و هي دون الكبرى، و شرحها في مختصر ثم صنفها سنة 875هـ / 1470 م و هي في ثلاثة عشر كراسا. كما ألف في هذه الفترة رسالة في التصوف رد فيها على أبي الحسن الصغير، و دافع فيها عن فضل التصوف و رجاله، و فرغ منها في جمادى الثانية سنة 885هـ، و هي تعتبر من بين أهم مؤلفاته في التصوف، توجد بالخزانة العامة بالرباط نسخة مخطوطة لهذه الرسالة تحت رقم 1845، و لقد نشرها الأستاذ جمال الدين بوكلي حسن كاملة كإحدى ملاحق رسالته الموسومة بالإمام السنوسي و علم التوحيد ما بين ص 401 و 438 و عنوان هذه الرسالة " نصرة الفقير في الردّ على أبي الحسن الصغير" و هي توجد في ستة فصول بالإضافة إلى

مقدمة و خاتمة. إن هذا الإنتاج الفكري يكشف أن المستوى الثقافي الذي بلغة السنوسي كان كبيرا، كما يكشف عن سعة انتشار أفكاره من خلال وجود هذا الإنتاج في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، كما يبيّن أن أفكار السنوسي ظلت حيّة لدى الأجيال التي جاءت من بعده و بالتالي فإنه يمكن القول أن الدولة الزيانية التي كانت عاصمتها تلمسان ظلت محافظة على مكانتها العلمية تعيش ازدهارا ثقافيا حتى في أحلك الظروف السياسة التي مرت بها. لقد ظلت تلمسان خلال هذه الفترة تعرف تقدما في سائر المجالات الثقافية، و كان من عوامل ذلك ما أبداه سلاطين خلال هذه الفترة أو سابقتها من تشجيعهم للعلم و العلماء، و حرصهم على توفير شروط النمو الثقافي و جلب أكبر العلماء و أشهرهم للتدريس بتلمسان، و كذا عنايتهم بإنشاء المؤسسات التعليمية [3]، فقد بنى السلطان أبو العباس أحمد المعتصم مدرسة جديدة بزاوية الشيخ الصالح الحسن بن مخلوف أبركان على غرار أسلافه من سلاطين بني زيان الذين سبقوه في هذا المجال. و الظاهر أن سلاطين بني زيان كغيرهم من ملوك الدول الإسلامية كانوا يهدفون من وراء إنشاء هذه المدارس في المقام الأول إلى نشر التعليم و الثقافة من جهة، و توجيه الرعية من جهة أخرى بما يخدم مصلحة الدولة و المذهب المالكي، و البحث الاستقرار و السكينة بين الرعية. و لهذا كان يشرفون على المدارس إشرافا مباشرا و يؤكدون على تدريس الفقه و الأصول المستمدة من أفكار المذهب المالكي و آرائه و في الحقيقة فإن إنشاء المدرسة في حد ذاته يعد تطورا في الحياة الثقافية و التعليمية، كما كان لها دورها في تنشيط الدراسات الفقهية و الأدبية.

كما كان هذا السلطان يجالس العلماء و أهل الفضل و الصلاح و يشجعهم على التصنيف و يحضر دروسهم و محاضرتهم [4]، كما كثير في عهده الإقبال على طلب العلم و الرحلة في سبيله، و على هذا ظلت سوق الثقافة الإسلامية خلال القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي رائجة بتلمسان، و أمكن لهذه الثقافة أن تتطور و تتقدم بدون أن تتأثر بالظروف السياسية التي مرت بها الدولة الزيانية آنذاك، و يبدو أن هذه الإنجازات لم تأت صدفة أو لمجرد رغبة الملوك في تخليد ذكراهم بل تمت إنجازات مماثلة خلال تلك الفترة في تونس و فاس اقتضاها النمو الثقافي الذي شمل أقطار المغرب [5]، مما يجعلنا نعتقد أن بلاد المغرب كانت كلها، آنذاك تعرف نموا ثقافيا مثلما كان الأمر في أقطار أخرى بأوروبا، و

بخاصة إيطاليا، إذ فليس من الغريب أن يشهد القرن التاسع و الذي عاش فيه السنوسي نبوغ عدد كبير من رجال العلم و الأدب و بروز إنتاج ثقافي غزير يخص سائر المجالات.

و من العلماء الذين كان لهم دور كبير في دفع الحركة الفكرية و العلمية عصر الشيخ السنوسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الحفيذ (ت 842هـ/ 1438م) الذي أخذ العلم على يد سعيد العقباني و الشريف التلمساني و المصمودي، و أبي الحسن الأشهب، كما درس على يد بعض من علماء المشرق و المغرب و قد اشتهر بعلمه و فضله في الأمصار التي زارها. و قد ألف عشرات الكتب في مختلف العلوم. و منهم كذلك أبو عبد الله الحباك المتوفي سنة 867هـ، مؤلف شرح تلخيص ابن البناء، و أرجوزة بغية الطالب في علم الأسطرلاب، و شرح التلمسانية في الفرائض[6]، و منهم محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن الإمام التلمساني المتوفي سنة (845هـ / 1441م) الذي كان له قدم في البيان و التصوف و الأدب و الشعر و الطب[7]، و كذلك قاسم بن سعيد العقباني (854هـ/1450م) الذي حضر المجالس العلمية التي كان يديرها الشيخ العالم ابن حجر بمصر و القاهرة[8] و منهم محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الشهير بالحفيذ (842 / 1438م) الذي يعد من أكبر فقهاء المرازقة، و ملك ناصية البيان و اللغة، كذلك كان ملما بالتصوف[9]، و قد عرف عصر السنوسي ظهور المضفات اللغوية و الأدبية، فقد اهتم الشيخ أبو عبد الله محمد الشريف (ت 847 / 1143م) إمام جامع الخراطين بتلمسان بتصنيف مختصرا في شرح التسهيل، تقييدا سماه "الثاقب في لغة ابن الحاجب"[10] كما ظهر في هذا العصر من أبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي القلصادي نزيل تلمسان، كان نابعا في الرياضيات والفرائض و غيرها من العلوم من تأليفه كشف الحجاب عن قانون الحساب، و شرح ابن ياسمين في الجبر و المقابلة و مختصره، و شرح فرائض مختصر خليل[11] كل هذا يدل على أن إزدهار الحركة العلمية خلال عصر السنوسي كان شاملا عاما، و متوازنا، و لم يكن في اتجاه ديني محض على حساب العلوم العقلية، فكان أبو عبد الله الشريف، و سعيد العقباني، و ابن مرزوق الحفيذ، و السنوسي نموذجا للعالم الكامل المتزن. و كانت الحياة الفكرية بتلمسان في القرن التاسع الهجري قد بلغت درجة لم تبلغها قط من قبل، و

أصبحت تضيئ رحاب المغرب الأوسط بنور المعرفة، فقامت تلمسان بدور حاسم في تقدم الحضارة المغربية الإسلامية، و كانت مركز إشعاع فكري هام.

2- مولده و نشأته:

هو الإمام محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، و المكنى بأبي عبد الله ، و لقب شهرته السنوسي ،عرف بذلك نسبة إلى قبيلة بني سنوس بتلمسان .

وبالنسبة لمولده فإن كتب التراجم التي ترجمت له لم تتطرق إلى تاريخ ولادته بالضبط فالبعض يرجعها سنة832هـ/1428م، أما البعض الآخر و من بينهم التنبكتي أحمد بابا فيرجعها إلى مابعد سنة 830هـ/1426م[12] .

تربى الإمام السنوسي في أسرة دين و صلاح فقد تميز أبوه بالزهد و الصلاح في الدنيا و اشتغاله بتعليم القرآن الكريم، و كان أخوه لأمه"علي التالوتي الأنصاري"(ت895هـ)عالما و محققا وحافظا.

3-تحصيله للعلم:

يعد السنوسي ضمن الفئة المتأخرة من علماء تلمسان الكبار، إذ نهل من الينابيع الأخيرة التي زادت في إرساء قواعد المعرفة في بلده، أي ممن اخذوا معارفهم من عمالقة العصر الذهبي لتلمسان :علماء القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)هذا العصر الذي يعد أحد أزهى عصور الثقافة الإسلامية في تاريخ المغرب الأوسط الزياني إذ تنافس فيه أساتذة العلم و المعرفة الذين أ سهموا في رسم معالم مشهد ثقافي فكري اتسم بالثراء و التنوع الفكري و أصالة العطاء العلمي و من تم تأتى للشيخ محمد بن يوسف التلمساني أن ينهل من معين العلوم و المعارف التي كان يزخر بها محيطه و التيكان يقوم على بثها و تلقينها جهابذة فقهاء العصر و فطاحلة علمائه[13] .

و يبدو أن حرصه على لقاء شيوخ العلم و الاستكثار من الأخذ عنهم كان من دواعي مباهاته بما تهيأله-مما لم يتهيأ لكثير من أترابه من علو الإسناد و اتساع الرواية و لم يتردد كتاب التراجم في إثبات أنه"لقي كثيرا من أهل العلم و الدين و الزهد و الورع أخذ عنهم العلم ببلده من بينهم:

- -والده أبو يعقوب بن عمر بن شعيب السنوسي:الذي حفظ ابنه محمد السنوسي القرآن الكريم.

- الشيخ نصر الزواوي:الذي يعد من أكابر تلامذة"ابن مرزوق الحفيد و قد تلقى عليه"السنوسي" الكثير من فنون العربية كما لازمه مدة طويلة.
- -أبو الحسن علي بن محمد التالوتي الأنصاري(ت895ه) و هو أخو السنوسي لأمه و قد أخذ عنه السنوسي"رسالة ابن أبي زيد القيرواني(ت389ه) ويعد التالوتي أستاذا و مؤدبا لأخيه محمد و زميلا له في طلب العلم و تتلمذ معا على يد الشيخ"عبد الرحمن الثعالبي"
- -أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي:أخذ عليه السنوسي"صحيح البخاري" و"مسلم" و غيرهما من كتب الحديث.
- -الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن تومرت الصنهاجي:أخذ عنه السنوسي جملة من علم الحساب و الفرائض.
- -ابراهيم التازي:أخذ عنه في التصوف حيث ألبسه الخرقة و حدثه بها عن شيوخه[14].

4-إفادته العلم:

كان الجلوس للتدريس و القيام على بث العلم من أبرز ما يميز الشيوخ المتمرسين و يعلو بهم فوق أترابهم و كانت حلق نبهاء المشايخ تغص بطلبة العلم الذين يؤمونها من جميع البلاد و مختلف الأقطار.

ويكون ما تمتع به الفقيه التلمساني من مؤهلات علمية قد هيأه للاضطلاع بمهمة التدريس،فقد كان في بلده متصديا لإفادة العلم، و على ما يمكن أن يلتمح من أنه لازم بلده بعد أوان الطلب،فلم يسجل له حضور مشهود خارجها، أو استجازوه-على النأي-فيما وضع من كتب .

ومع ذلك لا نكاد نقف إلا على عدد محدود من تلاميذه، عنيت كتب التراجم بتقييد أسمائهم و هم على مايلي:

- -عمر بن عمر الملالي: و هو تلميذ السنوسي لازمه مدة خمسة و ثلاثين سنة و أخذ عنه جل العلوم و قد قام الملالي بتأليف كتاب في مناقب شيخه سماه"المواهب القدسية في المناقب السنوسية" الذي تطرق فيه إلى حياة شيخه بالتفصيل.
- -أحمد زرق البرنسي(ت899ه):تتلمذ على يد السنوسي في علم العقائد و التصوف.
- -ابن صعد التلمساني(ت901ه)

- -أحمد بن عيسى الورنيدي(من أهل القرن التاسع الهجري/15م كان يدرس عند السنوسي علم العقائد.
- -أحمد بن الحاج اليبدري(ت930ه):الذي كان إماما فاضلا ملما بفنون العلوم.
- -محمد بن محمد بن العباس التلمساني:(توفي بعد سنة 920ه)
- ابن جيدة المديوني الوهراني (ت951ه): أخذ عنه السنوسي مقدمته الصغرى[15].
- إن هؤلاء التلاميذ الذين تتلمذوا على يد "السنوسي" خاصة في علم التوحيد الذي كان من عظيم اهتماماته و فرط عنايته هم الذين سينشرون علمه،في هذا العلم في العهد الذي يلي الشيخ السنوسي.

هذا، ونظرا لارتوائه من العنصر الأصيل حلاه ابن مريم صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "بوحيد عصره، إنه استوعب جيدا كل علوم عصره وفهم بعمق مقاصد العلماء السابقين وحصل على رصيد معرفي عظيم مكنه فيما بعد من احتلال الريادة العلمية في عصره. إن علماء عصره كانوا متمكنين من علم أو علمين، وكان هو صاحب كفاءات في كل مجالات المعرفة، الأمر الذي جعل معارضيه أنفسهم يعترفون له بسبقه، فهو في آن واحد الفقيه الفذ والمفتي اليقظ والمتكلم المحنك زعيم علم التوحيد، والرياضي شارح ابن الياسمين والفرضي والفلكي الناظم والطبيب الحكيم والصوفي المناضل. ولإبراز أثر السنوسي في التيار الفكري بالمغرب أولا ثم في العالم ثانيا، فقد كان من مبررات تأليف ابن مريم لكتابه "البستان" ما جاء في مقدمته على لسان السنوسي، ونقتطف منه فقرة: **"ليكن اعتناؤك يا أخي بمن تأخر من الصالحين وخصوصا من أهل بلدك حلولا بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم وذلك لأوجه، أحدها أن الغالب فيمن تقدم إمكان الاستغناء عن التعريف بأحوالهم بتأليف من مضى، والثاني أن نشاط النفوس للخير والاقتداء يذكر محاسن المعاصرين لها**

أو من قرب من المعاصرين أكثر من نشاطها بذكر من بعد زمانه لأن منافسة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة...»[16] إنه ما من شك أن مضمون الكتاب موجز في هذه الفقرة. فالذي يجب ذكره أن إدراكه الفائق للحالة المزرية التي تعيشها الأمة الإسلامية مكنه من التحدي، لا بزعامة المشيخة الدينية ولا بزعامة المشيخة السياسية، بل بزعامة تربوية، إنه تيقن بأن أحسن طريق للنهوض بالأمة لا يمكن تحقيقه إلا بسياسة تربوية رشيدة

رافضة للتقليد وعازمة على إحياء الاجتهاد ليس الديني فقط، بل في جميع ميادين الحياة، إنه كان يرمي إلى إعادة بناء الفكر الذي يمكن المرء المؤمن من مسايرة التطور الحضاري ولو بتعصب أبدا الى الرجوع فترة الخلفاء الراشدين التي تعتبر من العديد من المفكرين أنها الأصل في العودة الى صفاء العقيدة، وعلى هذا الأساس أعاد النظر في التأليف حول العقيدة فقدم للأمة خمس مستويات حسب فئات المجتمع، وكل واحدة منها أردفها بشرح. هذا المجهود الفكري جعل علماء المشرق يعترفون بسبقه في ميدان علم التوحيد حتى سموا علم التوحيد بعلم المغاربة، إنه يعد بحق المصلح المجدد وهو أيضا آخر المجتهدين الأشاعرة بالغرب الإسلامي.

5-مؤلفاته:

ذاعت للفقيه الشيخ محمد بن يوسف التلمساني شهرة واسعة في مجال الكتابة و التأليف بالنظر إلى ما وضعه من مؤلفات كثيرة،حرص على إثبات عناوينها:

لقد ترك الإمام السنوسي جملة من الكتب ناهز عددها الخمسين؛ في العقيدة والتفسير والحديث واللغة والمنطق والفلك والطبّ، وفي غير ذلك من جوانب الثقافة الإسلامية، ممّا يدلّ على رسوخ قدمه في العلم والاجتهاد، نذكر نماذج منها

*<u>في العقيدة</u>

"السنوسية الكبرى في العقائد، وشرحها"، و"السنوسية الوسطى وشرحها"، و"السنوسية الصغرى (أم البراهين) وشرحها"، وشرح نظم أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري بعنوان" المنهاج السديد في شرح كفاية المريد".

*<u>في التفسير وعلوم القرآن</u>

تفسير الفاتحة وفواتح البقرة

-مختصر حواشي التفتازاني على الكشاف.

*<u>في الحديث وعلومه</u>

مختصر شرح صحيح مسلم للأبي المسمى بإكمال الإكمال -

شرح صحيح البخاري -

شرح مشكلات البخاري. -

*<u>في السيرة النبوية</u>

مختصر الروض الأنف للسهيلي

في الفقه وأصوله

مختصر في أصول الفقه -

شرح الوغليسة المسماة بالجامع في الأحكام الفقهية -

شرح جملة من المدونة -

تعليق على مختصر ابن الحاجب -

***في علم اللغة**

شرح الآجرومية

في المنطق

مختصر في المنطق

شرح مختصر ابن عرفة في المنطق -

***في الطب**

(شرح أرجوزة ابن سينا في الطب (مخطوط

(في فنون أخرى: شرح ابن اليسمين في الجبر والمقابلة (مخطوط

6-السنوسي في عيون العلماء:

صاحبنا الفقيه العالم العلَم صدر المدرسين " :(قال عنه الونشريسي في المعيار (250/1 وحجة المتكلمين "وعمدة المحققين ونخبة أكابر المؤلّفين، **الولي الصالح الخاشع المتبرَّك به، سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي".**[17]

وقال محمد بن شنب في تحقيقه على دائرة المعارف (999/2):" **يجمع علماء المغرب على الثناء على السنوسي، فقد كان في نظرهم مُحي الإسلام في مستهل القرن التاسع الهجري، ويشيدون بعلمه خاصة تفقهه في علم الكلام كما ينوهون بخشيته لله وغيرته"**

"وقال ابن عساكر في كتابه دوحة الناشر" ما رأيت من غربل هذا العلم مثل هذا الرّجل".

7-تصوفه:

لابد من الإشارة في البدء إلى أنّ الإمام السنوسي، كما يصفه تلامذته وعارفوه، كان حسن الخلق متواضعاً، رقيق القلب، رحيماً، مبتسما في وجه من لقيه، ليّنا هيّنا حتى في مشيته، مشفقا على الخلق، يمشي في قضاء حوائجهم عند السلطان، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر. يقول عنه تلميذه الملّالي: " **ما رأيت أحسن خلقا منه، ولا أوسع صدرا، ولا أكرم نفسا وأعطف قلباً، ولا أحفظ عهدا منه".**

أمّا تصوّفه فلم يكن تصوّف تقليد ، لا في تصوفه ولا في ممارسته؛ بل كان له آراء ومواقف ترقى به إلى مرتبة المجدد في علم التصوف، وقد كان يحارب المبتدعة الذي تلبّسوا بالتصوّف.

ومن المصطلحات التي سعى الإمام السنوسي في تقويمها مصطلح الولاية والوليّ حيث نقل عن بعضهم- مقرا إيّاه- في شرحه على الوسطى وغيره، ما ملخّصه

أحدها: أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرّق بين الخلق والخالق وبين النبيّ والمدّعي

الثّاني: أن يكون عالما بأحكام الشريعة نقلاً وفهما ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد.

الثالث: هو أن يتخلق بالخلق المحمود الّذي يدلّ عليه العقل والشّرع.

الرّابع: أن يلازمه الخوف أبدا سرمدا ولا يجد لطمأنينة النفس سبيلا". (شرح السنوسية الكبرى،)

8-وفاته

توفي رحمه الله يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأخيرة عام خمسة وتسعين وثمانمائة (895هـ) بعد مرض ألزمه الفراش مدة عشرة أيام عن عمر يناهز63سنة و قد دفن بمقبرة العباد السفلي إلى جانب قبر أخيه "علي التالوتي"الذي وافته المنية من نفس السنة و ضريحه مازال قائما إلى يومنا هذا.

إن الغرض من هذه العينات من العلماء الذين ذكرناهم هو الإشارة إلى أن عصر الشيخ بن محمد السنوسي كان يعج بالعلماء الذين كان لهم باع طويل في تطور الحركة الفكرية في تلمسان خلال القرن التاسع الهجري، و قد ساعد ذلك السنوسي على تفتق مواهبه الفكرية، مخلفا لنا إنتاجا فكريا ما زالت الإنسانية تتدارسه إلى يومنا هذا.

الهوامش :

1- بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين (7-9هـ / 13-15م) دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران 2002.

2- التنبيكي أحمد بابا، نيل الانتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية بيروت، (بت) ص 328.
3- الزر كلي خير الدين، الأعلام، المجلد 8، دار العلم للملايين، بيروت ط5، 1995، ص 301.
4- من بين العلماء الذين درس على يدهم السنوسي نذكر على سبيل المثال لا الحصر، والده أبو يعقوب يوسف السنوسي، الشيخ نصر الزواوي، الولي الحسن ابركان الراشدي محمد بن القاسم بن تومرت، يوسف بن أحمد الشريف و غيرهم ...
5- بوداود عبيد : المرجع السابق، ص 306.
6- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، دار موثم للنشر و التوزيع، الجزائر 2002، ص 71.
7- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 82 ص 35.
8- عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان في مجلة الأصالة، العدد 26 ص 245، جويلية – أوت، 1975، ص 138.
9- ابن الأعرج محمد حسن السلماني، زبدة التاريخ و زهرة الشماريخ، الخزانة الحسنية، الرباط، مخطوط رقم 170 ج3، ورقة 96.
10- عرف عهد هذا السلطان عدد كبير من الفقهاء عاشوا بمدينة تلمسان، و في غيرها من حواضر بلاد المغرب الإسلامي، و قد مات عدد كبير منهم في أيامه، نذكر منهم أبو إسحاق إبراهيم التالوتي، محمد بن مخلوف الراشدي، أحمد بن محمد بن زكري ...
11- التنبكتي، المصدر السابق، ص 316، ابن مريم، المصدر السبق، ص 219-220.
12- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ج2 ص 335.
13- نفسه، ص 335.
14- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 139.
15- ابن مريم، المصدر السابق، ص 220.
16- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 148.
17- الونشريسي المعيار ج3 ص152.

الكاتب: د/ الحسين بوحبيل
المعهد العالي للعلوم الإنسانية بمدنين- جامعة قابس - تونس

عنوان المقال المدرسة الفرنسية- العربية للذكور بجرجيس(الجنوب التونسي) 1887 – 1955 : التعليم والتدريب المهني والارتقاء الاجتماعي

البريد الالكتروني: houcinebouhbil@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/01/29 تاريخ القبول: 2019/02/27 تاريخ النشر: 2019/03/28

المدرسة الفرنسية- العربية للذكور بجرجيس(الجنوب التونسي) 1887 – 1955 : التعليم والتدريب المهني والارتقاء الاجتماعي

الملخص بالعربية:

مثّلت السياسة التعليمية الفرنسية إحدى ابرز وسائل تثبيت الاستعمار بتونس وتدعيمه، فقد سعت دولة الحماية أن يكون لسياستها التعليمية دورا في تحسين صورتها بإبراز وجهها الإنساني والتمديني الذي أشاعته لخلق مشروعية لفعلها الاستعماري.

وتمثّلت الأهداف من تأسيس المدارس في خلق جيل من التونسيين قابل باللغة والحضارة الفرنسيتين وتحييده عن مظاهر المقاومة وكل أشكال الرفض. لكن المدرسة الفرنسية- العربية ساهمت في تعليم أعداد من التونسيين وتدريب آخرين مهنيا وساهمت خاصة في عملية ارتقاء اجتماعي للذين تمكنوا من الحصول على وظيفة قارة في الإدارة المحلية أو الاستعمارية مكنهم من الاتقاء في السلّم الاجتماعي.

كلمات مفتاحية: المدرسة الفرنكو- عربية (الفرنسية- العربية)- شهادة ختم التعليم الابتدائي - الحراك الاجتماعي.

Abstract :

The French educational policy represented one of the most powerful ways of sustaining colonization in Tunisia. The State of Protection sought to have an educational policy that could play a role in improving the State's image by

highlighting its humanistic and civilized face in order to legitimize its colonial actions. Hence, the main aims behind establishing schools were to create a new generation of Tunisians who would accept the French language and civilization and keep them away from resistance and from all forms of rejection. However, the Franco-Arabic school did contribute to teaching a number of Tunisians and to professionally training some others. It also contributed to the social uplifting of those who got permanent jobs at the local or colonial administrations, which enabled them to easily climb the social ladder.

Keywords: Franco-Arabic, primary education end-of-cycle certificate, social mobility

مقدمة

على اثر انتصاب الحماية الفرنسية بتونس (معاهدة باردو في 12 ماي 1881) عمدت السلطات الفرنسية إلى إقرار نظام تعليمي عصري عماده المدرسة الفرنكو- عربية (الفرنسية- العربية)، التي مثّلت منافسا حقيقيا للتّعليم التّقليدي (الكتاتيب) الذي لم يضمحلّ لكنه شهد عدّة تحوّلات رافقت الغزو العسكري و الثّقافي لتونس. فقبل إتمام سيطرتها على مناطق أقصى الجنوب التونسي(1) عملت فرنسا على نشر نموذجها التعليمي بمختلف مناطق البلاد فظهرت المدرسة الفرنسية- العربية بمناطق أقصى الجنوب الشرقي التونسي وكانت البداية بجزيرة جربة سنة 1885 ثم بجهة جرجيس سنة 1887 ثم بمدنين 1892، ليتأخّر ظهور هذا الصنف من المؤسسات التعليمية في تطاوين و بن قردان إلى بداية القرن20.

فما هي ظروف نشأة المدرسة الفرنسية- العربية بجرجيس؟ وكيف تطور عدد تلاميذها؟ وكيف توزّعوا بين الجنسيات؟ وكيف ساهمت في عملية الارتقاء الاجتماعي؟

1- ظهور فاختفاء فظهور من جديد وصيرورة.

منذ الأشهر الأولى لانتصاب الحماية الفرنسية بتونس سعى " لوي ماشوال"، أول مدير لإدارة التعليم العمومي، المحدثة بأمر عليّ بتاريخ 6 ماي 1883 إلى نشر النّموذج التّعليمي الفرنسي، والمتمثّل في المدرسة الفرنسية- العربية، لما كان وراءها من أهداف تعليمية واستعمارية وحضارية.

يعود ظهور المدرسة الفرنسية – العربية للذكور بجرجيس إلى سنة 1887 رغم أنّ الأستاذ نجيب بوطالب[1] يرّد ظهورها إلى سنة 1896، استنادا إلى "مارتال"[2] وكذلك Historique de l'annexe des affaires indigènes de Zarzi [3]

إلا أنّ هذا التّاريخ، ليس هو التّاريخ التّأسيسي، بل هو تاريخ إعادة فتح المدرسة بعد غلقها، اعتمادا على مراسلة "يوسف الليقرو" عامل منطقة الأعراض إلى المقيم العام الفرنسي بتاريخ 10 مارس 1889 و نورد جزءا من الرسالة نظرا لأهميتها في وقف الجدل الدائر حول تأسيس هذه المدرسة: " **يشرفني أن ألتمس من سيادتكم إعادة فتح المدرسة المختلطة بجرجيس التي كنت أحدثتها سنة 1887 و التي أغلقت بعد رحيل مديرها le sieur galet المسمى عبد الله بعد أن رحل بسبب سوء التسيير. فلم يستطع العديد من أبناء جرجيس وعكارة الذين تلقّوا أوّل مبادئ التّعليم الابتدائي مواصلة دراستهم إلى جانب تحسّر الأولياء الذين كانوا ينظرون إلى أبنائهم بارتياح و هم يتعلمون اللغة الفرنسية. و حتى الكهول فإنّهم كانوا يتابعون الدّروس، و**

نحن باستطاعتنا بهذا الإحداث أن نتوصّل إلى نتائج مرضية ليس من وجهة نظر نشر اللّغة الفرنسية فقط بل أيضا انتشار اللّغة العربية...."(كذا).[4]

أمّن التّعليم بهذه المدرسة في البداية معّلم واحد فقط، نظرا إلى محدودية عدد التلاميذ الذين كانوا يرتادونها[5] شهدت المدرسة عدّة تحوّلات، فبعد انطلاقتها مدرسة مختلطة إلى غاية 1905، أصبحت مدرسة للذّكور، بعد إحداث مدرسة للفتيات سنة 1906. و في نوفمبر 1940 أصبحت تضم بالإضافة إلى التعليم العام التّعليم المهني (النسيج + النجارة). وبداية من سنة 1945 أصبح المجمّع المدرسي بجرجيس يتكوّن من المدرسة الفرنسية- العربية (مختلطة)، والتّعليم المهني بفرع جرجيس الشاطئ (وقع اكتراء محلات عسكرية)، و فرع الموانسة. وأصبح رواد المدرسة يتكوّنون من التلاميذ التونسيين فقط وأقسام مقاومة الأمّية و الدروس التّكميلية. و تواصل العمل بهذا النمط إلى الاستقلال. وتأّثرت المدرسة بمجريات الحرب العالمية الثّانية، فتمّ غلقها منذ منتصف شهر ديسمبر 1942 بعد دخول الطلائع الإيطالية الأولى مدينة جرجيس و إقامتهم بالمدرسة، ولم تفتح أبوابها إلا في 26 مارس 1943.

صنّفت إدارة التعليم العمومي (D. I. P.)، من خلال تشريعاتها، مدارس أقصى الجنوب الشرقي التونسي إلى ثلاثة أصناف: الأول يضم مدارس المناطق الصحراوية الداخلية وتتمثل في مدرسة قبلي وتوزر (نفطة) وتطاوين ومدرسة بن قردان (مدنين). أما الصنف الثاني فيجمع مدارس قفصة، المكناسي، المتلوي وجرجيس. ويضم الصنف الأخير مدارس ساحل الجنوب الشرقي التونسي ويجمع مدارس جزيرة جربة (مدنين) وقابس. ويتلقى معلمو المدارس المذكورة في مختلف الأصناف منحا إضافية حسب صنف المدرسة نوضحها من خلال الجدول التالي.

الجدول عدد1: المنحة الإضافية للمدرسين بمدارس أقصى الجنوب الشرقي التونسي (سنويا)[6]

المنطقة	معلمة أو معلم (أعزب- عزباء)	معلم (معلمة) متزوج (ة)
بن قردان	260 فرنك	420 فرنك
مدنين	210 فرنك	330 فرنك
تطاوين	275 فرنك	430 فرنك
جرجيس	180 فرنك	310فرنك

1-تطور عدد التلاميذ

ارتاد المدرسة تلاميذ من جنسيات مختلفة، فبالإضافة إلى المسلمين، نجد الفرنسيين والإيطاليين والمالطيين واليهود وعناصر أخرى. كان عدد التلاميذ يتذبذب من سنة إلى أخرى بل أنّ عددهم كان يتغيّر خلال السنة الواحدة. فقد تحوّل العدد الجملي من 15 تلميذا سنة 1887 إلى 40 تقريبا سنة 1896، ليصبح 88 في أكتوبر 1909 ليتراجع إلى 53 تلميذا، بعد توجيه التلاميذ من أصول أوروبية إلى مدرسة الفتيات و تم الإبقاء على التلاميذ المحلّيين و اليهود. وتراجع العدد إلى 69 فقط في مارس 1918 (65 تلميذا مسلما و4 يهود)،

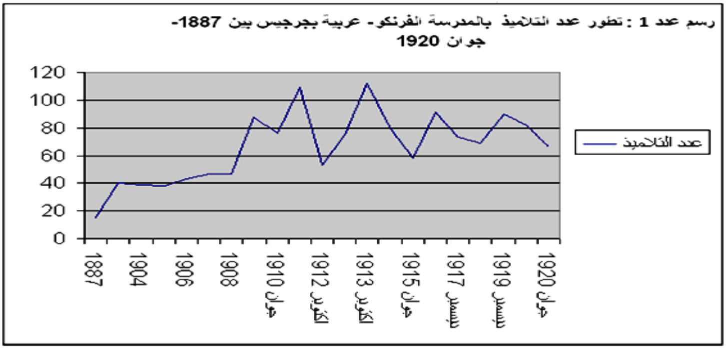

رسم عدد 2 : تطور عدد التلاميذ بالمدرسة الفرنكو- عربية بجرجيس بين 1920 - 1938

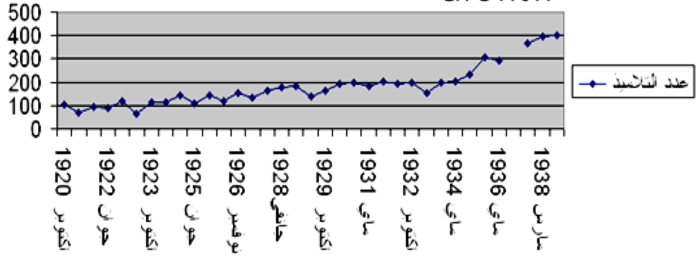

تميز حضور التلاميذ بالتقطع بسبب الظروف الاقتصادية ونمط عيش السكان.فقد اعتبرت العائلات التونسية عامة، الأطفال وسائل إنتاج ضمن اليد العاملة العائلية. وتبعا لذلك فقد كان عدد التلاميذ بالمدرسة الفرنسية- العربية للذكور بجرجيس، شأن بقية مدارس أقصى الجنوب الشرقي التونسي، بالتذبذب بين أشهر السنة الدراسية الواحدة. فقد تعدّدت الإشارات بالسجلاّت التاريخية للمدرسة التي تفيد تراجع عدد التلاميذ المتابعين للدروس بانتظام خاصة خلال الفترات التالية: اكتوبر- نوفمبر، ديسمبر- جانفي وماي- جوان، وهو ما يتزامن مع المواسم الفلاحية بالجهة: موسم الحرث وجني الزيتون والحصاد. ويرد بالسجل التاريخي للمدرسة ما نصّه:" انّ عدد التلاميذ قد تراجع بسبب أعمال الفلاحة. انه من غير الممكن مقاومة ظاهرة الانقطاع الظرفي نتيجة هجرة "عكارة (سكان جرجيس) إلى الأراضي الفلاحية الواقعة على مسافة خمسين ومائة كلم حيث ينصبون خيامهم"[7] ووثّق مدير المدرسة Laroche في موفى السنة الدراسية 1906 – 1907 ما يفيد التراجع الكبير واللافت لعدد

التلاميذ بالمدرسة وتواصله لفترة أطول من العادة فيقول: "من دون شك يعود الى المحاصيل الجيّدة مما تطلب فترة أطول من الحصاد"[8]

ولم تكن ظاهرة الانقطاع الظرفي للتلاميذ عن الدراسة بسبب مشاركة الأطفال عائلاتهم في أعمال الفلاحة مقتصرة على جهة جرجيس وإنما هي ظاهرة عامة شملت مدارس مختلف مناطق البلاد باستثناء المدن الكبرى.

2- توزّع التلاميذ حسب الجنسيات

ضمّت المدرسة ومختلف فروعها (الموانسة والشاطيء)، تلاميذا من جنسيات مختلفة. فبالإضافة إلى المسلمين (أبناء الأهالي) فقد ضمّت تلاميذا من جنسيات أوروبية: فرنسّيون، إيطاليون ومالطيون إلى جانب اليهود وعناصر أخرى. واختلفت نسبهم من سنة إلى أخرى. ففي البداية كانت أضعف نسبة هي نسبة التلاميذ المسلمين، لكن سرعان ما تطورت فيما بعد تطورا ملحوظا نتيجة إقبال الأهالي على تعليم أبنائهم بهذا الصنف من المدارس بعد ما ابدوا رفضهم لها في البداية.

الجدول عدد2: توزّع التلاميذ حسب جنسياتهم بالمدرسة الفرنسية- العربية بجرجيس سنة 1887[9]

التاريخ	فرنسيون	ايطاليون	مالطيون	مسلمون	يهود	آخرون	الجملة
1887	0	1	3	7	0	1	12
1905	1	2	2	12	12	0	29
1909	2	3	2	73	8	0	88
1913	1	0	2	99	10	0	112

1915	3	0	3	41	11	0	58
1920	4	3	4	66	4	1	82
1925	9	1	2	120	10	0	142
1930	7	0	0	188	0	2	197
1940	0	0	25	335	0	0	360
1943	0	0	32	214	0	0	246
1950	0	0	0	630	0	0	630
1956	0	0	0	883	0	0	883

ولدراسة جنسيات تلاميذ المدرسة اعتمدنا "سجلات قيد التلاميذ"[10] Registre Matricule، المتوفّرة وعددها 5. و قد تضّمنت هذه السجلات 2773 تلميذا، حوصلنا نتائج بحثنا في الجدول التالي:

الجدول عدد3: تطور عدد التلاميذ و توزعهم حسب الجنسيات بين أكتوبر 1887 و أكتوبر 1956 حسب سجلات قيد التلاميذ:

مسلمون	فرنسيون	ايطاليون	مالطيون	يهود	عناصر أخرى	الجملة
2551	129	2	3	87	1	2773

3- إطار التسيير

تداول على تسيير المدرسة عدد من المديرين كلّهم من الفرنسيين، الا في حالات استثنائية تمثّلت الحالة الأولى في مغادرة مديرة المدرسة السيدة

FERRIE والتحاقها بفرنسا استعدادا للولادة، فتم تكليف المعلم السيد الصادق بن ضو وكان المعلم الوحيد. أمّا الحالة الثانية فتمثّلت في تولّي المعلم التائب البصلي خطة مدير المدرسة بعد تجنيد المدير للالتحاق بجبهة القتال خلال الحرب العالمية الأولى.

الجدول عدد4: إطار التسيير بالمدرسة (المديرون)[11]

الاسم	السنة الدراسية	ملاحظات
LAROCHE	1906 - 1905	عوضه MICHEL MARGUERIT
BORDENET	1908 - 1907	
SIMIAND	1910 - 1909	
RIQUETTY	1912 - 1911	
السيدة FERRIE	1913 - 1912	عوضها الصادق بن ضو
BATTEROZE	1915 - 1914	عوضه التائب البصلي
السيد FERRIE	مارس 1919 - 1920	
BROUHOUET	1924 - 1923	
DUPIRE	1940 - 1939	
BONILLAUX	1945 - 1944	
بلقاسم جبنون	1946 -1945	

4- النجاح المدرسي والارتقاء الاجتماعي

مثّلت شهادة ختم التعليم الابتدائي التي أُحدثت منذ سنة 1883 طموح غالبية العائلات التونسية التي التحق أبناؤها بالمدارس الفرنسية – العربية، لما تُتيحه شهادة ختم التعليم الابتدائي من فرص عمل بالإدارة المحلية والاستعمارية وتعفي حاملها من الخدمة العسكرية الإجبارية وإعفاء عائلته من

دفع ضريبة المجبى[12] ووحّدت الإدارة السن الدنيا والقصوى لقبول المترشحين (11 و 14 سنة)، وتركت اجتياز الامتحان اختياريا. ويتضمن الامتحان جانبا كتابيا وآخر شفاهيا. ومنح القرار الصادر في غرة مارس 1924 فرصة استثنائية لإجراء دورة ثانية في شهر اكتوبر من السنة الدراسية الموالية تشمل المترشحين الذين تحصلوا على ثلاثة أرباع الحد الأدنى الضروري للنجاح في الدورة الرئيسية[13] وعادل القرار الصادر في 2 جوان 1939 بين الشهادة التونسية ونظيرتها الفرنسية[14]

استحق عدد من تلاميذ المدرسة موضوع الدراسة النجاح في امتحان شهادة ختم التعليم الابتدائي من أبناء الأهالي واليهود والفرنسيين.

الجدول عدد 5: الناجحون في شهادة ختم التعليم الابتدائي حسب السنوات.

السنة الدراسية	الناجحون	ملاحظات
1911 - 1912	الصادق بن ضو جبنون	عدد المشاركين 2
1912 - 1913	محمد بن حسن	بملاحظة حسن
1913 – 1914	محمد بوزميطة، سالم بن مسعود Louis CHaloum Mazouz. BOURET,	
1914 - 1915	محمد بن صالح	عدد المشاركين 4
1917 - 1918	الجيلاني سريب، أحمد ذويب	
1918 - 1919	Miche Cassar	
1919 - 1920	علي بن عمر بلهيبة	
1920 – 1921	الهاشمي بوشهيوة ، العربي مشارك	
1921 – 1922	Alexis Truchet	
1923 - 1924	سريب بن زايد، عبد السلام ذويب، معتوق كوهين ، علي بوشهيوة، الحفناوي	الاول بملاحظة حسن

	بوحافة.	
1925 - 1924	احمد الجعايدي، بلقاسم جبنون، CHammini Houri	عدد المشاركين 4
1926 - 1925	سالم ذويب، عمارة جرمود، Bellia , Truchet Michel Marius	عدد المشاركين 6
1927 - 1926	عامر مزوغي، بشير بوجردين، محمدكليش	عدد المشاركين 5
1928 – 1927	حسين خنيسي ، عبد السلام الشلي	عدد المشاركين 5
1929 - 1928	العربي كليش، ناصر زغدود، الجلاني الجليطي، Truchet Antoine	عدد المشاركين 4
1930 - 1929	الهادي الجليطي ، رشيد خنيسي	التحق الثاني بالمعهد الصادقي
1931 - 1930	عامر سريب، ضو بلهيبة	
1937 - 1936	عمران بن عبد الله، الهاشمي لبيض، الهاشمي جبنون، عبدالله مسلم، الصادق كليش، Torens George	
1938 - 1937	الهادي بالهادي، الصادق....، علي بن شويخة، سالم بن جدي، Jeanne Billoudet, Billoudet Robert, ... François, Vanell Laurent	
1939 – 1938	بلقاسم بوجردين، المختار ذويب، منصور سماعلي، علي بن محمد بن علي، الطاهر بن عويدة، المختار الدخلي، سعيد بن ضو جبنون، سالم الجزيري، الجيلاني بن ضو، الهاشمي لبيض، علي بن مسعود/ Vangell ANTOINE	

1942 - 1943	الطاهر جبنون، سعيد الزيتوني، الطاهر سريب، علي الجزيري Alphance ben Romdane	
1943 – 1944	الصادق بوشهيوة، عبد المجيد سماعلي، الزين بلهيبة	التحق السماعلي بالمعهد الصادقي
1944 - 1945	احمد كليش، Guy Monjou, Marcelle ben Romdane	

مثّل الحصول على الشهادة المذكورة، أقصى الطموح الدراسي لأغلب عائلات أقصى الجنوب الشرقي التونسي بما في ذلك عائلات "عكارة" (سكان جهة جرجيس)، باستثناء الميسورة منها، لما يتطلبه الالتحاق بالحاضرة (العاصمة) لمتابعة الدروس الثانوية بالمعهد الصادقي أو المعهد العلوي من نفقات لخلو الجنوب التونسي من مؤسسات التعليم الثانوي.

تتوقف مسيرة التعليم لأغلب التلاميذ الذين ينهون المرحلة الابتدائية بما فيهم المحرزون على الشهادة الابتدائية مادامت تلك الشهادة - وأحيانا ما دونها- تمنح صاحبها الشغل القار بإحدى الإدارات وتعفي من الخدمة العسكرية الإجبارية وتعفي العائلة من دفع ضريبة المجبى.

أصبحت حاجة السلطات الفرنسية بتونس، ماسة إلى العنصر البشري المحلي (الأهلي) لتسيير شؤون المستعمرة تونس. فاضطلع المتابعون للتعليم بالمدارس الفرنسية- العربية بالوظائف الوسطى والبسيطة فقاموا بدور الوسيط بين المُستعمر والمستعمر. وتطلبت هذه الخطط حدّا

ادني من المعرفة بلغة الحامي والمحمي للتواصل فيما بينهما. ووجدت السلطات الفرنسية في خريجي المدارس الفرنسية- العربية ضالتها.

لقد أصبح النظر إلى هذا الصنف من التعليم، رغم نقائصه، بمثابة "العصا السحرية" القادرة على تخطي المتعلمين عتبة الفقر وتجاوز حواجز التراتبية الاجتماعية التقليدية المبنية على الجاه والثروة المورثين. ومن هنا أمكن لعدد كبير من المتعلمين هجر "مهنة الجدّين" (الأجداد)، ليضطلعوا بمهام إدارية وغنموا الراتب الشهري المحترم والقار والدائم.

ساهمت إذا المدرسة في تحولات في التراتبية الاجتماعية الموروثة، واصطلح على تعريف هذه التحولات بـ "الحراك الاجتماعي" . فقد تمكن مثلا المسمى "علي بن احمد كليش"، الذي زاول تعليمه الابتدائي بالمدرسة موضوع الدراسة والمتحصل على شهادة ختم التعليم الابتدائي بها في نهاية السنة الدراسية 1944 – 1945 من الاشتغال ببلدية جرجيس كاتبا مترجما ثم مترجما بمكتب الشؤون الأهلية بجرجيس ثم "خليفة" بالمكان ومنحته الإدارة الفرنسية رتبة "خليفة شرفي" عند تقاعده لما قدمه لها من خدمات[15] واشتغل المسمى محمد بن بلقاسم الضاوي، من عرش الزاوية بجرجيس، خطة "مخازني" ثم مستشارا بالمجلس البلدي بالمكان ثم شغل خطة "شيخ" عرشه.

خاتمة

مثّلت المدرسة الفرنسية - العربية بجرجيس منارة علمية استفاد منها أبناء الجهة وتخرّج منها عدد مهمّ شغلوا مراكز حسّاسة في الإدارة المحلية والاستعمارية. كما مثّلت أداة للارتقاء الاجتماعي الذي لم يعد مورّثا بل أصبح يعتمد على الشهائد العلمية والخطط التي يشغلها والثروة التي يغنمها منها.

الهوامش:

[1] ليسير (فتحي).**قبائل أقصى الجنوب التونسي تحت الإدارة العسكرية الفرنسية، نجع ورغمّة نموذجا1881 -1939**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، جوان1998، ص ص102 - 103 .حيث أورد"وتجدر الإشارة إلى أنّ المدنيين والعسكريين الفرنسيين في تونس ما انفكوا يلحون على السّلطات في باريس بضرورة تطبيق ما اتفق بشأنه من احتلال أقصى الجنوب وتنظيمه بداية سنة 1887 وفي 10 ديسمبر 1887 تلقّى الجنرال قائد فرقة الاحتلال أمر امن وزارة الحرب يقضي بتنفيذ الإجراءات المقرّرة في جانفي 1887 بخصوص الجنوب .وبذالك تمّ إحداث مراكز للجيش الفرنسي بكل من أم التّمر وجرجيس والدويرات. وستشهد سنة 1888 بداية التّمركز الفعلي للإدارة العسكرية الفرنسية في منطقة ورغمّة ".

[2] بوطالب (محمد نجيب) " وضعية المثقّفين بجرجيس في الفترة الاستعمارية من خلال بعض ملفّات الأرشيف الوطني"، **شبه جزيرة جرجيس عبر التاريخ**، مجموعة من المؤلفين نشر جمعية المحافظة على التراث بشبه جزيرة جرجيس، تونس 1995، ص ص 71-84.

3 Martel (A.), **Les confins Sahara-tripolitains de la Tunisie**. T. I., PUF, 1965, P.81.

4 Résidence Générale de France à Tunis, services des Affaires indigènes ,**historique de l'annexe des affaires indigènes de zanzis**, Bourg, Imprimerie Victor Berthod, 1931. P.33.

5 **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة. E ، صندوق. 264، ملف.1، ورقة.1.

6 Résidence Générale de France à Tunis, services des Affaires indigènes, **historique de l'annexe des affaires indigènes de zarzis**... P. 33.

7 Résidence Générale de France à Tunis, services des Affaires indigènes, **historique de l'annexe des affaires indigènes de zarzis**... P. 33.

8 - **Bulletin Officiel de l'Instruction Publique**, №25 janvier- fevrier1909 , Arrêté relatif aux indemnités dites « de vacances » dans les écoles du Sud, p. 528.

9 **السجل التاريخي عدد 1: 1887 – 1919**، السنة الدراسية 1908 – 1909، الترجمة شخصية. وما ورد بين قوسين من إضافتنا للتوضيح.

10 **نفس المصدر**، السنة الدراسية 1906 – 1907.

11 اعتمدنا السجلات التاريخة للمدرسة في مختلف السنوات باستثناء سنة التأسيس (1887) اعتمدنا النشرة الرسمية للتعليم العمومي.

Bulletin Officiel de l'Instruction Public. №6, 15 Mars 1887, P. 109.

12**سجلات قيد التلاميذ Registre Matricule**، هي عبارة عن دفاتر يسجل بها كل تلميذ يدخل المدرسة، ويتضمن السجل بالإضافة إلى العدد الرتبي، الاسم و اللقب، تاريخ ولادة التلميذ و مكانها، اسم العائلة أو الولي، الجنسية، مكان إقامة العائلة، تاريخ الدخول إلى المدرسة، تاريخ الخروج منها، و سبب الخروج والملاحظات و قد تضمنت هذه السجلات في الغلاف الخارجي، فصولا من القوانين التنظيمية منها:

« Art. 3 : - Le directeurs d'écoles devront tenir un registre matricule conforme au modèle établi »

و ملاحظات تضمّنت خاصّة:

« Les élèves ne seront inscrits qu'une fois pendant la durée de leur séjour à l'école. Tous ceux qui ne seront pas portés sortis, dans la colonne réservée à cet effet, seront considérés comme fréquentant toujours l'école.

Les élèves ayant fréquenté précédemment l'école – et par suite déjà inscrits sur un registre matricule – la date à inscrire dans la colonne d'entrée sera celle de leur première admission l'école".

13اعتمدنا السجلات التاريخية وعددها خمسة تغطي كامل مراحل تاريخ المدرسة من التأسيس سنة 1887 إلى تاريخ الاستقلال الداخلي 1955.

14 **Bulletin Officiel de l'Instruction Publique**, №13 , février1894, « Notes relatives aux indigènes pourvus du certificat d'études primaires ».

15 **Bulletin Officiel de l'Instruction Publique**, №24, mars 1924.

Bulletin Officiel de l'Instruction Publique, № 1, janvier – juin 1939, arrêté du 2 juin 1939 modifiant l'examen du C. E. P. E.

لبيض (سالم)، **شبه جزيرة جرجيس من العصور القديمة إلى نهاية الاحتلال**، دراسة اجتماعية – تاريخية في التاريخ المحلي، الطبعة الأولى، الشركة العامة للطباعة سوجيم، تونس، مارس2001، ص 140.

التاريخ	الفرنسيون	الإيطاليون	المالطيون	المسلمون	الاسرائيليون	عناصر أخرى	الجملة	ملاحظات	الجملة العامة
1887[15]	0	1	3	7	0	1	12	3 فتيات[15]	15
1896	-	-	-	-	-	-	-	-	40[15]
1904									39[15]
1905[15]	1	2	2	12	12	0	29	9 فتيات[15]	38
1906[15]	-	-	-	-	-	-	-	تم إحداث مدرسة الفتيات	43
1907[15]	0	0	1	44	2		47[15]		47
1908[15]	0	0	1	44	2	0	47	-	47
اكتوبر 1909[15]	2	3	2	73	8	0	88	-	88
جوان 1910	2	2	3	63	6	0	76	-	76

اكتوبر 1911							109		109
اكتوبر 1912	0	2	1	46	4	0	53		53
جوان 1912	0	10	4	59	11	0	75		75
اكتوبر 1913	1	0	2	99	10	0	112		112
جوان 1914	4	0	2	66	7	0	79		79
جوان 1915	3	0	3	41	11	0	58		58
اكتوبر 1916[15]	0	0	0	89	2	0	91		91
ديسمبر 1917	0	0	0	64	9	0	73		73
مارس 1918	0	0	0	65	4	0	69		69

ديسمبر 1919	3	3	7	71	4	2	90		90
مارس 1920	4	3	4	66	4	1	82		82
جوان 1920	4	3	3	51	4	1	66		66
اكتوبر 1920	4	2	3	82	12	1	104		104
جوان 1921	5	4	3	51	7	1	71		71
اكتوبر 1921	7	3	2	71	12	1	96		96
جوان 1922	10	4	0	70	7	0	91		91
اكتوبر 1922	9	3	0	97	8	0	117		117
جوان 1923	6	3	0	47	6	0	62		62

اكتوبر 1923	5	2	4	89	12	0	112		112
جوان 1924	5	2	1	97	10	0	115		115
نوفمبر 1924	5	4	2	131	4	0	146		146
جوان 1925	8	1	0	92	7	0	108		108
نوفمبر 1925	9	1	2	120	10	0	142		142
جوان 1926	8	1	3	95	10	0	117		117
نوفمبر 1926	7	1	2	129	15	0	154		154
جوان 1927	4	0	2	116	13	0	135		135
اكتوبر 1927							164		164

جـــانفي 1928							178		178
اكتـــوبر 1928							181		181
مـــــاي 1929							140		140
اكتـــوبر 1929							163		163
مـــــاي 1930							194		194
اكتـــوبر 1930	7	0	0	188	0	2	197		197
مـــــاي 1931	8	0	0	162	12	0	182		182
اكتـــوبر 1931	10	0	0	164	28	0	202		202
مـــــاي 1932	11	0	0	166	18	0	195		195

اكتـــوبر 1932	7	0	0	170	17	2	196		196
مـــــاي 1933	8	0	0	133	12	0	153		153
اكتـــوبر 1933	7	0	0	178	11	0	196		196
مـــــاي 1934	5	0	0	184	10	0	203		203
اكتـــوبر 1934	6	0	0	214	12	0	232		232
اكتـــوبر 1935							305		305
مـــــاي 1936							290		290

اكتوبر 1936						325	أغلقت المدرسة من 10 فيفري إلى 15 جوان بسبب الوباء	
أكتوبر 1937	القسم الأوربي	13	351			364	إحداث القسم الأوربي	364
مارس 1938	القسم الأوربي	38	360			398		398
أكتوبر 1938	القسم الأروبي	34	365			399		399
ماي 1940	القسم الأروبي	25	335			360	+ ملحق الموانسة 144	504
نوفمبر 1940	القسم الأروبي	29	322			351	+ ملحق الموانسة 105	456

ديسمبر 1940	القسم الأوروبي	26	329			355	+ ملحق المواسنة 120	475
نوفمبر 1941	القسم الأوروبي	26 26	365 365			391 391	+ ملحق +ملحق المواسنة +143 المهني 17	151
ماي 1942	القسم الأوروبي	23	335			358	+ ملحق المواسنة +119 المهني 17	494
-1942 1943							بعد شهر ماي 1942 أغلقت المدرسة بسبب الحرب II حتى مارس 1943	
مارس 1943								100

افريـــــل 1943	القسم الأروبي	31	147			178	+ ملحق المـواد ســـة 48	226
مـــــاي 1943	القسم الأروبي	32	214			246	+ ملحق المـواد ســـة +104 المهني 13	363
نـــوفمبر 1943						265	+ ملحق المـواد ســـة ا+91ا لمهـني 17	464

مـــــاي 1944							310	+ ملحق المـواد ســة ا+70ا لمهـن 18	398
أكتـــوبر 1944							357	+ ملحق المـواد ســة ا+56ا لمهـني 20	433

الكاتب: أ/ مبارك رحال
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، المغرب.

عنوان المقال: مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لليهود بالجنوب المغربي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة: التكافل الاجتماعي نموذجا.

البريد الإلكتروني: rahalmbark@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/02/18 **تاريخ القبول:** 2019/03/08 **تاريخ النشر:** 2019/03/28

مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لليهود بالجنوب المغربي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة: التكافل الاجتماعي نموذجا.

الملخص بالعربية:

يتمحور مقالنا هذا حول أشكال التكافل الاجتماعي بين الأسر اليهودية والأسر المسلمة بالجنوب المغربي، خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة. فمعلوم أن المنطقة عانت بشكل دوري من المجاعات والأوبئة الناتجة عن التقلبات المناخية أو الحروب. وقد أدت هذه الأوضاع إلى بروز عادات تكافلية في ميادين اجتماعية واقتصادية وأمنية، سواء بين الجماعات اليهودية فيما بينها أو بين اليهود والمسلمين. حاولنا معالجة هذا الموضوع عبر ثلاث محاور رئيسة: ركزنا فيه على البعد الديني ودوره في ترسيخ ثقافة التضامن بين اليهود والمسلمين. والمحور الثاني: تتبعنا فيه كيف ساهم اقتصاد القِلة والندرة، في تقوية علاقات التعاون بين الطائفتين. وأما المحور الثالث والأخير: فتناولنا فيه أهمية التعاون الأمني ودوره في حماية حقوق الأقلية اليهودية بالجنوب المغربي. وختمنا بخلاصة بينا من خلالها كيف لعب التكافل الاجتماعي دوراً مهماً في خلق مجتمع متماسك ومتضامن في أوقات الأزمات والشدائد.

كلمات مفتاحية: تراث، تاريخ، يهود، جنوب مغربي.

Abstract :

The present article revolves around the forms of social solidarity between Jewish and Muslim families in the south of Morocco during the modern and contemporary periods. It has been known that the region periodically suffered from famine and epidemics caused by climate change or wars. These conditions have led to the emergence of symbiotic habits in social, economic and security fields, whether among Jewish themselves or between Jews and Muslims. The Researcher tries to investigate this issue by analyzing three main axes. In the first axis, the focus is on the religious dimension and its role in establishing a culture of solidarity between Jews and Muslims. The second one analyzes how the oligarchic economy has contributed to strengthening cooperation between the two communities. When it comes to the last axis, it discusses the importance of security cooperation and its role in protecting the rights of the Jewish minority in southern Morocco. The article end with summarizing how social solidarity played a significant role in creating a cohesive society in the times of crisis and adversity.

Key Words: : Heritage, history, Jews, southern Morocco

مقدمة:

شكل الجنوب المغربي عبر التاريخ محطة لتلاقح الحضارات والثقافات؛إذ عاشت به مجموعات بشرية متباينة من حيثالدينوالمعتقد،لكنها تتمسك بوحدة الانتماء للمجال. فقد عاش اليهود والمسلمون جنباً إلى جنب، وكانت تربطهم علاقات تعاون في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والأمنية. وهذا التعاون فرضته الظروف الطبيعية والمناخية والسياسية، وخاصة خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة.فقدعرف الجنوب المغربي خلال هذه الفترات التاريخية تكرارا دوريا لسنوات الجفاف والمجاعة وانتشارالالأمراض

والأوبئة،هذا إلى جانب الفوضى وانعدام الأمن بسبب الحروب والصراعات المحلية، ناهيك عما خلفه التدخل الأجنبي من آثار على الوضع الاقتصادي للبلاد. وأمام هذه الظروف رصدت الكتابات التاريخية بعض مظاهرالتضامن والتكافل بين الساكنة ومنها التكافل بين اليهود والمسلمين بهدف التخفيف من وطأة الجوع والوباء، و تحقيق التوازن الاقتصادي، وتوفير الاستقرار الأمني.

مقالتنا هذه مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لليهود بالجنوب المغربي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة،عبر مظهر أساس وهو "التكافل الاجتماعي".سنقدم معطيات حول مظاهر التكافل الاجتماعي بين الأسر اليهودية فيما بينها من جهة، وبين الأسر اليهودية والأسر المسلمة من جهة أخرى. كما سنعمل على إبراز ملامح التعاون الاقتصادي بين الطائفتين، سواء على مستوى الزراعة، أو الحرف اليدوية، أو التجارة. وأخيراً سنقف عند التعاون الدفاعي والأمني ودوره في حماية الأقليات اليهودية بالجنوب المغربي، خاصة في أوقات السيبة والحروب.

1 التواجد اليهودي بالجنوب المغربي:

تعددت الروايات حول تاريخ الوجود اليهودي في الجنوب المغربي. يشير بعضها إلى أنهم وصلوا إلى شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الإيبيرية آتين من فلسطين للبحث عن بعض المعادن الثمينة كالذهب والفضة. وتنسب هذه الأخبار إلى ما هو مسطر في مخطوطات حاخامية تتضمن حكايات حول حجر سليمان بمنطقة درعة.[1]وتربط بعض الروايات حضور اليهود في شمال إفريقيا بإنشاء الفينقيين لمدينة قرطاج.[2]ويرى المؤرخ الإنجليزي Kerr بأن هؤلاء اليهود "قد نزلوا في منطقة جنوب غرب المغرب أيام حكم دواد وسليمان، بعد أن نقلتهم إليها المراكب الفينيقية."[3]كما تشير المصادر إلى لجوء عدد كبير من اليهود إلى

شمال إفريقيا، عقب هدم الهيكل الأول المنسوب إلى النبي سليمان عليه السلام سنة 586 قبل الميلاد.[4]وترجع بعض النصوص أصول اليهود بالجنوب المغربي إلى أولئك الذين فروا من بطش البابليين واستقروا حوالي 361 ق.م. في وادي إفران[5]بالأطلس الصغير، بعد شراء حقوق الأرض من السكان الأصليين.[6]ويخبرنا V. Monteil بأن استقرار اليهود بإفران، كان "أثناء فترة التيه الذي حصل للقبائل اليهودية العشر، حيث تمكن بعضهم من تأسيس مملكة عن طريق تحالفهم مع الأهالي. وأن أول ملوكهم هو أبراهام أفراتي المنتمي إلى قبيلة إفراييم. واعتمد يهود إفران في نسج روايتهم على قراءة شواهد القبور التي تحمل تواريخ قديمة.[7]وقد أشارت بعض الروايات اليهودية إلى سكنى اليهود في مدينة Vaqqa قرب وادي درعة منذ القرن السادس ق. م[8]،ولا يستبعد أن تكون هي أقا الحالية.

ومن خلال التحريات التي قام بها V. Monteil في إفران الأطلس الصغير سنة 1946، قد تبين أن التواجد اليهودي في المنطقةكان منذ القرن الأول الميلادي على الأقل.[9]وقد أشارت العديد من الكتب القديمة والمعاصرة إلى أن أغلب يهود المغرب الكبير من أصول أمازيغية.[10]فعندما وصل المسلمين إلى شمال إفريقيا في القرن السابع، وجدوا الديانة اليهودية منتشرة بشكل واسع وسط الأمازيغ.[11]وفي هذا الصدد أشار البكر إلى "وجود قبائل أمازيغية كانت تدين بالديانة اليهودية أيام الفتح الإسلامي."[12]وحسب غابرياكامبسGabriel Camps فإن اليهودية المغاربة في البوادي يعمدون إلى القيام بتعظيم أصولهمالجينالوجية:"بإرجاع أصول الأمازيغ إلى الكنعانيين."[13]وقد نجم عن الاختلاف حول تاريخ التواجد اليهودي بالجنوب المغربي خاصة والمغرب عامة تقسيم بعض الدارسين لهم إلى مجموعتين:

ف"مونتيل" CH. Monteilمثلا قسمهم إلى:

يهود المشرق: الذين هاجروا قديما واستقروا بالمناطق الجنوبية للمغرب الأقصى، بجبال الأطلس الصغير في إيفران، ووادي نون.

يهود الغرب: الذين كانوا بشبه جزيرة إيبريا، وعادوا منها إلى المغرب مع المسلمين، بعد سقوط غرناطة.[14]

ويطلق اسم "التوشابيم" أو "البلديين" على اليهود المغاربة، بينما يسمى اليهود القادمين من الأندلس "الميكوراشيم" أو "المهاجرين".[15]

يعتبر اليهود مكونامن مكونات المجتمع المغربي انطلاقا من الدور الاجتماعي الكبير الذي لعبه اليهود الأمازيغ عبر التاريخ في المنطقة. فقد أشار الوزان إلبعض القرى والمدن السوسية، التي كان يعيش فيها اليهود بجوار المسلمين، بقوله:"وحوالي مائتي تاجرا وصانعا يهوديا بمدينة (تييوت) أو (تشييت)،[16] وحوالي مائة وخمسين دار بمدينة (أديكيس)،[17] وأضاف مارمولحوالي مائة منزل لليهود بمدينة (تكاووست).[18] وبلغ عدد اليهود في مدينة تارودانت حوالي ألف.[19] وتعتبر "تجْدرارت"، من مستقرات اليهود المشهورة بمنطقة الأطلس الصغير الأوسط، تقع بأرض أيت مزال إلى الشمال الغربي من قبائل إيلالن، وكانت معروفة بملاحها الكبير، وسوقها الذي ترتاده قبائل أملن، وإيلالن، وإيسندالن.[20] كما اشتهرت كل من افران وتهالا باستقرار أعداد كبيرة من اليهود ومزاولتهم للتجارة والحرف.

2 التكافل الاجتماعي دعامة من دعائم الاستقرار:

تختزن الذاكرة المحلية مجموعة من العادات التكافلية التي كانت رائجة بين الأسر اليهودية والأسر المسلمة، في أوقات الشدة، وفي المناسبات الدينية والخاصة، وسنبينها في السطور التالية:

1-2 التكافل الاجتماعي بين الأسر اليهوديةبالجنوب المغربي:

نتيجة قدم استقرار اليهود بالجنوب المغربي فقد سكنوا كثيرا من القرى والمداشر بل وأسسوا البعض منها.وعلى سبيل المثال في إيليغ، كانت تعيش طائفة من الإسرائليين بعدما اتخذوها مسكناء فأسسوا بها كنيسة يؤدون فيها شعائر دينهم.[21] وقد رصد "شارل دو فوكو" في كتابه "التعرف على المغرب" على استمرار التواجد اليهودي ببعض المراكز الجنوبية حتى نهاية القرن 19م:"كانت تعيش في الواحات في ثلاثة مناطق وهي: أقا، وتزارت، وتيسنت، خلال السنوات الأربع الماضية 300 عائلة نصفها مسلمون ونصفها الأخر يهود."[22] وذكر دفيدسن أن "أسرة سلومون هي أغنى أسرة يهودية في وادي نون، وكانوا يحضون بتقدير كبير من الأسر اليهودية في كلميم."[23] وذلك نتيجة ما كان يتمتع به اليهود من الحرية في السكن والامتلاك والبيع والشراء وترويج النقود.[24] ولقد عاشت الأسر اليهودية بالجنوب المغربي في جو يسود فيه التكافل والتضامن كما هو الشأن بالنسبة لباقي الأسر المغربية المسلمة.

تعوزنا المصادر الكفيلة بتدقيق الحديث عن الأسر اليهودية بالجنوب المغربي وأغلب الدراسات تركز على يهود المدن والحواضر حيث الملاحات. إذ تشير النصوص إلى اقتصار العائلة الواحدة على السكن في غرفة منفردة داخل الملاح.[25] وتخبرنا تقارير الأطباء ومدرسي مدارس الرابطة الإسرائيلية، أن يهود ملاح تارودانت تكدسوا في بيوتات ضيقة بعد احتضان بعض الأسر التي هجرت أماكنها في القرى المجاورة.[26] وهذا ما يؤكد استمرار التضامن العضوي بين المهاجرين والمحليين. ويصل ذلك ذروته عند انتشار الأوبئة أو الحروب "وقد كان ذلك التكدس يصل إلى حدوده القصوى التي لا تسمح بالتزايد، مما أدى إلى ظهور أزمة السكن."[27] ومعلوم أن الأسر اليهودية قد تميزت بقوة ارتباط أفرادها،[28] وما انتشار ظاهرة الزواج بين الأقارب، رغم مايترتب عليه

ذلك من عواقب سلبية انعكست على البنية الصحية لأفراد الجماعة،إلا دليلا على ذلك.[29]ومن العوائد أن الآباء كانوا يستعينون بخدمات الأبناء للحصول على لقمة العيش.[30]وعند الضرورة كان الابن الأكبر يتحمل إعالة أشقائه، خاصة النساء منهم.[31]وهي كلها صور تجسد تجدر روح التكافل داخل المجتمع اليهودي.

تتجلى مظاهر تكافل اليهود فيما بينهم في المناسبات الخاصة والأزمات. ففي الأعراس والمناسبات السعيدة مثلا يتم وضع النقود في صينية أثناء استقبال التهاني.[32]وجرت العادة في اليوم السابع بعد الولادة، أن الزائرات من الأقارب والجيران يقدمن الهدايا والمال "للنفيسة"[33]ويسمى ذلك محلياً ب"الزرورة". إن ممارسة الذبح أوعملية الختانة يعهد بها إلى الحزان الأكبر، الذي لا يوجد إلا في التجمعات الكبرى. فيهود ملاح تينتازارت، "كانوا يبعثون بأضاحيهم إلى ملاح أقا حيث يوجد الحزان لذبحها."[34]ويصل التكافل ذروته في المناسبات الأليمة ؛فإذا طلقت المرأة من زوجها تلجأ إلى بيت أهلها.[35]وفي حالة وفاة أحد الأشخاص تتولى الجماعة الدينية غسله ودفنه.كمايقام "عشاء المواساة" ببيت الفقيد، وهو عبارة عن وجبة"من البيض النيئ والزيتون الأسود، يطعمها كل الحاضرون والأقرباء والأصدقاء، وهم يبكون ويتبادلون التعازي."[36]

ويتكافل اليهود أيضا لأداء الغرامات والذعائر.يقدسون يوم السبت، حيث لا يمارسون فيه أي نشاط تجاري، وجاء في النصوص،و"كانت الأسواق التي تعقد يوم السبت قليلة، بل تكاد تكون منعدمة، وذلك لأن الديانة اليهودية تمنع على من يلتزم شعائرها ممارسة الأنشطة الدنيوية طيلة هذا اليوم."[37]وورد في أخبار "سيدي إبراهيم الماسي" أن اليهود ببلدة ماسة،"كانوا يؤدون مساهمات مالية عن كل فرد منهم لشيوخ المنطقة، وذلك إذا صادف عيد المسلمين يوم السبت."[38]وتشير الروايات أن جماعة يهود تارودانت كانت

تتكلف بتسيير الحمامات، نظرا لارتباط هذا المرفق بالطقوس الدينية للنساء.[39]

وعند انحباس المطر يخرج اليهود جماعة لطلب الغيث، حيث يدعون ويصلون بحرارة إلى حد البكاء.[40] وتسمى صلاة الاستسقاء عندهم ب"يقون هكشيم"، وتقام في نفس الوقت الذي تنظم فيه صلاة الاستسقاء من طرف المسلمين.[41] وعادة ما يجتمع اليهود حول رموزهم الدينية في الأوقات العصيبة، ومنها" ربي داود بن باروخهاكوهين"، من صلحاء القرن الثامن عشر والمدفون في قرية أغزو نباهمو بأولاد برحيل المجاورة لمدينة تارودانت، وهو أهم صلحاء اليهود في سوس.[42]

وقد ترتب عن هذا التكافل الاجتماعي بين مختلف الفئات اليهودية أنهم لم يتأثروا بسنوات المجاعة، ومنها مجاعة 1868م،بنفس القدر الذي تأثر به غيرهم. ويرجع الفضل في ذلك إلى الأعمال الخيرية التي قدمها اليهود الأثرياء للمعوزين منهم.[43] ولما حلت المجاعة سنة 1878 – 1879م، نزح اليهود من سوس نحو مدينة الصويرة،[44] وهناك استقبلهم إخوانهم، ووفروا لهم الإيواء والسكن والعلاج الطبي وتوزيع الطعام على الفقراء منهم، وكانوا ينفقون عليهم من أموال الصندوق الذي أحدث لمواجهة الوباء.[45] في حين عانت ساكنة الصويرة من تفاقم الفقر والمجاعة، وقد قدر القنصل البريطاني بالمدينة آنذاك عدد أولئك المحتاجين إلى المعونة في حوالي ألفي شخص.[46]

لقد كان للصدقة في المجتمع اليهودي مدلول أخلاقي وديني،[47] كما ساهمت في تراص الجماعات اليهودية ووحدتها بواسطة التضامن العضوي، ولم تكن لجان المساعدات التي تم إحداثها منذ سنة 1918م، سوى إعادة تنظيم لهياكل قديمة للجماعات اليهودية، بفعل استنادها على فكرة العمل الخيري

كأحد مقوماتها الأساسية والإستراتجية.[48] وعادة ما يتم التنسيق بين شيخ اليهود والأعيان وسكان الملاح، مما أدى بالسلطات إلى إصدار ظهير 22 مايو 1918م، الذي يخول تعيين شيخ اليهود في جل ملاحات المغرب.[49] وفي سنة 1937م، كانت مراكش مجمع الجياع المهاجرين من سوس ودرعة، وكانوا متكدسين في الفنادق.[50] ففي ديسمبر طلب ربي بنحاص كوهن، رئيس لجنة الجماعة المحلية، من رئيس مصالح بلدية مراكش الترخيص له بجمع التبرعات من يهود المدينة لمواجهة حاجيات 489 عائلة فقيرة تدفقت من ملاحات البوادي المجاورة ومن الجنوب، وبشكل خاص من منطقتي درعة وسوس، لتزويدها بالمساعدات الغذائية الأسبوعية والحساء الشعبي.[51] وقد جرت العادة عند يهود سوس جمع التبرعات للقيام بمشاريع خيرية، وتشير المصادر إلى دعم الرابطة الإسرائيلية ليهود إيليغ عبر العمل الخيري.[52] وكانت سلطات الحماية كثيرا ما تمنع جمع الهبات وسط اليهود، وتعلل ذلك بإرهاق القدرة الاقتصادية للفئات الفقيرة. وعلى سبيل المثال نجد سلطات أكادير حاربت هذه العادة عندما تأسست لجن خاصة بين يهود سوس من أجل بناء نصب تذكاري على قبر الحبر ربي مالكا في يوليو 1939م.[53] وفي نفس الفترة كان اليهود يؤدون الجزية[54] جماعة لا أفرادا، إذ تختص الجماعة اليهودية بجمعها داخل الملاحات فتدفع للأمناء والمكلفين بجبايتها من أعوان المخزن.[55]

وقد وجدت بالجنوب المغربي مجموعة من البيع اليهوديةCasynagoque[56] التي كانت مخصصة للتجمع وتدريس الصبيان والتشاور حول الأمور المتعلقة بالجماعة والتربية والتكوين التقليدي.[57] ورغم الخلاف الذي وقع بين فقهاء سوس عندما سمح الأمير "أبو حسون السملالي لليهود ببناء بيعة في مدينة إيليغ فإن دور البيع كان كبيرا.[58] وقد وصف كاتيل Gatell، يهود كلميم "الذين يبلغ عددهم مائة فرد، ويمتلكون كنيساً صغيراً لممارسة شعائرهم وتعليم

أطفالهم."[59] وعادة ما كان ينفق على هذه البيع من مال المحسنين، خاصة في الأعياد والمناسبات.[60] ويسير شؤون "البيعة"، حبر يطلق عليه لقب "شلياح صبور"، يساعده مستخدم يحمل لقب "شماش"، تتلخص مهامه في الصيانة والتنظيف، ويعمل الرجلان تحت "بارناس". وهؤلاء الثلاثة يعملون تطوعا بالمجان. وبداخل "البيع" نجد صناديق خاصة بالأعمال الخيرية.[61] ودأبت الجالية اليهودية بتارودانت، منذ فترة ما قبل الحماية على اجتماع أعيانها داخل البيعة عدة مرات في السنة للقيام بصياغة برامج قبل مباشرة الأعمال المرتبطة بتنظيم حاجيات الساكنة المحلية، كجمع التبرعات وتوزيعها على المحتاجين.[62]

لقد ساهمت "البيعة" في تعليم الصبيان التوراة وتعاليم الدين اليهودي،[63] لهذا كان اليهود يعطون للمعلم علاوة تسمى "خبز المعلم" في كل يوم الجمعة، إلى جانب "الشرط" وهو عبارة عن أجرة يأخذها "الحزان"مقابل حراسة الأطفال، وغالبا ما تتكلف الجماعات اليهودية بأداء تلك النفقات.[64] وبعد فتح أول مدرسة يهودية بتارودانت سنة 1929م، كلف سكان الملاح بتحمل جزء من مصاريف التدريس لضمان فتح مطعم مدرسي.[65] وكان الفقر الذي يعم غالبية السكان يحول دون شراء الألبسة، لهذا تكلفت المدرسة في البداية بتوزيع البدلات لتشجيع التلاميذ على ولوج المدرسة.[66]

وفي المنتصف الثاني من القرن الماضي، ظهرت جمعيات خيرية في المناطق الحضرية بسوس، وأهمها: الجمعيات اليهودية الأمريكية، ومؤسسة غوث الطفولة، ومؤسسة إعادة التأهيل المهني.[67] وبفضل هذه الجمعيات كان توفير الرعاية للأطفال ومساعدة النساء أثناء الولادة وفي فترة الرضاعة.[68]

ومجمل القول، نلاحظ أن مظاهر التكافل الاجتماعي بين الأسر اليهودية بالجنوب المغربي كانت دائما حاضرة وبقوة سواء في أوقات الرخاء أوالشدة. إلا أن عامل المصاهرة والجوار أدى إلى انفتاح الجماعات اليهودية على محيطها الخارجي، فنتج عن ذلك ربط علاقات تضامنية مع الأسر المسلمة بالمنطقة.

2-2 التكافل الاجتماعي بين الأسر اليهودية والمسلمة بالجنوب المغربي:

كانت الأسر اليهودية والأسر المسلمة بالجنوب المغربي تعيش جنبا إلى جنب في أحياء متجاورة، وتشترك فيما بينها الفضاء العمومي، كالأسواق والطرقات وغيرها.[69] وقد أشار المختار السوسي إلى التعايش بين اليهود والمسلمين في إيليغ، بقوله:"...فهناك المحل الذي يقطنه الإفرانيون،وكذلك المحل الذي فيه منازل الأعراب ومسكن اليهود يبتعد عن هذا السور..."[70] ووصف شارل دفوكويهودتيسنت، بقوله:"لا يعيشون بالملاحات بل اختلطوا بالسكان، بحيث كانوا يعملون كأجراء عند تجار المدينة ويقومون بتوزيع السلع صباح مساء، وقد قدر عددهم بقرابة عشرة يهود."[71] وفي مدينة تارودانت كان هناك بعض اليهود الذين استقروا خارج الملاح، رغم أن عددهم لم يتجاوز بضع عائلات مكونة في مجموعها من عشرين فرداً.[72] كماتحدث **"سلوش" Slouch** عن المصاهرة التي كانت ما بين اليهود والمسلمين، حينما قال: "بأن اليهود الأوائل اندمجوا عن طريق المصاهرة".[73] وكان يصعب التفريق بين اليهودي والمسلم في منطقة سوس، إذ "كان اليهودي لا يختلف عن المسلم، سواء في شكله، أو ملبسه، أو بساطته. ولذا فرض عليهم بعض الملوك لاحقا وضع طاقية على رؤوسهم (الشاشية) للتمييز بينهم."[74] ويذكر جون دافيدسون John Davidsonأن " هؤلاء اليهود يمتلكون كل خاصيات سكان المناطق الجبلية...يرتدون نفس زيهم، ولا يمكن تمييزهم عن جيرانهم المسلمين."[75]

لقد استعان السعديون باليهود في تسيير الشؤون السياسية والاقتصادية وتوظيف مهاراتهم في التعامل مع الأوربيين، إضافة إلى إرسالهم للتفاوض مع الأعداء أثناء النزاعات التي تنشب بين الإخوة المتنازعين على الحكم.[76] وفي عهد بودميعة شارك اليهود إلى جانب المسلمين في الحروب التي عرفتها المنطقة في هذه الفترة، حيث كان الصراع دائماً مع جيران إيليغ في الشمال من البعقيليين، ومن جهة الغرب مع الجراريين، وتشير الروايات إلى "معركة العركوب" التي استعان فيها سيدي علي باليهود، وعن هذه الواقعة يقول المختار السوسي:"استعد علي كل الاستعداد وزاد بالحيل حتى أنه أمر يهود إيليغ أن يتحينوا وقت اشتداد المعمعة فيخرجوا مجتمعين والقصب على أكتافهم كالبنادق ليحسبهم العدو جيشا جديداً يمد ءال إيليغ وقد نفذ اليهود الخطة كما هي..."[77] ومع مطلع القرن 19م كان اليهود في وادي نون ينقلون الأخبار للمخزن، لاسيما عند حدوث أمر ينعكس على السير العادي للتجارة أو تسرب أجنبي في المنطقة.[78] ومن أبرز التجار اليهود الذين كانوا عيون المخزن بالمنطقة أبرهام قرقوز، الذي كان ينقل للمخزن معلومات عن أمن الطرق، خاصة تلك الرابطة بين وادي نون والصويرة.[79]

وجرت العادة أن المسلمين كانوا لا يسمحون للنساء بالتعامل مع الرجال الغرباء، لكن اليهود كان مسموح لهم بالبيع والشراء مع نساء القرية، رغم ما آثار ذلك موجة من الانتقادات من لدن بعض الفقهاء.[80] وعادة ما يتجنب اليهود القيام بالأشغال العامة كشق الطرق والأوراش الأخرى، وكانوا يعمدون إلى البحث عن أفراد من المسلمين يعوضونهم مقابل أجرة يومية.[81] وقد خصص المسلمون أراض تقام فيها مقابر لليهود، مع مراعاة بعض الشروط أهمهما: الابتعاد عن المساجد والأضرحة ومقابر المسلمين، وأن لا تكون في المناطق التي تمارس بها الزراعة.[82] وبعدما وجد اليهود أنفسهم في حاجة إلى

مكان للدفن لبعدهم عن مقبرة إفران، طلبوا من بودميعة الحصول على قطعة أرض لتلك الغاية.[83] فاستجاب لهم هذا الأخير وشيدوا مقبرة في القسم الجنوبي لإيليغ، والتي تعود تواريخ شهود قبورها إلى تلك الفترة ومابعدها.[84] وإذا اقتضى الحال كان قضاة المسلمين يتدخلون لحل الخلافات بين اليهود، خاصة إذا كان أحد المتقاضين اليهود غير راض على حكم قاضي جماعته، وقد حدث هذا الأمر كثيرا بالنسبة لملاح إيليغ في عهد الحسين أوهاشم.[85]

وإذ تتبعنا أشكال التكافل الرمزي بين اليهود والمسلمين، سنجد أنهم يتشاركون في تقديس بعض الأضرحة، وأحيانا يتبركون بنفس الصلحاء، أو يحجون إلى مزارات مشتركة.[86] وورد في النصوص، أن الفلاحين المسلمين كانوا يلتمسون "من اليهود البركة، أي"بركة اليهود"، "فكانوا يسمحون لهم بالدخول إلى حقولهم، لأنهم يرون في هذه الزيارات علامة على البركة، وضمانا لسنة ممطرة. وتنتشر هذه العادة أكثر في عيد اليهود ميمونة".[87]

نستنتج من بعض كتب النوازل المحلية، أن المسلمين تكفلوا بأبناء بعض الأسر اليهودية. وعلى سبيل المثال:قدسئل العباسي "عن يهودي صبي لم يبلغ وهرب عند رجل في البلد...(تنكرت)، وادعى أنه أسلم عليه..."[88] وجاء في نوازل العلمي، أن "مسلم كلف بذمية غير متزوجة فطلب نكاحها فأبت، هل تجبر على ذلك؟"[89] وإلى جانب كفالة اليتامى، كان بعض المسلمين يحبسون أملاكهم على أهل الذمة.[90] وتشهد المصادر أيضا على حسن الجوار بين المسلمين واليهود، وفي هذا الصدد يخبرنا دييكوديطوريس، بقوله:"واللاتي لا عبيد لهن، يقوم أزواجهن بالخدمة خارج المنزل، ويتفق أحيانا إذا مر يهودي بباب المنزل إن لم يكن من الأعيان، أن تناديه المغربية طالبة منه أن يحمل الخبز إلى الفرن أو يأتي

بالماء من الساقية."[91] كما مارس اليهود مهن الخدم داخل بيوت المسلمين، بحيث كانوا يغسلون الثياب ويصنعون الخبز.[92]

وفي أوقات الشدة كان المسلمون يقترضون عند اليهود، وهناك إشارات عديدة في كتب النوازل، من بينها هذا السؤال، الذي وجه إلى سيدي سعيد بن علي الهوزالي قاضي الجماعة بتارودانت، وأهم ما جاء فيه:"عمن كان عليه دين ليهودي أو نصراني ثم مات ولم يعلم وارثه أو غاب عنه ولم يعلم موضعه؟"[93] وتخبرنا المصادر، أن دعاوى تجار اليهود قد تزايدت بالصويرة ما بين سنتي 1884 و1885م للمطالبة بما لديهم من الديون على سكان القبائل، الذين لم يتمكنوا من الوفاء بالتزاماتهم وأداء ما بذممهم من النقود نتيجة الظروف المناخية الصعبة التي اجتازتها البلاد في ذلك الموسم الفلاحي.[94] وقد لعب اليهود أيضا دور الوساطة بين المخزن والقبائل، خاصة عندما تنقطع الروابط التجارية بين سوس والصويرة.[95]

3 مظاهر التعاون الاقتصادي بين اليهودوالمسلمين بالجنوب المغربي.

تتفق أغلب المصادر التاريخية، على أن اليهود ساهموا بشكل كبير في النهوض بقطاع الصناعة والتجارة بالجنوب المغربي، وهذا الازدهار لم يكن من باب الصدفة، بل بتضافر الجهود بين اليهود والمسلمين، الذين عملوا معا على تطوير أساليب عيشهم، خاصة إذا علمنا أن المنطقة تتسم باقتصاد القلة أو الكَفاف.

3-1 التعاون الزراعي والحرفي:

لم تسجل النصوص تعاطي اليهود للفلاحة، بقدر ما دخل بعضهم في شراكة مع المسلمين الذين يقومون بفلاحة الأراضي وتربية المواشي.[96] وكان بعض يهود

منطقة أعالي سوس ومنطقة باني،"قد زاولوا زراعة الحقول والمواشي على أيدي مسلمين ارتبطوا بهم عن طريق الشراكة."[97]وقد أشار المختار السوسي إلى هذه المسألة عندما تحدث عن بعض "الحراطين الذين كانوا يشاركون اليهود أحيانا في عملية نقل المؤن من بوذنيب."[98]ويلاحظ من خلال وثائق الرهن التي تمت ما بين 1945 و1974م، أن بعض يهود ملاح تكاديرت ن أوشعيببأقا، قد حصلوا بكثرة على أراض تقع عليها بعض البساتين وأشجار النخيل، إضافة إلى حقول السقي والتي كانت تتم بطريقة النوبة المبنية على ما يسمى في العرف المحلي ب "الطاسة"[99]أو"تناست".[100]كما اشتهر بعض الصلحاء اليهود باستخراج مياه العيون، وعلى سبيل المثال، الحبر ربي اسخار بعل هاماعين، الذي يوجد قبره بأقا، وكان مشهوراً لدى ساكنة المنطقة باسم "هاماعين"، والذي يعني بالعبرية:"باعث العيون المائية".[101]وبما أن "التويزة" أو "تويسي"،[102]كانت تتطلب العمل الجماعي للقيام بأشغال الفلاحة كالحرث والحصاد، وهي مفروضة على جميع سكان القبيلة، ففي هذه الحالة يستعين اليهود بالمسلمين ليحلوا محلهم مقابل مبالغ مالية.[103]كما هو الحال في منطقة تاهلة،إذ "كان اليهود يؤدون ستين دورو لإعفائهم منالتويزة".[104]

استطاع اليهود التأقلم بالجنوب المغربي، وتخصصوا في أعمال تجارية وحرفية ضمنت لهم سلطة المعرفة (savoir faire) وجعلت المجتمع في حاجة إليهم.[105]وفي هذا الصدد مارس اليهود حرفة السكافة والدباغة وصياغة الحلي، إذ اتخذوا الدكاكين مقرات للعمل وأحيانا منازلهم أو باحات الطرق المؤدية للملاحات.[106]وقد ورث اليهود هذه الحرف عن أجدادهم.[107]وهناك إشارة لحسن الوزان تتعلق بصناع مدينة تيدسي، بقوله:"...وفيها عدد كثير من الصناع اليهود كصياغين وحدادين..."[108]وفي تارودانت وجد تجار وحرفيون متفرقون في بعض أحياء المدينة وساحتها العمومية، حيث كانوا يتوفرون على

دكاكين بالفنادق والأمكنة القريبة من الملاح.[109] وكانت حوانيت صاغة اليهود تابعة لأحباس الجامع الأعظم.[110] وقد جاء على لسان الباحثة الأمريكية ليدن Lydon أن في مدينة كلميم كان يوجد "خمسة أو ستة إسكافيين."[111] وتشير الروايات إلى بعض النساء اليهوديات اللواتي تخصصن في مزاولة خياطة الجلابيب والفرجية لزبائنهن من سكان المدينة، أو ممن يرتادها من القرى المجاورة.[112] وورد في الفتاوى الفقهية في عهد السعديين أن اليهوديات كان لهن الفضل في تعليم اليهوديات بنات المسلمين حرفة الخياطة.[113] ويعتبر محمد الأمين مقدم قرية تبنتازات أن بناء منازل ملاح القرية "قد أقامها اليهود أنفسهم مقابل ما قام به المسلمون من منحهم الخشب لسقفها."[114]

يظهر من خلال مظاهر التعاون الزراعي والحرفي التي أشرنا إليها، أن الجماعات اليهودية والمسلمة استطاعت أن تحقق تكامل اقتصادي، تتجلى ملامحة في توفير الغذاء والحاجيات الضرورية للعيش. إلا أن معظم اليهود بالجنوب المغربي لم يهتموا كثيراً بالفلاحة بقدر ما تعاطوا للتجارة.

2-3 التعاونفي التجارة:

ساهم اليهود في ازدهار الاقتصاد المحلي بفضل علاقاتهم التجارية وخدماتهم الحرفية التي كانت ضرورية في مجتمع يعتمد على عائدات التجارة الصحراوية البعيدة المدى.[115] ونلمس مظاهر التعاون التجاري بين اليهود والمسلمين في القيام بدور الوساطة التجارية، حيث كان اليهود يتوسطون في العلاقات التجارية بين أهل ماسة والبرتغاليين، وهذا ما تخبرنا به رسالة مؤرخة في 6 يوليو سنة 1510م، بعث بها سكان ماسة إلى إمانويل الأول يلتمسون خلالها من البرتغاليين التدخل من أجل افتكاك أسير يهودي، كان يقوم بدور الوساطة التجارية لصالحهم، قبل أن يقع في قبضة قبيلة معادية لهم.[116] وذكر

حسن الوزان، "أن سكان إفران أغنياء لأنهم يتاجرون مع البرتغاليين في أكادير، حيث يقومون بدور الوساطة التجارية بين هذا المركز وبين تيمبوكتو لتبادل السلع الصحراوية مع المنتوجات القادمة من أوربا."[117] وبعد تحرير أكادير سنة 1541م، اعتمد السعديون على خبرة اليهود في إدارة شؤون التجارة وصناعة السكر، التي كانت منتشرة بكثرة في ضواحي تارودانت.[118]

كان بودميعة يعتمد كثيراً على اليهود في تطوير تجارته، لذلك عندما أسس إمارة إيليغ ما بين 1612 و1622م، استقدم إليها اليهود انطلاقا من إفران.[119] ومن أشهر العائلات اليهودية التي ربطت علاقة تعاون تجارية مع زعيم إيليغ، عائلة بالاش.[120] وقد جاء في المصادر أن سيدي علي كان له "خدام من اليهود كثيرون."[121] لأنه كان يثقفهم أكثر من المسلمين.[122] ومعلوم أن اليهود يحظون بكثير من الثقة في كل الأمور ذات الصبغة الاقتصادية.[123] وبفضل هذه المكانة أصبح اليهود يلعبون دور الوساطة التجارية بين سيدي علي وبين حكومة هولندة.[124] وجاء على لسان أحد اليهود:"كان لسيدي علي بديوانه كاتب يهودي وهو موسى بلاش، ومن رجال ماليته يهودي آخر يسمى جوزي. إضافة إلى المرحوم يوسف بلاش كان مدة 32 سنة سفيراً له، لدى حكومة هولندة."[125] وورد في المراسلات الرسمية بعض الشهادات التي تخبرنا أن سيدي علي كان يدعم التجار اليهود ويحسن معاملتهم، ففي رسالة قنصل فرنسا بالمغرب مازيت إلى الوزير الشهير ريشليو، والتي تحدث فيها عن ماسة، يقول:"...يتولاها مرابط كبير يسمونه سيدي علي...،وهو يحب التجار ويعاملهم معاملة حسنة كيفما كانت جنسيتهم، وهؤلاء التجار يرحب بهم أينما حلوا..."[126]

لقد ازدادت أهمية علاقة التعاون التجاري بين اليهود والمسلمين في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، إذ كان قسم هام من اليهود يشكلون

"**تجار السلطان**" بمرسى الصويرة.[127] وعلى سبيل المثال عائلتي قرقوزوأفرياط، اللتين كانت لهما علاقة وطيدة مع السلطان وأعيان منطقة سوس، وعائلة المليح المستندة على موقعها التقليدي في زعامة يهود الصويرة.[128] وقد استعانت هذه العائلات الثلاث بعدد من الوكلاء والسماسرة في تارودانت، وإيليغ، ووادي نون، بالإضافة إلى واحات باني، وهو ما سهل عليهم عملياتهم التجارية.[129] وفي ما يخص تسهيل عملية نقل وتبادل السلع بين أسواق سوس والصويرة، هناك بعض العائلات المنحدرين من قبائل اشتوكةوأيت باها، كانت تتعاطى لحرفة الجمالة في فترة القرن 19م، وتخصص أفرادها في نقلع السلع في إطار التجارة الصحراوية.[130]

وعادة ما يتاجر اليهود بمال الأعيان من المسلمين، خاصة في المواسم الكبرى.[131] كما تخبرنا وثائق دار إيليغ:"أن اليهود كانوا يقترضون الأموال من الحسين أوهاشم على أساس اتفاق يتم بين الطرفين، يشار فيه كتابيا إلى تقسيم أرباح افتراضية مما يمكن جنيه من استثمار هذه الأموال، وذلك بعد إعادتها إلى صاحبها خلال فترة قد تتراوح ما بين سنة وثلاث سنوات."[132] وتختلف هذه القروض عن القروض الإحسانية التي كانت تعطى بدون فائدة ولا توجه للاستثمار. وكانت جد قليلة بالمقارنة مع تلك التي توظف في العمليات التجارية، وعادة ما تقدم للمسلمين من القبائل المجاورة.[133] وبعدما ارتفعت نسبة المعاملات التجارية بإيليغ، قام الحسين أوهاشم ببناء الدكاكين للتجار اليهود داخل السوق.[134]

لقد توسعت شبكة علاقات التعاون التجاري بين تجار اليهود والمسلمين لتمتد إلى وادي نون، إذ تشير المصادر إلى عائلة آل توقلعزت، وآل أفرياط،[135] وآل النفتالي، التي كانت لها صلة مباشرة مع تجار الشيخ بيروك في النصف الأول من القرن 19م.[136] فقد اعتمد الشيخ بيروك على آل أفرياط في بيع الصمغ إلى

الأوربيين، مقابل شرائهم للسلع البريطانية الصنع.[137] وكانت أسرة الشيخ تتخذ جل وكلائها من اليهود، خاصة في مرسى الصويرة، ففي سنة 1837م، حل يوسف بالصويرة وكيلا لبيروك للتفاوض على تسوية سرية مع الفرنسيين تسمح بقيام نشاط تجاري على ساحل وادي نون.[138] وبذلك تمكن هاري ويوسف أبناء أفرياط، من تأسيس شبكة تجارية وتخصصوا في سلع معينة،[139] وحققوا مكاسب مالية هامة.

ومن مظاهر التعاون التجاري أيضا العمل بالاقتراض،[140] إلى جانب البيع بالآجال، حيث كان اليهود يبيعون السلع ببيع الآجال سواء لحسابهم أو لحساب موكيلهم في الغالب.[141] كما كانوا يشترون السلع بالسلف إلى أن يتم بيعها أو تعويضها بشراء سلع بديلة عنها.[142] والغرض من ذلك تيسير العمليات التجارية البعيدة المدى.

يتضح من ما سبق أن التعاون التجاري بين تجار اليهود والمسلمين، كان قائماً على عنصر الثقة، مما أدى إلى توسيع الشبكات التجارية بين الطرفين. كما ساهم توفير الأمن والحماية للتجار في ازدهار المبادلات التجارية بين الحواضر والقرى.

4 التعاون الدفاعي والأمني بين اليهود والمسلمين بالجنوب المغربي.

عرف الجنوب المغربي بين الفترة الحديثة والمعاصرة، ازدياد عدد اللصوص وقطاع الطرق خلال سنوات الجفاف والمجاعة، إضافة إلى انتفاضة بعض القبائل أثناء تضعضع سلطة المخزن وعجز القواد عن التحكم في الأمور. مما استوجب حماية أهل الذمة.[143] ومن بين الإجراءات التي اتخذها المخزن في هذا الصدد، وضع قانون خاص ب "أهل الذمة"، يرجع العمل به إلى فترة الأدارسة.[144] إذ يحتم على الحاكم أن يؤمن سلامة أهل الكتاب الذين يعيشون

في أرض الإسلام مقابل أداء الجزية.[145] ولكن ورد في بعض المصادر إشارات تتعلق بإعفاء بعض اليهود في منطقة "تيوت" من أداء ضريبة الجزية،وتم تعويضها بتقديم الهدايا للأعيان.[146]كما لا نجد في الوثائق التي احتفظت بها عائلة بودميعة ما يشير إلى مسألة الجزية، مما يرجح أن سكان ملاح إيليغ كانوا معفيين من هذه الضريبة.[147]

كانت الأسر المسلمة توفر للأسر اليهودية إمكانية العيش والتنقل بين مناطق نفوذهم بكل أمن وسلام في أنفسهم وأموالهم.[148]وذلك راجع إلى مبادئ الشريعة الإسلامية التي تلزم المسلمين بمعاملة الذميين بالمعاملة الحسنة والاحترام، لذلك لم يكن بمقدور المسلم أن يمس اليهودي بمكروه.[149]وبإقليم جزولة، وبتحديد في قرية "**تكوداست**"، كان اليهود يمارسون شعائرهم بحرية، مما شجعهم على الوفود على البلدة والاتجار فيها.[150]وقام المخزن بتعزيز أجهزة المراقبة والحمايةببناء الملاحات[151]لهم، حتى يكونوا مستقلين في سكناهم، ومطمئنين إلى حياتهم وتقاليدهم وأموالهم وأنفسهم.[152]وكان الملاح في أغلب مناطق سوس، يعكس في بنيته النسق القبلي، حيث اتخذ سكانه هوية الانتماء إلى اسم القبيلة التي كانت تحتضن تجمعهم.[153]ومن أشهر الملاحات بالجنوب المغربي هناك:ملاح أكادير إيغير، وتارودانت، وإيليغ، وكلميم، وتيزنيتوتاهلا. وتعود أول إشارة لملاح تارودانت في الوثائق المغربية إلى فترة السعديين، وهي ترد في وثيقة مؤرخة في بداية جمادى الأولى 953هـ/30 يونيو 1546م، متضمنة لشهادة حبسية لجنان محيط بدرب اليهود، حبسه السلطان محمد الشيخ السعدي على الجامع الأعظم الموجود أنذلك بالقصبة.[154]كما ورد في أحد الكنانيش أن الأراضي التي تقام عليها منازل اليهود في تارودانت تمنح لهم من طرف المخزن.[155]

أغلب الأسر اليهودية كان أفرادها يتعاطون تجارة التجوال، ويسمون "بتجار الشتات".[156] لذلك كانوا يرتادون الأسواق القبلية في مناطق الأطلس الصغير ومناطق أيتباعمران ووادي نون.[157] وعادة ما يتم استقبالهم في الفنادق بمدينة تارودانت.[158] وقد تمكن اليهود بفضل علاقتهم مع سلسلة من المخبرين وزعماء القبائل في مختلف أسواق الجنوب المغربي من الإطلاع على أوضاع الطرق التجارية، وتفادوا بذلك أية أضرار يمكنها أن تؤثر على تجارتهم.[159] كما فرضت القبائل غرامات ثقيلة على كل فرد أو جماعة تعتدي على فرد من أفراد اليهود.[160] وتخبرنا الروايات أن يهود تالعينت في أولاد جرار احتموا بالأسرة البورحيمية، وسكان أكرض بقواد تامانارت، وفي أقا بسلطة أيتأومريبط، وفي إفران بالقائد الخصاصي، وفي كلميم بعائلة عبيد الله أسالم، وفي إيليغ بآل بودميعة.[161] ومن العوائد أيضا أن التجار يطلبون عقد الحماية من أشخاص متعددين لضمان تسهيل حركاتهم. (لم تراجع كتاب إيليغ قديما وحديثا للسوسي فهو سيغنيك عن الاعتماد الكلي على كتاب لغمييد)[162] وكان ميثاق الحماية يتم بذبح "الذبيحة" كبشا أو ثورا، أمام أحد ممثلي السكان، وتسمى هذه العادة محليا ب"مزراك"، أي "العار"أو"الإسفين"، بمعنى"الخزي".[163] وبعد ذلك يصبح اليهودي تحت حماية أفراد القبيلة، مما يسهل عليه التنقل والتبادل التجاري، كما أن الاعتداء عليه يعد انتهاكا لحرمة القبيلة التي توفر له الحماية.[164] وإلى جانب عادة "العار"، هناك أيضا اتفاقيات "الخاوة"، ففي المنطقة المحاذية للصحراء، والواقعة على الطريق الصحراوي المؤدي إلى تينبوكتو، كان بعض الأفراد يعقدون اتفاقيات "الخاوة" مع عائلة بن دنبا من قبيلة أيت أحمد التكنية. وتميز هذا التعاقد بحماية من كان خارجاً من القبيلة، على أساس الدخول في إطار الأخوة التضامنية. هنا يمكن أن تتواصل مع عبد الهادي مدن ليزودك بمعلومات عن يهود كلميم[165] وفي هذا الصدد

سنشير إلى نموذج لتعاقد "الخاوة" بحوزة الغزاوي بشير بن بكار بكلميم أحد حفدة أسرة آل بيروك، أهم ما جاء فيه:"

"الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده، أما بعد فقد أدى علي الذمي ربين به المسلم من يهود أجلميم أنه ذبح على برك بن امبارك بن دنب الأحماديالرموشي وأنه أخ له من جهة (كذا) الذبيحة لامنجيهة (كذا) الإسلام وأنه واحد من القبيلة يعمه ما يعمهم من فريضة وغيرها كما في عادة تكنة وأنه يسير في الليل وفي النهار في بلد أيت حماد ومن كان أخ لهم هو ولا متاعه وتكفل له برك بكل ضرورة (كذا، ويعني الضرر) أتته من قبيلته وهذا ما أدى علي به حال الصحة والطوع وجواز أمر. وكتبه في آخر ذي الحجة الحرام عام 1290هـ. عبد ربه محمد بن أحمد بن عثمان الجلميمي وفقه الله. آمين"[166]ولابد أن نشير هنا أن هذا الشكل من التعاقد يستفيد منه اليهود والمسلمون على حد سواء.[167]

لقد استفاد اليهود من الأعراف التي وضعتها القبائل بهدف توفير الأمن في الأسواق، وأهم ما جاء فيها: عدم الاقتتال، والسرقة، وارتكاب كل ما يمكن أن يمس بسلامة التجار والأشخاص.[168]وقد تكلف أعيان أيتإيخلف إحدى قبائل أيتباعمران، بضمان أمن وسلامة التجار والزوار الوافدين لموسم سيدي محمد أوعبد الله.[169]وأثناء انعقاد دورتي[170]موسم سيدي أحمد أوموسبتازروالت،"يأتي تجار اليهود من كل أرجاء سوس وخارجه ومن الصويرة، فينصبون خيامهم خارج حرمة الولي الصالح، إذ كان يسمح لهم فقط بالمكوث في مكان قريب من الموسم."[171]ولاحظ باسكون Pascon في دراسته لدار إيليغ، أن اليهود في سوس يستقرون قرب حصن سيد بإمكانه توفير الحماية لهم، في مقابل تقديم خدمات معينة له. وذلك خلافا لوضعيتهم في الأطلس الكبير، حيث يستقرون في مكان منعزل.[173172]

غالبا ما يتعرض أحد اليهود للنهب أو القتل، في فترات الاضطرابات السياسية أو حينما يسافر بين القبائل دون موافقة من يحميه.[174] فمثلا "قد تعرض تاجر يهودي أثناء تنقله بناحية أكادير للنهب في أواخر سنة 1869م، فسرقت منه ستون ريالا وسلع تساوي ثلاثة وأربعين ريالاً. ورفع الشكوى للسلطان بواسطة القنصل الفرنسي من أجل الفصل في النازلة واسترجاع ما ضاع منه."[175] ولهذا السبب كان بعض تجار المسافرين يستعينون بمؤسسة "الزطاط"" في تنقلاتهم، وذلك عبر عقود كانت تبرم بين اليهودي وبين الزطاط.[176] وقد ورد في قائمة حساب لأحد قناصل فرنسا بالمغرب مؤرخة ب 1633م،"ذكر جملة المصاريف المتعلقة بالمغرب، قدر من الدراهم....ما سيعطى للخافرين الذين يخفرون المسافرين في المغرب، نظراً للحرب التي أقامها سيدي علي في هذه البلاد ضد سلطان المغرب."[177] كما يخبرنا دفوكو:"استأجرت خفرا من أيتإزدك بعد اتفاق مع هؤلاء الآخرين لكونهم أسياد المنطقة كلها. يطلب إزدك 5 فرنكات لكل بغل وكل يهودي، وكل بعير ونصف هذا القدر من المال لكل حمار يمر عبر أراضيهم مقابل تقديم زطاطتهم من قصر السوق حتى فج تلغمت. لا يدفع المسلمون أي قدر من المال لتأمين سلامة أرواحهم. يخفر أيتإزدك القوافل ويضمنون أمنها مقابل الإتاوة السالفة الذكر. يتكون خفرنا من 3 فرسان، و6 أو 7 راجلين."[178] وتضيف المصادر أن أفراد قبائل إداوبلال بمنطقة طاطا كانوا يحترفون وظيفة "الزطاطة" في القرن 19م.[179] إلى جانب بعض الأسر المسلمة التي أخذت على عاتقها تأمين الطرق والمسالك للتجار اليهود، مثل أسرة عبيد الله أسالم في منطقة وادي نون التي كانت تراقب الطريق التجاري المار بأيتباعمران وكلميم، وأسرة بودميعة المسيطرة على الطريق الرابط بين

إيليغوتينبوكتو عبر إفران (الأطلس الصغير).[180] وتخبرنا الروايات أن الشيخ بيروك وفر الحماية لليهود مقابل خدمتهم له كوكلاء تجاريين.[1181]

وقصارى القول:نرى أن التعاون الدفاعي والأمني بين اليهود والمسلمين بالجنوب المغربي، قد حافظ على حريات الأقليات بالمنطقة، كما مهد لها الطريق نحو العيش الكريم، والمشاركة الفعلية في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية.

خاتمة:

يظهر من ما سبق أن الأسر اليهودية اتسمت بالوحدة وقوة الارتباط بين أفرادها، خاصة في الأقوات العصيبة، إلى جانب التئامها برموزها الدينية عند الشدائد. ونرى كذلك أن العمل الخيري كان يشكل أحد الركائز الأساسية التي تقوم عليها الجماعات اليهودية بالمنطقة. ويلاحظ أيضا أن جل المساعدات الاجتماعية كانت تتم وفق برامج مضبوطة، الشيء الذي ساعد عدد أكبر من المحتاجين والضعفاء على الاستفادة من المعونات المخصصة لهم. وذلك انعكس إيجاباً على اليهود اللاجئين والفارين من بلاد المجاعة، مقارنة بنظرائهم المسلمين الذين تضرروا بشكل كبير من المجاعات بسبب قلة الدعم وغياب المساعدات، فأصبحوا عرضة للهلاك والتسول في أزقة المدن وأسواقها. كما استطاع أبناء الفقراء من اليهود الالتحاق بالمدارس ومواصلة مشوارهم التعليمي بفضل تبرعات الأغنياء منهم.

ونستنتج كذلك أن الاختلاط بين اليهود والمسلمين أدى إلى الإندماج والمصاهرة بين الأسر، وبذلك تقلد اليهود المناصب السياسية في الدولة، وأصبحوا تجار كبار داخل الوسط القبلي. في حين أن الأعراف كانت لا تميز بين اليهود

1

والمسلمين في الحقوق والواجبات، إلى جانب حرصها القوي على حماية الأقليات من كل أشكال التمييز والإقصاء والتعدي.

وختاماً، لقد توحدت المصالح بين اليهود والمسلمين مما أدى إلى تقوية التعاون بين الطرفين، فنتج عن ذلك مجتمع متماسك غني بثقافته المتعددة. إلا أن هذه الخصوصيات مازالتفي حاجة إلى المزيد من البحث والدراسة من أجل إبراز أبعادها التاريخية والاجتماعية والثقافية.

الهوامش:

[1] J. Gattefossé, « Juifs et chrétiens du Draa avant l'Islam », B. A. D. M, 3e et 4e trimestres, 1935, PP. 40-41.

[2] عبد الكريم بوفرة، مادة "اليهود في المغرب"، معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1426/ 2005، ع 22، ص 7679.

[3] A. I. Laredo, Berbers y Hebreos en Marruecos, Madrid, 1954, PP. 105-126.

[4] عبد الكريم بوفرة، مادة "اليهود في المغرب"، معلمة المغرب، ع 22، ص 7679.

[5] مفرد هذه الكلمة هو إفري، وتصغيرها تيفريت الذي يجمع على تيفراتين. فالتسمية تفيد الكهوف التي تؤدي تحت سطح الأرض إلى سراديب، وربما دلت على أولى مظاهر العمران البشري… يربط هذا المدشر ومناطق المجاورة بين منطقتي وادي نون وإداوسملال بالأطلس الصغير. أنظر: مصطفى ناعمي، مادة "إفران الأطلس الصغير"، معلمة المغرب، ع 2، مطابع سلا، 1410/1989، ص 548.

[6] J. Goulven, « Notes sur les origines anciennes de Israélites au Maroc », H. Vol. I. 1921, P. 325.

[7] Vincent Monteil, « Les Juifs d'Ifran, » Hesp, 1948, 1e et 2e trim, PP. 151-162.

[8] Denise Jacques Meunié, Le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris, 1982, P. 176.

[9] Vincent Monteil, « Les Juifs d'Ifran, » op. cit, PP. 158 – 159.

[10] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس 1860-1960، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي، تقديم: محمد كنبيب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2016، ص 37.

[11] عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الثالثة، بيروت، مكتبة المدرسة ودار التراث، 1967، ج 4، ص ص 24 – 26. 217.

[12] أبي عبيد البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب المصرية، (د. ت)، ص ص 115 – 148.

[13] Gabriel Camps, « Réflexions sur l'origine des juifs des régions Nord-Sahariennes », In : M. Abitbol, (éd), Communautés juives des marges sahariennes du Maghreb, Jérusalem, Institut Ben-zvi. 1982, P. 66.

[14] حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1418-1997م، ص143.

[15] عبد الكريم بوفرة، مادة "اليهود في المغرب"، معلمة المغرب، ع 22، ص 7680.

[16] حسن الوزان، وصف إفريقيا، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج 1، ص 127

[17] نفسه، ص ص 131 – 132.

[18] مارمولكربخال، أفريقيا، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلوُن، دار نشر المعرفة، الرباط، 1408-1409/1988-1989، ج 3، ص 149.

[19] Marmol, Histoire des chérifs et des Royaumes du Maroc, Traduct : du Duc d'Angloutisme, Paris. P. 154.

[20] أحمد بومزكو، مادة "تجدرارت"، معلمة المغرب، ع 7، مطابع سلا، 1415/1995، ص 2285.

[21] محمد المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، 1386 – 1966، ص 62.

[22] شارل دو فوكو، التعرف على المغرب 1883 – 1884، الرحلة 1، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1419 – 1999، ص 148.

[23] Lydon, Ghislaine, « On Trans-SaharanTrails : Islamic Law, Trade Network, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth » Century Western Africa, Cambridge UniversityPress, 2009, P. 184.

[24] عمر أفا، مادة "باها"، معلمة المغرب، ع 3، مطابع سلا، 1411-1991، ص 1022.

[25] Ibid, P. 386.

عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 323.

[26] A. A. I. U, Maroc L. XXVI E, Taroudant. 24.03.1935. Gomel au Président de L'Alliance.

نقلا عن: عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 244.

[27] Pierre Flamand, « Quelques renseignements statistiques sur la population israélite du sud Marocain », H, 1950, PP. 386-387.

[28] أحمد هوزالي، مادة "الملاح"، معلمة المغرب، ع 21، ص7261.عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 317.

[29] J. I. Clier, G. Farrie et J. Vigouroux, « Fréquence du Strabisme oculaire parmi la population du Mellah de Taroudant en rapport aves la consanguinité », B. I. H. M, Tome XIII, n°3-4, 1953, PP. 229-232.

[30] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 238.

[31] عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي 22-462 هجرية / 642-1080م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 2001، ص 118.

[32] نفسه، ص 116.

[33] ايلي مالكا، العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص 14

[34] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 337.

[35] ايلي مالكا، العوائد العتيقة اليهودية بالمغرب من المهد إلى اللحد، ص 121.

[36] حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة: أحمد شحلان، مرسم، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ج 2، ص 495.

[37] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 112.

[38] إبراهيم الماسي، أخبار سيدي إبراهيم الماسي عن تاريخ سوس في القرن التاسع عشر، النص الأمازيغي مع ترجمات إلى العربية والفرنسية والإنجليزية، اعتنى بنشره، عمر أفا، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة نصوص ووثائق – رقم 3 - ، الطبعة الأولى 1425 – 2004، ص 33.

[39] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 320.

[40] أبو إدريس، "المجاعات وأثرها على النمو الديمغرافي، أواخر القرن 16 – النصف الأول من القرن 18م"، كنانيش، مجلة متخصصة في الديمغرافيا التاريخية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بوجدة، صيف – خريف 1999، العدد1، ص 148.

[41] محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 1992، ص 351.

[42] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 52 - 53.

[43] محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، ص 357.

[44] دانييل شروتر، تجار الصويرة المجتمع الحضري والإمبريالي في جنوب غرب المغرب 1844-1886، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة 6، الطبعة الأولى 1997، ص 370.

[45] نفسه، ص 377 – 378.

[46] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 91.

[47] P. Flamand, Diaspora en terre d'Islam : Les Communautés israélites du Sud marocain, Casablanca, Presses des Imprimeries Réunies, s.d, 1959, PP. 241 – 252.

[48] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص ص 368 – 369.

[49] نفسه، ص 269.

[50] D. Roland, « Le dernier Moussem », Maroc, Les villes impériales romans, contes et récrits réunis et présentes par Guy Dugas, Paris, omnibus, 1996. PP. 873-886.

[51] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 265.

[52] نفسه، ص 190.

[53] A. D. N. Maroc. D. I. Questions Juives 18, Rabat, 24.7.1939. Le Président du Comité de la communauté Israélite d'Agadir au commandant d'Haute ville chef du Territoire d'agadir.

نقلا عن: عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 263.

[54] مفهوم الجزية يطلق على الضريبة التي كان يدفعها أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين للحكام المسلمين بصفة خضوعهم لراية الإسلام. أنظر: الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 181.

[55] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص ص 156 – 189.

[56] يسميها المسلمون بالمغرب "جامع اليهود"، في حين يسميها اليهود "صْلاة"، جمع صلوات. وقديما كانت مقرا لاجتماعات هيئة "الأعيان والربيين" الذين يسهرون على شؤون الملاح. وتحتضن كذلك المحاضرات التي يلقيها الربيون الزائرون... أنظر: سيمون ليفي، مادة "البيعة"، معلمة المغرب، مطابع سلا، 1992/1413، ع 6، ص ص 1958 – 1960.

[57] A. Chouraqui, Les Juifs d'Afrique du Nord, Marche Vers l'occident, Paris, 1950, P. 133.

[58] محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976/1936، ج 1، ص 271.

[59] Gatelle Joachim, « L'ouad-Noun et Le Tekna, à la cote occidentale du Maroc », B. S. G. P. octobre 1869, P. 265.

[60] سيمون ليفي، مادة "البيعة"، معلمة المغرب،ع 6، ص 1959.

[61] عطا علي محمد شحاته ربه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيينوالوطاسيين، دار الكلمة للطباعة والنشر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى 1999، ص 95.

[62] A. D. N. Maroc, D. I, Questions juives 50, Taroudant, 08.4.1939. le capitaneDenat, chef du bureau des A. I. de Taroudant au conseiller du Gouvernement chrétien.

نقلا عن: عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 268.

[63]Y. D. Sémach, « Un rabbin voyageur marocain : Mardochée AbySerour », H. Vol 8, 1928, PP. 387-388. J. Bénech, Essai d'explication d'un Mellah (Ghetto marocain), Baden-Baden, 1949, PP. 143 – 156.

[64] عطا علي محمد شحاته ربه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى، ص 190.

[65]عبد الله لغمائذ، يهود منطقة سوس، ص ص 238 – 263.

[66] A. A. I. U, Maroc L. XXVI E, Taroudant. 23.02.1930. Joseph Bassan au Président de L'Alliance.

نقلا عن: عبد الله لغمائذ، يهود منطقة سوس، ص 238.

[67]عبد الله لغمائذ، يهود منطقة سوس، ص 374.

[68]P. Flamand, Les Communautés israélites, op. cit, P. 249.

[69] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 88.

[70] محمد المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص 67.

[71]شارل دو فوكو، التعرف على المغرب، ج 1، ص 168 و 169.

[72] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 325.

[73] عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب العربي، ص 59.

[74] أحمد هوزالي، مادة "الملاح"، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2005/1426، ع 21، ص 7261.

[75]John Davidson, Votes Taken during Travels in Africa, Londres, 1839, P. 165.

[76]S. I. H. M. Tome II, DynasticSaadienne, Paris, 1948, PP. 416-417.

[77] المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص 247.

[78] عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2018، ص 148.

[79] نفسه، ص 150.

[80] لحسن اليوبي، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1419-1998، ص 267 و 268.

[81] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 267.

[82]P. Pascon et D. J. Schroeter, In : La Maison d'Iligh et l'histoire sociale de Tazerwalt, Rabat, S M E R, 1984, PP. 113 – 140.

[83] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 55.

[84]P. Pascon et D. J. Schroeter, In : La Maison d'Iligh et l'histoire sociale de Tazerwalt, op. cit, PP. 113 – 140.

[85]رواية شفوية للسيد امبارك المحمودي، أحد المسنين بالمنطقة والذي كان فقيها لدى عائلة بودميعة. نقلا عن: لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 187، الهامش 139.

[86] L. Voinot, Pélerinages judéo-musulmans au Maroc, Paris, Editions larause, 1948, PP. 75-79.

[87] حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ج 2، ص 537.

[88] أحمد العباسي، مسائل وأجوبة فقهية، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم 5076، ورقة 3، أ.

[89] علي العلمي، كتاب النوازل، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1409-1989، ج 3، ص 205.

[90] يوسف بن الشريف، الفروق الفقهية بين المسائل الفرعية في الوقف والهبة واللقطة واللقيط دراسة مقارنة، سلسلة الرشد للرسائل الجامعية 250، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى 1435 – 2014، ص 143.

[91] دييكوديطوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المدارش شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، مطابع سلا، 1988، ص 61.

[92] عطا علي محمد شحاته ربه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى، ص 149.

[93] الحسن العبادي، فقه النوازل في سوس، قضايا وأعلام، من القرن التاسع إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، منشورات كلية الشريعة بأكادير، الطبعة الأولى، 1420-1999، ص 423.

[94] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 107.

[95] نفسه، ص 97.

[96] A. A. I. U, Maroc, Taroudant LXXXVI E, Taroudant, 10.12.1933. Gomel au Président de l'Alliance.

نقلا عن عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 207.

[97] نفسه، ص 113.

[98] أحمد عبد اللوي، مدغرة وادي زيز إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ج 2، 1416-1996، ص 175.

[99] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 296.

[100] تدعى هذه الآلة "تاناست" باللسان الأمازيغي، بمعنى النحاسية، كما تدعى أحيانا "الطاسة"، فهي إناء بسيط مصنوع من النحاس على شكل نصف كرة غير هندسية، يوجد ثقب دقيق في قعره، وهذا الثقب مزود بقطعة نحاسية سميكة يخترقها نفس الثقب بهدف عدم توسيع ذلك الثقب بفعل الماء أو أي تدخل خارجي فيظل ثقبا ثابت الفتحة، ويعتبر مقدار فتحة هذا الثقب وحجم تاناست هو الميزان الذي تقاس به المدة الزمنية اللازمة لضبط كمية الماء أثناء التقسيم. وقد ألصقت بهذه الآلة من السطح الداخلي قطع قضية تحدد تقسيما معينا في ناحيتين متقابلتين إحداهما تشير إلى الربع والثمن والنصف وثلاثة أرباع، والثانية تشير إلى الثلث والثلثين والسدس. أنظر: المختار السوسي، المعسول، الجزء العشرون، ص 152. عمر أفا، "تاريخ أنظمة السقي التقليدي وتقنية تقسيم المياه في أحواز تيزنيت"، ضمن أعمال: مدينة تيزنيت وباديتها، منشورات كلية الآداب بأكادير، 1996، ص 120.

[101] يقع قبره قرب قصر إيرحالنبأقا، مكان للزيارة التقليدية بالنسبة للجماعات اليهودية. أنظر:
V. Monteil, « Choses et gens du Bani », H. XXXIII, 3e et 4e Trimestre, 1946, P. 396.

[102] تويزي أو تويسي، كما تنطق في منطقة سوس، وتعني الممارسة الجماعية لأشغال زراعية لفائدة الغير. وقد اعتاد الناس أن يقوموا بهذا العمل دون وسيط نقدي. أنظر: عمر أفا، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر: سوس 1822-1906، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، 1988، ص 125 – 126.

[103] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 297.

[104] Jean, Chaumeil, « Le mellah de Tahala au pays des Ammeln », H, 1-2 trimestres, 1953, P. 235.

[105] عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون، ص 151.

[106] P. Flamand, Les Communautés issraélites,op. cit, PP. 84-88.

[107] Ibid, P. 161.

[108] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص 119.

[109] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 205.

[110] حوالة تارودانت، خ. و. رقم 145 (ميكروفيلم)، ص 37.

[111] Lydon, Ghislaine, « On Trans-SaharanTrails : Islamic Law, Trade Network, and Cross-Cultural Exchange in Nineteenth », op. cit, P. 183.

[112] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 206.

[113] لحسن اليوبي، الفتاوى الفقهية، ص 268.

[114] رواية شفوية للسيد للسيد محمد الأمين أحد سكان قرية تينتازارت، نقلا عن عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص ص 320 – 321، الهامش 55.

[115] نفسه، ص 149.

[116] Lettre des habitants de Massa à Emmanuel. 28 Rabi I, 916 (06, Juillet 1510) : S. I. H. M. t. I. Paris, 1934, P. 233.

[117] L'éon, L'Africain, Description de l'Afrique, Trad : A. Epaulard, Vol 2, Paris, Maisonneuve, 1956, PP. 422-423.

[118] P. Bertier, un épisode de l'histoire de la canne à sucre, les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques, Tome I, Rabat, CNRS-CURS, PP. 105-111.

[119] أحمد الدمنهوري، إقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة، مخ. خ. و. 1930د، ص 13.
المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص ص 193 – 194.

[120] M. Gracia, Arenal, et G. Wiegers, « Au –dessus des frontiéres- Samuel Pallache », H T. Vol XXXVII, 1999/PP.99-111.

[121] المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص 193.

[122] نفسه، ص 194.

[123] عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون، ص 146.

[124] المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص ص 187 – 188.

[125] نفسه، ص 193.

[126] نفسه، ص 217.

[127] محمد المنصور، مادة "تجار السلطان"،معلمة المغرب، ع 7، ص ص 2279 - 2280.

[128] R. Montagne, Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du maroc, Paris, Félix Alcan, 1930, P. 5.

[129] نفسه.

[130] عبد الله الغمائد، يهود منطقة سوس، ص 335.

[131] عمر أفا، التجارة المغربية في القرن التاسع عشر البنيات والتحولات 1830-1912، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2006، ص 390.

[132] P. Pascon, « Le commerce de la maison d'Iligh : D'après le registre comptable de Husayn b, Hachem (Tazrwalt, 1850-1875) », Annales, Histoire, Sciences Sociales, 35e Année, No, ¾, Recherches sur L'islam : Histoire et Anthropologie (May-Aug, 1980), PP 80-82.

[133] عبد الله الغمائد، يهود منطقة سوس، ص 100.

[134] عمر أفا، التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، ص 296.

[135] ينحدر آل أفرياط من إفران الأطلس الصغير.

[136] عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون، ص 157.

[137] نفسه، ص 158.

[138] Michel Abitbol, Les Commerçants du Roi : Tujjar Al-Sultan, Maisonneuve et larose, Collection Monde méditerranéen, 1999, P. 9.

[139] عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون، ص 158.

[140] عبد الله الغمائد، يهود منطقة سوس، ص 97.

[141] B. Desmazières, La Juiverie de Mogador, Rabat, 1945, P. 69.

[142] عبد الله الغمائد، يهود منطقة سوس، ص 98.

[143] هم المعاهدون من اليهود والنصارى، أنظر: عبد العزيز فيلالي، الأقلية المسيحية في المغرب الأوسط (الجزائر)، نموذج لحياة السلم والتسامح، ضمن كتاب: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، عين مليلة، الجزائر، دار الهدى، 2012م، ص 53.

[144] وهو قانون الذي يمنع اليهود المغاربة من مزاولة وظائف عمومية في سلك الدولة المغربية. أنظر: عبد الكريم بوفرة، مادة "اليهود في المغرب"، ع 22، ص 7679.

[145] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس 1860-1960، ص 148.

[146] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص 115.

[147] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص ص 165 – 166.

[148] نفسه، ص 148.

[149] نفسه، ص 148.

[150] عطا علي محمد شحاته ربه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى، ص 155 و156.

[151] مفردها ملاح، يطلق على الحي الذي يسكنه اليهود بالمغرب، وهو تجمع سكاني وتجاري وحرفي خاص بهم، يوجد في مكان منعزل بعيدا عن منازل المسلمين. أنظر: أحمد هوزالي، مادة "الملاح"، معلمة المغرب، ع 21، ص 7260.

[152] عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، الجزء الثاني، مطبوعات القصر الملكي، 1382-1962، ص 132.

[153] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 318.

[154] حوالة تارودانت، خ. و. رقم 145 (ميكروفيلم)، ص 50.

[155] كناش المداخل والصوائر، رقم 02. خ. ح.

[156] أي شبكات تجارية واسعة يربطها الانتماء الديني أو العائلي. أنظر: عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون، ص 146.

[157] Ibid, P. 179.

نقلا عن: عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 331.

[158] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص ص 59 - 97.

[159] شروتر، تجار الصويرة، ص 78.

[160] عمر أفا، التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، ص 378.

[161] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 148.

[162] نفسه، ص 151.

[163] دانييل شروتر، تجار الصويرة، ص 177 و178.

[164] نفسه، ص 177 و178.

[165] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 152.

[166] نفسه، ص 152، الهامش 16.

[167] Mohammed. Kenbib, « Juifs et Musulmans au Maroc à l'époque du front populaire : 1936-1938 », H, T, Vol, XXV, 1987, P. 188.

[168] محمد العثماني، ألواح جزولة والتشريع الإسلامي: دراسة الأعراف قبائل سوس في ضوء التشريع الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2004، ص ص 177 – 230.

[169] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 211.

[170] الأولى تعقد في منتصف مارس، والثانية في نهاية غشت.

[171] A. Arrif. P. Pascon : M. Tosy. H. V Der Wusten, « Le grand Muggar d'Aout de Sidi Ahmed ou Moussa (Tazerwalt-Septembre 1981), Description d'une foire régionale dans le Sud-ouest marocain », la maison d'Iligh et l'histoire sociale du Tazerwalt, Rabat, Société Marocain des Editeurs Réunis, 1984, PP. 141-222. Daniel. J. Schroter, Merchants of Essaouira : Urban Society and Imeperialism in SouthwesternMorocco, 1844-1886, Cambridge : Cambridge UniversityPress, 1988, P. 98.

[172] P. Pascon, la maison d'Iligh , op. cit, P. 81.

[173]

[174] عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس 1860-1960، ص 149.

[175] خ. ح. ك 47، 03 شعبان/03 نوفمبر 1869. جواب سلطاني، نقلا عن: عبد الله لغمائد، يهود منطقة سوس، ص 149.

[176] شارل دو فوكو، التعرف على المغرب، ج 1، ص 290 و 291.

[177] المختار السوسي، إيليغ قديما وحديثا، ص 218.

[178] شارل دو فوكو، التعرف على المغرب ج 1، ص 313 – 314.

[179] Ch. De Foucauld, Reconnaissance au Maroc, Paris, Société d'éditions géographiques maritimes et coloniales, 1939, PP. 210 – 212 – 218.

[180] Louis Miège, Le Maroc et l'Europe (1830-1894), Presses Universitaires De France, 1961, PP. 560-561.

[181] عبد الهادي الموذن، التجارة في وادي نون، ص 145.

الكاتب: د/ حمري عيسى
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة – الجزائر

عنوان المقال: واقع التدريب أثناء الثورة التحريرية 1956-1962.

البريد الالكتروني: hameriaissa@hotmail.com

تاريخ الارسال: 2019/02/18 تاريخ القبول: 2019/03/13 تاريخ النشر: 2019/03/28

واقع التدريب أثناء الثورة التحريرية 1956-1962

The reality of training during the Algerian revolution 1956-1962

الملخص بالعربية:

أولت قيادة الثورة للتدريب العسكري أهمية كبرى وهذا لما له من مكانة هامة خلال مراحل الكفاح الوطني، ولتطوير العمليات القتالية وتحقيق نتائج كبيرة في ضمان النصر خلال المعارك عملت الثورة على الاهتمام بتكوين جنود جيش التحرير تكوينا يعتمد في الاساس على حرب العصابات كإستراتيجية في مواجهة الجيش الفرنسي، كموروث عسكري خلال المقاومات الشعبية وتجسد أثناء الثورة بهدف تحقيق الاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية.

كلمات مفتاحية: التكوين العسكري- التجنيد- حرب العصابات- الكمين- القتال.

Abstract :

The Revolution Command gave a great importance to the military training ,because it has considerable position during the the national struggle's stages , and to develop combat operations and achieve great results in ensuring victory during the battles, the Revolution Command focused on the formation of the Liberation Army soldiers, which based primarily on guerrilla warfare as a strategy against the French army, as a military legacy during the popular resistance and its embodiment .during the revolution, aim to achieving independence and national sovereignty

Key Words: the military training, guerrilla warfare, Ambush, Recruitment, Fighting.

مقدمة:

تميز النشاط الثوري بخاصية التنوع و الوحدة و الشمولية في الثورة التحريرية عن طريق التخطيط الجيد والتدريب والتكوين العسكري و التجنيد ، مما أهّل جيش التحرير بأن يكون جيشا قويا ليقوم بمهمة تحرير الوطن ، حيث تمت هيكلته إلى ثلاثة أصناف متنوعة هي المجاهد و الفدائي و المسبل، ويهدف هذا النظام إلى وضع قوانين صارمة بين مختلف التشكيلات هي الفيلق والكومندو والكتيبة والفصيلة وبذلك لكي يسهل عملية التحكم والتنفيذ السريع وتحديد المسؤوليات، عند الضرورة تتكامل وتصبح تشكيلة واحدة لتحقق الهدف المنشود.

1- التدريب العسكري اثناء المنظمة الخاصة :

اعتمدت قيادة الثورة في مواجهتها مع الجيش الفرنسي على حرب العصابات كاستراتيجية عسكرية ثورية وتراهن على تحقيق مطامحها في استرجاع السيادة الوطنية، ونجد علي بركات يشرح لنا حرب العصابات من خلال بحثه الذي يسلط الضوء على مبادئ تكتيك القتال والسلاح ضمن اطار حرب العصابات فيقول بانها من اشكال القتال يدور بين تشكيلات مسلحة تعمل اطار مبادئ وقوانين صارمة، بحيث صارت هذه القوانين ظاهرة من ظواهر الحرب تعادل اهميتها وخطورتها انواع الحروب الاخرى، والدليل على اهميتها من خلال النتائج التي حققتها في الثورات العالمية على غرار الفيتنامية عموما والثورة الجزائرية خصوصا.

وخلال المنظمة الخاصة صاغ كل من حسين آيت أحمد وبلحاج الجيلالي عبد القادر كتابا مرشدا يشرح التنظيم العسكري في المنظمة الخاصة أساسه طريقة تجنيد العناصر ، وأساليب تخص استعمال السلاح والمتفجرات والمبارزة الفردية فضلا عن بعض المبادئ في تكتيك حرب العصابات، غلق طريق، كمين، غارات[1]، وقد اختارت القيادة في هذا اللقاء منطقة الظهرة كمكان للتدريب والتكوين العسكري ، حيث وصل كل قادة النواحي إلى زدين قرب عين الدفلى وتم اختبارهم في المعارف العسكرية بامتحانات ميدانية في المناورة العسكرية والتدرب على الرمي بالأسلحة وانتهى بامتحان كتابي وشفهي، فرضها المفتش الوطني عبد القادر بلحاج الجيلالي على الممتحنين.[2]

نظم بلحاج الجيلالي تكوينا عسكريا في مزرعته في زدين بتقديم دروس نظرية متبوعة بحصص تطبيقية في مكان مغلق للتدريب على استعمال الأسلحة الفردية ومبادئ صنع واستعمال القنابل اليدوية وغيرها من أنواع المتفجرات، اضافة إلى التدريب على الرمي بالسلاح يقتصر لأسباب أمنية على حصة واحدة في الحقول المجاورة لمزرعة بلحاج تجنبا لإثارة الانتباه، أما بقية التربص فيتم داخل المزرعة وتم تعويد الممتحنين خلاله على تدريبات ميدانية بطرق وأساليب في مختلف المناطق تهدف إلى تعويدهم وتدريبهم على دراسة الميدان باستعمال خرائط عسكرية، وقراءة منحنيات التسوية لتعيين أماكن توفير المياه ، تحديد المسالك، حساب المسافات على الخرائط ، وكذا التعوّد على الصبر وتحمّل مشقّة السّير عبر المناطق الجبلية المعزولة.[3]

يعتبر الريف بالنسبة لجيش التحرير كموقع استراتيجي و ذي أهمية كبرى لما يحتويه من الجبال كمواقع بعيدة و محصنة و لا يمكن للقوات الفرنسية البرية (عربات شاحنات سيارات) أن تصل إليه بحكم صعوبة مسالكه ليصبح بذلك محصنا طبيعيا من الهجمات الفرنسية، و كانت لسكان الريف معرفة

كبيرة بالمسالك الجبلية في تجانسهم مع الحياة الريفية في السرعة و الخفة في صعود قمم الجبال مما جعل المجاهدين القادمين من المدينة يندهشون لذلك وهذا ما جعل العقيد بويس buis يقول: " بأنه كان يلزم ساعة و نصف الساعة من الوقت بالنسبة لفرقتنا العسكرية النخبة و المظليين لقطع مسافة مائة متر في أرض غير مستوية.... فكم كان يكفي من الوقت بالنسبة للفلاقة لفعل ذلك ؟ نصف ساعة..."[4].

لذا فضل جيش التحرير وضع مراكز القيادة و المخابئ و الملاجئ للجيش و الأسلحة و المؤونة في الجبال و المغارات التي يجهلها الجيش الفرنسي و الممرات التي يحفرها و يهيئها المجاهدون تحت الأرض على شكل دهاليز تحت الصخور الضخمة بالرغم من علم قيادة أركان الجيش الفرسي بهذا إلا أنها بقيت عاجزة عن كشفها أمام هذا الوضع. و استطاعت الثورة أن تثبت وجودها وأن تفتح لنفسها أفاقا جديدة، من خلال غرس الثقة في النفوس، وفرض الانضباط في المجتمع.

وهذا ما جعل جبهة وجيش التحرير تنتهج استراتيجية التواجد في كل مكان وتغطية كل وحدة من وحدات جيش التحرير الرقعة الجغرافية المخصصة لها في النشاط، لإضعاف الجيش الفرنسي والعمل على تشتيته، إضافة إلى استهداف المنشآت الاقتصادية، والسعي إلى اغتنام الأسلحة لتعزيز الاساليب القتالية والقدرة الهجومية، واختيار الاهداف التي تكلف الجانب الفرنسي خسائر كبيرة، وتجنب الخسائر من جهة الثورة للحفاظ على قدراته، إضافة إلى الاعتماد على عنصر المفاجأة بتوجيه ضربات خاطفة بواسطة الكمائن التي كانت تدرس بدقة وتخضع لضوابط صارمة، تعتمد على عنصر المباغتة وإطلاق النار الكثيف وسرعة التنفيذ والانسحاب. يتميز التنظيم الثوري بتشكيل النواة الاولى لجيش التحرير الوطني وتعتمد على حرب العصابات، ويعمل على ضرب المصالح

الفرنسية وتحطيمها وتطبيق التكتيك التالي " العدو يتقدم فلنتراجع، العدو يتخندق فلنناوشه، العدو قد استنفذ قواه فلنجهز عليه، العدو يتراجع فلنطارده".[5]

لقد فرضت طبيعة حرب العصابات على وحدات جيش التحرير في مواجهته للجيش الفرنسي، إن تنوعت الاساليب والتقنيات القتالية المطبقة من طرفها، وحتى العمليات العسكرية التي كانت تشنها وحدات جيش التحرير، وعلى ما يبدو ان الاستراتيجية لم تكن على نمط واحد إنما تعددت حسب معطيات التنوع التضاريسي والطبوغرافي، كما تم استحداث تشكيلة الفيالق وأصبح كل فيلق يضم كتائب من خلال التعداد البشري والتسليح المتنوع مما أثر على تطوره، لذا تم استحداث القاعدة الشرقية والغربية.[6]

2 - جذور الدروس القتالية:

استلهمت العقيدة العسكرية للثورة فلسفتها ومضمونها من مخزون الفن العسكري الجزائري المطبق من طرف الأسلاف والأجداد عبر تاريخ الجزائر الزاخر بالتجارب الناتجة عن الحروب والثورات الوطنية عبر العصور، وكذلك من الخبرة القتالية المتراكمة عبر العقود والمكتسبة من الحروب الفرنسية التي شارك فيها الجزائريون كمقاتلين في صفوف الجيش الفرنسي، علما أن مضمون التدريب كان مستلهما من فلسفة حرب العصابات عموما ومستوحى من التراث العسكري الجزائري، الذي طبقه الأسلاف في حروبهم وثوراتهم ضد المحتلين والغزاة لوطنهم عبر العهود، مثل تينهينان ملكة أفيناس بالهقار والطاسيلي التي استعملت النار في حروبها ضد الأعداء الغزاة القادمين من جنوب الصحراء لأول مرة في الألف الثالثة قبل الميلاد، ويوغرطة (118 - 104 ق.م) الذي طبق مبدأ استدراج القوات

الرومانية لتطارده وتخرج في العراء وأثناء الحرارة الشديدة، وديهيا بنت ينفاق (676 - 705 م) التي نفذت مبدأ الدفاع والهجوم المعاكس والمطاردة في حروبها ضد الفاتحين العرب التي اعتقدت أنهم محتلين.[7]

ونجد عبد المؤمن بن علي (1130 – 1163) الذي وظف مبدأ الاستدراج في حروبه بصورة مبتكرة ضد الصقليين والمرابطين حيث كانت قواته تستدرج القوات المعادية للخروج من المدن إلى قتاله في الجبال، والأمير عبد القادر الذي ارتكزت فلسفته القتالية ضد القوات الفرنسية على مبدأ الهجوم الخاطف والحرب المتحركة والكمائن والمباغتة، والشيخ أمود الذي اعتمد في حربه ضد الفرنسيين (1881 – 1919) على مبدأ التملص من العدو المتفوق، أما القائد بوزيان فقد طبق مبدأ الدفاع الثابت ما بين (1849 – 1850) لمنع القوات الفرنسية من اقتحام قرية الزعاطشة حيث حفر خندق دائري ملأه بالمياه ليشكل عائقا لها يمنعها من الدخول.[8]

كان للتجنيد الإجباري أثر إيجابي على الثورة من خلال اكتساب قادتها للخبرة العسكرية جعلتهم النواة الأساسية لجيش التحرير و المدربين في الميدان، وخلال المنظمة الخاصة صاغ كل من حسين ايت أحمد وعبد القادر بلحاج الجيلالي كتاب مستلهم من التجارب العالمية ومكيّف مع أوضاع الجزائر فكان مرجعا للتعليم في مبادئ حرب العصابات، حيث ضبطت هيئة الأركان برنامجا للتدريب بشقيه النظري والتطبيقي، ويتضمن التدريب (التكوين) في استعمال السلاح وصناعة المتفجرات واستعمال الراديو السلكي واللاسلكي[9]، وفي هذا الصدد يقول رابح بيطاط: "وبعد اعادة هيكلة المنظمة سنة 1948 بدأنا نشتغل، ونتدرب ونتلقى الدروس التي تعلمنا كيف نواجه العدو، ونحفر الخنادق، كما كنا نصنع القنابل وكل ما من شأنه أن يساعد على العمل الثوري".[10]

لعب جهاز الدعاية والاعلام دورا هاما أثناء الثورة، إذ يعتبر جهاز مكمل للجانب السياسي والعسكري، إضافة إلى أنه سلاح مضاد لرد الدعاية الفرنسية والترويج والتشهير بانتصارات جهة وجيش التحرير الوطني لمناشيره[11]، تتمثل مهامه في التعريف بماهية جهة التحرير الوطني وبالأهداف وأهمية البرامج التي وجدت من أجلها عن طريق جرائدها ومنشوراتها.

إنّ إلتحاق الشباب القادمين من مختلف المناطق و الذين يتلقون صرامة كبيرة في التكوين النظري و التطبيقي بواسطة بيداغوجية بسيطة ساعد في تكوين هذه الوحدة ، فلا غرابة في النشاطات العسكرية البطولية للكومندو ، أما التكوين النظري فكان يعتمد على الكتابين للتكوين ، فكان الكتاب الأول للرائد لخضر موجها أساسا إلى وحدات جيش التحرير من كتائب و فصائل و أفواج، يتناول تقنيات الحرب الثورية التي قام بها جيش التحرير الوطني في مختلف أشكالها ، و اختيار التشكيلات المناسبة للتحرك حسب تنوع طبيعة الميدان و كيفية تنظيم عمليات عسكرية بالهجوم و أحسن الشروط لتنفيذ كمين ناجح يعتمد على عنصر المفاجأة، كثافة النيران، سرعة التنفيذ، و بعدها تعقيم الأسلحة ثم الانسحاب بدون خسائر ، أما الكتاب الثاني للرائد سي محمد[12] فهو في الأصل دليل موجه للإطارات، يمكنهم و يساعدهم على تنظيم صفوف الشعب في الوسط الحضري أو شبه الحضري و يتميز الكتاب في تبنيه للنظام المناسب ، و بدوره يعدد القواعد السارية التي ينبغي إتباعها و السر الذي يجب حمايته خلال الاتصالات.

كما يتناول قواعد الانضباط في جيش التحرير الوطني، و واجب التعلم و التكوين و أهداف الكفاح و مضمون الاستقلال ، كما يمكّن قيادة المنطقة بانتظام للاستنجاد بإطارات الكوموندو لتولي مسؤوليات كقائد لكتيبة المنطقة أو عضوية مجلس الناحية بل عضوية مجلس المنطقة برتبة ملازم أول ، و يعرف

الكتاب بجملة من الأخطاء التي يمكن ارتكابها و كيفية تجاوزها ، كما يسرد الوصايا العشر لجيش التحرير الوطني و يقدم النصائح فيما يخص السلوك الجيّد و الذي يمكّنه من كسب ثقة السكان[36]، وعلى ما يبدو أن قيادة الثورة عملت على تحقيق الاتحاد والوحدة داخل الكومندو لتعزيز التماسك بين أفراد جيش وجبهة التحرير، لمواجهة أي خطر يداهم أو يهدد الوحدة العسكرية.

3 _ تكتيك جيش التحرير:

كما يقوم المجاهدون بتهيئة المخابئ، و تسارع الكتيبة إلى التموقع في ميدان القتال و هي متخفية و حال ما يتم اكتشافها تطلق الطائرة الإشارات النارية فوق الأماكن المستهدفة، بينما تكون القوات الفرنسية فوق المرتفعات بعيدا في مواقع استراتيجية متقدمة فتبدأ عندئذ الطائرات المقنبلة المطاردة بقصف الأماكن بالصواريخ و النابالم، ثم تبدأ المدفعية بإطلاق مختلف القنابل، ثم يتدخل المظليون في تمشيط المنطقة، و بالرغم من ذلك لا تحقق هذه القوة أية نتائج، و في هذه الأثناء يفاجأون بتصدٍ عنيف لعناصر جيش التحرير،[13] إذ يعتبر الدين الإسلامي الحنيف الغذاء الروحي الذي استخدمته الثورة ، وكانت كل كتيبة يرافقها مرشد يشحذ الهمم ويرفع المعنويات بدروسه السياسية والدينية ، كما يحرص على فرض تأدية الصلاة والتحلّي بالأخلاق والروح الإسلامية.[14]

نظرا لكون عناصر جيش التحرير جنوداً محنكين و جيّدي التدريب، فإنهم لا يطلقون النار إلا عندما تقترب منهم قوات العدو، لأن الطائرات لا تستطيع التدخل في هذه الحالة حفاظا على أرواح جنودهم، و عندما تحاول القوات الفرنسية التقدم نحو أهدافها صوب الكتيبة فهي لا تقتصد في الذخيرة فتطلق

النار من بعيد لاستفزاز الخصم واستدراجه للمواجهة، ومحاولة اكتشاف أماكن تموقع أفراد جيش التحرير بدقة.[15]

أما بالنسبة للتكتيك الذي اعتمده جيش التحرير الوطني فيتمثل في الصمود إلى غاية غروب الشمس ، وهو الوقت المناسب للخروج من الحصار لأن قوات الجيش الفرنسي نادرا ما تطلق النار ليلا ، حفاظًا على عدم الاقتتال فيما بين عساكرها ، وفي هذه الاثناء يستغل أفراد جيش التحرير الفرصة للخروج تحت جنح الظلام متسللين وتنجح في فك الحصار و اختراق صفوف الجيش الفرنسي. وعادة ما يكون هناك مموّل ملحق بوحدات جيش التحرير يسهر على إعداد المخزون الغذائي للجنود في مخابئ ، يلجأ إليها عندما ينقطع الاتصال مع المواطنين، جراء عمليات التمشيط، فتعمل الكتيبة عندئذ على محو آثار تلك المخابئ باستثناء قائد المنطقة أو القائد العسكري الذي يبقى على دراية بها.[16]

بالنسبة لأفراد جيش التحرير الوطني فإن السلاح هو أثمن شيء لديهم ،إذ يحرص القائد لحث الجنود على العناية الدائمة بالسلاح والمحافظة عليه، وكل مجاهد من الكتيبة يحمل غطاء وجلابة يستعملها للنوم في الطبيعة، وعندما يتحرك المجاهدون على أرضية مكشوفة يلجأون إلى تقنية لحماية أنفسهم من الغارات المفاجئة للطائرات بتغطية أنفسهم بأوراق الأشجار المثبتة بالخيط. فلا تستطيع أفضل الطائرات اكتشافهم إلا في حالة تكرار عملية التحرك، أما الغذاء فيقتصر على التين المجفف و قليلا من الكسرى (الخبز) و قنينة ماء أو بصل أحيانا.[17]

4- التدريب العسكري:

التدريب العسكري هو إعداد الأفراد والأطقم والقادة للقيام بالعمليات القتالية وتحقيق النتائج الجيدة في الميدان ومسارح الحرب. كما يعتبر التكوين

خطوة أساسية لضمان النجاح في القتال، فكل قطرة عرق تراق أثناء التدريب توفر الكثير من الدماء خلال القتال. والتكوين المتكامل هو الذي يشمل كافة الحالات التي يمكن أن تظهر خلال الحرب، أما التدريب الناجح فهو الذي يركز على أن يبدأ بإتقان الأفراد للجزئيات قبل الكليات، ويهتم برفع مستوى الإتقان خلال التكوين للزيادة من مردودية الأداء أثناء القتال[18].

لذا ميز الرجال النوفمبريين اليقظة والوعي العالي من حيث الاخلاص والثقة بالنفس والشجاعة والتضحية، ويتجلى ذلك من خلال التدابير التي تم اتخاذها في مختلف المجالات على غرار اقامة مراكز سرية للتدريب العسكري على الرماية و استخدام السلاح والانضباط والتدرب على حرب العصابات، بالاعتماد على رصيد المنظمة الخاصة التي اصدرت كتيبات حول الحروب الثورية واعادة طبعها وتوزيعها، اسندت مهمة التدريب على استعمال الاسلحة للمجندين الذين كانوا في الجيش الفرنسي نتيجة المشاركة في الحرب العالمية الثانية والحرب الهند الصينية، اما التدريبات فقد اقتصرت في مرحلتها الاولى على اسلحة الصيد والمتفجرات والقنابل اليدوية واستعمال السلاح الابيض.[19] أما في المرحلة الثانية فكان التدريب يشتمل على الرماية والتسديد، القتال المتلاحم، اكتشاف المناطق والجبال، وضع القنابل والمتفجرات والتدرب عليها، التدرب على مختلف الاسلحة والتفكيك وتركيب الاسلحة، اضافة الى ما هو ضروري لتأهيل الثوار على احتمال المصاعب مثل السير الطويل على الاقدام والتحكم بالنفس، واستخدام القدرات الفكرية لاتخاذ القرارات الحاسمة.

أكد المجاهد مصطفى هشماوي على ضرورة التدريب أثناء العمليات العسكرية، لأن الجندي غير المتدرب يفقد 50 بالمائة من طاقته، وبالتالي يكون من السهل جدا إصابته وقتله، لأن التكوين العسكري عامل حاسم في انتصارات جيش التحرير، كما قامت بعض البلدان العربية بمساعدة الثورة في تدريب

أفراد جيش التحرير الوطني كالمغرب وتونس وسوريا والعراق ومصر، وهذه الاخيرة كانت لا تقبل الجزائريين فقط إلا عن طريق المكتب العسكري الذي كان يسيره أحمد بن بلة، غير ان ذلك كان يتم بصفة سرية قبل 1956، ثم فتحت مدارسها جهرا للجزائريين من الكلية الحربية الى الطيران الى البحرية الى المدارس الخاصة.[20]

5 _ مراكز التدريب العسكري:

أولا : الجهة الشرقية

اولت قيادة الثورة بفتح مراكز التدريب في الحدود التونسية وكان أول مركز للتدريب قرب مدينة باجة في مزرعة تعود الى ملك لاحد المهاجرين الجزائريين يدعى حمة، وكان بها مركز للإيواء أكثر من 200 جندي، وفتح بعدها مركز ثاني في مزرعة مهاجر آخر قرب مدينة الكاف وهذه الاخيرة خصصت لتكوين الاطارات الصغرى والمتوسطة، استمر فتح المراكز الى ان اصبح عددها حوالي تسعة، بعد تلقي هؤلاء التدريب العسكري يتم ارسالهم الى الداخل وهم يحملون سلاحين، وكان لهذا مردود فعال في الاداء القتالي للجنود.[21]

فنجد مدرسة الاطارات بالكاف المتخصصة في التكوين والتدريب العسكري وعين على رأسها عباس غزيل يساعده عبد الله آدمي وخالد حسناوي، تقدم هذه المدرسة تكوينا يستمر حوالي خمس أشهر وحول نوعية الدروس فقد تنوعت بين النظري والتطبيقي تتناول في مجملها تكوين الجندي سواء ما تعلق بالبذلة العسكرية أو المدنية ، تقديم السلاح وإلقاء التحية بواسطة السلاح وكذلك إجراء التدريبات العسكرية بأنواعها كالسير الفردي والجماعي، التحية الفردية والجماعية باللباس العسكري أو المدني، العلاقات التي تربط الجندي مع

بقية الجنود من أعلى رتبة إلى الجندي، وكذلك التدريب العسكري الميداني على الارض، كدفاع الجندي عن نفسه أو غيره سواء كان مسلحا أم أعزل.[22]

اضافة الى التدريب على استعمال السلاح الابيض والبندقية التي تحمل ماصورة في مقدمتها وكذا التدرب على أنواع الاسلحة وكيفية فكها وتركيبها، كما كان يدرس أيضا أنواع الخراطيش (المضيئ، الحارق، الثاقب) ومدى قوة الاسلحة في المسافات الطويلة والقصيرة، البندقية الفردية ونصف الآلية والرشاش الآلي من فك وتركيب ورماية، الرشاشات الكبرى ذات الاربطة والعبوات التي تحمل الكثير من الخراطيش وغيرها من أنواع الاسلحة المضادة للطيران والدبابات والمدفعية، يضاف إلى هذا التكوين على سلاح الهاون الفرنسي مورتيس 81 الذي يستطيع تحطيم الثكنات والآلات بكل أنواعها وأشكالها[23].

كما شمل التدريب على الألغام وكيفية استعمالها والحقول المخصصة لها والعلامات الدالة عليها وكيفية التخلص منها واختراق الحقول دون الإصابة بها وكذا أحجامها وأنواعها سواء المضيئة أو المفخخة، بالإضافة الى الالغام الفردية التي تحد من قوة الجيوش البرية والالغام المضادة للدبابات التي تعيق المشاركة الفاعلة للدبابة في المعركة، اضافة الى طرق صناعتها واستعمالها بطرق تقليدية الى غير ذلك من الوسائل التي تستعمل فيها الالغام المضادة للأشخاص أو المضادة للدبابات أو المضيئة، مع رسم كل نوع منها إضافة الى ألغام البنقور التي خصصت لفتح طرق في خطي موريس وشال. كما كان يدرس غازات القتال وهي المحرمة دوليا منها النابالم اضافة الى الغازات المسيلة للدموع والغاز الخانق والقاتل.[24]

ومن المراكز التي كانت في الحدود التونسية نذكر منها مركز التدريب ملاق غرب الكاف، استحدث في أواخر سنة 1959 بقرار من قيادة العمليات العسكرية

للشرق بقيادة محمدي السعيد، وهو من أكبر المراكز بالقاعدة الشرقية سمي بمصنع المقاتلين، يتسع لأكثر من 2000 متربص، قاده: عبد المومن، بوتلة، ميدوني رشيد وعلاهم عبد المجيد،ومركز التدريب وادي مليز شمال غرب جندوبة، سيره بلخير، ورتسي، قنيفي وغيرهم، ومركز التدريب الزيتون، شمال "غار ديماو"، وقاده كل من: قارة، بلعابد، الطويل، بن معلم، علي شريف وغيرهم وغيرها من مراكز التدريب العسكري.[25]

ثانيا: الجهة الغربية

كما نجد الولاية الخامسة تعمل على تكوين وحدات حربية ولهذا الغرض تم تأسيس مراكز للتكوين بوجدة والناظور وتطوان وأنجاد وبركان خلال شهر مارس 1957، أما مركز أنجاد الذي يبعد 5 كلم عن وجدة حيث يتم فيه تكوين جيش التحرير وهو عبارة عن مبنى يتسع من 10/15 م يشمل ثلاث غرف 4/6 ومطبخ من 4/3 وساحة به 50 متربص مقيمين بالمركز، كان على المتربصين ان يحضروا دائما على الساعة الرابعة صباحا ويعاقب كل متأخر، تم استغلال الساحة للسير بحركات منظمة، يوزع عليهم القانون الداخلي لجيش التحرير مكتوب بالفرنسية ويترجم بالعربية.[26]

بعد الانتهاء من الفترة الصباحية يأخذ المتربصين راحة لشرب القهوة ثم يجتمعون غلى الساعة السادسة بإحدى الغرف يستمعون للمجاهد باعمر الذي كان يلقي عليهم دروسا نظرية حول حرب العصابات، غير ان تلك الدروس كانت تلقى شفوية حسب طريقة الكتاتيب بالتكرار حتى يتم استيعاب الدروس، وكان هذا هو المنهج الوحيد المطبق على المتربصين تتخللها تمرينات جسدية قاسية ومنظمة.[27]

كما عملت قيادة الثورة على تكوين عدة دفعات على غرار دفعة بن مهيدي في مركز وجدة خلال شهر جويلية 1957، وهو عبارة عن منزل يعود لعائلة بن يخلف بأسواره العالية تمنع النظر عما يجري في الداخل تتخلله حدائق ونافورة جميلة إضافة الى اشجار اللويزة ، اضافة الى مركز القيادة الخاص بالتربص في الطابق السفلي من المنزل، يتكون من قاعة كبيرة في الطابق الاعلى خصصت للدروس النظرية بإضافة الى مرحاض جماعي وثلاث غرف اخرى خصصت للنوم بها اسرة حديدية من طابقين، واشرف على التكوين العسكري لعروسي خليفة يقود فرقة من المكونين من بلعيد عبد السلام ونور الدين دليسي المدعو رشيد وعبد العزيز ماوي المدعو سي صادق ومصطفى معلم المدعو جعفر، عملوا على التكوين السياسي والثقافي وحتى التاريخي من خلال الهادي مغلم.[28]

ومن بين اهم المراكز التي تم انشاؤها نجد مركز الزاوية في جبال تافوغالت المتخصص في التدريب العسكري وفنون القتال في الحروب الثورية، نجد ايضا مركز ملوية في الريف المغربي المتخصص في التدريب على سلاح الاشارة ومركز جبل أولوت بناحية بركان المتخصص في التدريب، كذلك مركز زغنغن لتكوين إطارات الثورة والمحافظين السياسيين للجيش والممرضين، حيث يتم التدريب على الاسلحة وفنون القتال، كما يهتم بإمداد الثورة بالأسلحة الثقيلة وذخيرتها الحربية وغيرها،[29]كما نجد أيضا مركز العرايش في اقليم الريف الذي كان تحت الحكم الاسباني الى غاية 1957، تمثلت مهامه في استقبال الاسلحة القادمة من الخارج وتكوين الوحدات الخاصة لجيش التحرير من خلال استعمال الاسلحة وفنون حرب العصابات، عند نهاية التكوين كان يتم نقل المتخرجين الى التراب الوطني، من اجل تدعيم وحدات جيش التحير.[30]

ثالثا: في الداخل

عكفت قيادة الولاية السادسة على جعل اجتماعات وحدات جيش التحرير كحلقات للتكوين السياسي والايديولوجي، أما التكوين العسكري لأفراد جيش التحرير فكان يجري بصفة منتظمة ويتناول جوانب الانضباط والحزم والتضحية وأساليب حرب العصابات المتمثلة في كيفية اختيار مواقع الدفاع وحفر الخنادق والدفاع الشخصي واستعمال السلاح الابيض ورمي القنابل، وتصويب السلاح واستعمال كل نوع منه وكيفية فك القطع وتركيبها وتنظيمها.

وتشير مريم مخطاري حول تكوينها العسكري في المنطقة السادسة من الولاية الخامسة بقيادة قائدها سي عبد الخالق الذي عمل على تكوين المجاهدين في كل ما يخص فنون الرماية وتقنيات التصويب، وكل ما يخص وضع البندقية على الكتف وكيفية الزحف على البطن مع حمل البندقية وكذا استعمال المسدسات وتنظيف السلاح وتفكيكه، الاحتياطات الواجب اتخاذها مع توخي وضعه في الأماكن الرطبة بعيدا عن السوائل والغاز، عند برودة الطقس كان يوضع السلاح في النخالة حتى يسخن.[31]

كان للولاية الثانية تجربة تكوين من خلال حرصها على تطبيق التدريب النظري لأن التدريب في الداخل كانت تقف أمامه صعوبات جمة، وغم فتحها لدورات تدريبية إلا انها لم تستطع ان تستمر طويلا للضغوط التي فرضها الجيش الفرنسي بعد اكتشاف امرها، كما انها لم تكن تملك الامكانات المادية التي تساعدها على المواصلة.[32]

اما في الولاية الثالثة فنجدها بقيادة العقيد عميروش الذي بذل جهودا جبارة من اجل ان يجعل من ولايته نموذجا والقوة الفاعلة لجيش التحرير من اجل تكوين وحدات كومندوس مدربة على التدخل القوي والسريع، يتميز افرادها

بالشجاعة وروح المبادرة في الميدان، اسندت مهمة التكوين العسكري على الخبرة العسكرية التي استفاد منها المجندون في الجيش الفرنسي خلال حروبه.[33]

عملت قيادة الثورة على تكوين جنود شباب يتوفرون على قدرة من التعليم ومنحهم تكوينا سياسيا يعدهم مستقبلا لتولي مهام سياسية، ولهذ الغرض فهو ينظم لهم اجتماعات دورية مضبوطة بجدول أعمال محدد ودقيق في هذه الاجتماعات يفتح نقاشاً جاداً حول موضوع معين، يتعلق بمختلف المسائل العسكرية حول دور كتيبة المسبلين، الهندسة العسكرية، المسائل السياسية مثل الثقافة والدعاية والأمور الانضباطية والتضحية والعلاقة بين جبهة التحرير والشعب والديمقراطية السياسية والاجتماعية وحتى الجهوية وغيرها[34]، يختار الكومندو عناصره لاستكمال تعداده و تعويض خسائره بانتقاء العناصر من صفوف الكتائب و إذا كان الكومندو يتمتع بسمعة كبيرة وسط أفراد جيش التحرير و المواطنين فإن هذه الكتائب لا تقل أهمية عن الأخرى، و بعد كل عملية من عمليات جيش التحرير يعقدون جلسة للنقد و النقد الذاتي ، و كان هذا التقليد في الولاية الرابعة جزءاً من التكوين يسمح بتصحيح الأخطاء .

رغم أن مهمة هذه الوحدات الخاصة العسكرية هو النشاط العسكري من عمليات فدائية و تنظيم الكمائن و الهجوم على الجيش الفرنسي، إلا أنها كانت إلى جانب ذلك بمثابة مدارس لتكوين الإطارات أيضا، حيث يتلقى الجنود تكوينا مستمرا على الصعيدين السياسي و العسكري، و يقوم بهذا المهام محافظ سياسي و مدرب عناصر الكومندو ذاته و كان هدف هذا التكوين المتواصل هو توسيع معارف الجنود و الإلمام أكثر بأهداف الكفاح المسلح و هي نفس الغاية من وجودهم في جيش التحرير، و كان هذا الأخير يقيم حلقات تقام عند كل توقف بالمراكز أو الملاجئ.

لدرء كل الأخطار سواء كانت داخلية أم خارجية كانت وحدات جيش التحرير تمر حتما عبر اتحاذ الاجراءات الوقائية اللازمة، من خلال تكوين المجاهد تكوينا سياسيا وعسكريا وترقية حسه الاخلاقي ، بما يجعله في مستوى انتمائه لجيش التحرير، والذي يتكون من شباب مخلصين يدافعون عن قضيتهم العادلة ويحترمون المبادئ الانسانية، ويدافعون عن تحرير وطنهم والمثل العليا والاسلام والديمقراطية ، وهذا ما يميزهم عن الجيش الفرنسي الذي تتشكل عناصره من مرتزقة ومجرمين ودمويين ومعربدين في خدمة الإمبريالية الاستعمارية الآيلة إلى الزوال[35]، كذلك استحدث جيش التحرير منصبين في الوحدة العسكرية هما المرشد الديني والمحافظ السياسي، وأحيانا نجدهما في المحافظ السياسي للوحدة العسكرية.

خاتمة:

بعد تشكيل الوحدات العسكرية المرابطة في الجبال وحتى المدن بدأت بشن هجومات خاطفة شملت كل المصالح الفرنسية، عملت قيادة الثورة على تقوية الوحدات العسكرية بالتجنيد والتكوين العسكريين ، الذي اعتمد على الحروب الثورية من خلال كتائب جيش التحرير التي اعتمدت على الهجوم الخاطف والكر والفر ، مما سمح لجيش التحرير أن يحقق عدة انتصارات في الميدان مما يكسب نوعاً من القوة والثقة لدى الشعب، أما تكوين جيش التحرير سواء في القاعدة الشرقية أو الغربية فقد تركز على تدريب جيش نظامي ، وعلى ما يبدو أن قيادة الثورة كان لها بعد استراتيجي في تكوين جيش الجزائر بعد الاستقلال لبناء الدولة لأنها كانت تؤمن بشرعية تحقيق الاستقلال.

<u>الهوامش:</u>

[1]-حسين أيت أحمد، **روح الاستقلال مذكرات مكافح 1942- 1952**، ترجمة سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر، 2002، ص147.

[2] - **نفسه**، ص170.

[3]- بن يوسف بن خدة، **جذور أول نوفمبر 1954**، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومة، الجزائر، 2010، ص203.

[4]- محمد تقية، **الثورة الجزائرية، المصدر، الرمز، المآل**، ترجمة عبد السلام عزيزي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2010، ص182.

[5]- محمد بن داره، **الحرب النفسية الفرنسية ورد فعل الثورة الجزائرية 1955- 1960 دراسة في أنشطة الحرب النفسية للمكتب الخامس للجيش الفرنسي في المنطقة العسكرية الفرنسية العاشرة**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر، 2007- 2008، ص11.

[6]- بلعيد علاوة، **الاستراتيجية العسكرية لحرب التحرير 1954-1962**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحركة الوطنية والثورة، جامعة الجزائر، ص71.

[7]- محمد رمضان، "العقيدة العسكرية لجبهة التحرير الوطني" ، جريدة **الشروق**، 31 أكتوبر 2011 ، ص23.

[8]- **نفسه**، ص23.

[9]- حسين أيت أحمد، **مصدر سابق**، 148.

[10]- عبد الرحمان بن إبراهيم العقون، **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر 1945 – 1954**، ج3، ط3، منشورات السائحي، الجزائر، 2010، ص21.

[11]- يمكن أن نميز مناشير جبهة وجيش التحرير بين عدة أنواع حسب الغاية، فهناك المنشور الإعلامي الموجه للشعب، إذ يهدف إلى رفع المعنويات وكشف السياسة الفرنسية وتعريفه بالتطورات التي سجلتها القضية الجزائرية في الداخل والخارج، وهناك النداء وهو عادة منشور يحمل أمرا أو نهيا أو إنذارا للشعب بعدم الانسياق وراء الدعاية الفرنسية أو الاتصال بالإدارة الفرنسية أو العيش بالقرب منها.

-Le Commandant Mohamed, **GUIDE DU FIDAI ALGERIEN WILAYA 4**, Musée Tissemsilt.[12]

[13]- محمد تقية، **حرب التحرير في الولاية الرابعة**، ترجمة بشير بولفراق، دار القصبة، الجزائر، 2012، ص58.

[14]- المنظمة الوطنية للمجاهدين، **تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع و أحداث الثورة الولاية الرابعة** ج1، ص 78.

[15]- محمد تقية، **حرب التحرير**، **مصدر سابق**، ص59.

[16]- **نفسه**، ص59.

-Mohamed TEGUIA, **L'Armée de Liberation Nationale en Wilaya 4**, Edition casbah, Alger 2006,p49.[17]

[18]- محمد رمضاني ، **مصدر سابق**، ص 23.

[19]- أحسن بومالي، **أدوات التجنيد والتعبئة الجماهيرية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية 1954- 1956**، دار المعرفة، الجزائر،ص94.

[20] - مصطفى هشماوي، "التدريب والتسليح أثناء الثورة التحريرية"، مجلة **أول نوفمبر**، ع173، نوفمبر 2009، ص22.

[21] - **نفسه**، ص23.

[22] - مدني بجاوي، **مذكرات مدني بجاوي. مجاهد وشاهد ومسار**، دار هومة، 2012، ص187.

[23] - **نفسه**، ص188.

[24] - **نفسه**، ص189.

[25] - محمد رمضاني ، **مصدر سابق**، جريدة **الشروق**، 1 ديسمبر 2011.

[26] - بلحسن بالي، **أيام العنف خلال حرب التحرير في الجزائر 1954-1958**، 2009، ص77.

[27] - **نفسه**، ص78.

[28] - الشريف عبد الدايم، **عبد الحفيظ بوصوف**، منشورات ANEP، 2014، ص159.

[29] - **نفسه**، ص294.

[30] - **نفسه** ، ص297.

[31] - مريم مخطاري، **سيرة مجاهدة**، منشورات وزارة المجاهدين، 2005، ص21،22.

[32] - مصطفى هشماوي، **مصدر سابق**، ص24.

[33] - عبد الكريم شوقي، **دور القائد عميروش في الثورة الجزائرية 1954-1962**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الثورة، جامعة الجزائر 2001-2002، ص150.

[34] - محمد بن داره، **مرجع سابق**، ص328.

[35] - **نفسه**، ص327.

الكاتب: أ/رجعة فضيل الغناي
قسم التاريخ- جامعة سبها- ليبيا

عنوان المقال: هجرة بني سليم واثرها في اقليم برقة

البريد الالكتروني:ihneed@gmail.com

تاريخ الارسال:2019/01/16 تاريخ القبول: 2019/02/26 تاريخ النشر: 2019/03/28

هجرة بني سليم وأثرها فى إقليم برقة

The migration of bani salim and her in the province of berqa

ملخص البحث.

يتناول البحث هجرة بنى سليم من مصر إلى إقليم برقة نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى متتبعاً أصل تلك القبيلة،وأسباب هجرتها،وأماكن استقرارها بعد التعريج على أهم فروعها، وما خلفته من أثار بعد قرن من الزمان.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، إقليم برقة ،بنو سليم، الأثر.

Research Summary

,The study deals with The migration of bani salim from Egypt to the province of barqa at the fifth century AH

11th AD,Following the tribe and the reasons of migration and stability,not to stand on the most important branches and successor of Atarabad century

مقدمة.

لكل سبب علة، ولكل هجرة دوافع، فانتقال الناس أفراداً كانوا أو جماعات من موطنهم إلى مكان آخر، لا يتأت بين ليلة وضحاها، بل يسبقه تنسيق وانتقاء للمكان الجديد ومدى ملاءمته للعيش والسكن، سواء أكانت الهجرة ذات طبيعة يومية أو موسمية لا تهدف إلى تغيير مكان الإقامة مثل هجرة البحث عن الطعام أو المراعي الخصبة، أو كانت الهجرة

إجبارية كأن تكون طلباً للحماية الدينية والمذهبية،أو كان للسلطة الحاكمة دوراً فى تلك الهجرة. ونحن إذ نتناول بالبحث موضوع هجرة بنى سليم إلى إقليم برقة نحاول أن نحدد سبب هجرة تلك القبيلة، وأماكن استقرارها وأثر هجرتها بعد قرن على الإقليم. وفق محاور رأيناها ضرورية لكى تكتمل طبيعة البحث فى الموضوع.لاسيما وأن جل الأعمال المتعلقة بتاريخ إفريقية بما فيها إقليم برقة لم تكتفِ بالتقليل من أهمية الهجرة فى تاريخ الإقليم، بل نراها تؤكد على الأثار السلبية لتلك الهجرة،فهل كان الأمر كذلك أو العكس؟ وهو ما نحاول تبيانه من خلال هذه الورقة البحثية.

- جغرافية إقليم برقة(*).

يعد تحديد المجال الجغرافي لأى رقعة جغرافية من الأمور الهامة فى أي دراسة علمية خاصة إذا كان الأمر يتعلق برقعة كان لها أهميتها فى صنع تاريخ ما جاورها من مناطق،فكان لزاماً علينا هنا ونحن نتناول إقليم برقة بالدراسة تحديد المجال الجغرافي له،لاسيما وأن مسالة الحدود دائماً غير ثابتة ومتحركة حسب المتغيرات السياسية أو الاجتماعية، والمذهبية

تتفق أغلب المصادر[1] على أن حدود إقليم برقة الشرقية تمتد من العقبة غرب ديار مصر.

أما حدودها الغربية فهي محل اختلاف، إذ يعتبر اليعقوبى تاورغاء الواقعة غرب سرت هي حد برقة نحو الغرب.ويبرز ذلك جلياً من النص التالى:

((... آخر حد برقة هو موضع يقال له تاورغاء...)) [2]. فى حين انحصر فى سرت عند ابن حوقل، وما قبل سرت عند البكرى، وابن غلبون[3]،أما عن حدودها الشمالية فتظهر أكثر وضوحاً إذ يحدها البحر المتوسط شمالاً[4]،وجنوباً ودان الواقعة ضمن إقليم فزان حيث كانت مضمومة إلى سرت[5].

- تضاريس برقة.

تنقسم التضاريس فى برقة إلى ثلاثة أقسام هي:

أ-السهول الساحلية: التى تبدأ من الحدود المصرية فى الشرق حتى سهول سرت فى الغرب[6].

وتختلف تلك السهول فى لون تربتها فالجزء الشرقى الواقع ما بين توكرة وبنغازي تربته حمراء، تحملها الأودية المنحدرة فى موسم الأمطار من الجبل،وأما الجزء الغربي من هذا السهل والذى يمتد إلى غرب بنغازي حتى رأس المسن بالقرب من مصراته غرباً يطلق عليه اسم برقة البيضاء بسبب لون تربته الرملية البيضاء[7].

ب-نطاق الجبال أو الهضاب: وتضم هضبة الجبل الأخضر وهضبة مارماريكا(الدفنة) وهي عبارة عن هضبة مرتفعة شديدة الإنحدار تعرف بهضبة الجبل الأخضر بسبب ما يغطى سطحها من نباتات واحراش دائمة الخضرة،والجانب الشمالى للجبل مكون من ثلاث مدرجات تحد كل واحدة حافة شديدة الانحدار على شكل هلال لمسافة 25كم، ويصل أقصى عرض لها حوالي 50كم، ويصل ارتفاعها إلى 250كم-300كم، من حيث سطح الدرجة التى توجد عليها بعض البلاد مثل المرج والأبيار، حيث يبلغ اتساعها حوالى 20كم[8].وإذا ما اتجهنا نحو الأجزاء الداخلية من الجبل فأننا نقابل حافة أخرى لا تختلف اختلافاً واضحاً عن الحافة الأولى، وعند الصعود إلى سطح الدرجة الثانية التى يترواح ارتفاعها بين 450و600متر توجد مدينة شحات وأخيراً توجد حافة قليلة الإنحدار، إذا ما قورنت بانحدار الحافتين الأولى والثانية وبعدها نصل إلى الدرجة الثالثة التى تمثل أعلى أجزاء الجبل الأخضر[9].

ج-الصحراء،وهى مظهر آخر من مظاهر السطح فى إقليم برقة وتمتد حدودها حتى تشاد والسودان، وتحوي عدد من الواحات مثل مرادة،وجالو،والكفرة والجغبوب[10]

أما عن مصادر المياه فى الإقليم فتمثلت في بعض العيون مثل عين درنة وعين مارة[11].

-سكان برقة قبيل هجرة بني سليم.

تعددت التركيبة السكانية لإقليم برقة من يهود ورومان وزنوج ،إلا أن البربر(الأمازيغ) مثلوا العنصر الأكبر لساكنة الإقليم،ونظراً لتعدد تلك القبائل فإن تركيزنا سيكون على أكثرها تأثيراً فى صنع الأحداث التاريخية بالإقليم.

قبيلة لواته.

تعتبر هذه القبيلة من أكبر ساكنة إقليم برقة[12]وهي من البربر البتر[13]، وظلت صاحبة السيادة على الإقليم حتى بداية الفتح الإسلامي لبرقة[14]وتمتد الرقعة الجغرافية التى تغطيها هذه القبيلة من وادي مخيل(**) حتى المنطقة الواقعة غرب أجدابية[15]. أما قبيلة مزاته فتمتد أراضيها من الرمادة(***) إلى ما بعد أجدابية وتاورغاء و ودان فى الداخل،وقد تعرضت هذه القبيلة لمصادرة أموالها من قبل الفاطميين بعد انضمامهم إلى ثورة أبي ركوة(****) سنة 397هـ/1006م[16].

قبيلة زناتة.

تعتبر من قبائل البربر البتر[17]،وساندت هذه القبيلة إلى جانب قبيلة لواته ثورة أبي ركوة ضد الفاطميين[18]،بعد أن أصلح ما بينهم من خصام[19].

قبيلة صنهاجة.

تعد من القبائل التى قاومت وجود الرومان قبل الفتح، وعرفت بأنها حليف قوى للفاطميين، وهو ما جعلها فيما يبدو تقطن برقة خاصة بعد أن ضمت الأخيرة لولاية إفريقية الصنهاجية[20] فى عهد العزيز بالله الفاطمي(365-386)[21].

كتامة.

قامت على أكتافها الدولة الفاطمية وقد تولى عدد من أفرادها ولاية برقة عقب رحيل الفاطميين إلى مصر[22]

العرب.

وصل العرب فى طلائع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب،واستقر بعض منهم فى إقليم برقة، سواء أكانوا من العرب القيسية أو اليمنية.فقد سكنت قبائل بلى وجهينة وبني مدلج الرمادة، فى حين سكن الأزد ولخم وجذام جبل شرق برقة[23].إلى جانب عدى وصدف[24].وسكن الجبل الغربى فى إقليم برقة غسان وجذام والأزد وتجيب[25].

كما قطنت إقليم برقة قبيلة بني قرة من بني هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية من بلاد أخميم بصعيد مصر[26]. وعلى الرغم من عدم معرفتنا بتاريخ معين لاستقرارها إلا أننا نستطيع القول أن هذه القبيلة كانت موجودة على الأقل سنة 392هـ/1001م على اعتبار أنها شاركت فى الحملات التى شنتها الدولة الفاطمية على إقليم طرابلس فى نفس السنة[27]، بالإضافة إلى اشتراكها فى ثورة أبي ركوة سنة 397هـ/1006م. كما سكن عدد من اليهود والنصارى منطقة الرمادة وجاوروا مزاته[28].

مظاهر الحياة الاقتصادية بإقليم برقة.

الزراعة.

تعد الزراعة مورداً من موارد الاقتصاد ببلاد المغرب الإسلامي عامة وإقليم برقة بصفة خاصة،فقد زاول سكانه هذه المهنة منذ وقت مبكر يرجع إلى العصور الرومانية واليونانية، لاسيما زراعة الحبوب[29].واشتهرت برقة بإنتاج الزيتون[30]،وكثرة فواكها[31]،كما اشتهرت أوجلة وأجدابية[32]،والقرى المحيطة بسرت بإنتاج التمور[33].

ويرجع تنوع المحاصيل الزراعية بالإقليم إلى خصوبة التربة وملائمة المناخ، فضلاً عن الاهتمام الذى أولاه حكام الإقليم للزراعة، إذ قام الفاطميون بحفر الأبار على طول الطريق المؤدى إلى مصر[34].

أما عن وسائل الرى فى الإقليم فقد تنوعت هى الأخرى بين مياه الأمطار[35]،والمواجل التى هى عبارة عن خزائن التخزين ماء المطر[36].

كما تنوعت الملكيات الزراعية بالإقليم فنجد الضيعة[37]،والمزرعة[38]، هى مصطلحات استخدمت للدلالة عليها

الرعى.

تنوعت الثروة الحيوانية بإقليم برقة وارتبط كثير منها بحياة المزراعين الذين استخدموها فى حراثة الأرض، بالإضافة إلى الاستفادة منها فى توفير مستلزمات الحياة اليومية من مأكل وملبس. وقد تنوعت تلك الثروة بين أغنام وماعز، وجمال، وأبقار،ونمور[39].وانتشرت المراعى

بإقليم برقة نظراً لملائمة تضاريسها لتربيتها،حتى وصفت مراعيها بصلاحيتها لتربية الحيوانات[40].وكانت مراعي سرت وما حولها مقصد من كل النواحي لرعي الماشية بعد سقوط الأمطار،ويفهم ذلك من خلال أحد النصوص لابن حوقل والذى يشير فيها قائلاً[41] .

((... وسرت تقصد نواحيها إذا أمطرت وتنتجع مراعيها...)).

الصناعة.

تظهر المادة المصدرية المتوفرة لدينا فقر إقليم برقة فيما يخص الصناعات، لاسيما الصناعات البسيطة، حيث تظهر إشارة خاطفة تشير إلى وجود بيوع الصوف فى أسواق برقة[42]،

فى الوقت الذى يشير فيه بعضها إلى وجود صناعات متقدمة من بينها دباغة الجلود،إذ وجدت بالإقليم ديار معدة لذلك[43]، إلى جانب وجود معاصر لزيت الزيتون[44]،فضلاً عن استخراج الملح والقطران فى إحدى قرى برقة تعرف بمقة[45] واستخراج الشمع الخاص بالنحل[46].فهل يعقل أن يعرف إقليم برقة صناعات معقدة كهذه ويعجز عن معرفة صناعات هى من صميم احتياجات الحياة اليومية مثل صناعة الخيام، والفرش ،وصناعة الأوانى الفخارية؟.

التجارة.

تمتع إقليم برقة بموقعاً جغرافياً جعل منه حلقة وصل بين المشرق والمغرب وبين جنوب أوروبا وبلاد ما وراء الصحراء.وبالوقوف على التجارة بالإقليم نجدها ذات اتجاهين:

تجارة داخلية وخارجية.

التجارة الداخلية، وهى التجارة التى تقوم بين المناطق الداخلية للإقليم وتشهد أسواق المدن والقرى المجاورة على وجود مثل هذا النوع من التجارة،حيث وصفت أسواق برقة بأنها حافلة ببيوع الصوف والفلفل والعسل والزيت[47].

أما التجارة الخارجية ،فنعني بها تجارة إقليم برقة مع مصر وبلاد السودان، وساعدت الموانى المنتشرة على طول ساحل الإقليم على نشاط الحركة التجارية به مثل ميناء أجيا،وبرنيق،وطلميثة وميناء لك[48].كما احتوءت مدن إقليم برقة على مقومات المدن التجارية المزدهرة من وجود فنادق وحمامات مما جعل منها محطات على درجة كبيرة من الأهمية الاقتصادية مثل أجدابية[49]، وقد تمت هذه التجارة عبر مجموعة من الطرق نذكر منها:

الطريق الساحلى،الذى يعرف بطريق الجادة، ويبدأ من الإسكندرية ويمر بذات الحمام ثم إلى برقة ومنها إلى أجدابية ومنها إلى سرت،ويتابع هذا الطريق سيره نحو طرابلس ومنها إلى قابس والقيروان[50]. مع وجود طريق ساحلى آخر جنوب الخط الأول يبدأ من الفسطاط وينتهى فى برقة، ويلتقى مع الخط الأول فى أجدابية[51].

الطريق الصحراوى.

يخرج هذا الخط من واحة أوجلة بإقليم برقة ويمر فى أراضي إقليم فزان حيث محطة زويلة ومنها فى اتجاه بلاد السودان وأن كان جزء منه مرتبط بمصر عبر الواحات الداخلة والخارجة[52].

وتنوعت سلع التجارة بإقليم برقة، إذ عرف الإقليم بتصديره الشب السرتى[53] والصوف والعسل[54]،كما اشتهر بتصديره الذبائح إلى مصر والإسكندرية[55].إلى جانب تصديره الأكسية المغربية،وشقة(لعلها جبة) الصوف[56]،فى حين كان الإقليم يستجلب الرقيق من بلاد السودان، ليصدره بعد ذلك إلى إفريقية[57].

-طبيعة السلطة فى إقليم برقة قبيل وصول بني سليم.

كانت طبيعة السلطة فى إقليم برقة لا تختلف عن طبيعة التنظيمات السياسية القائمة فى المجتمعات البدوية والتى تقوم على أساس النظام القبلى، حيث يكون للعصبية القبلية دور الغلبة فيما يخص القرارت السياسية،وفق معايير تدعم تلك السلطة أهمها النسب والشرف، والحسب، والعصبية[58].

ويقف بنو قرة على رأس التنظيم السياسي فى إقليم برقة، حيث يتولى عدد من أفرادها حكم القبيلة وكان يطلق على رئيسهم لقب الشيخ.،ولا تبين لنا المصادر نوع الحكم عند(بنو قرة) إذ بمطالعة قائمة اسماء شيوخهم لا نجد أن هناك علاقة قرابة تربطهم بدءاً من أبي ماضي الذي لا تذكر المصادر لقبه وانتهاءاً بجبارة بن مختار، الذى حكم بعد سنة 420هـ/1029م[59]، مما قد يعنى أن الاختيار كان يتم وفق المعايير التى أشرنا إليها، إلى جانب العمر.

ونحن إذ نتناول السلطة السياسية فى الإقليم لابد من الإشارة إلى أن الإقليم كان جزء من ممتلكات الدولة الصنهاجية فى إفريقية والتى تدين بالولاء للفاطميين فى مصر، وقد حاول بنو قرة الخروج عليهم أكثر من مرة ، فبعد انضمامهم إلى ثورة أبي ركوة سنة 395هـ/1004م[60]، وفشلها -كما سبقت الإشارة- ظلوا يتحينون الفرصة للخلاص من التبعية للفاطميين، فحاولوا سنة 403هـ/1012م الزحف على مدينة برقة حاضرة الإقليم ما دفع واليها الصنهاجي حميد بن توصلت بالتوجه نحو إفريقية، و رداً على ذلك قام المعز بن باديس والي الفاطميين على إفريقية

بتجريد حملة ضد أهل الإقليم[61]،وخاصة قبيلة زناتة التى تشير المصادر إلى أن المعز أبادها[62]. لكن ما أن أعلن صاحب إفريقية خلع طاعة الفاطميين، حتى بادر شيخ (بنو قرة) جبارة بن المختار بخلع طاعة الفاطميين[63].

- هجرة بني سليم إلى إقليم برقة.

تجد الإشارة قبل تناول هجرة بني سليم إلى إقليم برقة أن الهجرة ضمت قبائل أخرى من أبناء عمومتهم بني هلال وقبيلة غطفان وجشم وهوزان وقبيلة المعقل وقبيلة بني فهم وغيرها.

-أصل بنى سليم.

يرجع نسب بنو سليم إلى سليم بن منصور بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان،أي من العرب العدنانية[64]أو ما يعرف بعرب الشمال[65]،ورئاستهم فى الجاهلية لبني الشريد بن خفاف بن بهثة بن سليم، والتحق بنو سليم بالدعوة الإسلامية مع

النبى(صلعم) يوم فتح مكة، وقدم لوائهم على أولوية القبائل.وكانت مواطنهم موزعة على بعض الأماكن مثل حرة بنى سليم وحرة النار بالقرب من تيماء وعالية نجد بالقرب من خيبر، ثم ارتحلوا إلى الحجاز وسكنوا المدينة[66].وانتقلوا بعد ظهور الإسلام مع بني هلال التى كانت مواطنهم قبل الإسلام عند جبل غزوان بالقرب من الطائف،إلى بلاد الشام[67]،وقد وجهت نحوهم حملات من قبل العباسيين بسبب قطع الطرق على الحجيج والتجار[68].وانضموا إلى القرامطة(*****) فى البحرين وعمان،ولما تغلب الفاطميون على مصر وقعت حرباً بينهم وبين القرامطة،انتصر فيها الفاطميون، واضطر القرامطة للرجوع إلى البحرين،ونقل الفاطميون أحلافهم من بني هلال وبني سليم إلى صعيد مصر[69] .

- أسباب الهجرة.

تجمع أغلب المصادر[70]على أن السبب فى هجرة بني سليم، والأصح أن نقول هنا إرسالهم ومن معهم من العرب إلى إفريقية بما فيها برقة هي سوء مخاطبة والي الفاطميين على إفريقية المعز بن زيرى لوزير الفاطميين اليازورى(******)،فما كان من الأخير إلا أن أقنع الخليفة المستنصر الفاطمي بمعاقبته قائلاً:

((إن صدقت المخيلة فى ظفرهم بالمعز وصنهاجة، كانوا أولياء للدعوى وعمالاً بتلك القاصية، وارتفع عدوانهم عن ساحة الخلافة، وأن كانت الأخرى فلها ما بعدها، وأمر عرب البادية أسهل من صنهاجة الملوك))[71].

لكن يبدو أن الأمر مختلف تماماًعن ما ذكرته المصادر ويتمثل السبب فى انشغال الفاطميين بالمشرق، حيث كان المشروع الفاطمي يهدف إلى فرض السيطرة عليه، والمعروف أن قبائل بنى سليم ومن معهم قد عرفوا بشغبهم ، فلا يمكن لمثل هذه القبائل التى كانت بمثابة ناقوس الخطر على الفاطميين أن تترك فى مصر فى مثل هذه الظروف، خاصة إذا ما علمنا أن أبناء عمومتهم من بني قرة قد شاركوا فى ثورة أبي ركوة ضد الفاطميين، وبهذا يكون التخلص من هذه القبائل شرط لنجاح مشروع الفاطميين فى المشرق،لذلك نجدهم يعطوا أموالاً[72].وعلى الرغم من أن هناك من يجعل السبب فى إرسالهم هو ما تعانيه الدولة من أزمة اقتصادية، لكن إذا كانت الدولة تعانى فعلاً تلك الأعباء فلماذا كانت تعطي لهم الأموال فى ظل هذه الأزمة؟ كما أننا نجدهم يتقاسمون إفريقية قبل خروجهم من مصر[73].

وبهذا يكون السبب فى إرسالهم كما أشرنا إن مشروع الفاطميين كان قائم على ضم المشرق، ولنجاحه لابد من التخلص من هذه القبائل، كما أن أمر إرسالها كان أمراً واقعاً لا محالة ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال أحد النصوص وما ورد فيها على لسان اليازورى إلى المعزبن زيرى ومن تبعه فى الانفصال:

((أما بعد، فقد أنفدنا لكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضى الله أمراً كان مفعولا...))[74].

وكما اختلفت المصادر فى سبب إرسال تلك القبائل اختلفت فى سنة إعلان القطيعة، وهناك عدة تواريخ جعلتها المصادر تاريخ لإعلان القطيعة مع القيروان.فابن الأثير يجعلها سنة 435هـ/1043م.[75]،فى حين اعتبرها ابن خلدون قد حصلت سنة 437هـ/1015م[76]. ونجد من يحددها بسنة 443هـ/1051م[77].

لكن نعتقد أن أى عمل كان خاصة إذا كان يتعلق بحدث له تبعياته على مختلف الأصعدة لا يتأت دون مقدمات لهذا العمل، فرواية ابن الأثير وفق ذلك لا يمكن بأى حال من الأحوال نفيها،وهى السنة التى راسل فيها المعز الوزير الجراجرائي وحاول استمالته واقناعه بخلع طاعة الفاطمين، ولكنه توفى فى رمضان من نفس العام ، كما أن المعز كان قد بعث بسفارة إلى بغداد تمكنت من الوصول وتقديم فروض الولاء والبيعة،ربما كان ذلك سنة 437هـ/1015م بالاعتماد على رواية ابن خلدون، وهى السنة التى تولى فيها اليازورى الوزارة الفاطمية[78]. واعتماداً على الإشارات الواردة عند ابن عذاري تؤكد هى الأخرى أن عملية الاستقلال قد مرت بعدة مراحل حتى وصلت ذروتها وإعلان القطيعة السياسية مع مصر فهو يقدم لنا عدة تواريخ تتوافق منطقياً مع مجرى الأحداث وتؤكد ما ذهبنا إليه إذ يشير إلى أن سنة 440هـ/1048 أمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر إفريقية، وفى سنة 441هـ/1049م أمر بتغيير العملة[79].وفى سنة 443هـ/1051م أمر بلبس السواد[80]شعار العباسيين، وهذا تأكيد آخر على أن الانفصال لم يحدث مرة واحدة.

نستنتج من هذا كله أن سنة إعلان القطيعة بشكل رسمي مع الفاطميين كانت سنة 443هـ/1051م بعد أن سبقتها سنوات من التنسيق والتخطيط

-وصول بني سليم إقليم برقة.

اتفق بنو سليم وأبناء عمومتهم من بني هلال قبيل مغادرة أرض مصر على اقتسام الأراضي الواقعة إلى الغرب من مصر بحيث يكون لبني سليم وأبناء عمومتهم من بني قرة إقليم برقة[81] ولبنى هلال ما يقع غرب هذا إلى طرابلس وإفريقية،[82] وتصمت المصادر عن ذكر الطريق الذى سلكته قبائل بني سليم للوصول إلى إقليم برقة لكن نعتقد أنها سلكت الطريق الصحراوى الذى يعرف بطريق الواحات،حيث يبدأ هذا الطريق بعبور الواحات الداخلة والخارجة ومنها إلى سنترية(سيوة) ليصل هذا الطريق واحة أوجلة الواقعة ضمن إقليم برقة[83] على اعتبار أن قبائل بني سليم تمتهن الرعى وكانت معهم أنعامهم، فلا بد لهم من عبور الطرق الصحراوية وكان هذا الطريق أهمها،وبعد وصول تلك القبائل إلى إقليم برقة توزعت على رقعته الجغرافية كالتالى :

قبيلة هيب،امتد المجال الجغرافي لهذه القبيلة من أرض الإسكندرية حتى بئر السدرة القريب من سرت[84]، وكان بنو الأحمد أحسن بني هيب حالاً على اعتبار أن مجالهم يتميز بخصوبة أراضيه[85].

أما القبيلة الثانية التى تليها فهى لبيد،وهي من أكثر القبائل السليمية بطوناً،وتجاور هذه القبيلة قبيلة ذباب التى تمتد أراضيها من بئر السدرة إلى حدود قابس[86]،ويقع على عاتق هذه القبيلة حماية العمائر القريبة من حصون مسراته، فضلاً عن تقديم الخدمات للحجيج فى طريقهم لإداء فريضة الحج[87].أما قبائل عوف بن سليم فقد سكنت أطراف مدينة سرت[88].

وهاجرت مع بنى سليم إلى إقليم برقة قبائل أخرى هم ناصرة،وعميرة، وقد قطنوا الرقعة الممتدة ما بين قصر العطش وقافر، وامتدت منازل بني جعفر من سوسة شرقاً إلى بئر السدرة غرباً[89].وسكنت برقة إلى جانب قبائل بنى سليم بطون من بني هلال مثل بنو نعجة،وبنو قرة،على الرغم من أنهم كانوا ضمن ساكنة إقليم برقة قبيل الهجرة السليمية.إلى جانب بني غطفان الذين سكنوا مع بني هيب، وبني صبيح من فزارة العدنانية[90]. كما سكن بنو سماك العقبة وبرقة[91]، فضلاً عن قبائل رواحة التى جاورت هيب وكانت مثلها أهل إبل وثروة[92].

-أثر هجرة قبائل بني سليم في برقة.

تركت هجرة بنى سليم أثار واضحة فى إقليم وشملت تلك الأثار مناحى الحياة المختلفة.

سياسياً.

لم يقم بنو سليم بتكوين كيانات سياسية فى برقة؛مما زاد من عزلة الإقليم،لتمسكهم بطابع حياتهم البدوى،والرعوى، وعاشوا فى تجمعات رعوية تقوم على رعى الماشية وزراعة بعض المحاصيل الزراعية التى تعتمد على مياه الأمطار، كما هيمنوا على القبائل العربية التى سبقتهم إلى برقة منذ عصر الفتح، وعلى البربر القاطنيين بها[93] .لكن الاعتماد على هذا العامل وحده فى تفسير عدم نجاح بني سليم فى إقامة كيان سياسى بإقليم برقة، يعد إجحافاً فى حق هذه القبائل، إنما يرجع ذلك فى اعتقادنا إلى أن المنطقة التى دخلتها هذه القبائل كانت ذات خلفية اجتماعية وعقائدية تختلف عنهم، فكان ذلك بمثابة التحدى الأكبر الذى واجه هذه القبائل، وكما نعلم أن لنجاح قيام الدول لابد من توفر عاملين هما العصبية والدين إذ باتحادهما تقوم الكيانات السياسية، وعلى الرغم من أن عصبية بني سليم كانت قادرة على زعزعة النظام القائم فى إفريقية المثمتل فى بني زيرى ،إلا أنها ايدلوجياً لم يكن بإمكانها اقناع ساكنة الإقليم بمبادئها، ولم تكن قادرة على جذب أكبر قدر من المؤيدين والأنصار فى مناطق بعيدة عن سلطة الدولة المركزية، إذ شجع البعد عن مركز السلطات والأصح أن نقول هنا الإفلات من رقابة السلطة على ظهور عدد من الثورات والتمرادات فى أقاليم تابعة لسلطة الفاطميين من بينها برقة[94] عندما وجدت صداها فى أهالى الإقليم الرافضين لسلطة الدولة المركزية، كما أن قبائل بني سليم لم تدعِ أي نسب لها ،وإدعاء النسب هنا ليس مجرد تجميل للواجهة الاجتماعية بل كثيراً ما كان هو الأخر ذريعة لطلب الحكم أوتتبيث الأقدام فى مواقع السلطة، ومحاولة لاستقطاب أكبر قدر من المؤيدين والأنصار؛ كما أن الخروج على السلطة شعار كان يرفعه كل ثائر لتحقيق ذلك؛ لأن الخروج كان يستهوي نفوس أهل المغرب؛ الذين جبلوا على حياة الحرية وعدم الخضوع لسلطة الحاكم، وكال هذه الأمور افتقدها بنو سليم.

اقتصادياً.

صبغت الهجرة إقليم برقة بالطابع الرعوى بحكم ملائمة أرضه لممارسة هذا النوع من الأنشطة الاقتصادية، على الرغم من أن المصادر هولت أثر هجرتها على الجانب الاقتصادي ،واصفة برقة قبل تلك الهجرة بأمصارها المستبحرة فأصبحت صحاري جرداء كأنها لم تكن[95] ، بعد أن قطعت الزرع وغورت الآبار[96]، لكن هذا الأمر لا ينطبق على كل القبائل السليمية، فالمصادر نفسها تناست فيما يبدو مهاجمة المعز بن باديس لبرقة وإبادته لقومها من زناتة، وما يمكن أن يخلفه أي تحرك عسكري من تدمير للأراضي خاصة إذا كان بدافع العقاب. واستمرت زراعة القطن قائمة فى برقة بحسب رواية الإدريسي،كما أن قبائل بني سليم وتحديداً بنى هيب كانت تقدم خدمات لأهل أوجلة من حراسة قوافل ومنتجات زراعية ورعى، مقابل بعض المنتجات الزراعية[97]،وبهذا تحول اقتصادها من الاقتصاد القائم على الرعي إلى اقتصاد قائم على الاهتمام بالزراعة وطرق التجارة نفسها. بل نلاحظ نشاطاً للحركة التجارية بالإقليم عن ذي قبل حيث نجد السفن تتردد على ميناء طلميثة البرقاوي[98] جالبة معها سلع جديدة لم تكن المصادر قد ذكرتها من قبل مثل أقمشة القطن والكتان[99].والتى نعتقد أنها كانت من ضمن صادرات الإقليم قبل هجرة بني سليم، ولكن بكميات قليلة وعندما زاد الطلب تم ذكرها، كما صدر عبر نفس الميناء منتجات جديدة بينها القطران،والسمن، والعسل[100]،والكبريت والقمح والشعير[101]،واستمر ميناء أجدابية تتردد عليه المراكب بالأمتعة النافقة[102].

اجتماعياً وثقافياً.

اجتماعياً.

شكلت قبائل بنى سليم جزء من المجتمع فى إقليم برقة[103]،ونجد معظمهم سرعان ما اندمجوا فى القبائل العربية وانتسبوا إليها حتى صاروا عرباً خلصاً،وتركت قبائل البربر عاداتهم القديمة، وزالت الفروق بينهم فى اللباس والمأكل والتقاليد، وانحصر اللسان البربرى فى دائرة ضيقة فى بعض الواحات مثل أوجلة، ومرادة[104]وهو ما جعل ابن خلدون يصفهم قائلاً:

((... صاروا فى عداد الناجعة من عرب بنى سليم فى اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل، وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الصيف، والشتاء...)) [105].

ويبدو أن هذا التجانس والاختلاط مع العرب مبعثه التشابه بين حياة العرب الهلالية وبعض قبائل البربر خاصة تلك التى تمتهن الرعى،واتفاقهم فى الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم، وحفظ العهد وحسن الجوار وغير ذلك من الصفات[106].

وثقافياً

كان لهجرة بني سليم بالغ الأثر على لهجة أهل برقة، فعلى الرغم من أن الفتح الإسلامي لبرقة سنة 21هـ/641م ساهم فى انتشار الإسلام واللغة العربية، إلا أن هجرة بنى سليم عمقت اللغة العربية بالإقليم،حتى أن العبدرى الذى زار المنطقة فى حدود سنة 688هـ/1289م أثنى على فصاحة عرب برقة ووصف لهجتهم بأنها أقرب اللهجات إلى الفصحى قائلاً:((وعرب برقة ... من أفصح عرب رأيناهم،وعرب الحجاز أيضاً فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، فهم إلى الآن على عربيتهم، لم يفسد كلامهم إلا القليل، ولا يخلون إلى الأعراب إلا ما قدر له، بالإضافة إلى ما يعربون، وقد سألت بدوياً لقيته يسقى إبله فى الحصوى عن ماء يقال له((أبوشمال)) وذكرته بالواو فى موضع الخفض على عادة أهل المغرب فقال لى: نعم تطأون أبا شمال وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول به، وليس فى المغرب... يفعل ذلك))[107].

كما عمقت الهجرة العلاقات الثقافية مع المحيط بهجرة عدد من الطلبة إلى مصر مثل هجرة الطالب أبو القاسم اللكى الذى تلقى العلم على يد الفقيه أبي بكر محمد الطرطوشى بالأسكندرية سنة 520هـ، وصار مفتى بها[108].

الخاتمة.

بعد هذا العرض لموضوع الدراسة والمعنون بـ **هجرة بنى سليم وأثرها على إقليم برقة** يمكن حوصلة بعض النتائج:

-تبين من خلال الدراسة أن أغلب المصادر التى تناولت تاريخ إقليم برقة كانت مشرقية الأصل لم يغادر أصحابها مناطق إقامتهم لربما يكون بسبب خجل أصحابها فى الحديث عن تاريخ أسلافهم، أو حتى لا يظهر مساوئ الأنظمة القائمة، فمنع أهل المغرب من تدوين تاريخهم وترك تدوين تاريخ بلادهم لمؤرخي السلطة المشارقة خاصة فى عهد الدولتين العباسية والفاطمية.

- لم يكن السبب في إرسال (بنو سليم)إلى بلاد المغرب مجرد تأليب لوالٍ متمرد أو ضايقة اقتصادية تمر بها مصر بل كانت ذريعة ظاهرية لإرسالهم، وفي باطنها التخلص من قبائل عرفت بشغبها، ويحول وجودها دون نجاح مشروع الفاطميين الرامي إلى السيطرة على المشرق.

- تركت هجرة بني سليم لإقليم برقة بصماتها فى كافة المجالات، ففى الجانب السياسى والاقتصادى، لم يقم بنو سليم بتكوين كيانات سياسية بالإقليم؛ لتمسكهم بطابع حياتهم البدوى،والرعوى، بل عاشوا فى تجمعات رعوية تقوم على رعى الماشية وزراعة بعض المحاصيل.

أما اجتماعياً وثقافياً فقد عبرت هجرة بنى سليم عن الاندماج والتجانس بين العرب والبربر،واعتبرت هجرتهم سلسلة من سلاسل الوجود العربي ببلاد المغرب الإسلامي، الذي بدأ منذ البدايات الأولى للفتح الإسلامي للمنطقة سنة 21هـ/641م وعمقت الهجرة اللغة العربية بالإقليم.

الهوامش

(*) عرف الإقليم فى عهد الرومان باسم بنطابلس أو انطابلس، ثم أطلق عليه العرب الفاتحون اسم برقة نسبة لمدينة برقة التى خلعت اسمها على الإقليم. أبو العباس أحمد بن يحى بن جابر البلاذرى،فتوح البلدان، تحقيق:عبدالله بن أنيس الطباع وعمر بن أنيس الطباع،مؤسسة المعارف للطباعة والنشر،بيروت،1987،ص314.

[1] - اليعقوبى،أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب،تاريخ البلدان،1892،ص342؛،قدامة ابن جعفر،كتاب الخراج،(د.ت)ص222. أبو القاسم بن محمد ابن حوقل،صورة الأرض،م1،دار صادر،بيروت،د.ت،ص70.

[2] - اليعقوبى، البلدان،ص342 .

[3]-ابن حوقل ،صورة الأرض،م1ص67 ،أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى، المسالك والممالك،م2،ط1، تحقيق:جمال طلبة،منشورات محمد على بيضون، ودار الكتب العلمية،2003،ص184، أبو عبد الله محمد بن خليل ابن غلبون،التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار،تحقيق: الطاهر الزاوى،القاهرة ،1349،ص61. ربط البكرى وابن غلبون الأمر هنا بمجال قبيلة هوارة إحدى ساكنة الإقليم، وهى ضمن محاور دراستنا.

[4]- الوطنى،مصلحة الأطلس المساحة،طرابلس،1978،ص28.

[5]- ابن حوقل ،صورة الأرض،م1، ص67.

[6]- عبد العزيز طريح شرف،جغرافية ليبيا،ط2،،منشأة المعارف،الإسكندرية،1971،ص31.

[7]- أحمد إبراهيم زرقانة، جغرافية الوطن العربى،دار النهضة، القاهرة،1964،ص6؛ بولبيض،عبد الفتاح رجب حمد،تاريخ برقة الإسلامى فى الفترة من القرن الخامس الهجرى حتى الربع الأول من القرن العاشر الهجرى، منشورات المركز الوطنى للمحفوظات والدراسات التاريخية،طرابلس،2009،ص27.

[8]- شرف،جغرافية ليبيا،ص53.

[9]- المرجع نفسه،ص54.

[10]-بولبيض،تاريخ برقة،ص28.

[11]- طريح،جغرافية ليبيا،ص125،126.

[12]- ابن خرذابة، المسالك والممالك،دمشق،1999،ص126؛ عبد الرحمن بن الحكم، فتوح مصر والمغرب،تحقيق: على محمد عمر ،مكتبة الثقافة الدينية ،1995،ص197.

[13]- عبدالرحمن بن محمد ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ج6،منشورات الأعلى للمطبوعات،بيروت1968،ص234.

[14]- ابن الحكم،فتوح مصر،ص197.

(**) وادى مخيل:موضع قريب من برقة بينه وبين إجدابية خمس مراحل، وكذلك بينه وبين أنطابلس (برقة).شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى، معجم البلدان،دار صادر،بيروت،(د.ت)ج4،ص444.

[15] - اليعقوبى البلدان،ص342،344،345.

(***) الرمادة:بلدة بين الأسكندرية قريبة من البحر ومن برقة.الحموى،معجم البلدان،ج2،ص813.

(****) هو الوليد بن هشام بن عبد الملك،قصد القيروان قادماً من الأندلس،فاقام فيها يعلم الصبيان ثم توجه إلى مصر وسمع الحديث بها، ومنها توجه إلى مكة واليمن ،قبل أن يعود إلى مصر ليقيم فى أريافها عند بني قرة ومنها إلى برقة التى أعلن فيها ثورته ضد الفاطميين سنة 397هـ/1006م أبى الفرج عبد الرحمن بن

على بن محمد الجوزى ،المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم،ج15،تحقيق:محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،ص53؛؛ ابن الأثير،أبوالحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الجزرى،م8،دار الكتب العلمية،بيروت،198، ص42؛ ابن كثير،ابو الفداء الحافظ،البداية والنهاية، ج11،مكتبة المعارف، بيروت، 1991،ص337؛أبو يعلى حمزة القلانسى، ذيل تاريخ دمشق،بيروت،مطبعة اليسوعيين ،1908،ص64.

[16] - ابن عذارى المراكشى،البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب،ج1،دار صادر،بيروت،ص236.

[17] -ابن خلدون،التاريخ،م6،ص181.

[18] - الانطاكى، يحيى بن سعيد بن يحيى،تاريخ الأنطاكى((المعروف بصلة أوتيخا))، ط1، تحقيق:عمر عبد السلام تدمرى،طرابلس- لبنان،1990،ص259.

[19] - ابن الأثير،الكامل فى التاريخ، ص42.

[20] - ابن خلدون،التاريخ،م6،ص318

[21] - المصدر نفسه والصفحة

[22] - ابن عذارى،البيان المغرب،ج1،ص241.

[23] - اليعقوبى،البلدان،ص343.

[24] - مفتاح، صالح مصطفى،ليبيا منذ الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر،ط1، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان،1978،ص187.

[25] - اليعقوبى،البلدان،ص343.

[26] - القلقشندى،نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب،دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)،ص356.

[27] - المقريزى، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على،اتعاظ الحنفا بأخبار الإئمة الفاطميين الخلفا،ج1،ط2، تحقيق جمال الدين الشيال،القاهرة،1996،ص60.

[28] - اليعقوبى،البلدان،ص343.

[29] - صالح مفتاح، ليبيا منذ الفتح، ص199.

[30] -ابن حوقل،صورة الأرض،ص69.

[31] - شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسي،أحسن التقاسيم فى معرفة الإقاليم،ط1، تحقيق: محمد أمين الضناوى،منشورات محمد على بيضون ودار الكتب العلمية،بيروت،2004،ص244.

[32] – البكرى، المسالك والممالك،م2،ص177.

[33] -ابن حوقل صورة الأرض،ص71.

[34] - المقريزى،اتعاظ الحنفا،ج1، ص96.

[35] -المقدسى،أحسن التقاسيم،ص60، ابن حوقل،صورة الأرض،ص67.

[36] - ابن حوقل،صورة الأرض،ص68.

[37] –اليعقوبى،االبلدان،ص344.

[38] -ابن حوقل،صورة الأرض،ص70.

[39] – الحميرى محمد بن عبد المنعم ،الروض المعطار فى خبر الأقطار،ط2، تحقيق:إحسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة،1980، ص91.

[40] -البكرى،المسالك والممالك،م2،ص176.

[41] -ابن حوقل،صورة الأرض،ص68.

[42] - ابن حوقل،صورة الأرض،ص67.

[43] - الحميرى،الروض المعطار،ص91.

[44] – ابن حوقل صورة الأرض،ص67.

[45] – البكرى،المسالك والممالك،ج2،ص176،180.

[46] -ابن حوقل،صورة الأرض،ص96.

[47] - المصدر نفسه،ص67.

[48] -اليعقوبى،البلدان،ص343.

[49] – البكرى،المسالك والممالك،م2،ص177.

[50] -البكرى، المسالك والممالك،م2،358،367.

[51] –ابن خرذادبة،المسالك،ص84.

[52] -الحموى،معجم البلدان،ج1،ص397.

[53] -تيرى،تاريخ الصحراء الليبية،ص624.

[54] - الحميرى،الروض المعطار،ص91.

[55] - ابن عبد ربه الحفيد، الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد،1985،ص143 .

[56] -ابن حوقل،صورة الأرض،ص67.

[57] - البكرى،المسالك والممالك،م2،ص182.

[58] - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط الأخيرة،منشورات دار ومكتبة الهلال،بيروت،2000،ص95.

[59] - المختار عز الملك محمد بن عبدالله المسبحى، تاريخ المسبحى،ج4،تحقيق: أيمن فؤاد سعيد ونيازى بيانكى، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة،د.ت،ص28.

[60] - ابن خلدون،التاريخ،ج4، 2000، ص73.

[61] - المقريزى،اتعاظ الحنفا،ج1،ص52.

[62] - ابن الأثير،ج9،ص567.

[63] - تاج الدين محمد بن ميسر،المنتقى من أخبار مصر ،ج2،تحقيق: فؤاد سيد، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية،القاهرة، 1978،ص12،13.

[64] - المقريزى،البيان والأعراب لمن حل بمصر من الأعراب،تحقيق:عبد المجيد عابدين،عالم الكتب، القاهرة،1961،ص28.

[65] - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى(الفاطميون وبنو زيرى الصنهاجيون إلى قيام المرابطين)،ج3،منشاة المعارف، الأسكندرية،2004،ص417.

[66] - القلقشندى،قلائد الزمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان،تحقيق:إبراهيم الأبيارى،دار الكتاب المصرى واللبنانى، القاهرة، بيروت،1982،ص24.

[67] - القلقشندى،نهاية الآرب،ص392؛أحمد بن خالد الناصرى السلاوى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج1، وزارة الثقافة والاتصال، الدار البيضاء،2001،ص68.

[68] - المصدر نفسه،ص392؛المصدر نفسه،ص68.

(*****) حركة تعتمد التنظيم العسكرى السرى،وظاهرياً التشيع لآل البيت،كانت مدينة واسط بالعراق مجالاً خصباً لنمو دعوة القرامطة،التى تنسب لحمدان بن قرط ،والذى عمد إلى بناء مركز للدعوة القرمطية قرب الكوفة وسماها دار الهجرة، واتخذها منطلقاً لبث دعوته التى ظلت تنشط فى السر إلى أن جاء أبوسعيد الجنابى، فأنشأ فرعاً لها فى الأحساء واتبعها الناس،وانتشرت فى البحرين وضخمت، فأرسل لها المتعضد جيشاً،لكن هذا الجيش انكسر مهزوماً، وأسر قائده،وتبددت جنوده، وأستولى القرامطة على البحرين واليمامة وعمان،. ولما استلم أبوطاهر قيادة القرامطة عمل على توسيع نفوذه وشرع يشن غاراته على البصرة تارة، وعلى الحجاز تارة أخرى،وقصد البصرة سنة 311هـ/923م فسلبها ليلاً، بعد أن استولى على ما فيها من الأموال،والنساء،والصبيان وعاد بها إلى هجر. تم سار سنة 312هـ/924م ،معترضاً الحجاج فى رجوعهم إلى مكة، وهاجم مكة سنة 319هـ/931م،وفتك بالحجاج، واقتلع الحجر الأسود، ونقله إلى الأحساء حتى سنة 339هـ/950م، خاصة وأن الخلافة لم تقوى عليهم؛لضعفها،مما جرأهم على الزحف على العراق مرة أخرى، مما اضطر الخليفة العباسى إلى أن يعقد معهم هدنة يؤدى لهم خلالها ما مقداره 120 ألف دينار كل سنة.عبدالرحمن بن الجوزى، القرامطة،ط5، تحقيق: محمد الصباغ،المكتب الإسلامى،1981،ص13- 19.وبعد وفاة أبى طاهر، آل أمر القرامطة إلى الحسن الأعصم الأعصم الذى استولى على دمشق، ودارت له مع الخلافة الفاطمية معارك انهزم فيها القرامطة وتراجعوا إلى الأحساء.

[69] - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص27،28.

[70] - محب الدين ابن الصيرفى، لأشارة لمن نال الوزارة،القاهرة،(د.ت)،ص76؛ابن الأثير،ج9، ص387؛ ابن خلدون،التاريخ،ج6،ص29.

(******) سمى باليازورى نسبة قرية من قرى فلسطين تسمى يازور، كان أبوه فلاحاً.ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون، ج6،ص29.

[71] - ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،م6،ص14.

[72] - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب،النويرى،نهاية الأرب فى فنون الأدب،ج24،ط1، تحقيق:عبد المجيد ترجينى،منشورات محمد على بيضون، بيروت،2004،ص210،211.

73 - المقريزى،اتعاظ الحنفا،ج2،ص218.

74 - ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،ج6،ص31.

75 - ابن الأثير، الكامل فى التاريخ،ج9،ص522،521

76 - ابن خلدون،التاريخ،م6،ص29.

77 - المقريزى،اتعاظ الحنفا،ص214؛ ابن تغرى بردى،جمال الدين أبى المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة،ج5، وزارة الارشاد القومى والمؤسسة المصرية للنشر والتأليف، (د.ت)،ص51.

78 - روجى،الهادى إدريس،الدولة الصنهاجية تاريخ بنى زيرى من القرن10إلى القرن 12م،ج1،ط1،نقله إلى العربية حمادى الساحلى،دار الغرب الإسلامى،بيروت ،1992،ص299. نقلاً عن ابن خلدون،التاريخ،دار الكتاب اللبنانى،مج6،ص29-30.

79 - ابن عذارى، البيان،ج1،ص278،279.

80 - نفسه،ص280.

81 - محمد أمين عبد الصمد،وظائف الأغنية الليبية فى مجتمع درنة الليبية(أغانى الأعراس نموذحاً)،ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،2010،ص27.

82 - بولبيض، تاريخ برقة،ص83.

83 –البكرى،المسالك والممالك،م2،ص186،187

84 - ابن سعيد،بسط الأرض،ص80

85 - البرغوتى،عبد اللطيف محمود،تاريخ ليبيا الإسلامى منذ الفتح حتى بداية العصر العثمانى،دار صادر-بيروت،1971،ص341.

86 - ابن سعيد، بسط الأرض،ص97.

87 - المصدر نفسه،ص80.

88 - المصدر نفسه،ص48.

89 - بولبيض، تاريخ برقة،ص161.

90 - البرغوثى، تاريخ ليبيا الإسلامى،ص343 .

91 - المرجع نفسه،ص343.

92 - أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي،نزهة المشتاق فى اختراق الافاق،م1،مكتبة الثقافة الدينية،2002،ص319.

93 - بولبيض،تاريخ برقة،ص59،60.

94 - الانطاكى،تاريخ الأنطاكى،ص259؛ابن الأثير،الكامل،ج8،ص42؛ ابن تغرى،النجوم الزاهرة،ج4،ص215؛ابن عذارى المراكشى،البيان المغرب،ج1،2013،ص280؛ ابن كثير،البداية والنهاية،ج1991،11،ص337؛ ابن خلدون،التاريخ،ج4،ص73.

95 - ابن خلدون،التاريخ،ج4،ص203.

96 -ابن الأثير،الكامل،ج8،ص56،ابن خلدون،ج4،ص204.

97 - ابن سعيد،بسط الأرض،ص62.

98 -الإدريسي،نزهة المشتاق،م1،ص.

99 –تيرى،تاريخ الصحراء الليبية،ص395.

100 –الادريسي،نزهة المشتاق،م1،ص313.

101 –ابن سعيد،بسط الأرض،ص80.

102 –الإدريسي،نزهة المشتاق،م2،ص310.

103 - ايفانز برتشارد،برقة القبائل البرقاوية وتفريعاتها،ترجمة وتعليق:إبراهيم أحمد المهدوى،ط3،مكتبة 17 فبراير، ليبيا،2013،ص23.

104 - بولبيض،تاريخ برقة،ص64.

105 - ابن خلدون،التاريخ،ج6،ص141.

106 - مبارك محمد الملي،تاريخ الجزائر القديم والحديث،ج2،المطبعة الجزائرية،الجزائر،1930،ص125.

107 - أبو عبدالله، محمد العبدرى، الرحلة المغربية،منشورات قائمة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007. ص206.

108 - على بن محمد ابن الأثير،الباب فى تهذيب الأنساب،بيروت،د.ت،ج3،ص133.

الكاتب: أ/أسامة الطيب جعيل
جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله

عنوان المقال: حواضر إقليم الزاب الكبرى في العصر الوسيط من خلال كُتب الجغرافيا البلدانية دراسة تاريخية

البريد الالكتروني: tayeb9912@yahoo.com

تاريخ الارسال: 2019/01/18 تاريخ القبول: 2019/02/21 تاريخ النشر: 2019/03/28

حواضر إقليم الزاب الكبرى في العصر الوسيط من خلال كُتب الجغرافيا البلدانية

دراسة تاريخية

الملخص بالعربية:

يعتبر إقليم الزاب من أهم أقاليم بلاد المغرب عبر التاريخ ، فهذا المجال الجغرافي الشاسع و الذي عرف قديما باسم إقليم نوميديا ، شهدت أراضيه أحداثا تاريخية معلمية خاصة بعد الفتح الإسلامي و تسرب الدعوة الخارجية بالإقليم ، و ما عرفته حواضره و مدنه من أحداث غيرت مجرى تاريخ المغرب الإسلامي ، لم يرف الإقليم ثبات عاصمته على مر العصر الوسيط نتيجة الحالة السياسية للبلاد حيث تغيرت عواصمه خمس مرات بدءً من العاصمة الأولى أذنة ، ثم طبنة ، فالمسيلة ، ثم قلعة بني حماد و أخيرا مدينة بسكرة بعد تقلص مساحة الإقليم لتشمل قرى بسكرة فقط .

كلمات مفتاحية : إقليم الزاب ، الحواضر ، طبنة ، المسيلة ، بسكرة .

Abstract :

the Zab is one of the most important regions in history of Maghreb, This vast geographical area, known as the province of Numidia, has witnessed historical events especially after the Islamic conquest and the calling of khawarij in region and external vocation in metropolis and cities , The province did not know the stability of capital during the Middle Ages as a result of the political situation of the country, where the capitals changed five times starting from the first capital

Adhana, and tobna, msila, then the castle of Bani Hammad and finally the city of Biskra after shrinking area of the province to include the villages of Biskra only.

Key words : the zab region , metropolis , tobna , msila, biskra.

مقدمة:

إقليم الزاب أحد أهم الأقاليم الجغرافية ببلاد المغرب ، فهذا المجال الجغرافي الذي تغيرت تسميته من إقليم نوميديا القديم إلى إقليم الزاب بعد الفتح الإسلامي ، ما هو إلا تحول في طوبونميا المجال بنجاح عملية تعريب الأماكن والمدن بعد أسلمة بلاد المغرب .

حضي الإقليم بزيارات لجغرافيي العالم الإسلامي خاصة بعد انتعاش الجغرافيا التاريخية و البلدانية مع مطلع القرن الثالث و الرابع هجري ، فكانت كتب الجغرافيا و الرحلة أكبر معين للمؤرخين الذين اعتمدوا على دراسات الجغرافيين في تحديد المجال و الطرق منه و إليه و طبيعة التركيبة السكانية للإقليم ووصف خيراته و إمكانياته ما جعلنا نعتمد في دراستنا هذه على تحديد مجال الإقليم وحواضره الكبرى من خلال كتب الرحالة والجغرافيين .

1-الزاب- أصل التسمية و المدلول :-

يُعرف ابن منظور كلمة " زاب " بقوله : " زاب : زأب القربة يزأبها زأبا ، وازدأبها : حملها ثم أقبل بها سريعا ، و الازدئاب الاحتمال و كل ماحملته بمرة شبه الاحتضان فقد زأبته ، و زأب الرجل و ازدأب : إذا حمل ما يطيق و أسرع في المشي ، وازدأب القربة ثم شمر ، و زأبة القربة وزعبتها وهو حملها محتضنا ، و الزأب أن تزأب شيئا فتحمله بمرة واحدة ، و زأب الرجل إذا شرب شربا شديدا و زأب يحمله يجره " (1).

وترد في موضع آخر من القاموس : " و زأى : إذا تكبر ، وزبى : الزبية التي لا يعلوها الماء ، الجمع الزُبى ، والزبية حفرة يتزبى فيها الرجل للصيد ، وتحفر

للذئب فيُصْطاد فيها ، حفيرة يشتوى فيها و يختبز ، وزبى اللحم وغبره – طرحه ". [2]

أي أن المعنى اللغوي لكلمة " زاب " يدور في فلك : الماء ، الحفرة ، السرعة ، فالزاب قد يكون المكان المرتفع الذي يسيل منه الماء بسرعة ، أو أن الزاب يعني تلك المناطق المحصورة بين الأودية و الأنهار و التي تشكل روافده ، و عادة ما تكون خصبة مثل أراضي العراق مابين دجلة و الفرات . [3]

أما إذا اتجهنا إلى معرفة أصل كلمة زاب هل هي عربية أم أعجمية ؟ ، فنجد هنا عدة آراء حول أصلها ، فالحموي يقول أن الزاب مصطلح فارسي يطلق على واديين من أودية بلاد الرافدين و يعود الفضل في شقهما إلى الملك الفارسي " زاب بن توركان بن منو شهر بن ايرج بن أفريدون " [4].

وورد عن دائرة المعارف معنى مصطلح زاب و الذي ينسب إلى الملك الفارسي" زاب بن طوقان" ، أما الزاب الأعلى فاسمه " هوليكوس أوزاباتيوس أوزابا" [5].

وهناك من يرجع مصطلح الزاب بالمشرق إلى النصوص المسمارية العراقية القديمة ، حيث ورد بصيغة أكادية على هيئة "زاب عليو " zalu elu و"زاب شيل zalu splu"، أما الاسم (زاب) فلا إلى التراث اللغوي القديم الذي ظهر قبل الكتابة و قد يضاهي الكلمة العربية (الصّاب) أي النهر الذي يصب أو الرافد العظيم [6].

إذن فالزاب بالمشرق هو اسم لواديين وهما : الزاب الأعلى أو الكبير الذي ينبع بين الموصل و أربيل ومنبعه بلاد مشتكهر مابين أذربيجان و بابغيش ، يقول عنه الحموي أن هذا " الوادي شديد الحمرة ويجري في جبال و أودية ، وكلما جرى صفى قليلا حتى يصير في ضيعة كانت ليزيد بن عمران أخي خالد بن عمران الموصلي " [7]، ويقدر طول الزاب الأعلى ب392 كم [8].

أما الزاب الأسفل أو الزاب الصغير فهو وادي ينبع من جبال السلق ما بين شهرزور و أذربيجان ، بينه و بين الزاب الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة ، ويصب في نهر و يقدر طوله بـ400 كم و ينبع من إيران [(9)].

و بالعراق كذلك بين مدينتي بغداد وواسط رافدان آخران يسميان بالزاب الأعلى و الزاب الأسفل ، و أورد عنهما ابن منظور : " الزابيان : نهران بناحية الفرات ، وقيل في سافلة الفرات ، ويسمى ماحولهما من الأنهار الزوابي ، و ربما حذفوا الياء فقالوا الزّابان" [(10)].

وهنا تتضح الصورة بالنسبة لزاب المشرق ، لكن يطرح التساؤل عن كيفية انتقال هذه الكلمة إلى بلاد المغرب و تطلق على حيز شاسع و مهم من البلاد ؟.

و يمكن أن يكون التبرير الوحيد هنا هو نسبة كلمة الزاب إلى المدينة الرومانية زابي[(11)] التي تقع بالقرب من مدينة المسيلة [(12)]، فعلى هذا الأساس يمكن القول أن الامتزاج الحضاري و اللغوي و التداخل الثقافي بين الفرس و الروم ، والحروب بينهما أدى إلى انتقال المصطلح إما من الفرس إلى الروم أو العكس ، فالتأثيرات الاجتماعية و الثقافية (كما هو معروف) لا تعترف بالحدود و لا الحروب [(13)]، أو اعتبار أن هذا التحول الطوبونومي الملحوظ في اسم الإقليم من "نوميديا" إلى "الزّاب" ما هو إلا القطيعة التي أحدثتها بروز ألفاظ معربة نتجت عن نجاح عملية تعريب أسماء المواقع المحلية إذ بدأت الجماعات المحلية في الانصهار في المرحلة الجديدة التي أسست لميلاد الزاب الإسلامية لتنتهي مرحلة الهيمنة اللاتينية و اليونانية[(14)] فهذه التسمية ذات الجذور البابلية أو الفارسية المعربة استخدمت لتعني نهر الزاب في وادي الرافدين ، ثم استعملت في أرض المغرب لتدل على وادي أوراس الأعلى وما جاوره ، ويشير إذا بصفة أساسية لنوميديا الجنوبية ، ثم استخدم ليعني كامل المقاطعة القديمة[(15)] ، ونجد كذلك السكان المحليين ببلاد المغرب يطلقون كلمة الزاب و هي كلمة أمازيغية تعني الواحة [(16)].

ومع مرور الزمن يظهر مصطلح جديد إلى الواجهة حيث سجله الحموي بقوله : " قال الأصم المنورقي : الزاب كورة صغيرة يقال لها ريغ و هي كلمة بربرية معناها السبخة فمن كان منها يقال له الريغي "[17]، و السبخة لغة هي الأرض ذات النزّ و الملح ولهذا سميت بلاد ريغ جنوب زيبان بسكرة بهذا الإسم نسبة إلى شط ملغيغ[18] ، ويذهب إسماعيل العربي على أن مصطلح بلاد الزاب أطلق على المناطق المليئة ببساتين النخيل و تخترقها السواقي و الأودية[19].

2-جغرافية إقليم الزاب :

عرف إقليم الزاب تغيرا في مساحته و جغرافيته طيلة العصر الوسيط ، و هذا راجع بالأساس إلى الحالة السياسية للبلاد و محاولة الدول السيطرة على الإقليم و توسعة النفوذ ، فكبرت المساحة تارة و تقلص أخرى ، فوجب تتبع مختلف الكتب البلدانية لمعرفة جغرافية الإقليم بالتحديد .

فابن خرداذبة (ت 272 هـ/885 م) في كتابه المسالك و الممالك ، يعدد مناطق نفوذ بني الأغلب بقوله : " وفي يده قابس وجلولا و سبيطلة ... و مدينة الزاب و تهوذة .. "[20] فلم يحدد مدينة الزاب أو حاضرتها الكبرى في متن حديثه ، لكنه يتدارك ذلك في فهرس كتابه بذكر: " طبنة مدينة الزاب "[21].

و تتضح صورة بلاد الزاب و مدنها عند اليعقوبي (ت 284 هـ/897 م) ، فيقول عنها : " ومدينة الزاب العظمى طبنة ،وهي التي ينزلها الولاة وبها أخلاط من قريش و العرب و الجند و عجم من أهل خراسان ... ومدينة يقال لها تيجس من عمل باغاية... و مدينة عظيمة جليلة يقال لها ميلة عامرة محصنة .... و مدينة يقال لها سطيف ...ومدينة يقال لها بلزمة .... و مدينة يقال لها نقاوس ... و طبنة مدينة الزاب العظمى و هي في وسط الزاب و بها ينزل الولاة ... و مدينة يقال لها مقرة لها حصون كثيرة ... و مدينة أربة و هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب.... "[22].

أما ابن حوقل (ت 367 هـ / 977 م) في كتابه صورة الأرض لم يحدد مدن الزاب ، لكنه بالمقابل من ذلك قام بتحديد الطرق الرابطة بين مناطق بلاد المغرب مما سمح بالتعرف على الطرق الرابطة بين مدن الزاب مع غيرها من المدن ، فحدد ثلاث طرق تمر ببلاد الزاب تنطلق من القيروان باتجاه المسيلة و منها إلى تيهرت أو سجلماسة جنوبا [23].

في حين نجد المقدسي (ت 388 هـ /998 م) يصف الطرق الرابطة بين المدن و هو أقرب بذلك إلى ابن حوقل الذي عاش في زمانه ، فيذكر عن بلاد الزاب : " و الزاب مدينتها المسيلة و لها مقرة ، طبنة ، بسكرة ، بادس ، تهوذا ، طولقا ، جميلة ، بنطيوس ، أذنة ، أشير " [24]، ففي عهد المقدسي تراجع دور مدينة طبنة وتحولت قصبة بلاد الزاب إلى المحمدية (المسيلة) بعد بنائها من طرف الفاطميين [25].

و على العكس من ذلك ، فالبكري (ت 487 هـ / 1097 م) يشير أن مدينة المسيلة من مدن الزاب ، ويذكر على أن مدينة ميلة من غرر مدن الزاب.[26]

أما الإدريسي (ت 560 هـ / 1166 م) فيذكر عن طبنة أنها مدينة الزاب ووصف المسافة الرابطة بينها و بين المدن المجاورة حيث يقول : " و المسيلة في أرض طبنة ... ومن المسيلة إلى طبنة مرحلتان و طبنة مدينة الزاب ... ومن مقرة إلى طبنة مرحلة وبين طبنة ومدينة بجاية ستة مراحل و كذلك من طبنة إلى باغاي أربع مراحل " [27].

أما عند صاحب الاستبصار (عاش خلال القرن السادس هجري) يصف بلاد الزاب و يتحدث عن تحول عاصمة بلاد الزاب إلى بسكرة في عصره ويعرف بلاد الزاب بقوله : " و هي على طرف الصحراء في سمت بلاد الجريد ، و هي مثلها في حر هوائها وكثرة نخلها ، وهي مدن كثيرة و أنظار واسعة و عمائر متصلة فيها المياه السائحة و الأنهار و العيون الكثيرة " [28]، ثم يذكر مدن بلاد الزاب : " مدينة

بسكرة هي قاعدة بلاد الزاب ومن مدنها : المسيلة ، نقاوس ، طبنة ، تهوذة ، و بادس وهي آخر بلاد الزاب" [29].

بينما يذهب الحموي (ت 625 هـ / 1230 م) إلى عدم ذكر بلاد الزاب بالتفصيل ، بل يذكر مدنه واحدة على حدى ، حيث قال : " بسكرة بكسر الكاف ، بلدة بالمغرب من نواحي الزاب" [30]، ثم يعرج على مدينة توزر و يذكر عنها : " توزر : مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد ... " [31]، ثم ينقل في جزئه الثالث عن السلفي : " سمعت عن الأصم المنورقي يقول : الزاب الكبير منه بسكرة و توزر و قسنطينة و طولقة و قفصة و نفزاوة و نفطة و بادس " [32]، و يخرج مدينة طبنة من عمل الزاب بقوله : " وطبنة بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب " [33].

3- إقليم الزاب قبل الفتح الإسلامي :

قبيل الفتح الإسلامي للإقليم كانت هته المنطقة تعرف بإقليم نوميديا [34]، وتعرضت المنطقة لسيطرة الغزاة البيزنطيين قبل الفتح الإسلامي ، حيث في سنة 533 م جاءت حملة مرسلة من طرف الإمبراطور البيزنطي "جستنيان" بقيادة "بيلزاريوس" ، و كان الهدف من هذه الحملة هو استعادة كامل مناطق نفوذ الإمبراطورية الرومانية القديمة بشمال إفريقيا ، فاستولت هذه الحملة أولا على تونس ، ثم توجهت إلى أراضي نوميديا و استولت على مدن : قسنطينة ، بلاد الحضنة ، الأوراس ، ثم نحو جنوب هذه المدن و دخل تحت سلطانهم مدن : تبسة ، خنشلة ، تيمقاد ، لمبيز ، طبنة [35].

وواجهت القوات البيزنطية صعوبات كبيرة في هذه الحملة ، حيث وبعد رحيل القائد بيلزاريوس عين محله القائد صولون (سليمان الخصي) فثار ضده أورثياس ملك الحضنة ، و في أول معركة بينهما أباد أورثياس جل الجيش البيزنطي ، لكن أعاد صولون الكرة ففر أورثياس ، ثم عمل القائد البيزنطي على إقامة تحصينات قوية بالمنطقة ، فأعاد بناء مدينتي زابي و التي عرفت بزابي

جستنيان ، و طبنة[36] الذي ذكر الباحث " شارل ديال " أنها رممت سنة 540 م [37].

واستمر تقدم البيزنطيين في المنطقة إلى أن بلغوا جبل الأوراس و استولوا على كامل المنطقة و أكثروا من إنشاء الحصون فيها مثل : بلزمة و باغاي[38] ، و لما رأى البربر كثرة الحصون أعطاهم ذلك إحساسا بتخوف البيزنطيين منهم ، مما شكل دافعا لهم على الثورة ضد الغزاة الجدد [39]، فثارت ضدهم بعض شخصيات البربر مثل بيداس الذي كان على جبل الأوراس و قطزياس الذي كان على شرقي الأوراس ، فنجحوا بالاستقلال بمناطقهم ووحدوا القبائل تحت سلطانهم و استرجعوا كثيرا من الأراضي التي كانت تابعة للروم [40].

هذه الحالة دفعت بالبيزنطيين إلى تغيير نظام الحكم من مدني إلى عسكري ، بالرغم من كون الحاكم المدني كان يأتمر بأوامر الحاكم العسكري ، وتم جعل حاكم عسكري على كل منطقة مثل نوميديا و التي كانت بلاد الزاب من ضمن أراضيها ، فكان هذا الوضع الجديد في المنطقة لحماية مناطق نفوذ الدولة من هجمات البربر من جهة ، و استرجاع أملاك الإمبراطورية الرومانية من جهة أخرى [41]، وجعلها أيضا موردا ماليا للدولة هذا لإرجاع ما أنفقته الدولة في سبيل استرجاع البلاد[42].

وكان من صلاحيات الحاكم العسكري أيضا تنفيذ نظام اقتصادي يقوم على الجباية ، أي فرض الضرائب على السكان[43] ثم إجبار الأهالي على اعتناق المذهب الكاثوليكي مذهب الإمبراطورية الذي اعتمد سنة 535 م ، مما جعل السكان يثورون على الحكم البيزنطي[44] ، و باعتلاء هرقل الشاب عرش الحكم (610 م) خفف الضغط على المنطقة و بلاد المغرب لأن أهل هذه البلاد ساهموا في وصوله لعرش الحكم البيزنطي [45].

وبعد موت هرقل الشاب ، انفصل الحاكم جورجيوس (646 م) بحكم ولاية إفريقيا ، و الذي استغل حالة الفوضى السائدة في داخل الإمبراطورية إضافة إلى الصراع المذهبي الذي كان على أشده داخل الدولة الأم[46] .

4- حواضر الزاب الكبرى بعد الفتح الإسلامي :

بعد تقدم الفتح الإسلامي إلى إقليم الزاب ، أول من دخل الإقليم فاتحا هو الصحابي عقبة بن نافع الفهري في ولايته الثانية على بلاد المغرب ، وانتهت فتوحات المسلمين في الإقليم على يد الفاتح موسى بن نصير ، فعرف الإقليم فترات مختلفة بين الرخاء و الأمن ، و الثورات و الفتن ، فكانت كبرى مدن الإقليم مراكز انطلاق الثورات أو مراكز ردع للثائرين ، و هذه حواضر إقليم الزاب في العصر الوسيط :

أ-أذنة:

عرفت مدينة أذنة على أنها حاضرة[47] بلاد الزاب خلال الفتح الإسلامي للمنطقة خلال القرن الهجري الأول ، حيث غداة الفتح و بعد عودة عقبة لبلاد المغرب ثانية سنة اثنان وستين هجري، أشرف على بلاد الزاب " فسأل عن أعظم مدائنهم قدرا فقالوا : مدينة يقال لها أذنة ، ومنها الملك و هي مجمع ملوك الزاب ، وكان حولها ثلاثمائة و ستون قرية وكلها عامرة ... "[48]، وفتح أذنة قاعدة بلاد الزاب بعد أن قاتله ملوكها من البربر فهزمهم[49].

وردت المدينة في المصادر التاريخية و الجغرافية تحت عدة تسميات مختلفة ، فنجدها عند اليعقوبي تحت اسم أربة : " ... و مدينة أربة هي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب ... "[50]، كذلك نجدها تحت نفس الاسم عند ابن الأثير[51] و النويري[52].

بينما ترد عند البكري باسم أدنة : ".. و منها إلى مدينة أدنة. وبلد أدنة بلد كثير الأنهار و العيون العذبة "[53]،

ونجد اسما آخر للمدينة وهو أزبة ربما يكون اسما معربا لمدينة زابي الرومانية التي تقع غير بعيد عنه[54] ، أما ابن حماد الصنهاجي فيذكر اسما آخر للمدينة " وكانت بين أبي يزيد و اسماعيل و قعة بفحص باتنة (أذنة) و باتنة هذه مدينة عظيمة خربت بينها و بين المسيلة اثنا عشر ميلا" [55]، بينما تجمع أغلب المصادر التاريخية مثل ابن خلدون[56] و الرقيق القيرواني[57] و المالكي[58] على أن اسم المدينة هو أذنة.

أما عن موقعها الجغرافي ، فحدده البكري على أنها تبعد عن المسيلة بمرحلة ، و بينها و بين طبنة مرحلتان [59]

بينما نجد الباحث الفرنسي كومبيزا يحدد موقعها على أنها تبعد عن مدينة المسيلة باثني عشر ميلا[60] ، و هو هنا يوافق وصف ابن حماد في وصفه لموقع المدينة و التي أسماها بباتنة كما سبق ذكره.

ومع حلول القرن الثاني الهجري تقلص دور مدينة أذنة بعد انتقال عاصمة الإقليم إلى مدينة طبنة [61] ، فصور البكري حالة المدينة حيث وصفها " بالبلد " ، ثم يتراجع و يقول : " وهي خالية " [62]، لتنتهي المدينة على يد ابن حمدون[63] سنة 324 هـ / 928 م ، وقبل تخريبها نهائيا تعرضت المدينة إلى غارات من طرف القبائل المجاورة مثل قبيلة هوارة ، حيث يقول البكري عن هذه الإغارة : " ونهر النساء ... و سمي بذلك لأن هوارة [64]أغاروا على نساء أدنة و ذهبوا بهن فأدركهم أهل أدنة فاستنقذوا النساء هناك و الغنيمة و قتلوا جماعة من هوارة"[65].

ب- مدينة طبنة:

عُرفت مدينة طبنة و على مختلف مراحل تاريخ بلاد المغرب بأنها ذلك الحصن العسكري المتقدم و الذي يحمي ظهر الدولة من الأخطار الداخلية ، فمدينة طبنة التي بنيت أوائل القرن الميلادي الثاني في عهد الإمبراطور الروماني تراجانوس (98-117 م) الذي عرف عهده امتداد السلطان الروماني باتجاه المناطق الجنوبية أي جنوب جبل الأوراس وتم بناء المراكز العسكرية و الحصون

حول خط الليمس الدفاعي و الذي شكلت مدينة طبنة النقطة الرئيسة لهذا الطريق [66]، و سرعان ما تحول هذا الحصن العسكري إلى مدينة كبيرة تعج بالسكان ، حيث عثر على نقيشة على أحد أبواب المدينة تذكر حصول المدينة على رتبة مونيكيبيوم [67].

وخلال العصر البيزنطي أعيد بناء المدينة بعد تخريبها من طرف الوندال ، فشُكِّلَ حصن مدينة طبنة ليحمي ظهر الدولة البيزنيطة لحماية حدودها من أخطار ثورات السكان المحليين من جهة جنوب سفح جبل الأوراس و المناطق الصحراوية ، فتلعب مدينة طبنة دورا كالدور الذي لعبته مدينة زابي في حمايتها للدولة من جهة الحضنة[68].

وفي هذه الفترة ، كانت تسمية المدينة تأتي مختلفة في كتب المؤرخين و الباحثين ، حيث عرفت باسم tubonis، tubunis، thubnas لكن التسمية الشائعة هي thubunae[69] ، و بعد الفتح الإسلامي لمدينة طبنة حافظت على نفس التسمية فظهر الإسم المعرب من اللاتينية ، فيذكر الحموي ذلك : " طبنة : بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة وهي فيما أحسب عجمية و مثلها في العربية الطبنة لعبة للأعراب ، و هي خطة يخطونها مستديرة و جمعها طبن ... و الطبنة صوت الطنبور.... " [70].

كانت مدينة طبنة إذن إحدى المدن الهامة في بلاد نوميديا قديما ، و إبان الفتح الإسلامي تذكر المصادر على أن فتح المدينة كان على يد موسى بن نصير[71] : " طبنة : بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير فبلغ سبيها عشرين ألفا" [72].

مع حلول منتصف القرن الثاني الهجري تظهر مدينة طبنة على مسرح الأحداث بعدما أصبحت عاصمة للإقليم ، حيث بعد تعيين محمد بن الأشعث واليا على إفريقية اختص على إقليم الزاب أحد أمهر قادته العسكريين وهو الأغلب بن سالم [73]، هذا الأخير اتخذ من مدينة طبنة مقرا له فكانت هي النقطة الدفاعية

الأولى في بلاد الزاب لمواجهة الأخطار الداهمة على القيروان و منها تنطلق الجيوش [74]، و استمر الأغلب بن سالم في دوره من مقر إقامته بطبنة حتى خروج ابن الأشعث من ولاية إفريقية سنة 148 هـ/771 م [75]، فتم تعيين الأغلب بن سالم واليا على إفريقية بدل ابن الأشعث ، و في عهده اشتدت ضربات أبي قرة الصفري عليه ، فعزم الخروج بجيشه عليه و قدم إلى الزاب ، ومنها عزم على الرحيل إلى تلمسان وطنجة فاشتد الأمر على الجند فخرجوا متسللين ليلا إلى القيروان ، وتم قتل الأغلب بن سالم بسهم من طرف أحد الجنود الذين بقوا معه سنة 150 هـ / 773 م.[76]

ليتم تعيين عمر بن حفص الملقب بهازمرد على ولاية إفريقية سنة 151 هـ / 774 م و يبدو أنه اهتم بمدينة طبنة أكثر من سابقيه ، حيث خرج من القيروان إلى طبنة فأعاد ترميمها و بنائها " و بنى عليها سورا " [77]، ويذكر البكري عن التحصينات التي حضيت بها مدينة طبنة على يد الوالي عمر بن حفص : " .... وسورها مبني بالطوب ، و بها قصر و أرباض ، و داخل القصر جامع و صهريج كبير ... ، ويقال أن الذي بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي المعروف بهازمرد ... " [78]، ويبدو أن الوالي عمر استغل القصر البيزنطي القديم في بناء مدينة طبنة : "وقال محمد بن يوسف أن قصر طبنة أولي كبير جليل مبني بالصخر الضخم عليه آزاج كثيرة ينزله العمال و هو ملاصق لسور المدينة من جهة القبلة ..." [79].

و أصبح لمدينة طبنة بعد هذه الترميمات خمسة أبواب : " و لمدينة طبنة من الأبواب باب خاقان مبني بالحجر عليه باب حديد و هو سري ، و باب الفتح غربيّ باب حديد أيضا ... و باب تهوذا قبلي عليه باب حديد و هو سري أيضا ، و الباب الجديد ، وباب كتامة جوفي ، و خارج المدينة بإزاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون بمقدار ثلثي المدينة " .[80]

وبهذه التحصينات تمكن الوالي عمر بن حفص من رد هجوم حشود الصفرية و الإباضية على المدينة و التي كانت تحت قيادة أبي قرة الصفري و عبد الرحمن بن رستم و غيرهم و تذكر المصادر على أن هذا الجيش فاق عدده خمسين ألفا[81].

و كان سكان المدينة حسب البكري : " يسكنها العرب و العجم بينهما الإختلاف و الحرب" [82]فقام الوالي عمر بن حفص بإسكان قبيلة ورفجومة بالمدينة و هي أحد بطون قبيلة نفزاوة "ولما اختط عمر بن حفص مدينة طبنة سنة إحدى و خمسين و مائة أنزل ورفجومة هؤلاء بما كانوا شيعا له ، و عظم غنائهم فيها عندما حاصره بها ابن رستم و بنو يفرن " [83].

بعد إعمار المدينة و اختطاط الدير و البيع و خاصة في العهد الأغلبي ، أصبحت مدينة طبنة لا تضاهيها مدينة ببلاد المغرب قاطبة ما عدا مدينتي القيروان و سجلماسة " ... و ليس من القيروان إلى مدينة سجلماسة مدينة أكبر منها" [84].

فأصبحت بذلك طبنة قاعدة بلاد الزاب خلفا لمدينة أذنة منذ القرن الثاني هجري [85]، فيصف اليعقوبي المدينة أيام الأغالبة " و طبنة مدينة الزاب العظمى و هي في وسط الزاب و بها ينزل الولاة .. " [86]، فكانت طبنة عاصمة الإقليم في كثير من المرات ينصب ولاتها أمراء القيروان و في أحيان أخرى تتدخل و تحدث حرجا للسلطة بالقيروان ، و هي من ستفرز مؤسس الدولة الأغلبية [87]، فلأهمية المدينة في مواجهة خطر الأدارسة و الخوارج على الدولة العباسية أوصى هارون الرشيد الوالي روح بن حاتم عليها بقوله : " عليك بالزاب واملأه خيلا و رجالا " [88]، فصار بذلك إقليم الزاب يتبع السلطة العباسية ببغداد مباشرة و تم فصله عن القيروان في عهد هارون الرشيد.

إلا أنه بعد سقوط الدولة الأغلبية سنة 296 هـ/ 800 م وسيطرة الفاطميين على كل بلاد المغرب تراجع دور مدينة طبنة بعد بناء الفاطميين لمدينة المحمدية (المسيلة) سنة 313 هـ / 817 م ، فتحول مركز ثقل بلاد الزاب من طبنة إلى

المسيلة قبلها كانت مدينة المسيلة من أعمال مدينة طبنة حسب الإدريسي[89] ، وكان بناء مدينة المسيلة استراتيجيا فهي تقوم بدور سياسي و اقتصادي فهي في مواجهة ثورات قبيلة زناتة إضافة إلى حماية الطريق التجاري الرابط بين القيروان و سجلماسة و تيهرت .

فيصف الجغرافيون الواحد تلوى الآخر حالة المدينة بعد تراجع دورها بالتدريج ، إلى غاية اندثارها وعدم ذكرها ضمن الحواضر و المدن ، فابن حوقل الذي زار المدينة في العهد الفاطمي حيث يصفها : " ... وكانت عظيمة كبيرة البساتين و الزروع و القطن ... وكانت وافرة الماشية ... "[90]، ويبدو أن المدينة خلال العهد الفاطمي تضررت بفعل الحروب خاصة أنها كانت نقطة عبور القوات الفاطمية في محاولة القضاء على الثورات التي لم تنقطع عليهم[91].

ويقول المقدسي في وصفه تحول قاعدة بلاد الزاب إلى المسيلة دون وصف مدنه مكتفيا بذكرها بالاسم فقط[92]، أما صاحب الاستبصار الذي عاش خلال القرن السادس هجري فيقول عن مدينة طبنة : " و هي مدينة كبيرة قديمة "[93]، أما الحموي على عهده فيذكر تحول مدينة طبنة إلى مدينة صغيرة " و طبنة بلدة على طرف إفريقية مما يلي المغرب.... "[94].

ليخرجها ابن خلدون من بلاد الزاب لتتبع بلاد الحضنة بقوله " و بلاد الحضنة حيث كانت طبنة مابين الزاب و التل ... "[95]، لتختفي المدينة من كتابات الجغرافيين و المؤرخين بعد ذلك فلم يكن لها ذكر عند ابن سعيد المغربي أو حتى الحسن الوزان لدى وصفه لمدن الزاب و الحضنة.

ج- المسيلة :

بعد بسط الفاطميين لسيادتهم على كامل بلاد المغرب الإسلامي، أصبح إقليم الزاب تحت أيديهم ، فتوجه الفاطميون إلى تأسيس مدينة جديدة تكون متقدمة في مفترق الطرق لحماية طرق التجارة و لردع الأعداء من جهة الغرب ، وخلال هذه الفترة واجهت الفاطميين مشاكل كبيرة من طرف أندادهم من قبيلة زناتة

التي ازداد عداؤها لهم بعد سقوط الإمارة الأغلبية ، حيث حدث أن أرسل الداعي الشيعي أبو عبد الله وفدا إلى سجلماسة في مهمة إلى عبيد الله المهدي لكن الوفد لقي مصرعه بمدينة طبنة على يد رجال من زناتة [96].

ثم جاءت هزيمة الجيش الفاطمي سنة 311 هـ / 924 م على يد قبيلة مغراوة من زناتة ، فزعزع هذا الحدث المغرب كله [97]، فاضطر الخليفة الفاطمي إلى إرسال ابنه إلى جبال سالات حيث تعد من مضارب قبيلة بني برزال ، فأعاد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي الاستقرار للمنطقة ثم عاد أدراجه ليؤسس مدينة المسيلة[98].

أما عن تاريخ تأسيسها فالمعلوم أنها بنيت سنة 315 هـ/928 م [99]، و اتفق جل المؤرخين على ذلك ، بينما نجد ابن عذاري[100] و صاحب الاستبصار[101] يجعلان تأسيسها سنة 313 هـ / 926 م .

لقد حضيت المسيلة بأوصاف عديدة في مختلف كتب الرحالة هذه الأوصاف تدل على مكانة المدينة السياسية و الإقتصادية ، فيذكر المقدسي على أن المسيلة حاضرة بلاد الزاب " ... و الزاب مدينتها المسيلة و لها مقرة ، طبنة ، بسكرة ، بادس ، تهوذا ، طولقا ، جميلا ، بنطيوس ، أدنة ، أشير"[102].

أما ابن حوقل فيصف المدينة : " ومن مقرة إلى المسيلة مرحلة ، و هي مدينة محدثة استحدثها علي ابن الأندلسي أحد خدم آل عُبيد الله و عبيدهم ، و عليها صور حصين من طوب ... " [103]، بينما يصفها البكري : " ... مدينة المسيلة وهي مدينة جليلة على نهر يسمى بنهر سهر ، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله ... و كان المتولي لبنائها علي بن حمدون و استعمله عليها فلم يزل عليها إلى أن هلك في فتنة أبي يزيد ... و هي مدينة في بساط من الأرض عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة ... [104].

وبانتقال مركز ثقل بلاد الزاب من طبنة إلى المسيلة ، يصف محمد الصالح مرمول هذا التحول : " و أصبحت هي العاصمة السياسية و الإدارية و المركز

التجاري و الحضاري للمنطقة الممتدة من باغاية شرقا و تيهرت غربا ، و بقيت تتمتع بمكانة مرموقة بين مختلف مدن المغرب الهامة "[105].

غير أن دور مدينة المسيلة لم يستمر طويلا ، حيث استقل حماد بأجزاء كبيرة من المغرب الأوسط و دخلت في حوزته مدن بلاد الزاب مثل : المسيلة ، طبنة ... و كان التاريخ الفعلي لبداية دولته سنة 395 هـ / 1008 م[106]، ثم قام بإفراغ مدينة المسيلة و سوق حمزة[107] من أهلها و نقلهم إلى عاصمته الجديدة القلعة و قام بتخريب المدينتين[108].

د-مدينة القلعة – قلعة أبي الطويل أو قلعة بني حماد:-

بعد تأسيس حماد لدولته قام باختطاط عاصمة جديدة و هي مدينة القلعة و التي تبعد عن مدينة المسيلة باثني عشر ميلا[109].

يذكر الحموي عن بنائها : " قلعة حمّاد : مدينة متوسطة بين أكم و أقران لها قلعة عظيمة على قلة جبل يسمى تاقربوست تشبه في التحصن ما يحكى عن قلعة أنطاكية ، و هي قاعدة ملك بني حماد ... وهو أول من أحدثها سنة 370 هـ... "[110]، بينما تتفق جل المصادر على أن تأسيس المدينة كان سنة 398 هـ/1010 م و عرفت أيضا باسم قلعة أبي طويل[111].

قام حمّاد بتعمير المدينة ، حيث نقل إليها سكان مدينتي المسيلة و سوق حمزة و خربهما ونقل قبيلة جراوة من المغرب و أسكنهم بالمدينة ، و يمكن أن يكون الوباء العظيم الذي أصاب المنطقة سنة 395 هـ/1008 م قد ساهم بتعمير المدينة بعد هجرة السكان إليها[112].

وترد المدينة في كتب الرحالة و الجغرافيين تحت أوصاف رائعة ، فالبكري يقول عنها : " قلعة أبي طويل : و هي قلعة كبيرة ذات منعة و حصانة فلمّا كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية ، و هي اليوم مقصد التجار و بها تحل الرجال من العراق و الحجاز و مصر و الشام و سائر بلاد المغرب و هي اليوم مستقر مملكة صنهاجة "[113].

أما الإدريسي فيصفها : " و مدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا و أكثرها خلقا و أغزرها خيرا و أوسعها أموالا و أحسنها قصورا و مساكن ... و هي في جبل سامي العلو صعب الارتقاء و قد استدار سورها بجميع الجبل و يسمى تاقربت..... " (114).

ويصفها صاحب الاستبصار بقوله : " مدينة قلعة أبي طويل و هي قلعة بني حماد ، و هي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم كثير الزرع و جميع الخيرات و هي في جبل عظيم ، و هي حصينة منيعة لا تمكن بقتال ، و لبني حماد بالقلعة مبان عظيمة و قصور منيعة متقنة البناء عالية السناء منها قصر يسمى بدار البحر " ... (115).

استمرت القلعة في أبهى حالاتها حتى فترة حكم الناصر بن علناس ، حيث في عهده قويت هجمات القبائل الهلالية ، و كانت وقعة سبيبة سنة 457 هـ / 1069 م ، وهزيمة جيش الناصر أمام الجيش الهلالي الأثر الكبير في دخول و تواصل زحف القبائل الهلالية إلى المنطقة ، حيث استباحوا أراضي بلاد الزاب و خربوا مدينة طبنة و المسيلة و طردوا سكانها(116).

و تعرضت القلعة إلى هجمات بني هلال فلم تستطع المقاومة و لم يلبث الناصر طويلا حيث قام ببناء عاصمة جديدة لدولته و هي مدينة بجاية و التي سميت بالناصرية نسبة إليه (117)، و بانتقال العاصمة إلى بجاية تراجع دور مدينة القلعة تدريجيا لتتغير بعدها الخريطة السياسية لبلاد المغرب و تظهر دول جديدة على الساحة أعطت المساحات الجغرافية أبعادا أخرى لتنقسم بلاد الزاب و تنحصر في مدينة بسكرة و ما جاورها (118).

ي- مدينة بسكرة:

بعد الأحداث التاريخية المتسارعة و التحولات السياسية التي عرفتها بلاد المغرب ، تأثرت بلاد الزاب بهذه التغيرات ، حيث انحصرت جغرافيا و أصبحت عاصمة الإقليم مدينة بسكرة.

إن ما أورده الجغرافيون عن مدينة بسكرة أواخر القرن الخامس إلى غاية أوائل القرن السابع هجري ، لم يذكر تحولها لعاصمة إقليم الزاب ، فيصفها البكري : " و بسكرة كورة فيها مدن كثيرة و قاعدتها بسكرة و هي مدينة كثيرة النخل و الزيتون و أصناف الثمار... " [119].

أما الإدريسي فوصف المدينة على أنها حصن بقوله : " ومن نقاوس أيضا إلى حصن بسكرة مرحلتان و هو حصن منيع في كدية تراب عال و به سوق و عمارة و به أيضا من التمر كل غريبة و طريفة " [120].

و نجد تشابها في وصف المدينة بين البكري و صاحب كتاب الاستبصار الذي قال عنها : "مدينة بَسْكرة : و هي مدينة كبيرة و حواليها حصون كثيرة و قرى عامرة و هي قاعدتها و لها غابة كبيرة كثيرة النخل و الزيتون و جميع الثمار..." [121].

أما الحموي و هو من جغرافيي القرن السابع هجري فلم تتحول بسكرة على عهده إلى عاصمة للزاب و عرفها قائلا : " بِسْكرة : بكسر الكاف وراء بلدة بالمغرب من نواحي الزاب بينها و بين قلعة بني حماد مرحلتان ، فيها نخل و شجر و قصب جيد ، بينها و بين طبنة مرحلة ... " [122]، أما عن تحولها عاصمة لإقليم الزاب فيمكن أن يكون ذلك بدءً من منتصف القرن السابع هجري ، بعد سقوط دولة الموحدين ، حيث أكد الجغرافي ابن سعيد المغربي عن تحول مدينة بسكرة إلى قاعدة بلاد الزاب : " مدينة بسكرة قاعدة بلاد الزاب و هي بلاد نخل وزرع ومنها تجلب أصناف التمر إلى حاضرتي تونس و بجاية" [123].

ويؤكد الحميري المعلومة بقوله : " بسكرة من بلاد الزاب بأرض المغرب ، و هي قاعدة تلك البلاد و هي كثيرة النخل و الزيتون و أصناف الثمار ... و بها جامع و مساجد كثيرة و حمامات ... " [124]، و نفس المعلومة ترد عند ابن الحاج النميري (ت 774 هـ/ 1386 م) صاحب الرحلة مع السلطان المريني أي عنان إلى بسكرة ، حيث أورد وصفا عن تحول بسكرة إلى قاعدة بلاد الزاب : " ....بسكرة قاعدة بلاد الزاب..." [125].

ونلحظ تغير جغرافية بلاد الزاب واقتصارها على مدينة بسكرة وما جاورها زمن ابن خلدون (القرن الثامن هجري) ، حيث أعطى وصفا دقيقا لمساحتها والمدن التي تشملها : " هذا البلد بَسْكَرَة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد وحدّه من لدن قصر الدوسن بالمغرب إلى قصور هولة وبادس في المشرق ... ، و هذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة و متجاورة جمعا ، يعرف كل واحد منها بالزاب و أولها زاب الدوسن ، ثم زاب طولقة ، ثم زاب مليلة ، و زاب بسكرة ، و زاب تهودا ، و زاب بادس ، و بسكرة أم هذه القرى كلها.. " (126)

ونلحظ نفس التقسيم الجغرافي لدى الحسن الوزان : " إقليم الزاب : يقع هذا الإقليم في وسط مفازات نوميديا و يبتدئ غربا من تخوم المسيلة و يحده شمالا جبال مملكة بجاية و يمتد شرقا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس ، و جنوبا إلى القفاز التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى وركلة ... يشمل الإقليم خمس مدن و عددا كبيرا من القرى و سنصف المدن حسب ترتيبها ... بسكرة ، البرج ، نفطة ، طولقة ، دوسن ... "(127).

الخاتمة :

مما تقدم من معلومات ، نلحظ أن إقليم الزاب وعلى مر العصر الوسيط حفل بأحداث تاريخية معلمية في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي ، وكان للإقليم دور في وضع الولاة و قيام الدولة الأغلبية ، ودحر ثورات الخوارج و حماية ظهر العاصمة القيروان ، التي بسقوطها في يد الخوارج ، تحولت مدينة طبنة كعاصمة ثانية لبلاد المغرب حتى قيام الوالي محمد ابن الأشعث بالقضاء على حركة الخوارج عام 144 هجري ، فكانت كتب الجغرافيا خير معين لما كان بها من معلومات حول الإقليم و دونت و سجلت أحداثه التي غابت عن كتب المؤرخين .

الهوامش:

[1]- ابن منظور ، لسان العرب ، مج 01 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، دت ،(مادة زأب) ص – ص 444-443 .

[2]- نفس المرجع ، مج 14 ، (مادة زأى) ، ص 353 .

[3]- عبد الحليم صيد ، أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة ، مطبعة سوف ،ط01 ، الوادي ، 2000 ، ص 03 .

[4]- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، ط01 ، بيروت ، 1990 ج 03 ، ص 138 .

[5]- بطرس البستاني ، دائرة المعارف – قاموس لكل فن و مطلب - ، مجلد 09 ، مطبعة المعارف ، بيروت ، 1884 ، ص 149 .

[6]- فوزي مصمودي ، الزاب – المصطلح و الدلالات ، دار علي بن زيد ، بسكرة ، 2013 ، ص ـ ص 23 – 24 .

[7]- الحموي ، المصدر السابق ، ج 03 ، ص 138 .

[8]- المنجد في اللغة و الأعلام ، المرجع السابق ، ص 276 .

[9]- المنجد في اللغة و الأعلام ، المرجع السابق ، ص 276 .

[10]- ابن منظور ، المرجع السابق ، مج 14 ، ص 353 .

[11]- **مدينة زابي** : مدينة رومانية قديمة ، تقع قرب مدينة المسيلة ، أقام حولها الرومان الكثير من الأبراج و مراكز الحراسة في إطار خط الليمس الدفاعي و تدعى اليوم بشيلقا ، تم تهديمها على أيدي الوندال ثم أعاد البيزنطيون بناءها و سميت بزابي جستنيان ، أنظر ، محمد البشير شنيتي ، الجزائر في ظل الإحتلال الروماني ج 01 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1999 ، ص 179 .

[12]- حسين مؤنس ، تاريخ المغرب و حضارته ، ج 01 ، العصر الحديث للنشر و التوزيع ، بيروت ، 1996 ، ص 203 .

[13]- صورية مديازة ، بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى غاية انتقال الفاطميين إلى مصر (21-362 هـ / 642-972 م) ، رسالة ماجستير ، جامعة باتنة ، 2010 ، ص 05 .

[14]-الصادق زياني ، التوطين البشري والواقع المذهبي للجماعات ببلاد الزاب القرن (02-05 هـ / 08-11 م) ، ضمن كتاب : بحوث و دراسات تاريخية أعمال مهداة للأستاذ لعميد عبد العزيز ، مطبعة نواصري ، ط 01 ، المسيلة ، 2017 ، ص 244.

[15]- هشام جعيط ، تأسيس الغرب الإسلامي (القرن الأول و الثاني هـ / السابع و الثامن م) ، دار الطليعة للطباعة و النشر، ط01، بيروت ، 2004 ، ص 54 .

[16]- عبد القادر بومعزة ، بسكرة في عيون الرحالة الغربيين ، ج01 ، دار علي بن زيد للطباعة ، ط01 ، بسكرة ، 2016 ، ص29.

[17] - الحموي ، المصدر السابق ، ج 03 ، ص 124 ، أنظر أيضا ، عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج01 ، دار الحياة ، ط02 ، بيروت ، لبنان ، 1965.

[18] - فوزي مصمودي ، المرجع السابق ، ص 20.

[19] - اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1983 ، ص 142

[20] - ابن خرداذبة ، المسالك و الممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1889 ، ص 87 .

[21] - نفس المصدر، ص 289 .

[22] - أحمد اليعقوبي ، كتاب البلدان ، وضع حواشيه : محمد أمين ضناوي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2003 ، ص ـ ص 85-87 .

[23] - ابن حوقل النصيبي ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر، لبنان ، 1992 ص ـ ص 85 - 87.

[24] - شمس الدين المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولي ، ط 03 ، القاهرة ، 1991 ، ، ص 221 .

[25] - موسى لقبال ، طبنة مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى ، مجلة الأصالة ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، العدد 60-61، 1978 ، ص 91 .

[26] – أبو عبد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د.ت ، ص ـ ص 59-64 .

[27] - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج 01 ، دار عالم الكتب ، ط01 ، لبنان ، 1989 ، ص 263 .

[28] - مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر و تعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، د.ت ، ص 171 .

[29] - نفس المصدر، ص 171 .

[30] - الحموي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 422 .

[31] - نفس المصدر، ج 02 ، ص 57 .

[32] - نفس المصدر ، ج 03 ، ص 124 .

[33] - نفس المصدر، ج 04 ، ص 21 .

[34] - عبد الواحد ذنون طه ، دراسات في تاريخ و حضارة المغرب الإسلامي ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2004 ، ص 19، أنظر أيضا : هشام جعيط ، المرجع السابق ، ص 54 ، عثمان الكعاك ، موجز التاريخ العام للجزائر – من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي - ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2003 ، ص 100 .

[35] - يحي بوعزيز، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 66 .

[36] - محمد البشير شنيتي : المرجع السابق ، ج02 ، ص 459 ، أنظر أيضا : موسى لقبال : المرجع السابق ، ص 87 .

[37-]Diehl , d'afrique byzantine , histoire de la domination byzantine en afrique , paris 1966 ,p – p 200-201 .

[38]- محمد البشير شنيتي ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 417 .

[39]- حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، د . ت ، ص 32 .

[40]- مبارك الميلي ، المرجع السابق ، ج01 ، ص 366 .

[41]- شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، تر: محمد البشير سلامة ،الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1969 ،ص362 .

[42]- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 16 .

[43]- نفس المرجع ، ص 17 .

[44]- جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية (284-1453 م) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1999 ، ص 77 .

[45]- السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص 75 .

[46]- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ـ ص 42 – 47 .

[47]- **حاضرة** ، جمعها حواضر ، وتعني العاصمة أو المدينة الكبيرة ، أو مدينة تعد الأهم على مستوى الدولة أو إحدى النواحي الحياتية ، وحاضرة الإقليم هي كبرى مدن المقاطعة أو اللواء أو مركز الإقليم الإداري ، أنظر: أحمد مختار عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، مجلد 01 ، دار عالم الكتب ، ط 01 ، القاهرة ، 2008 ، ص 513 .

[48]- الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية و المغرب ، تحقيق: عبد العلي الزيدان و عز الدين عمر موسى ، دار الغرب الإسلامي ، ط01 ، بيروت ، 1990، ص 11 .

[49]- عبد الرحمن ابن خلدون ، ديوان العبر و المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأعظم ،ج04 ، ضبط المتن : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة و النشر ، بيروت ، 2000 ، ص 237 .

[50]- اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 191 .

[51]– ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج 03 ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، ط01 ،بيروت 1987 ص451.

[52]-شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج24 ، تح : عبد المجيد ترحيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت ، ص 14 .

[53]– أبو عبد الله البكري ، المسالك و الممالك ج 02 ، تح : جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، ط 01 ، بيروت ، 2003، ص 348 .

[54]- موسى لقبال ، المغرب الإسلامي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط 02 ، الجزائر ، 1981 ، ص 41 من الهامش .

[55] - ابن حماد الصنهاجي ، أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، تح : جلول أحمد بدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 ، ص 41 .

[56] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 237 .

[57] - الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص 11.

[58] - المالكي ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية و زهادهم و نساكهم وسير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم ،ج01 ، تح : بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، ط02 ، بيروت ، 1994 ، ص 36 .

[59] - البكري ، المصدر السابق ، ج02 ، ص 348 .

[60]-paul luis cambuzat , l'évolution des cites du telle en afrkia du 7 au 11 siécle , office des publication universitaires ; alger ; 1986 , tome 02 , p.p 21-22.

[61] - الطاهر طويل ، المدينة الإسلامية و تطورها في المغرب الأوسط – من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس ، المتصدر للترقية الثقافية و العلمية و الإعلامية ، ط 01 ، الجزائر 2011 ، ص 104 .

[62] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 348 .

[63] - **علي بن حمدون** ، هو علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي و يعرف بابن الأندلسي ، استعمل من طرف الفاطميين على مدينة المسيلة سنة 315 ه ، انقلب فيما بعد على الفاطميين و مال إلى أموبي الأندلس ، أنظر: ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص ـ ص 107 – 109 .

[64] - **هوارة** ، قبيلة بربرية برنسية من أوريغة ، ومن هوار بن أوريغ مليلة و بنو كهلان ، أنظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2001 ، ص 500 .

[65] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 348 .

[66] - محمد البشير شنيتي ، أضواء على تاريخ الجزائر ، المرجع السابق ، ص ـ ص 104 – 109 .

[67]-S.Gsell : bulletin archéologique de comite des travaux historiques et cientifiques, paris 1900 , p-p 486-487.

[68] - محمد البشير شنيتي ، الجزائر في ظل الإحتلال الروماني ج 02 ، المرجع السابق ، ص 411 .

[69]-S.Gsell : atlas archeologique de l'algerie , texte 03^{m} edition , paris 1911 , feull 10 .

[70] - ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 21 .

[71] - **موسى بن نصير**،هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن وائل ، يعود نسبه إلى قبيلة لخم أو إلى بكر بن وائل ، كان صاحب خراج البصرة في عهد عبد الملك بن مروان وولي إفريقية عام 79 ه ، وهو من افتتح الأندلس مع طارق بن زياد ، توفي في سنة سبع و تسعين للهجرة و قيل تسع و تسعين ، أنظر : ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، ج 01 ، تحقيق و مراجعة : ليفي بروفنسال و ح.س.كولان ، دار الثقافة ، ط 03 ، بيروت ، 1983، ص 40 .

[72] - ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 21 ، أما عن سنة تولية موسى بن نصير فنجدها تختلف عند المؤرخين ،فابن عبد الحكم أكد على أن توليته كانت سنة 78 ه ، أنظر : ابن عبد الحكم ،

فتوح إفريقية و الأندلس ، تح : عبد الله أنيس الطباع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1987 ، ص 68 ، بينما يجعله ابن خياط سنة 81 هـ ، أنظر: خليفة ابن خياط ، تاريخ خليفة ابن خياط ، تح : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 1993 ، ص 216 .

[73] - ابن خلدون ،المصدر السابق ، ج 04 ، ص 245 .

[74] - عبد العزيز فيلالي ، المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب و الأندلس ، دار هومة للطباعة و النشر ، الجزائر ، 2008 ، ص 88 .

[75] - ابن الآبار، الحلة السيراء ، تح : حسين مؤنس ، دار المعارف ، ط02 ، القاهرة ، 1985 ، ص 69 .

[76] - النويري ، المصدر السابق ، ج 24 ، ص ـ ص 41-42 .

[77] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 246 .

[78] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 228 .

[79] - نفس المصدر ، ج02 ، ص 228 .

[80] - نفس المصدر ، ج 02 ، ص 229 .

[81] - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج01 ، ص 75 .

[82] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 228 .

[83] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 151 .

[84] - البكري، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 229 .

[85] - الطاهر طويل، المرجع السابق ، ص 104 .

[86] - اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 190 .

[87] - الرقيق القيرواني ، المصدر السابق ، ص 136 .

[88] - محمد الطالبي ، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي (184-296 هـ – 800 -909 م) ، ترجمة : المنجي الصيادي ، دار الغرب الإسلامي ، ط 01 ، بيروت ، 1985 ، ص 118 .

[89] – الإدريسي، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 261 .

[90] - ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 85 .

[91] - موسى لقبال ، طبنة في مجال العلاقة بين زناتة و الفاطميين حتى نهاية عهد المنصور الفاطميين ، حوليات جامعة الجزائر، 1991-1992 ، ص 52.

[92] - المقدسي ، المصدر السابق ، ص 221 .

[93] - مجهول ، المصدر السابق ، ص 172 .

[94] - ياقوت الحموي، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 21 .

[95] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج06 ، ص 132 .

[96] - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا و مصر وبلاد الشام (297-567 هـ – 910-1171 م) ، دار النفائس ، ط02 ، بيروت ، 2007 ، ص88 .

[97] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 50 .

[98] - محمد بن عميرة ، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 183 .

[99] - المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج 01 ، تح : جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ط02 ، القاهرة ، 1996 ، ص 72 ، أنظر أيضا : ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 04 ، ص 51 .

[100] - ابن عذاري، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 215 .

[101] - مجهول ، المصدر السابق ، ص 172 .

[102] - المقدسي ، المصدر السابق ، ص 221 .

[103] - ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 85 .

[104] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص ـ ص 2239 – 240 .

[105] - محمد الصالح مرمول ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 ، ص 299 .

[106] - عبد الحليم عويس ، دولة بني حماد – صفحة رائعة من التاريخ الجزائري - ، دار الصحوة للنشر و التوزيع ، ط02 ، القاهرة ، 1991 ، ص 70 .

[107] - سوق حمزة ، مدينة البويرة حاليا .

[108] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 227 .

[109] - الإدريسي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 261 .

[110] - ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 390 .

[111] - رشيد بورويبة ، الدولة الحمادية – تاريخها و حضارتها - ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1977 ، ص 20 .

[112] - النويري ، المصدر السابق ، ج 24 ، ص 106 .

[113] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 226 .

[114] - الإدريسي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 255 .

[115] - مجهول ، المصدر السابق ، ص ـ ص 167 – 168 .

[116] - محمد الطمار ، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2000 ، ص ـ ص 108-109 .

[117] - الطاهر طويل ، المرجع السابق ، ص ـ ص 294 – 298 .

[118] - فوزي مصمودي ، المرجع السابق ، ص 52 .

[119] - البكري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 229 .

[120] - الإدريسي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 264 .

[121] - مجهول ، المصدر السابق ، ص 173 .

[122] - ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 422 .

[123] - ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص 126 .

[124] - الحميري ، المصدر السابق ، ص 113 .

[125] - ابن الحاج النميري ، فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب ، دراسة و إعداد : محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، ط 01 ، بيروت ، 1990 ، ص 430

[126] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 585 .

[127] - الحسن الوزان، المصدر السابق ، ج 02 ، ص ـ ص 139 – 140 .

الكاتب: أ/هشام البقالي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
طنجة – المملكة المغربية
البريد الالكتروني: hicham_albakali@hotmail.fr

عنوان المقال: مظاهر التكافل الاجتماعي لمتصوفة العصر المرابطي بالمغرب والأندلس

تاريخ الارسال: 2019/01/06 تاريخ القبول: 2019/01/21 تاريخ النشر: 2019/03/28

مظاهر التكافل الاجتماعي لمتصوفة العصر المرابطي بالمغرب والأندلس

the aspects of social solidarity for the Almoravid era's suffism in Morocco and Andalusia.

الملخص بالعربية:

يحاول المقال عرض جوانب من الحياة اليومية لمتصوفة العصر المرابط بالمغرب والأندلس، ذلك أن هذه الفئة شاركت المجتمع أقراحها قبل أفراحها، فنجدهم منغمسين في مساعدة المحتاجين، وبذل كل ما في وسعهم في ذلك.

كلمات مفتاحية: المغرب والأندلس، التكافل الاجتماعي، التصوف، الدولة المرابطية

Abstract :

The article attempts to present aspects of the daily life of the Sufi Muslims in Morocco and Andalusia. This group has participated in the community before its joys, and we find them immersed in helping those in need and doing everything in their power to do so.

Key Words: *Morocco and Andalusia, Social Solidarity, Sufism, Almoravid State.*

اشتهر الأولياء والمتصوفة بصفة عامة بإطعام الطعام للوافدين وعابري السبيل والمقيمين على السواء. ومتصوفة وأولياء العصر المرابطي لا يحيدون عن هذه القاعدة، فقد قاموا بأدوار هامة في هذا المجال .

ففي هذا الصدد نجد أحد المتصوفة قد جمع الفقراء بجامع علي بن يوسف "فأخرج قمحا وسمنا كان عنده ففرقه عليهم حتى لم يبق له منه شيء" . وبالمثل قام متصوف آخر

بحشد العديد من المحتاجين وذلك أثناء مجاعة 535هـ/ 1140م "فكان يقوم بمؤونتهم، وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أن أخصب الناس" . كما اضطرت امرأة إلى بيع بيتها لأحد الأولياء بثمن بخس وذلك لتقاوم مجاعة حلت بالمنطقة التي تقيم فيها. وفيما بعد قام هذا الولي بإعادة المنزل إلى صاحبته، وكان القصد منه بأن المال الذي دفعه إليها كان بغرض إعانتها في المجاعة . وكان الولي محمد بن عبد الله البكري يُطعم ويُضيف الناس حتى أنه "أضاف قوما أعواما" ، وبالمثل كان محمد بن سعدون القروي "كثير الإنفاق ويُطعم الناس ويُنفق عليهم" . وهذا أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان يصفه الضبي في بغيته بأنه "كان ملجأ للفقراء والمساكين" ، وقد "باع أملاكه وتصدق بها على الفقراء، وقد وصل ثمنها إلى أربعة وعشرين ألف دينار" حسبما يذكر الضبي . ويذكر ابن الزيات أن المتصوف أبو الحسن علي بن خلف بن غالب قد ورث "اثني عشر ألف دينار. فخرج عنها كلها تورعا" . أما نصر بن الحسن فقد كان "منطلق اليد بالعطاء كثير الصدقات" ، في حين "لم يكن قبله ولا بعد بمرسية إلى الآن أكثر صدقة منه، ولم يزل كذلك طول حياته إلى أن توفى" . ومن ذلك ما ذكره الضبي: "أخبرت عنه أنه اشترى ذات يوم فرساً في السبيل لبعض المجاهدين بثمن كثير، واجتمع عنده البائع والمشتري له وحضر الثمن، فبكى البائع، فقال له: ما يبكيك ترانا نقصناك من ثمن فرسك؟ قال: لا، ولكني أبعه في افتكاك ابن لي مجاهد أسره العدو قصمه الله فقال له: وبكم افتككته؟ فقال: بكذا لعدد أكثر من ثمن الفرس، فأخرج له فدية ابنه ودفع إليه فرسه، وأمر باشتراء فرس آخر لذلك المجاهد بثمن ذلك الفرس، ومن هذا كثير جداً" . بينما نجد أن سليمان بن إبراهيم القيسي قد قام بتفريق كل أمواله على الفقراء ، كما أن متصوفا آخر كان يشارك الناس في مهماتهم وحوائجهم ، مثله في ذلك مثل المتصوف علي بن محمد المذحجي الذي كان "يمشي في قضاء حوائج الناس" . وهذا محمد بن علي بن جعفر بن أحمد بن محمد القيسي، تصفه المصادر بأنه كان" أكثر أصناف الناس قاطبة قضاءا للحوائج بارا بقاصديه ."

وقد كان ميمون بن ياسين اللمتوني "فاضلا مؤثرا سماحا بما يملكه" ، في حين تذكر المصادر التي بين أيدينا أن المتصوف عُليم بن عبد العزيز كان "مواظبا على اقتناء أفعال الخير وأعمال البر، بارا بأصحابه مؤثرا لهم كثير المشاركة في قضاء حوائجهم" . وبالمثل كان عبد الملك بن طفيل بن عزيز اليحصبي مواظبا على أفعال البر والجهاد . وهذا المتصوف عتيق بن عيسى الأنصاري الخزرجي كان كثير "المثابرة على وظائف الخير والبر بأصحابه، مائلا

إلى الصالحين وأهل التصوف، يهاديهم ويتحفهم في أماكنهم ويُحسن نُزُل من أَلَمَّ به منهم، ويسارع إلى قضاء حوائجهم بماله ونفسه" ، في حين كان المتصوف عبيد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن المعافري "نهاية في الصلاح والفضل وأعمال البر والخير" . وقد كان للمتصوف أحمد بن محمد المخزومي مال كثير فأنفق الكثير منه على الفقراء.

وتصف المصادر أبا الحسن بن دري بأنه من المسارعين لقضاء الحوائج، المشفقين على المساكين "كثير الصدقة، والسعي في فداء الأسرى" . بينما نجد أن الولي علي بن محمد بن علي بن هذيل كان "واسع المعروف كثير الصدقة" ، "وكان يتصدق على الأرامل واليتامى بماله من دقيق وآدم وغير ذلك، فتقول له زوجه: إنك لتسعى بهذا العمل في فقر أبنائك، فيقول لها: لا والله بل أنا شيخ طماع أسعى في غناهم" ، كما أن ابن حرزهم تصدق بكل ميراثه من تركة أبيه على أخيه ، وفي موضع آخر لم يجد ما يتصدق به سوى غطاء رأسه، فلما سئل قال: "لا يجمع الله في مؤمن سوء الخلق والبخل" . في حين نجد أن الشيخ عبد الله التاودي اشترى أضحية ثم تصدق بها رغم فقره ، بينما باع رجل آخر سريره وأنفقه على ضيوفه ، وبالمثل فقد رهن الولي عبد الله بن محسود الهواري غزل امرأته في سمن يأتدم به ضيفه ، في حين نجد أن الولي أبا عمران موسى الصاريوي قد تصدق بأرض كانت له على الفقراء ، وتصدق المتصوف أبو العباس أحمد بن يوسف بجميع ماله . كما أن الولي أبا عبد الله بن ناهض اللخمي تصدق بجميع ما يملكه من عرض الدنيا وثرائها ، وكان للمتصوف يحيى بن محمد بن رزق "مال أنفقه على المساكين والصالحين" عندما دخل سبتة قادما إليها من ألمرية. وهذا الولي علي بن أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي قنون "كان كثير المعروف نفَّاعا بماله وجاهه" . وكان عمر بن خطاب بن يوسف بن هلال الأزدي "منقبضا عن أهل الدنيا، وعلى خلق في الكرم والإيثار، بذ الناس فيهما، لا يُبقي لنفسه قليلا ولا كثيرا؛ ربما وضع عشاؤه بين يديه فيأتيه من يسأله فيدفع ذلك له بجملته، ويبقى طاويا دون شيئ، وكذلك كان يفعل بثياب لباسه" . ومما جاء في ترجمة أحد المتصوفة عند ابن عبد الملك المراكشي: "كان عندنا بإشبيلية شاعر يُعرف بأبي عبد الله البراذعي، وكان يعمل أبدا على زيارة أبي عبد الله المجاهد- رحمه الله- فكان يعطيه في اليوم الذي يأتيه فيه نصف القرصة التي كانت قوته في يومين اثنين، فإنه كان يدفع لي درهما فيستنفق منه ستة عشر يوما قرصة في يومين والقرصة يومئذ من أربع وعشرين أوقية، وأنه زاره في أحد الأيام فأعطاه قلنسوة وخبزا وعنقود عنب ودرهمين اثنين، فقال أبو عبد الله البراذعي المذكور: ما

رأيت أكرم من ابن المجاهد وزرته فأعطاني كسوته وقوته ودراهمه" . وكان الولي أبو العباس السبتي "تنثال عليه الصدقات فيفرقها على المساكين" ، هذا وقد "كان له رسم في بيت المال مع طلبة الحضر، فكان الغرباء الواردون على مراكش من طلبة العلم يأوون إليه فينفق عليهم جميع ما يكون عنده" . وكان محمد بن أحمد القيسي كثير الصدقات على الفقراء والمساكين "فقد أمر بخمسين قفيزا" فرقت على المساكين أثناء قحط ضرب اشبيلية ، وبالمثل كان محمد بن فرج المعروف بابن الطلاع "كثير الصدقات" ، وكذلك الشأن مع المتصوف محمد بن أصبغ الأزدي الذي كثير الصدقات ، في حين نرى أن محمد بن سعدون القروي "كان كثير الإنفاق ويُطعم الناس ويتصدق عليهم" . كما كان الولي أبا يعزى يلنور "يُطعم الناس اللحم والعسل" ، وفي موضع آخر نجده قد "صنع طعاما واسعا وأمر للناس إذنا عاما، فدخل الناس إليه في سكناه جماعة بعد جماعة يأكلون ويسلمون وينصرفون . "

وفي سنتي 535/ 536هـ عندما اجتاحت المغرب مجاعة نجد أن أبا بكر بن العربي قد تصدق على الفقراء فقد كان "بإيلان في مجاعة خمس وست وثلاثين وخمسمائة، وقد ضاقت الأرض برحبها على المساكين، ومادت بعطفي شرقها وغربها على المحتاجين، فحشرت إلينا منهم زمر، وعمهم الوباء، وكنت بدار غربة في حال كربة، فرأيت الذي يلزمني منهم واحد، فأخذت اثنين، وكنت آتيهم في كل يوم برغيفين "

والجدير بالذكر أن العديد من أولياء ومتصوفة العصر المرابطي كانوا يتصدقون رغم فقرهم وحاجتهم الماسة للمال، فهذا الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الملاح نجده يتصدق على الناس رغم فقره وحاجته وكان الولي محمد بن إبراهيم المهدوي قد "وصل إلى مدينة فاس بمال كثير، عدة آلاف أنفقها على الفقراء وأهل الإرادة" ، وفي إحدى السنوات تصدق على الفقراء بكل ما يملك من زرع في بيته . وبالمثل اشترى كسوة لعيال أحدهم ولجميع أولاده، وقام بجميع أموره من طعام وغيره.

وقد عرف عن الشيخ إبراهيم بن كانون أنه يأتي إليه كثير من المنقطعين والصلحاء فيقوم بواجب الضياقة ويحسن إليهم ولمن احتاج إليهم . بينما تصدق الولي محمد الأندلسي بماله على الفقراء. وكان الشيخ علي الفارسي "كثير الصدقة، ولاسيما على أهل الستر والفضل". بينما نجد أن الولي أحمد بن لب السلاوي يأخذ المال ويعطيه للفقراء. أما الولي أبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير فقد بعث إليه السلطان بجملة من مال فلم يخرج إلى أغمات من مراكش حتى فرقه على المساكين . بينما تصدق الولي أبو محمد خميس

ابن أبي زرج الرجراجي الأسود بكل حصاده . وفي موضع آخر نجد أن أحد الفقراء أتى إلى الولي أبي يعقوب تصولي وهو "محتاج إلى أضحية فشكا إليه فاقته وفقره فمد أبو يعقوب يده وقبض في الهواء وقال له: خذ ما تشتري به أضحيتك. فإذا دراهم طيبة جديد" ، وبالمثل فقد تصدق عبد الجليل بن ويحلان بألف دينار على المساكين . وهذا الأمر يدفعنا إلى القول بأن رجال التصوف قد اعتبروا أموال السلاطين ذات أصل خبيث ، وبالتالي فمن باب التحري قرروا عدم التصرف في تلك الأموال، ناهيك عن عدم احتياجهم لها، نظرا لاكتفائهم في الحياة بالضروري من المورد الحلال. كما تصدق المتصوف أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف بكل ماله ، نفس الأمر نجده مع المتصوف الولي أبي يحي أبو بكر بن فاخر العبدري الذي تصدق بكل ما يملك ، مثله في ذلك مثل الولي أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الذي نراه قد تصدق بجميع ما اكتسب ، بينما نجد أن أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الهواري قد كان "ذا مال فكان يصرفه في سبيل الخير والبر" . وبالمثل تصدق أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي بجميع ماله ، كما أنه كان يطعم المساكين من الإسفنج والهرسة . وتصدق أبو زكرياء يحيى بن إبراهيم بن عبد الله التادلي بماله كله وأنفقه في سبيل الخير حتى لم يبق له شيء ، وتصدق المتصوف أبو عبد الله التاودي بملابسه على أحد الفقراء وبقى هو عريانا كما جاء في ترجمته . بينما نجد أن نصر بن الحسن كان من المتصدقين على الفقراء وتصفه المصادر بأنه "منطلق اليد بالعطاء كثير الصدقات" ، وبالمثل كان أحمد بن مغيث الصوفي "كثير الصدقة، وكان يفضل الفقر على الغنا" ، وكذلك تصف المصادر أحمد بن محمد الأنصاري "بأنه كان كثير الصدقة وفعل المعروف" . في حين فرق سليمان بن إبراهيم القيسي جميع ماله وانقطع إلى الله عز وجل ، بينما نجد متصوفا آخر يجمع ما يلفضه البحر من مباح الطعام فيبيعه ويشتري بثمنه خبزا، ويمسك خبزتين، ويتصدق بالباقي على المساكين .

ومما تجدر الاشارة إليه أنه أثناء اشتغال المتصوف ابو يعزى بالرعي، نراه يقبض من "أرباب المواشي رغيفين في كل يوم، فيمسك رغيفا واحدا ويتصدق بالثاني على رجل منقطع في المسجد. وبعد ذلك انقطع رجل آخر فآثره على نفسه بالرغيف الثاني فصار يأكل ما تنبته الأرض" . وكان أبو عبد الله التاودي يعلم الصبيان ويأخذ الأجرة من أغنيائهم ويردها إلى الفقراء . وكان أبو يعزى يحرث الأرض ويعطي تسعة أعشارها للمساكين، ويحتفظ بالعشر الباقي لنفسه ويقول: "إنني أستحي أن أمسك تسعة أعشار وأصرف العشر

للمساكين، فإن هذا من الأدب مع الله عز وجل" . وهذا سلوك تربوي كان هدف الشيخ منه حمل الأغنياء على الإنفاق، ناهيك عن إشاعة روح التعاون لتحقيق التكافل بين المجتمع. وتصف المصادر الولي عبد الغفور بن اسماعيل بن مخلوف السكوني بأنه مجاب الدعوة ومن أهل الكرامات "وكان ذا يسار إلا أن غالب الايثار عليه، فما كان له ولمن إليه من الأهل والولد إلا قدر الكفاية، وفي الضروري الذي لابد منه خاصة، وسائر ذلك في الفقراء والضعفاء وذوي رحمته وقرابته . "

هذا؛ مع العلم أن الكثير من المتصوفة كانوا يوصفون بالفضل والصلاح والخير، أو العمل الصالح... وغيرها من الصفات التي تدل على كثرة التصدق . وكل هذه الأمثلة التي مرت معنا رام أصحابها النفاذ إلى وجدان وضمائر العامة قصد استنهاض هممهم، ومعاونة الفقراء والمحتاجين. لأنهم كانوا يهتمون بما يكابده الفقراء والمساكين من مشاق في سبيل لقمة العيش، لذلك نراهم يتصدقون عليهم بالمال، بل ويحثون الأغنياء على التصدق والبر بالفقراء والإحسان إليهم .

إن الملاحظ لسلوك المتصوفة في العصر المرابطي يتضح له بجلاء أن موقفهم هذا والمتمثل في الصدقة وإطعام المحتاجين لم يتسم بالظرفية المرتبطة فقط بمواجهة الصعوبات المعاشية الناجمة عن العوامل الطبيعية (جفاف، كوارث، حرائق...) ، ذلك أن تقديم العون للفقراء كان من مقومات الأخلاق الاجتماعية لرجال التصوف، ومظهرا جليا من مظاهر رغبتهم في التخفيف من حدة مشاكل التباين الاجتماعي، فقد كان المتصوف أبو محمد عبد الخالق بن ياسين يقول: "طلبنا التوفيق زمانا فأخطأناه فإذا هو إطعام الطعام" . أما أبو يعزى والذي اشتهر بإطعام الطعام فقد شمل تأثيره سكان القرى المجاورة له الذين أصبح من عادتهم ضيافة الوافدين على الشيخ ، وكان يُطعم الوفود التي تأتي لزيارته "أطيب الطعام والعسل، ولحوم الضأن، والدجاج، والفواكه الطيبة" . وقد أعطى أبو العباس السبتي لمفهوم الإحسان والصدقة مدلولا واسعا بأن ربطه بكل مناحي السلوك الديني، لذلك قرر ابن رشد الجد في حق مذهبه أنه يقوم على اعتبار "الوجود ينفعل بالجود. "

والجدير بالذكر أن هذه الأعمال لم تكن مقتصرة على الأولياء والمتصوفة، بل إننا لا نعدم من الشواهد التي تثبت أن الفقهاء والقضاة شاركوا الناس همومهم، وسارعوا إلى بذل الجهد من أجل التخفيف عنهم ومواساتهم. ففي هذا الصدد نجد أن قاضي قرطبة أبو عبد

الله محمد بن أصبغ بن المناصف المتوفى سنة 536هـ/ 1141م، أسهم في إطعام فقراء مدينته وجياعها، فكان يُنفق في إحدى السنوات العجاف "كل يوم على أكثر من ثلاثمائة بيت يُعيل ديارهم، ويُقيل عثارهم" . وقد يقول قائل بأن هذا الكلام فيه مبالغة كبيرة، لكن بالرجوع إلى ابن سعيد المغربي يتضح بأن هذا هو الواقع وليس هناك مبالغة فالرجل كان يُعدُّ من المياسير بحيث "كان يحرث له في ضياعه الموروثة بثمانمائة زوج في كل عام فلم يبق عند نفسه منها إلا ما يأكل" . وبصنيعه هذا نجده يُقدم درسا مهما للتضامن وتخفيف معاناة الناس، بل وتحفيز غيره من الميسورين للإسهام في تفريج الكرب عن المعسرين وذوي الحاجة. وقد ورد في إحدى رسائل ابن العريف أن "خدمة الفقراء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائجهم من الأمور المفضلة على الحج" . وبذلك تتضح لنا قيمة التضامن الاجتماعي في عصر المرابطين. فقد ارتبط العلماء والصلحاء والمتصوفة ارتباطا وثيقا بقضايا الناس في عصرهم. فتقديم الإطعام على فريضة الحج لدرء خطر المجاعة له دلالة كبيرة، ذلك أن حفظ النفس لها مكانة هامة في أصول الدين فهي من الكليات الخمس التي دعى الدين إلى حفظها، ولا غرو في ذلك فإن منزلة "القوت من الدين كالرأس من الجسد."

من خلال عرضنا للنصوص السابقة يتضح أن متصوفة الحقبة المدروسة لم يألوا جهدا في سبيل إعانة المحتاجين والفقراء وذوي الحاجة، فهم بذلوا كل ما في وسعهم قصد إعانة إخوانهم الفقراء. وكان منطلقهم في هذا الأمر مرتكزا على البعد الديني الذي يُعطي للبذل والانفاق قوة إيمانية، ومنطلقا أيضا من مفهوم المجاهدة. لكن بعض الدراسات الحديثة تحاول أن تصور هذا العمل الذي قام به متصوفة العصر المرابطي بأنهم حاولوا خلق مجتمع جديد، أو أنهم التجأوا إلى الكرامة قصد إصلاح المجتمع وتطهيره، وبالتالي تحسين وضعية الطبقات الفقيرة . لكن بالرجوع إلى تراجم الأولياء التي استقينا منها مادة هذا البحث تبين لنا أنها تنفي ادعاء أصحاب هذا الطرح، إذ إن العديد من رجال التصوف في الحقبة مجال البحث كانوا هم في أمس الحاجة إلى المال فأغلبية المتصدقين من المتصوفة كانوا فقراء . وبالتالي فإننا نزعم بأن المتصوفة جُبلوا على فعل الخير والتصدق وإغاثة المحتاجين، ولم يكن همهم إصلاح المجتمع وتطهيره أو تحسين وضعية الفقراء. إذ كيف يُعقل أن الفقير سيعمل على تحسين وضعية الناس وهو في أمس الحاجة إلى من يساعده، وهذا ما دفع بمانويلا مارين إلى القول بأنه "ليس من الغريب أن نجد في سير العلماء إشارات لمنحهم الصدقات للمعوزين في حين كانوا هم أنفسهم يعانون ظروفا

عسيرة" . وهذا يدل على سعة علمهم ومعرفتهم بالله تعالى، لأن العارف بالله يراعي قلبه ويفتقده، فإذا وجد فيه شيئا من الاشتغال بأمر الدنيا بادر إلى نزعه من قلبه. بل يمكن القول بأن عمل المتصوفة هذا هو دعوة اجتماعية صريحة تعمل على إقامة مجتمع سليم متكامل يسوده جو منالحب والرحمة والعفو والإخاء الصادق والإخلاص الكريم بكل المُثُل التي تؤهله للوصول إلى مرتبة أرقى المجتمعات. وعليه فالتصوف رسالة موجهة للفرد والمجتمع تعمل على تبصير الناس بالمنابع الحقيقية للدين الحنيف، وبذلك تعمل على إصلاح المجتمع.

الهوامش:

_ ابن الزيات: ابن الزيات أبو يوسف يعقوب التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط، نصوص ووثائق (1) الدار البيضاء 1984، ص 245- 246، ترجمة 99.

2 _ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 183، ترجمة 59.

3_هذا الولي هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الهواري.

4 _ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 153، ترجمة 38.

5 _ابن بشكوال: ، أبو القاسم خلف بن عبد المالك ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، نشره وصححه عزت العطار الحسيني، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، ط 2، 1994، ج 2، ص 413 .

6 _نفسه، ص 570.

7 _ الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت.599ه): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق، د. روحية عبد الرحمان السويفي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص 144.

8 _ الضبي: بغية الملتمس... م. س، ص 144- 145.

9 _ ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 228، ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي (ت.703ه): الذيل والتكملة لكتابي الموصول و الصلة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1965، ص 209، التادلي، أحمد الصومعي: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب أكادير، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم 6، 1996، ص 202.

10 _الضبي: بغية الملتمس... م. س، ص 202- 203.

11 _الضبي: بغية الملتمس... م. س، ص ، ص 292، ترجمة 893.

12 _ الضبي: بغية الملتمس... م. س، ص 292، ترجمة 893.

-13 ابن بشكوال: الصلة...م. س، ج 1، ص 196.

14 -نفسه، ص 274.

15 _ الضبي: بغية الملتمس...م. س، ص 362.

16 _ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م، س، السفر، 8، ق، 1، ص 327.

17 _ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م، س، السفر، 8، ق، 2، ص 406، ترجمة 186.

18 _ أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الثقفي العاصمي (ت. 708 ه): صلة الصلة، القسم الرابع، تحقيق، د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1994، ص 172 _173، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م، س، السفر، 5، ق، 1، ص 430، ترجمة 740، ابن الأبار: التكملة...م. س، ج 4، ص 44، ترجمة 127، ونفس المعلومات نجدها لدى ابن الزبير في: صلة الصلة، القسم الأخير، ص 162، ترجمة 318، التنبكتي، بابا أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت بن عمر السوداني (ت. 963ه): كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف و تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989،ص 348- 349، ترجمة 452.

19 _ ابن الزبير: صلة الصلة، ج 3، ص 240 .

20 _ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م، س، السفر، 5، ق، 1، ص 127، ترجمة 242.

21 _ ابن الأبار: التكملة... م. س، ج 2، ص 313، ترجمة 905.

22 _ابن الأبار، التكملة... م. س، ج 1، ص 69. ابن عبد المالك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج 1، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت (د. ت)، ص 405، الحلة السراء ...م. س،ج 2، ص 267.

23 _ ابن الخطيب: الإحاطة... م. س، ح 4، ص 102.

24 _ نفس المصدر والصفحة .

25 _ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م، س، السفر، 5، ق، 1، ص 370، ترجمة 638، وترجم له ابن الأبار: المعجم...م. س، ص 296، ترجمة 296، ابن الأبار: التكملة...م. س، ص201، ترجمة 510، الضبي: بغية الملتمس...م. س، ص 402، ترجمة 1200، ابن الزبير: صلة الصلة، القسم الأخير ص 97- 98، ترجمة 199.

26 _ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م، س، السفر، 5، ق، 1، ص 381، ترجمة 638.

27 _التميمي: المستفاد...م. س، ص 17، ترجمة 1، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 170، ترجمة 1، الشراط: الروض العطر...م. س، ص 59، ابن القاضي: جذوة الاقتباس...م. س، ج 2، ص 464. وقد ذهب الدكتور محمد حقي تعليقا على هذه الواقعة بأن ظاهرة التحبيس كانت منتشرة في أوساط مدينة فاس خلال القرن السادس الهجري دون أن يعطي دليلا على ذلك، محمد حقي: "الموقف من المرض والمرضى في العصر الوسيط في المجتمع المغربي الأندلسي" مجلة المناهل، عدد 84، فبراير 2008، ، ص 53.

28 _ التميمي: المستفاد...م. س، ج 2، ص 25- 26.

29_أنظر ترجمته في الشراط: الروض العطر...م. س، ص 271، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 272 – 275، ترجمة 120، ابن القاضي: جذوة الاقتباس...م. س، ص 219، الناصري: الإستقصا ...م. س، ج 2، ص 203، ابن قنفد: أنس الفقير ...م. س، ص 30، ابن أبي زرع: القرطاس...م. س، ص 269، أبو الربيع سليمان الحوات: الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة، تحقيق ودراسة عبد العزيز تيلاني، جزآن، مطبوعات مؤسسة أحمد بن سودة الثقافية، فاس 1994، ج 2، ص603، محمد المهدي الفاسي: مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات، القاهرة 1970، ص 194، الجزنائي: زهرة الآس ...م. س، ج 1، ص 239- 240، التميمي: المستفاد...م. س، ص 137 - 140، ترجمة 55.

30_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 274، ترجمة 120، ابن عبد المالك المراكشي الذيل والتكملة...ج 6، تحقيق، إحسان عباس، بيروت 1973م ، ص 385، ابن بشكوال، الصلة...م. س، ج 1، ص41، ترجمة 71.

31_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 237، ترجمة أبي عمران موسى ابن الحاج الرجراجي الأسود.

32_أنظر ترجمته في الشراط: الروض العطر...م. س، ص 294- 296، ابن القاضي: جذوة الاقتباس...م. س، ج 2، ص 42، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 116 – 117، ابن أبي زرع: القرطاس...م. س، ص 117، الجزنائي: جنى زهرة الآس...م. س، ص 95 – 96، التميمي: المستفاد... م. س، ص 190- 191.

33_التميمي: المستفاد...م. س، ص 1، ترجمة 87، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 117، ترجمة 17.

34_انظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 288- 289، ترجمة 131.

35_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 289.

36_انظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 165- 166، ترجمة 48.

37_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 165.

38_أنظر ترجمته في الصدفي: السر المصون....م. س، ص 48– 49، ترجمة 2.

39_الصدفي: السر المصون...م. س، ص 49.

40_أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الثقفي العاصمي،(ت. 708 ه): صلة الصلة، القسم الخامس، تحقيق، د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995، ص 449، نفسه: القسم الأخير، ص 181، ترجمة 357 .

41_ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة...م. س، السفر الثامن، القسم، الأول، ص 160، ترجمة 2.

42_ابن الزبير: صلة الصلة م. س، القسم الرابع، ص 67- 68، ترجمة 120.

43_ابن عبد الملك: الذيل والتكملة... م. س، س 5، ق 2، ص 668- 669، ترجمة 1261.

44_أورد العباس بن إبراهيم في: الإعلام، ج 1، ص 234 - 325، ترجمة مطولة لأبي العباس السبتي نقل فيها جملة ما ذكر عنه في كتابه إظهار الكمال، وقد أثبت في الشطر الأول منها (من ص 236 إلى ص 258) أخبار أبي العباس السبتي لابن الزيات كاملة. ونقل في الشطر الثاني ما ورد عنه في الفتوحات المكية لابن عربي وفي فضائل أبي العباس السبتي الذي لخصه الصومعي في المعزى. كما نقل صاحب الإعلام عن وفيات الأعيان وعن أنس الفقير لابن قنفذ ونفاضة الجراب لابن الخطيب. ونفخ الطيب للمقري ونيل الابتهاج

لأحمد بابا التنبكتي، وكفاية المحتاج له وعدة المريد للشيخ زروق وعن الروض اليانع وعن مناقب السبتي للبوجمعاوي وغيرها.

45_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 452.

46_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 455.

47_ابن بشكوال: الصلة...م. س، ج 2، ص 520.

48_ابن بشكوال: الصلة...م. س، ج 2، ص 434 .

49_نفسه، ص 555.

50_نفسه، ص 570.

51_التميمي: المستفاد...م. س، ص 34، ترجمة 2.

52_التميمي: المستفاد...م. س، ص 38.

53_أبو بكر بن العربي: سراج المريدين وموفي سبيل المهتدين للاستنارة بالأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية، ص 9، نقلا عن عمار طالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، م. س، ج 1، ص 85، وقد صدر الكتاب محققا مؤخرا عن دار الحديث الكتَّانية، وضمن سلسلة مؤلفات الإمام أبي بكر بن العربي (4)؛ كتاب «سراج المريدين في سبيل الدين؛ لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية، بالأدلة العقلية والشرعية؛ القرآنية والسُّنية، وهو القسم الرابع من علوم القرآن في التذكير»، ضبط نصَّه وخرَّج أحاديثه ووثَّق نُقوله الدكتور عبد الله التَّوْرَاتِي، في ستة أسفار، في قريب من ثلاثة آلاف صفحة.

54_أنظر ترجمته في التميمي: المستفاد...م. س، ص 64 – 65، ترجمة 12.

55_نفسه، ص 64.

56_نزيل فاس وأصله من المهدية. أنظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 332 - 334، ترجمة 168، ابن القاضي: جذوة الاقتباس...م. س، ص 273 – 374، ترجمة 280، التميمي: المستفاد...م. س، ص 87 - 90، ترجمة 26، الناصري: الإستقصا...م. س، ج 2، ص 213 .

57_أنظر المستفاد...م. س، ص 88. التشوف...م. س، ص 332.جذوة الاقتباس...م. س، ص273. روض القرطاس .م. س، ص 270، حيث حددت المبلغ نحو 40 ألف دينار، إلا المستفاد الذي لم يذكر شيئا من ذلك .

85_التميمي: المستفاد...م. س، ص 88، ترجمة 26.

59_التميمي: المستفاد...م. س، ص 89.

60_أنظر ترجمته في المستفاد...م. س، ص 124 - 125، ترجمة 44 .

61_التميمي: المستفاد...م. س، ص 125.

62_أنظر ترجمته في المستفاد...م. س، ص 126 - 129، ترجمة 45.

63_التميمي: المستفاد...م. س، ص، 127.

64_ترجمته في التميمي: المستفاد...م. س، ص 132، ترجمة 48.

65_ نفسه، ص 132.

66_ أنظر ترجمته في التميمي: المستفاد...م. س، ص 145- 153، ترجمة 58.

67_ نفسه، ص 144.

68_ أنظر ترجمته في: القاضي عياض: الغنية، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص 226، ابن بشكوال: الصلة...م.س، ص،626، الضبي: بغية الملتمس، ص 492، طبعة دار الكتاب العربي 1967، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق د روحية عبد الرحمن السويفي، ص429 - 430، ترجمة 448، ابن فرحون: الديباج المذهب...م. س، ج 2، ص 17، ابن الزيات: التشوف...م. س، ص105-108، ترجمة 11.

69_ ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 106، ترجمة 11.

70 _أنظر ترجمته في: ابن الزيات التشوف...م. س، ص 113، ترجمة 14. والغريب في الأمر أن بعض الباحثين يرون أن تركيز مؤلفي كتب المناقب على ذكر صفة أسود في تراجمهم دليلا على أن هؤلاء كانوا ينحدرون من طبقات هامشية، أحمد التوفيق: التاريخ وأدب المناقب...م. س، ص 86.

71_ أنظر ما ورد في ترجمته في التشوف،...م. س، ص 113، ترجمة 14، حيث تصدق بحصاده كله بعدما حصده له فتيان قريته ولم يأخذوا عليه أجر.

72_ أنظر ترجمته في: أنظر ترجمته في: ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 131، ترجمة 23.

73_ ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 131.

74_ ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 145، ترجمة 33 .

75_ ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 111.

76_ أنظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 165 - 166، ترجمة 48.

77_ نفسه، ص 165.

78_أنظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 175، ترجمة 53.

79_ ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 175 .

80 _ترجمته في ابن الزيات: التشوف....م. س، ص 187- 192، ترجمة 62، وقد ذكر ابن الزيات أنه توفي سنة 561هـ، أما صاحب الأنيس المطرب فيرى أن وفاته كانت سنة 570هـ، وترجم له صاحب الإعلام، ج 1، ص 396- 403، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب...م. س، 265.

81_ ابن الزيات: التشوف، ص 187، الصومعي: المعزى...م. س، ص 75.

82_ ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 193- 194، ترجمة 65، المراكشي: الإعلام، ج 9، ص 73.

83_ ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 193.

84_أنظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 241- 244، ترجمة 96، المراكشي: الإعلام، ج 3، ص 59.

85_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 241.

86_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 242.

87_أنظر ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 248، ترجمة 100، المراكشي: الإعلام...م. س، ج 10، ص 206.

88_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 248.

89_التشوف...م. س، ص 274.

90_ابن بشكوال: الصلة ... ج 2، ص 602 – 603.

91_ابن بشكوال: الصلة ...، ج 1، ص 64.

92_ابن بشكوال: الصلة ...، ج 1، ص 71.

93_ابن الأبار: التكملة ...م. س، ج 1، ص 196.

94_ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 215- 216، ترجمة 77، الصومعي: المعزى...م. س، 68 .

95_ابن قنفذ: أنس الفقير...م. س، ص 25.

96_ابن قنفذ: أنس الفقير...م. س، ص 25، الصومعي: المعزى... م. س، ص 69- 70، ووردت هذه الفكرة أيضا في الصفحة 185.

97_ابن الزبير: صلة الصلة، م. س، القسم الرابع، ص 38، ترجمة 50، نفسه، القسم الأخير عني بنشره ليفي بروفنصال، ص 37، ترجمة 52 .

98_أنظر نماذج من ذلك لدى ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة... ق 1، ص 137، ترجمة 213، ص 180، ترجمة 232، ص 185، ترجمة 240، ص 264، ترجمة 344، ابن الأبار: التكملة...م. س، ج 3، ص 313، ترجمة 905 .

99_صلاح خالص: إشبيلية في القرن الخامس، بيروت 1965، ص 64.

100 _عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6- 8هـ / 12- 14م)، دار الطبيعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2008، أنظر الصفحة 261 وفي مواضع مختلفة خاصة في الفصل الرابع من الباب الثاني. والغريب في الأمر أن الباحث يرى أن "ضغط النوائب والفاجع التي ألمت بالمغرب والأندل، كان لها النصيب الأوفر في حدوث نقلة نوعية في العمل الاجتماعي. فانتقل التصوف السني من فكرة الانزواء والخلاص الفردي، إلى مشاركة الناس محنهم وآمالهم ومساعدتهم على تجاوزها" نفسه، ص 261، ويضيف قائلا أن تصوف المرحلة غلب عليه الاتجاه الاجتماعي، ويستشهد بدراسة محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص 414، ودراسة عبد الهادي البياض تهم الفترة الممتدة من القرن السادس الهجري إلى القرن الثامن، وهنا يقع في التعميم. صحيح أن التصوف في العصر المرابطي غلب عليه الدور الاجتماعي كما هو الحال في عصر المرينيين، فكان من الأجدر بالباحث الاستشهاد بدراسة متخصصة في عصر المرابطين، وراجع أيضا حسن علي حسن: الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي مصر، 1970، ص 486 .

101 _ترجمته في ابن الزيات: التشوف...م س، ص 222 - 225، ترجمة 78، المراكشي: الإعلام...م. س، ج 8، ص 46.

102 _ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 223، ترجمة 78، ابن قنفد: أنس الفقير...م. س، ص 23.

103 _التميمي: المستفاد....م. س، ص29، ترجمة 2، الصومعي: المعزى...م. س، ص 134. التشوف...م. س، ص 222، ترجمة 77، الصومعي: المعزى...م. س، ص 134. ولعل تأثير هذه النقطة أي الإطعام، هو مادفع أبا الحسن اليوسي في معرض بسطه لقضية إطعام الطعام بالزوايا إلى الاستشهاد بنموذجي أبي يعزى وأبي محمد عبد الخالق الدغوغي، أنظر كتاب المحاضرات: تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976، ص 132– 133.

104 _ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 215، الصومعي: المعزى...م. س، ص 117.

104 _ابن الزيات: أخبار أبي العباس السبتي، ضمن كتاب، التشوف...م. س، ص 454.

105 _ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط 2، دار المعارف، القاهرة 1955، ج 1، ص 107.

106 _ابن سعيد المغربي: المغرب...م. س، ص 107.

107 _ابن العريف: مفتاح السعادة...م. س، ص 29.

108 _ابن قنفد: أنس الفقير... م. س، ص 109.

110 _إبراهيم القادري بوتشيش: "الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصري المرابطين والموحدين مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية" ضمن كتاب: جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة الندوات 2، 1991، ص 103- 104- 106- 107، نفسه: المغرب والأندلس...م. س، ص 140- 141- 142- 143- 144- 149، نفسه، " واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي..."، م. س، ص 37، الحسين بولقطيب: كرامات... م. س، ص 77.

111 _أنظر: ابن الزيات: التشوف...م. س، ص 274، ترجمة 120، ص 117، ترجمة 17، التميمي: المستفاد...م. س، ص 64، ترجمة 12 .

112_ مانويلا مارين: ممارسات المسلمين الدينية في الأندلس بين القرنين الثاني والرابع الهجريين الثامن والعاشر الميلاديين، م. س، ص 1226.

الكاتب: د .ة/ إيمان محمد العابد ياسين
عنوان المقال: عائلة "**الجبادار**" الفنية
مدير إدارة التسجيل والتوثيق الأثري . منطقة آثار
وسط القاهرة . وزارة الآثار المصرية.
البريد الالكتروني: dr.eman.elabed@gmail.com

تاريخ الارسال:2019/02/10 **تاريخ القبول:** 2019/03/12 **تاريخ النشر:**28 /2019/03

عائلة "الجبادار" الفنية

الملخص بالعربية:

تُعد "**عائلة الجبادار**" واحدة من أهم العائلات الفنية التي كان لها دور رائد في النهوض بالحياة الفنية في إيران طوال الفترة الممتدة فيما بين القرنين الثامن عشر والعشرين الميلاديين ، فقد أنجبت هذه العائلة عدد كبير من مشاهير الفنانين الذين أثروا الحياة الفنية بالعديد من المنتجات الفنية المختلفة والمتنوعة ، إذ انتمى إليها العديد من رواد الرسامين والفنانين لعدة أجيال متعاقبة ؛ كل جيل يرث عن سابقيه الموهبة الفطرية ، ثم يقوم بتطوير تلك الموهبة الفطرية من خلال الدراسة والتعلم والتدريب على أيدي أساتذة الفنون المعاصرين له.

ويعد هذا البحث واحداً من الدراسات العربية التي تهدف إلى الاهتمام بالبحث والتنقيب في جذور العائلات الفنية وتتبع سلسالهم وأنسابهم ، مع إلقاء الضوء على طبيعة الصلات التي تربط فيما بين أبنائها ، وما يسفر عن هذا النوع من الأبحاث في الكشف عن العديد من النتائج الهامة التي يرجى منها أن تكون مسراجاً للباحثين المهتمين بتتبع السير الذاتية للفنانين ، ومن ثم أوصي بضرورة توجيه جهود الباحثين حول مثل تلك العائلات الفنية اعترافاً بجهود أبنائها في سجل تاريخ الفن الحافل بالعديد من أسماء هؤلاء النجوم الساطعة المتوارية خلف روائع منتجاتهم الفنية.

إذ يعد هذا البحث حلقة في سلسلة الأبحاث التي تهتم بالتعمق في السير الذاتية للعديد من الفنانين الرواد في مختلف المجالات الفنية ، والذين قلما تركزت اهتمامات الباحثين فيما حولهم ، في الوقت الذي وجهوا جل اهتماماتهم لدراسة أعمالهم الفنية ، متغاضيين بقصد أو بدون عن البحث عن هؤلاء الفنانين ، ولعل السبب في هذا الاتجاه . من وجهة نظري

الخاصة . هو صعوبة البحث والتنقيب عن مثل هذه الشخصيات الفنية الكبيرة والجديرة بالاحترام والتقدير ؛ نظراً لتضارب الآراء والمعلومات المتعلقة بالكثير منهم . ومن ثم يسعى الكثير من الباحثين المعاصرين إلى دراسة ما أنتجه هؤلاء المبدعين من تحف وروائع المنتجات الفنية غاضيين الطرف عن التطرق لدراسة هؤلاء المبدعون أنفسهم ، مكتفين فقط بسرد بعض المعلومات القليلة عنهم ، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث استجابة لرغبتي الملحة في التنقيب عن مجموعة من الفنانين الرواد ، والذين يمكننا اعتبارهم جنوداً مجهولة في المضمار الفني قدموا لنا خلاصة عبقرياتهم ومواهبهم متناسيين تقديم أنفسهم ، اللهم إلا من خلال توقيعات البعض منهم ، والتى عبر دراستها وعقد المقارنات أصبح من الممكن التعرف على عدد منهم ، بالإضافة إلى جمع المعلومات المتعلقة بهم من المصادر التاريخية المختلفة والمعاصرة لهم ؛ ولكن لايزال الكثيرون منهم مجهولين لدى الباحثين في المجالات الفنية المتنوعة .

لذا يُعد هذا البحث نتاجاً لسلسلة من الأبحاث المتعلقة بالسير الذاتية لعدد من الرسامي ن الإيرانيين التي تناولتها بالبحث والدراسة والتي ثبت لي من خلال عقد المقارنات وجود علاقات أسرية وصلات قرابة فيما بينها ، وهو الأمر الذي دفعني لتتويج تلك الأبحاث بهذه الفكرة التي تؤكد على وجود عائلات فنية بأكملها تورات أبنائها الموهبة والنبوغ الفطري في مجالات فنية مختلفة ومتنوعة جيلاً بعد جيل.

الكلمات المفتاحية: عليقلي بك ، جبادار ، فرنگي سازي ، نقاش باشي ، ابدال بك ، محمد علي بك ، محمد باقر، محمد حسن ، نجفعلي.

Abstract :

Aljabadar family is one of the most important and prominent artistic families that played a leading role in promoting the artistic life in Iran throughout the 18th - 20th centuries. This family has produced a large number of famous artists who have influenced the art scene in various artistic products belong to many pioneers of artists for nearly four successive generations. Each generation derives from its predecessors the innate talent through which it has passed on genetic genes. then

develops its innate talent through study, learning and training by the masters of the arts Enlightened them.

This research is one of the Arab studies that interested in research and exploration in the roots of the artistic families and trace their descendants and genealogy, while shedding light on the nature of the links between their sons, and the result of this type of research to reveal many important results that are expected to be A survey of researchers interested in tracing the biographies of artists, and therefore recommended the need to direct the efforts of researchers about such families art in recognition of the efforts of their sons in the history of art filled with many names of these bright stars hidden behind their masterpieces.

This research is a link in a series of research that deals with the depth of the biographies of many of the leading artists in various fields of art, who have rarely focused the interests of researchers around them, while they directed most of their interest to study their works of art, deliberately or without looking for these artists , And the reason for this trend in my own view is the difficulty of searching for such great and respected professional figures, because of the conflicting opinions and information on many of them and many modern researchers are now seeking to study what produced by these In spite of my desire to search for a group of leading artists, whom we can consider to be unknown soldiers on the artistic track, they presented us with a list of leading artists. The essence of their genius and talents is to present themselves, except through the signatures of some of them. Through their studies and comparisons, it is possible to identify a number of them, in addition to collecting information related to them from different historical sources, Many of them are unknown to researchers in various technical fields.

This research is a result of a series of studies on the biography of a number of Iranian painters, which proved through the study and comparisons an existence of

family ties between them, which led me to culminate in this research, which emphasizes the presence of whole families of talented artistes in various artistic fields, generation after generation.

Key Words: Ali Quli Baik Jabadar , Frang – Sazi, Naqqash bashi , Abdal Baik , Mohamed Ali Baik , Mohamed Baqer , Mohamed Hassan, Najafali.

مقدمة:

تُعد إيران مهداً للحضارة وموطناً خصباً أثمر العديد من العبقريات الرائدة في مختلف المجالات الفنية ، هذا وقد وجدت في إيران العديد من العائلات الفنية ، التي عمل عدد كبير من أبنائها في مختلف المجالات الفنية ، وكانوا يحافظون على أسرار تفوقهم وريادتهم في صناعاتهم فيما بينهم وكانت تلك الأسرار تنتقل من الأباء إلى الأبناء إلى الأحفاد على مر الزمان عبر تعاقب الأجيال ، وكانت كل عائلة منها تحاول الحفاظ على أسرار صنعتها التي يتم تداولها عبر الأبناء وأبناء الأبناء ، والتلامذة المقربين ، والذين أصبح كلٌ منهم بمثابة مدرسة فنية متميزة في حد ذاتها جديرة بالاحترام والتقدير.

تمهـــيد :

عائلة "**الجبادار**" . شكل رقم (1) . هي واحدة من العائلات الفنية التي اتخذت من مدينة أصفهان موطناً لها ، إذ ثبت لنا من خلال الدراسة والبحث أن جذور هذه العائلة كانت قد وفدت إلى إيران منذ زمن بعيد ، والتحقوا بالخدمة البلاطية لدى العديد من شاهات إيران خلال العصر الصفوي ، وتدرجوا في عدد من المناصب الهامة. وقد ساهم الكثير من أبناء هذه العائلة في إثراء الحياة الفنية في إيران لقرون طوال ، وهناك تساؤلات كثيرة تعترض سبيل الباحث المتصدر لدراسة هذه العائلة ؛ ونظراً لتضارب الآراء واختلافها فيما بينها ؛ ما كاد أن يقودني في كثير من الأحيان إلى متاهات كثيرة لاسيما فيما يتعلق بمسمى "**الجبادار**" ماذا يعني ، ومن هو "**الجبادار**" المؤسس الأول لهذا العائلة الفنية العريقة.

بداية لابد أن نعرف أولاً ماذا يعني مسمى الجبادار؟؟

ف "**الجبه دار**" أو "**الجبادار**"(*)(i) هو الشخص المسئول عن الإشراف على الـ"**جبه خانه**(*)(ii) أو القور خانه ؛ وهي المكان المخصص لحفظ الأدوات والمعدات الحربية ومخازن أو مستودعات البارود ، وكل ما يتعلق بمعدات ولوازم الحرب وصيانتها ، وكان يطلق على الموظف المسئول عنها اسم "جبه دار باشي" . أي . "رئيس السلاحليك".(iii) ومن المعروف أن وظيفة "جبه دار" كانت من الوظائف الهامة في البلاط ، ولم يكن من السهل لأي شخص في البلاط الوصول إليها ، لأنها تتعلق بالجيش وتجهيزاته والنفائس وغيرها.(iv)

أما عن "**الجبادار**" المؤسس الأول أو الجد الأكبر لهذه العائلة الفنية . موضوع البحث . فقد ظهر هذا اللقب ضمن صيغ توقيعات الفنان "علي قلي بگ(*)(v)" . أحد أشهر فناني العصر الصفوي . على العديد من أعماله الفنية.(vi) . لوحات من (1) : (3) .

كان "آذربيگدلي" قد أشار في كتابه المعرف باسم "آتشكده آذر" ، أي "تراجم آذر" وتحت عنوان "ارنا اوت" . أي "أرنا أوطي" التي استقاها من إحدى صيغ توقيعات الفنان "عليقلي" على بعض أعماله الفنية ، أشار إلى أن أحد أجداد هذا الأرناؤوطي جاءوا قديماً من إحدى ممالك ألبانيا حيث كانت ألبانيا تعرف قديماً بـ "بلاد الأرناؤوط" ، وعمل في بداية الأمر في الجبه خانه ؛ وربما كان لقب العائلة لعمل أحد أجداده في هذه الصنعة ، وورثها عنه "عليقلي" ، وعندما جاء إلى إيران عرف باسم "جبادار".(vii)

من المحتمل أن هذا الفنان كان قد ولد في حدود عام 1045هـ في إحدى المقاطعات الألبانية ، وبعدما يقرب من عشرين عاماً ترك بلاده وانتقل إلى إيران ، اعتنق الإسلام في حدود عام 1065هـ= 1635م والتحق بالبلاط الصفوي للعمل لدى شاهات إيران ، وهم : "عباس الثاني 1052 . 1077م" = (1642 . 1667م) ، "الشاه سليمان الأول 1077 . 1205هـ" = (1667هـ . 1694م) ، "الشاه سلطان حسين1105 . 1135هـ" = (1694 . 1723م) (viii) كما أشار كلاً من "اسكندر بگ منشي" ، و"محمد معصوم أصفهاني" إلى أن "علي قلي بگ" في حدود عامي 1049 . 1050هـ = 1639 . 1640م كان قد عُين في منصب أمين المكتبة السلطانية حتى نهاية عهد "صفي الأول"، وأنه كان فخوراً بانضمامه للخدمة البلاطية.(ix)

بعد أن حقق "عليقلي" نجاحاً كبيراً في منصبه كأمين للمكتبة السلطانية ، تولى منصب "نقاش باشي" . أي . "كبير رسامي البلاط" عقب وفاة "صفي الأول" في عام 1052هـ= 1642م ، كما وقع عليه الاختيار كي يكون المسئول عن الأسلحة والمدفعية . أي . "جبه دار" ، وذلك طوال عهد الشاه "عباس الثاني".(x) ، وعلى ما يبدو أن "علي قلي بگ" كان يترأس كلا المنصبين معاً رئيس المكتبة الخاصة ورئيس السلاح، وذلك حتى عام 1068هـ= 1658م ؛ لأن كلتا الوظيفتين تتطلب مهارة فنية وأمانة كبيرة ، بكونها من المناصب شديدة الحساسية في البلاط ، فكانت مثل تلك المهام توكل للأفراد الثقات من رجال البلاط.(xi)

هذا وقد اشتهر الفنان "عليقلي" بالعديد من الألقاب التي وردت ضمن صيغ توقيعاته على أعماله الفنية المختلفة إلى جانب شهرته بلقب **الجبادار** ، فقد اشتهر الفنان "عليقلي بك" بلقب:

<u>**فرنگي(*)(xii) سازي(*)(xiii):**</u>

كان **"عليقلي"** . رئيس المكتبة السلطانية والمرسم الملكي قد استفاد كثيراً من خبرات العديد من الفنانين الأوروبيين وغيرهم في تطوير وتشكيل أسلوبه الفني في عمل لوحاته ، ونظراً لاعتناقه لهذا الأسلوب الفني المتميز والمفضل آنذاك من قبل البلاط ؛ اشتهر باسم الـ "فرنگي سازي" . أي . "صانع الفرنجة" ، مثله في ذلك مثل العديد من رفاقه المعاصرين له كـ "محمد زمان ، شفيع عباسي ، وأبنائهم ، والذين شكلوا بدورهم جيلاً فنياً جديداً أحدث طفرة فنية مشهودة في الهيكل الفني للتصوير الصفوي.(xiv) ؛ كما أنه ينبغي علينا ألا ننسى الجذور الإفرنجية لعلي قلي بگ وأجداده ذوي الأصول الجورجية ، وهي الفكرة الأقرب إلى الصواب في تسميته بالإفرنگي.

من خلال بحث سابق قمت بعمله عن الفنان "عليقلي بيك" ، كان بعنوان { الفنان العبقري علي قلي بك جبادار ، ومسيرته الفنية } ، توصلت إلى أن هذا الفنان ظل يعمل في مجال فن الرسم على مختلف الأوساط الفنية لما يقرب من سبعين عاماً ، وكانت فترة نشاطه الفني قد حصرتها بالفترة ما بين عامي (1059هـ/1649م . 1129هـ/1717م) ، وذلك من خلال عقد المقارنات ومتابعة وتعقب أعماله الفنية. كما تمكنت من الوقوف على تاريخ وفاته وهو عام 1130هـ/1718م .

يلي الفنان "عليقلي بيك" في ترتيب سلسال عائلة **"الجبادار"** الفنان "ابدال بك" ، فمن هو هذا الفنان ؟؟

2). الفنان "ابدال بك".

يشير الكاتب الكبير كريمزاده تبريزي في المجلد الأول من مؤلفه الضخم المعروف باسم "احوال واثار نقاشان قديمي ايران" إلى أن "عليقلي بك" كان له ولد واحد وهو "ابدال بيك" ، الذي كان يشرف على تدريبه وتعليمه مبادئ وأساسيات فن الرسم ، كما قام بتدريبه على مزيج من التقنيات والأساليب الفنية التي جمعت فيما بين الإيرانية ، الهندية ، والأوروبية.

شَكَّلَ أسلوبه الفني في الرسم والتصوير الأساس الذي سار عليه عدد كبير من الرسامين المعاصرين له ، فكانت لوحاته من روائع من أنتجه الفن الإيراني ، ونظراً لبراعته في عمل الرسوم واللوحات أن تم تعيينه في منصب "نقاش باشي" . أي ."كبير رسامي البلاط ، وتاريخ تعيينه في هذا المنصب غير معروف ؛ نظراً لضآلة المعلومات المعروفة عن هذا الفنان.(xv)

وقد أعقب الفنان "أبدال بك" في السلسال العائلي إبنه الفنان "محمد علي بك" ، فمن هو هذا الفنان ؟؟

3). الفنان محمد علي بك: . لوحات من (4) : (6) .

ينحدر المصور الكبير "محمد علي بك" من عائلة فنية كبيرة ظلت تعمل في مجال فن الرسم لما يقرب من 150 عاماً ألا وهي عائلة **"الجبادار"** ؛ فوالده هو "أبدال بيك" . نقاش باشي ؛ والذي كان يشغل منصب رئيس الرسامي ن في بلاط الشاه سلطان حسين ، وجده هو الفنان"علي قلي جبه دار".(xvi)

عمل الفنان "محمد علي بك" رئيساً للرسامي ن في بلاط "طهماسب الثاني"، وعقب سقوط دولة الصفويين، وعندما نجح "نادرشاه الإفشاري" في الاستيلاء على عرش ايران، انضم لبلاط "نادر شاه الإفشاري" ، للعمل فيه كرئيس للرسامي ن ، وكان "نادرشاه الافشاري" دائماً ما يصطحبه معه في رحلاته وأسفاره ، لنقل وقائع حملاته الحربية عن طريق الرسوم واللوحات ؛ فقام برسم عدد ثلاث عشرة صورة وضعت في كتاب "آرايي تاريخ جهانگشاي

نادري" . أي . "تاريخ نادر ملك العالم " الذي قام **الاسترابادي(*)**(xvii) . مؤرخ البلاط في عهد نادرشاه . بتأليفه عام 1171هـ ، والذي رصد من خلال صفحاته عدد من الحملات والمعارك الحربية التي خاضها "نادر شاه الإفشاري".(xviii)

برع الفنان "محمد علي بك" في العديد من المجالات الفنية ، فكان يتمتع بموهبة فنية كبيرة ؛ إذ علمنا أنه كان يقرض الشعر ويعزف الموسيقى ، بالإضافة إلى تفوقه في مجال فن الرسم ، فقد تخصص في رسوم الزهور وكانت رسوماته ذات شهرة كبيرة ، إلى جانب رسوم الحيوانات ، والمعارك الحربية ، فقد برع في رسوم الحشود ، كما نجح في رسوم الصور الشخصية ، وتجلت أستاذيته في رسوم اللوحات والصور بالألوان المائية والزيتية ، وكذلك بالقلم الأسود إضافة إلى عمل مجموعة من الجداريات.(xix)

عقب مقتل نادر شاه الإفشاري سافر "محمد علي بك" إلى مازندران؛ ليلتحق بالعمل في خدمة القاجاريين ، والتي ظل بها حتى وفاته. وكان "محمد علي بك" قد عمل رئيساً للرسامين لدى فتح علي شاه في بدايات توليه منصب ولي العهد.(xx) فقد شهدت إيران خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي عدد من التطورات السياسية ؛ كان من بينها انهيار الدولة الصفوية ، وقيام عدة دول أخرى ساهمت في دعم الحياة الفنية منها الإفشارية ، الزندية والقاجارية ، وما قام به حكام تلك الدول من تشجيع الفنانين على العمل والإنتاج الفني. وثمة أفراداً من عائلات فنية كبيرة ، مثل عائلة **"الجبادار"** تُعد من الأمثلة البارزة والدالة على انتقال الفنانين من بلاط لأخر بحثاً عن الرعاية الفنية.(xxi)

يلي الفنان "محمد علي بك" في سلسال عائلة **"الجبادار"** إبنه الفنان "محمد باقر".

<u>4) . الفنان "محمد باقر"</u> لوحات من (7) : (9) .

هو الفنان **"محمد باقر"** إبن الفنان**"محمد علي بك"** ، وذلك وفق ما جاء في توقيعه على إطار مرآة من إنتاجه بصيغة: { رقم كمترين محمد باقر بن محمد علي به دار السلطنهء اصفهان ، در مدت يازدماه به اتمام رسيد به تاريخ 11جمادى اول 1187 }.(xxii) ، وترجمتها بالعربية:{ عمل الحقير محمد باقر بن محمد علي في اصفهان دار الحكم ، وتم الانتهاء في الـ 11 من جمادى الاول عام 1187 بعد عام ونصف من العمل}.(xxiii)

وكان الفنان"محمد باقر" شديد الحرص على نسخ وتقليد عدد من أعمال والده الفنان"محمد علي بك" ، وكذلك أعمال جده الفنان"علي قلي بيك جبه دار"، وهو ما يعضد أن "محمد باقر" من نسل عائلة الجبادار، التي يفخر بانتمائه لها.(xxiv)

وعندما نجح "كريم خان زند" في فرض سيطرته على إيران ؛ اتخذ من شيراز عاصمة له عام 1167هـ ، وعمل على تعمير المدينة ؛ فأنشأ القصور، بيت العدل، الأسواق ، الحمامات والحدائق ، وعهد إلى"محمد باقر" ، وغيره من فناني تلك الفترة بتزيين وزخرفة هذه العمائر بالصور واللوحات الجدارية المنفذة بالألوان الزيتية على الخيش بصور ورسوم الزهور مختلفة الألوان والرياحين والطيور المتنوعة.(xxv)

كان"أغا محمد خان" أحد رجال بلاط كريم خان زند رفيقاً لمجموعة من الفنانين ومن بينهم كان "محمد باقر" ، والذين انتقلوا بعد ذلك للعمل في خدمة البلاط القاجاري.(xxvi) وبعد مقتل "أغا محمد خان" عام 1211. 1112هـ.ق ؛ أعقبه في حكم القاجاريين إبن أخيه "بابا خان" ، الذي عرف فيما بعد باسم "فتح علي شاه" ، والذي استولى على عرش الزنديين في شيراز واستولى كذلك على فناني البلاط ، ومن بينهم "محمد باقر".(xxvii)

شارك "محمد باقر" عدد من زملائه الفنانين وهم: "محمد صادق ، محمد هادي" في زخرفة وتذهيب مجموعة من صور الألبوم الذي نُفذ خلال الفترة ما بين عامي (1168. 1172هـ.ق) للسيد "ميرزا رضا مهدي استرابادي" ، وكان توقيع الفنان "محمد باقر" قد ورد في هامش العديد من صور الألبوم المحفوظ حالياً في معهد الدراسات الشرقية بالأكاديمية الروسية في سان بطرس برج ، تحت رقم (E14).(xxviii)، ويتكون هذا المخطوط من 865 صفحة ومؤرخ بعام 1172هـ.(xxix) وتجسد تصاوير هذا الألبوم نقطة تحول هامة في حياة هذه العائلة ، آلا وهي ظهور اسم الفنان "محمد حسن" على إحدى صور الألبوم ، وهي صورة لزهرة ، جاء توقيعه عليها بصيغة: { به جهت نور چشمي محمد حسن مشق شد ، كمترين محمد باقر بن محمد علي}.(xxx) ، وترجمتها بالعربية { لتدريب نور العين محمد حسن ، الحقير محمد باقر بن محمد علي}. وقديما كانت عبارة "نور العين" تطلق على الأطفال ؛ إذ يشير "كريم زاده‹تبريزي إلى أن هذه العادة كانت عرفاً مألوفاً وشائعاً آنذاك. ومن ثم أورد "محمد باقر" هنا اسم إبنه "محمد حسن" مقروناً بهذه العبارة ، الذي كان يرعاه ومن المحتمل أنه كان قد تتلمذ على يده.(xxxi)

وقد توصلنا من خلال الدراسة والبحث إلى أن "محمد حسن" دائماً ما كان يوقع على أعماله بصيغة **"گل بستان"(*)**(xxxii) ، كما كان هناك إبناً أخر لـ"محمد باقر" ، وهو "نجف علي" ، وذلك طبقاً للمعلومات التي وردت في وثيقة زواج إبنة "نجف علي" ، والتي ورد فيها توقيع "محمد حسن . زهرة البستان" كعم العروس.(xxxiii) ؛ ومن ثم يكون "محمد حسن . زهرة البستان" هو إبن "محمد باقر" ، وأخو "نجف علي" ، والذي كان بدوره أباً لكلاً من "محمد كاظم" ، "محمد جعفر" ، "محمد علي" ، "أحمد".(xxxiv)

<u>ملحوظة :</u>

في هذا البحث قمت باستعراض نماذج لبعض أعمال أبرز أبناء هذه العائلة الفنية القديرة .

الأشكال واللوحات

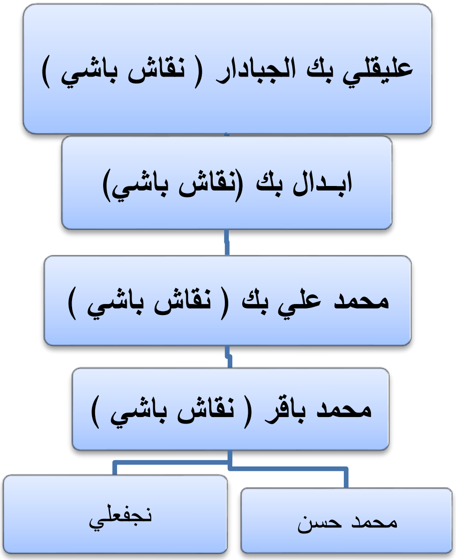

. شكل رقم (1) . شجرة عائلة **"الجبادار"** سلسال آل جبادار. عمل الباحثة .

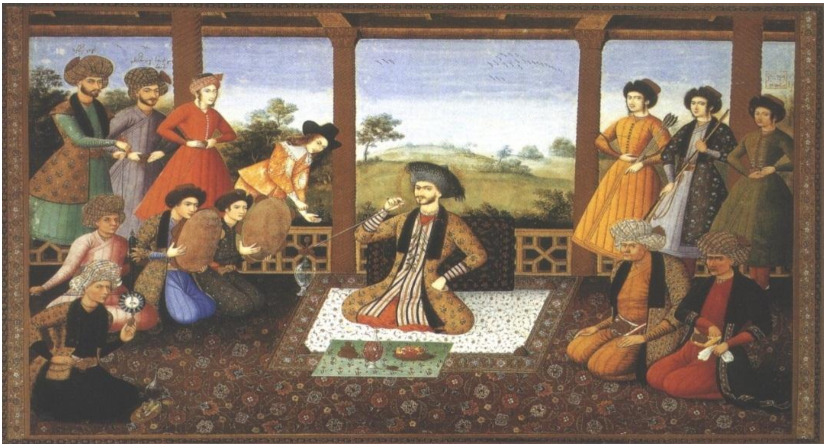

صورة رقم (1) صورة من بلاط شاه سليمان الصفوي ، عمل "عليقلي بگ" نقلاً عن : نقلاً عن: آژند، يعقوب:علي قلي بگ جبه دار، ص. 91

صورة رقم (2) سيدة تجلس على كرسي وعلى جانبيها اثنان من الخدم في جلسة شاعرية يغلب عليها الطابع الخيالي . عمل الفنان "عليقلي بك" ، نقلاً عن: كريم زاده تبريزي: احوال واثار نقاشان ايران، ص.397

لوحة رقم (3) . صورة بألوان مائية والتذهيب على ورق لأحد الأمراء ، ويدعى نجيب زاده صفوي، بالألوان المائية على الورق . اصفهان (1080. 1084هـ) ، نقلاً عن: ا سود آور، بولعلا ،هنر دربار هاي ايران ، ترجمة: محمد شميرانى،چاپ اول ،تهران، نشر كارنگ، 1380هـ ، ص 151

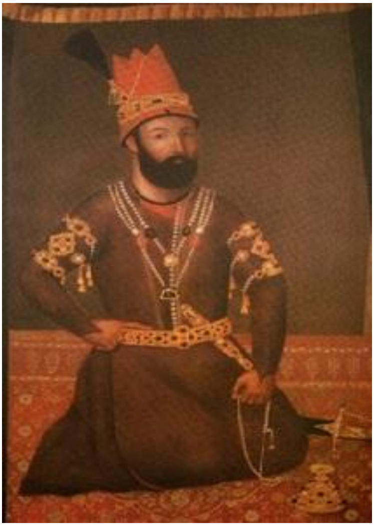

لوحة رقم (4) . صورة شخصية لنادر شاه الإفشاري . عمل "**محمد علي بك**"، نقلاً عن: -
Diba, L.: Persian royal painting, P.144

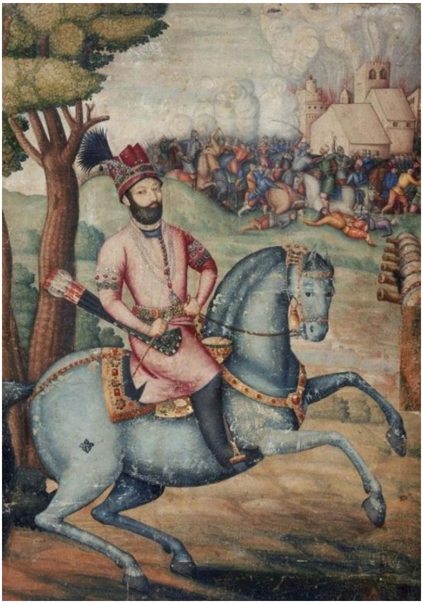

صورة رقم (5) تمثل "نادر شاه الإفشاري" ، وهو في طريقه لحصار هرات ، عمل المصور **"محمد علي بك"** منتصف القرن الـ 18م ، مقاس : 16.7 X 25.5 سم ، محفوظة بمتحف الفنون الجميلة . بوسطن ، نقلاً عن : آژند، يعقوب: "احوال واثار محمد علي بك نقاشباشي"، ص. 61

صورة رقم (6) . علبة مرآة مزخرفة برسوم الزهور وطائر البلبل . عمل **محمد باقر** ، محفوظة بمجموعة ناصر خليلي، نقلاً عن:Khalili, N.: Land Of Lacquer ,P.64

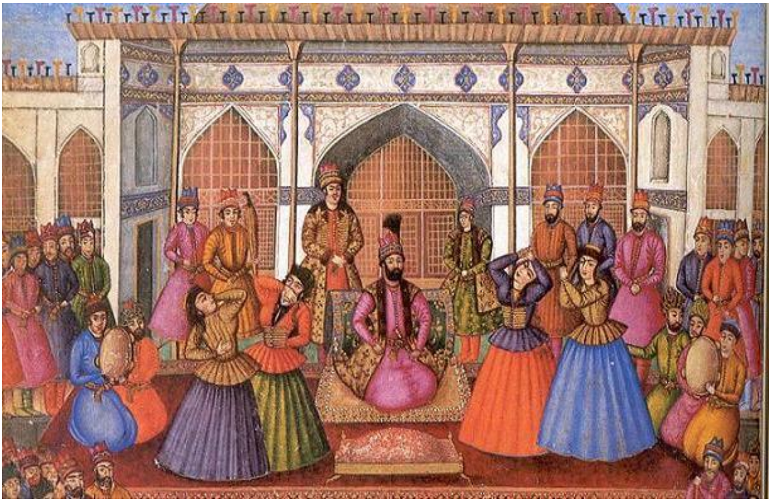

صورة رقم (7) . حفل تتويج نادر شاه . من كتاب "تاريخ جهانگشاي نادري" تنسب للفنان **"محمد علي بك"** ، مؤرخة بعام 1171هـ ، نقلاً عن : آژند، يعقوب: "احوال واثار محمد علي بك نقاشباشي"، ص. 62

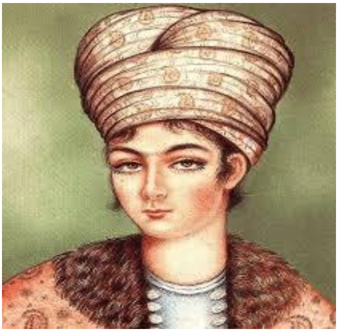

لوحة (8) صورة شخصية لـ "الأمير لطف علي خان " . عمل **محمد باقر** نقلاً عن :

http://blog.iranmarcopolo.com/%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%B2-%DA%A9%D8%B4%D8%AA%D9%87-%D8%B4%D8%AF%D9%86-%D9%84%D8%B7%D9%81%D8%B9%D9%84%DB%8C%E2%80%8C-%D8%AE%D8%A7%D9%86-%D8%A2%D8%AE%D8%B1%DB%8C%D9%86-%D8%B4%D9%85%DB%8C/

صورة رقم (9) علبة مرآة من اللاكيه ، عمل محمد باقر ، محفوظة بمجموعة ناصر خليلي . لندن ، نقلاً عن: Khalili, N.: Land Of Lacquer ,P.91

الخلاصة ونتائج البحث

من خلال المعلومات التي قمنا بجمعها في ضوء هذا البحث والمتعلقة بعائلة "**الجبادار**" ، تم التوصل لعدد من النتائج الهامة ، ومن بينها ما يلي :

1). تُعد عائلة "**الجبادار**" واحدة من أهم العائلات الفنية الإيرانية التي كان لها بصمات جليلة في عدد من الميادين الفنية المختلفة والمتنوعة.

2) . تعود جذور هذه العائلة إلى أصول جورجية ، فقد وفدوا إلى إيران من بلاد الأرناؤوط . ألبانيا . في عهد الشاه عباس الأول.

3). عمل "**الجبادار**" في المرسم الملكي وفقاً للأسلوب الإفرنجي، لذا عرف في العديد من المصادر والمراجع باسم "عليقلي فرنجي سازي" ، لأنه كان في الأصل من جذور جورجية وهم

الذين كان يطلق عليهم اسم "**الأفرنج**" ، فضلاً عن رغبته في تخليد وإحياء ذكرى أبائه وأجداده من الجورجيين.

4). في عهد الشاه "عباس الثاني" شغل "علي قلي" عدة مناصب هامة ، منها: "نقاش باشي" ، "**جبادار**" ؛ وهو اللقب الذي كثيراً ما اقترن باسمه في العديد من صيغ توقيعاته.

5) . ظل "**الجبادار**" حاملاً للقب "نقاش باشي" . أي . " كبير الرسامي ن حتى عهد الشاه "سلطان حسين"(1105 . 1135هـ= 1694 . 1723م) . كما حصل ابنه "محمد علي بگ" على نفس المنصب في عهد كلاً من: شاه "طهماسب الثاني" ، و"نادر شاه الإفشاري.

6). الفنان "ابدال بك" هو ابن الفنان "علي قلي بك الجبادار".

7) . الفنان "محمد علي بك" هو إبن المصور الكبير "ابدال بك". نقاش باشي ، وجده هو "علي قلي بك".

8) . في عام 1140هـ أي في منتصف عهد الشاه طهماسب الثاني شغل "محمد علي بك" منصب رئيس الرسامين ، وكان يرافقه في رحلاته وجولاته.

9) . عقب الاطاحة بالشاه طهماسب الثاني عام 1145هـ ، انضم "محمد علي بيك" للعمل في بلاط نادرشاه ، وعمل رئيساً للرسامين.

10) . علمنا من خلال المعلومات التى توصلنا إليها أن الفنان "محمد باقر" هو ابن الفنان "محمد علي بك".

11) . توصلنا كذلك إلى أن "محمد حسن" هو إبن الفنان "محمد باقر" وأحد أحفاد "محمد علي بيك"، والذي كان واحداً من أشهر رسامي هذه العائلة ، والذي كان له ورشة فنية في أصفهان.

12) . ثبت لنا أن "محمد علي بك" . نقاش باشي قد خرج من نسله عدد من الفنانين الذين احتلوا مناصب هامة من بينهم "نجفعلي" ، الذي تولى منصب "نقاش باشي" في بلاط القاجاريين.

13) . وبذلك يعد الفنان **"محمد باقر"** هو حلقة الوصل أو الرابطة التي تصل بين عائلتي **"الجبادار"** ، وعائلة **"نجف"** ؛ فهو سليل عائلة **"الجبادار"** ، ووالد الفنان "نجف علي" الجد الأكبر والمؤسس لعائلة "نجف".

14). الفنان "نجف علي" هو إبن الفنان "محمد باقر" إبن الفنان والنقاش باشي . أي . كبير الرسامي ن في البلاط الصفوي "محمد علي بك" إبن الفنان "أبدال بك" . نقاش باشي" إبن الفنان"علي قلي بك جبادار"

15) . يمكننا القول بأن تقنيات فن الرسم التى ظلت تمارس طوال أجيال متعاقبة من عائلة **"الجبادار"** قد انتقلت وورثها أبناء "نجف" من بعده.

<u>*) . الحواشي:</u>

---

i). **(*) . الجبه دار . أو . الجبادار:** هو المسئول عن الشخص المسئول عن الإشراف على المكان المخصص لحفظ الأدوات والمعدات الحربية ومخازن أو مستودعات البارود ، وكل ما يتعلق بمعدات ولوازم الحرب وصيانتها ، وكان يطلق على الموظف المسئول عنها اسم "جبه دار باشي" . أي . "رئيس السلاحليك" . نقلاً عن: كيمفر ، انجيلبيرت : سياحة نامة ، ترجمة: كيكاوس جهانداري، تهران، خوارزمي، 1360هـ، ص.152

ii) . **(*) . جبه خانه:** هو مكان صناعة وصيانة الألات الحربية بدءً من الأسلحة الباردة أو الخفيفة كالسهام والدروع وصولاً إلى الأسلحة والمعدات الحربية كالكرات المعدنية والرصاص والبنادق. نقلاً عن: دانشنامه بزرگ اسلامي ، جلد17 ، تهران، ص.6443

iii) . كيمفر، انجيلبيرت: سياحة نامة ، ترجمة: كيكاوس جهانداري، تهران، خوارزمي، 1360هـ، ص ص. 149 . 150

iv) . آژند، يعقوب: علي قلي بگ جبه دار. كتابدار ، نشريه هنرهاي زيبا، هنرهاي تجسمي، العدد 16 ، زمستان، 1382 هـ.ق، ص ص. 83 . 86 & . دانشنامه بزرگ اسلامي ، جلد17، ص.6443

v) . **(*) . بگ:** (لبك أو الباي أو البيك أو البيه) هي كلمة ولقب تركي كان يستخدم في الدولة العثمانية . ويستخدم في العديد من اللغات والبلدان ، مثل اللغة الألبانية ,(bej) والفارسية: بگ ، معناها السيد أو الأمير أو ذو شأن عظيم وهي تلفظ (بيه . أو. بيك) ، ومن هنا سمي مؤدب الملك في بلاد فارس (أتابك اي السيد الاب)، ثم أطلقت أتابك على الوزير ووكيله وعلى الأمير نفسه. نقلاً عن : الباشا، حسن : الألقاب

الإسلامية في التاريخ والوثائق والأثار، القاهرة ، 1989 ، ص ص. 225 . 226 & وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثاني دار الفكر بيروت ص 286

vi) . آژند، يعقوب: علي قلي بگ جبه دار، ص. 86

vii) . آذربيگدلي: آتشكده آذر، ص. 260

viii) . كريمزاده ، محمد علي تبريزي: احوال واثار نقاشان قديم ايران، المجلد الأول، لندن، 1169هـ، ص. 390

ix) . كيمفر، انجيلبيرت: سياحة نامة ، ص. 152 & *Gemelli Careri*: Siyahat - Nameh, Tehran, Amir Kabir, 1335 ,P.168

x) . آژند، يعقوب:علي قلي بگ جبه دار، ص. 87

xi) . آذر بيگدلي : آتشگده آذر، ج.1 ، ص.389

xii) . (*) . فرنگي: تكتب اليوم "إفرنج" ، وكانت تطلق على سكان وقاطني ممالك أوروبا البيزنطية . أو الإمبراطورية الشرقية "الروم" . نقلاً عن: - Abolala Soudavar: Art of the Persian courts; selections from the Art and History Trust collection. With a contribution by Milo Cleveland Beach. New York,1992 , pp. 395-397

xiii) . **(*) . فرنگي سازي:** يعني هذا المصطلح اسم "صاحب الاتجاه الغربي في الفن" ، وهو مصطلح غير كامل ؛ لأنه يعبر عن الرؤية السطحية للفنون الغربية . وقد عرف هذا النمط الفني بين الفنانين الهنود والإيرانيين منذ منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. خلال العصر الصفوي تسلل أسلوب رسم الطبيعة الأوروبية إلى إيران عبر مجموعة من الفنانين الذين تعلموا قواعد الرسم وأساسيات ومبادئ رسوم الطبيعة الأوروبية ، وأبدوا اهتماماً بالغاً في تقليدها ، ففي عهد الشاه "عباس الأول" كان السفراء ومبعوثي الدول الأوروبية يحضرون معهم من بلادهم هدايا ، كان من بينها لوحات من عمل فنانين أوروبيين ، وكانت تلقى الاستحسان من الشاه ورجال البلاط ، فعمد فنانوا البلاط إلى محاولة تقليد مثل هذه الصور ، وكان من بين هؤلاء الفنانين الفنان"عليقلي" حتى وصل لقمة النضج في عهد الشاه عباس الثاني ؛ ومنذ ذلك الحين وظهر الاتجاه الذي يدعو إلى اتباع النمط الإفرنجي في الرسم ، ومن ثم دخل الاسلوب الغربي فرنگي سازي إلى الفن الإيراني ، ووصل إلى مرحلة من الكمال مع الاحتفاظ بجوهرها الثقافي. نقلاً عن: پاكباز، روئين: دايره معارف هنر، ص.371 & . آژند، يعقوب: نگارگرى اصفهان، انتشارات فرهنگستان هنر، تهران، 1385هـ، ص.185& امين، زهرا مسعودى: فرنگى سازى در نگارگرى

مكتب اصفهان، رويكردي فرهنگي، پژوهشي، پژوهشكده هنر معمارى وشهر سازى نظر، باغ نظر، تهران، شماره 38 ، سال سيزدهم فروردين واردى بهشت، 1395هـ، ص ص.36 . 46

xiv) . آژند، يعقوب:علي قلي بگ جبه دار، ص. 88

xv) . كريمزاده ، محمد علي تبريزي: احوال واثار نقاشان قديم ايران، ج.1 ص. 11

xvi) . آژند، يعقوب: "احوال واثار محمد علي بيك نقاشباشي" نشريه هنرهاي زيبا، السنة 17، العدد49، 1391م، ص. 58

xvii) . (*) . **ميرزا مهدي خان استرابادي :** هو المستشار والكاتب . السكرتير. والمؤرخ البلاطي ، والذي شغل منصب الصدر الأعظم . أي . رئيس الوزراء في بلاط "نادر شاه الإقشاري"، كان من أشد المعجبين بالفن والفنانين ومن أكبر الرعاة الفنيين آنذاك ، وكان له فضل كبير في ضم الرسام "محمد علي بيك" إلى بلاط نادر شاه ، كما قام بوضع عدد من المؤلفات التاريخية التي تؤرخ جيداً لعهد نادر شاه الإفشاري، وعندما قتل نادر شاه على يد مجموعة من القزلباش ، نقله ميرزا مهدي خان إلى استراباد ليدفن بها ، والتي ظل بها حتى وفاته .نقلاً عن: آژند، يعقوب: "احوال واثار محمد علي بيك نقاشباشي، ص. 58

xviii) . آژند، يعقوب: "احوال واثار محمد علي بيك نقاشباشي" ، ص. 63

xix) . كريم زادهء تبريزي، محمد علي: احوال واثار نقاشان ايران قديم، مج.2 ، ص. 918

xx) . آذربيگدلي، علي أصغر: آتشكدهء آذر، به اهتمام هاشم محدث، امير كبير، تهران، 1378، ص. 384

xxi) . يعقوب، آژند:"كارستان محمد باقر" ، نشريه هنرهاي زيبا، هنرهاي تجسمي، السنة الـ20 ، العدد4 ، زمستان، 1396 هـ.ق، ص.28

xxii) - Khalili, Nasser & Robinson, B.w.& Stanley, Tim: Lacquer of Islamic lands, The Nasser Khalili Collection of Islamic art, Vol.12, 2parts, The Nour foundation, 1997 ,P.90

xxiii) . يعقوب، آژند:"كارستان محمد باقر"، ص. 28

xxiv) . آتاباي، بدري: فهرست مرقعات كتابخانه، ص ص.278 . 279

Adamova, A., 'Muhammad Qasim ', 193–212) . xxv

xxvi) .كريم زادهء تبريزي: احوال واثار نقاشان ايران قديم، ج.2، ص.663

Adamova, A., 'Muhammad Qasim ', 193–212) . xxvii

xxviii) . اعتماد السلطنة : تاريخ منتظم ناصرى، تصحيح محمد اسماعيل رضواني، جلد 3 ، دنياي كتاب، تهران، 1367هـ.ق، ص.1425

xxix) . Khalili, N.: Land of Lacquer, Pp. 222 – 223

xxx) . يعقوب، آژند:"كارستان محمد باقر"، ص. 30

xxxi) . كريم زادهء تبريزي: احوال واثار نقاشان ايران قديم، ج.3، ص.1372

xxxii) . (*). **گل بستان:** أحد الألقاب التي حملها عدد من المصورين الإيرانيين، وهو ذا مغزى ديني في المعتقد الشيعي ، ومن بين الفنانين الذين تلقبوا بهذا اللقب كان الفنان محمد قاسم بن محمد ابراهيم ، والفنان محمد حسن بن محمد باقر. نقلاً عن : تبريزي، محمد علي كريم زاده: احوال وآثار، ج. 3، ص. 1061

xxxiii) . رستم الحكماء، محمد آصف: رستم التواريخ ، چاب محمد مشيري، اميركبير، تهران، 1359هـ.ق، ص.410

xxxiv) . آژند، يعقوب: "احوال واثار محمد علي بيك نقاشباشي"، ص. 61

الكاتب: ط.د/ كوثر هاشم
جامعة الشّهيد حمّة لخضر / الوادي

عنوان المقال: إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائرين في الدّفاع عن العدالة الاجتماعيّة من خلال مجلّة الشّهاب (1931-1939)

البريد الالكتروني: hachem-kaouthar@univ-eloued.dz

تاريخ الارسال: 2019/02/12 تاريخ القبول: 2019/02/26 تاريخ النشر: 2019/03/28

إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائرين في الدّفاع عن العدالة الاجتماعيّة من خلال مجلّة الشّهاب (1931-1939)

الملخص بالعربية:

تتطرّق هذه الدّراسة لمساهمة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائرين في الحراك الاجتماعي الوطني إبّان الفترة الاستعماريّة، ودورها في الدّفاع عن قضايا الجزائريّين في بعدها الاجتماعي والاقتصادي، على غرار الجانب الثّقافي والدّيني والسّياسي، خاصّة مسألة العدالة الاجتماعيّة، التي تعدّ من أسمى القيم الإنسانيّة التي افتقدها المجتمع الجزائري بسبب النّظام الاستعماريّ الشّرس منذ 1830، وبفعل تزايد وتيرة نموّ الوعي في الأوساط الجزائريّة، أصبحت هذه الأخيرة تنشد تحقيق العدل في جميع المجالات، باعتباره ركيزة أساسيّة من ركائز الإصلاح والتّغيير الإيجابيّ لأوضاعهم، وهو ما تبنّته جمعيّة العلماء المسلمين الجزائرين في نضالها ضدّ السّياسات الفرنسيّة المختلفة، والذي سيكون موضوع بحثنا هذا، وذلك بالوقوف على ما تضمّنته مجلّة الشّهاب بين سنتي 1931- 1939، والتي تعتبر إحدى أهمّ المصادر التي تكتنز بين طيّاتها الزّخم الهائل من تاريخ الجمعيّة ومسار مقاومتها العام.

كلمات مفتاحية: الحركة الإصلاحيّة – العدالة الاجتماعية – المجتمع الجزائري – الأندجينا – المساواة – النّضال العمّالي

Abstract :

This study deals with the contribution of the Association of Algerian Muslim Scholars in the national social movement during the colonial period and its

role in defending the Algerian issues in its social and economic dimension, such as the cultural, religious and political aspects, especially the issue of social justice, which is one of the highest human values that Algerian society has missed. The fierce colonial system since 1830, and the growing pace of awareness in Algerian circles, the latter sought to achieve justice in all areas, as a cornerstone of reform and positive change for the Which was adopted by the Association of Algerian Muslim Scholars in its struggle against various French policies, which will be the subject of our research, by taking into account the contents of Al-Shehab Magazine between the years 1931-1939, which is one of the most important sources that combine the enormous momentum of the history of the Assembly and the path General resistance.

Key Words: Reform movement - Social justice - Algerian society - Andijina - equality - Labor struggle.

مقدّمة :

شكّلت العديد من قضايا المجتمع الجزائري هاجسا مؤرّقا لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، والذي أخذ حيّزا هامّا من تفكيرها واهتماماتها، وقد أدركت في وقت مبكّر حاجته للتّغيير والإصلاح والنّهوض خاصّة مع الغبن والمعاناة التي كان يقاسيها في شتّى مجالات الحياة، التي تمخّضت أساسا عن الممارسات الاستعماريّة الفرنسيّة التي قامت على العنصريّة والظّلم، فكرّست الفقر، والجوع، والإجحاف، والتّهميش، والإقصاء للعنصر الجزائري المسلم صاحب الأرض والحق، لصالح العنصر الأوربيّ الدّخيل.

ولمّا كان هدف الجمعيّة ترقية المجتمع الجزائري، وإصلاحه والمحافظة على هويّته ووجوده، سعت جاهدة للمطالبة بحقوقه، وعملت من أجل إرساء

العدالة الاجتماعيّة، وسخّرت لذلك مختلف الوسائل، وأبرزها صحافتها كالمنتقد والشّريعة والصّراط والبصائر، والشّهاب التي أسهمت بشكل جليّ في إصلاح الفرد الجزائري، والارتقاء بأوضاعه، وإعداده إعدادا يليق بدوره المنتظر، لخوض معركة التحرّر والاستقلال.

وقد جاءت هذه الدّراسة بهدف إبراز جانب آخر من جوانب مشروع جمعيّة العلماء الإصلاحي الذي مسّ مختلف مشاكل الجزائريين، وراعت من خلاله وضعيّتهم السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية والثّقافيّة، ألا وهو قضيّة العدالة الاجتماعيّة، وذلك بالاعتماد على المنهج الوصفي التّحليلي، انطلاقا من عدّة تّساؤلات :

-ماهي قيمة مجلّة الشّهاب؟.

-ما مفهوم العدالة الاجتماعيّة عند أقطاب ورجالات الجمعيّة؟.

-وكيف صوّرت جمعيّة العلماء واقع المجتمع الجزائري في صحافتها؟.

-ما هي جهودها لتعزيز وإرساء العدالة الاجتماعيّة؟.

1-مجلّة الشّهاب:

مثّلت الشّهاب إحدى أهمّ الصّحف الوطنيّة إبّان الفترة الاستعماريّة، نظير ما قدّمته لنهضة المجتمع الجزائري، وخدمة مختلف القضايا الوطنيّة، وقد كانت اللسان النّاطق للحركة الإصلاحيّة التي تزعّمها الإمام عبد الحميد بن باديس في بادئ الأمر، ثمّ جمعيّة العلماء المسلمين بعد تأسيسها في 05 ماي 1931 في مرحلة تالية، صدر العدد الأوّل منها في25 ربيع الثاني 1344 هـ/ 1 نوفمبر 1925 م[1]، بعدما عطّلت السّلطات الاستعمارية جريدة المنتقد[2] التي صدر آخر عدد منها في 10 ربيع الثاني 1344 هـ / 29 أكتوبر 1925 م[3].

صدرت الشّهاب أوّل الأمر في شكل جريدة أسبوعيّة، أسّسها الشّيخ عبد الحميد بن باديس، واقتفت آثار سابقتها شكلا ومضمونا، مرّة كلّ أسبوع، ثمّ

صدرت يومي الاثنين والخميس لمدّة 04 سنوات، أين واجهت الجريدة أزمة ماليّة كادت تقضي عليها[4]، فتحوّلت إلى مجلّة شهريّة ابتداء من رمضان 1347 هـ/01 فيفري 1927 م[5]، وقد شملت تغييرات على مستوى الشكل والحجم وعدد الصفحات ابتداء من 16 ديسمبر 1926، فأصبح حجمها 28 × 19 بعد أن كان 55× 40، و06 صفحات ثمّ 08 ثمّ 16 صفحة لتطبع في سنة 1929 على 36 صفحة بعد أن كانت تطبع على 04 صفحات فقط[6].

اختصر صاحب الشّهاب طبيعتها واهتماماتها في وصف وضع على غلافها على أنّها " جريدة سياسيّة تهذيبيّة انتقاديّة، شعارها **الحقّ فوق كلّ أحد و الوطن قبل كلّ شيء** "[7]، وعندما تحوّلت إلى مجلّة غيّر وصفها فكتب عليها " مجلّة إسلاميّة جزائريّة شهريّة تبحث في كلّ ما يرقي المسلم الجزائري لمنشئها عبد الحميد بن باديس "، وشعارها " مبدؤنا في الإصلاح الدّيني والدّنيوي – **لا يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلح به أوّلها** " – مالك بن أنس، ثمّ يضيف " **الحقّ والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات** "[8]، وفي غلاف المجلّة كتبت أربعة أركان : الحريّة – العدالة – الأخوّة[9] والسّلام[10].

ومع عودة وفد المؤتمر الإسلامي سبتمبر 1937 [11] الذي كان من ضمنه الشّيخ عبد الحميد ابن باديس، قام بحذف شعار المجلّة المكتوب في أسفل الغلاف الخارجي، وهو " الحق ، العدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات "، وعوّضه بشعار آخر يدلّ على يأسه من فرنسا الاستعماريّة ومن كلّ خير يرجى منها للشّعب الجزائري بواسطة النّضال السّلميّ وحده [12]، وهو " لنعوّل على أنفسنا ولنتّكل على الله "[13].

تولّى الشّيخ ابن باديس رئاسة تحريرها، وتكييف مناهجها، ولم يتم التّصريح بذلك إلّا مع صدور العدد 49 بتاريخ 10 صفر 1345 هـ[14]/ 13 ديسمبر 1926 ليصبح مديرها منذ 03 جانفي 1929 م بعد أن أعلن أنّه يغطّي عجزها المالي من

ماله الخاص[15]، وعقب ظهور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أضحت الشّهاب أداتها في نشر دعوتها، وتطهير الإسلام من البدع والخرافات التي ألصقت به، ومواجهة المشاريع الاستعماريّة من تنصير، وتجنيس، وتغريب، وإدماج، حيث جنّدت كتّابها لتحقيق الأهداف التي سطّرتها منذ بزوغ فجر الحركة الإصلاحيّة في الجزائر بدايات القرن العشرين.

كانت المجلّة تقدّم موادها المختلفة في عدّة أبواب، من بينها باب " في المجتمع الجزائري"، وأكثر ما نشر فيه بدون إمضاء هو من تحرير الشّيخ ابن باديس[16]، إضافة إلى الكثير من الأقلام الأخرى مثل:" كاتب كبير"، و" باعزيز بن عمر "[17]، و" العربي التبسّي "، فضلا عن وجود غيرها من الأسماء التي ساهمت بآرائها وأخبارها وكتاباتها في هذا الباب من مختلف أنحاء الوطن، كمحمّد الطّاهر بن بلقاسم في حديثه عن طليعة الإصلاح بقمار[18] من ناحية الوادي، ممّا يدلّ على الانتشار الواسع للمجلّة من جهة، واهتمامها بكلّ ما يخصّ المجتمع الجزائري في كل جهة من الوطن .

استمرّت المجلّة في الصّدور حتّى عام 1939 م، عندما أوقفها الشّيخ ابن باديس بنفسه عشيّة إعلان الحرب العالميّة الثّانيّة(1939 – 1945)، لأنّه رفض أن تكون أداة في يد الإدارة الاستعمارية التي وضعت الصّحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب[19]، واستطاعت خلال 14 عاما أن تحدث تأثيرا عميقا في الصّحافة العربيّة بالجزائر في فترة ما بين الحربين[20].

2-مفهوم العدالة الاجتماعيّة عند روّاد الجمعيّة :

ولما كان الإسلام هو أصل الأفكار الإصلاحية ومرجعيّتها الكبرى، فقد نظر المصلحون الجزائريون للعدالة الاجتماعيّة من منظورها الإسلامي على أنها عدالة إنسانيّة شاملة لكل جوانب الحياة ومقوّماتها، وهي تتناول جميع مظاهر الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والقانونية والسياسيّة، وجوانب النشاط فيها، كما تتناول الشعور والسلوك والضمائر والوجدانات والقيم المادية والمعنويّة

والروحيّة جميعا، وليست مجرّد عدالة اقتصاديّة محدودة[21]، كلّ ذلك بغية تحقيق هدف أعلى وهو إنصاف الفرد، وإنصاف المجموع الذي ينجم عنه سعادة الفرد والمجموع على حدّ سواء[22]، فنجد الشّيخ مبارك بن محمّد الميلي قد عرّفها بقوله: " العدالة ميزان اجتماعي تجرّد فيه الموزونات عن كلّ المميّزات ويتساوى أمامه الأنذال وذوو الهيئات، العدالة حقّ يطلبه الضعيف من القويّ ونصير يفزع إليه المظلوم وحصن يلجأ إليه الخائف، وأمام العدالة تلغى كلّ المراتب والمقامات ويتساوى الجميع ولا وجود للفروقات وهي في ذات الوقت حقّ من الحقوق الإنسانيّة المنشودة التي يطلبها الإنسان الضعيف الذي لا حول له ولا قوّة من القويّ صاحب القوّة والسّلطان"[23]، أي أنّها نظام اجتماعي يتمّ من خلاله تحقيق المساواة بين جميع أفراد المجتمع في حقوقهم المختلفة كالعمل والثروة والتعليم والصحافة وغيرها ممّا يؤدّي بهم إلى العيش بكرامة وإنسانيّة.

وتكمن أهميّة العدالة في نظر العلماء كونها تعتبر مصدرا تنبعث منه حريّة الاجتماع والنّشر والتّعليم والمساواة في الحقوق الشّخصيّة، فلا يحرم ذو حقّ حقّه مهما كان جنسه ودينه ولا يعطي لمن لا يستحقّ، وليس هو أهل له، ولتطبيق العدالة التي تضمن تحقيق سعادة النّاس يجب أن يتمتّع المجتمع بثلاثة عناصر أساسيّة هي الحريّة، الإخاء والمساواة، وهو الأمر الذي كان غائبا في المجتمع الجزائري بسبب عدم تطابق القانون الذي يبيّن حقيقة العدالة وآثارها وخبث الإدارة الاستعمارية المطبّقة للقوانين[24].

إنّ نظرة الإصلاحيين الإسلامية للعدالة الاجتماعية والتي تقيّدوا وعملوا بها، هو ما يفسّر رفضهم للاشتراكية وتشديدهم على ضرورة احترام الملكيّة الفرديّة، والجزائر دولة إسلاميّة تتّخذ من القرآن كقانون إلهيّ ينظّم الشّريعة وينظّم المجتمع في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتتأثّر به، ومن هذا المنطلق اعتبر الشّيخ عبد الحميد بن باديس القرآن وسنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم درعا واقيا ومصدرا لحماية هويّة الشعب الجزائري من الغرب

المستبدّ وأفكاره[25] ، ومن ثمّ كانت معارضتهم لتسرّب الفكر الشّيوعي إلى الأوساط الكادحة، كونه يتعارض مع الإسلام الصّحيح[26] ، ومفهومه للإصلاح الديني والاجتماعي، وتمسّكوا بأنّ العودة إلى الإسلام الحق كفيلة بأن تحل كافّة المشاكل التي تعترض سبيل الإنسان، لأنّ انفساح المجال في نظرة الإسلام إلى الحياة، وتجاوزه القيم الاقتصادية البحته إلى سائر القيم التي تقوم عليها الحياة يجعله أقدر على إيجاد توازن وتعادل في المجتمع، وعلى تحقيق العدالة في الدائرة الإنسانية كلها، ويعفيه من التفسير الضيق لها كما تفهمها الشيوعيّة[27] ، وجاء الرّفض مع تحديد الانتماء الديني للشّعب الجزائري، وتأكيد إسلاميّته في مقال للشّهاب بعنوان " نحن مسلمون وكفى " يقول فيه صاحبه:" إنّ الإسلام الذي ندين به ... هو دين جامع لكلّ ما يحتاج إليه البشر أفرادا وجماعات لصلاح حالهم ومآلهم ، فهو دين لتنوير العقول وتزكية النّفوس وتصحيح العقائد وتقويم الأعمال ... فلا يحتاج بعده إلى ما يتناحر عليه الأوربيّون من مبادئ أحزاب وجمعيّات ليس في استطاعة شيء منها أن يصلح حالهم لا في السياسة ولا في الاجتماع "[28].

فالإسلام دعا إلى لون من العدالة الاجتماعية وأقرب إلى الإنسانيّة من دعوات الشّيوعيّين الجامحة التي تعرقل سير الحضارة الإنسانية، فحثّ على ضرورة إشراك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرّع في مجال التنمية الاقتصادية وسائل غير الرّبا والاحتكار مثل القراض والمزارعة والمغارسة، ممّا يظهر فيه التّعاون العادل بين العمّال وأرباب الأراضي والأموال، وهي دعوة إلى العدالة الاجتماعية سبقت الدّعوات الوضعيّة بمئات السّنين[29] ، وفهم الإسلام للطّبقات ليس هو فهم أي من النّظريّات الوضعيّة، فالإسلام جاء لينتزع عنصر الصّراع من داخل المجتمع حتّى تعيش الأمّة بسلام وأخوّة فهو سعادة وطمأنينة لكل فئات المجتمع بإلغائه لسلطة المال وهيمنته وتمركزه[30] ، ومن ذلك رأى الشّيخ ابن باديس أنّ التّمايز الطبقي في الجزائر نتج عن تفكّك المجتمع الجزائري

التقليدي بسبب الاستعمار، وأنّ الصّراع الطّبقي هو انعكاس لنجاح التدخّل الأوربي في الاقتصاد الجزائري من جهة، ودليل على أنّ الأفكار الاشتراكيّة قد وجدت أرضيّة ملائمة وآذانا صاغية بين الجزائريين، وهو ما جعله ينتصب لمواجهتها، وإرساء الإيديولوجية الاجتماعية الإسلامية التي تقوم على نبذ الصراع الطبقي[31]، ولم يلم الشيخ الايديولوجيات الخارجية بقدر ما لام قصور الجزائريين في اتّباع تعاليم الاسلام وتطبيقها، فقد أشار في الشّهاب إلى ارتكاب الموبقات، وانتشار ممارسة العديد من الخطايا الاقتصادية التي حرّمها الدّين، كالرّبا، والقمار، واستغلال العمّال، وعدم أداء الزّكاة[32]، وأدان أنانية عدد من الجزائريين الذين امتنعوا عن التصدّق ومساعدة المحتاجين[33]، وهو ما جعل جمعية العلماء تعمل على تصحيح الوضع، وعلاج الواقع الاجتماعي والاقتصادي وإصلاحه، ولا يكون ذلك إلّا ببثّ الروح الاجتماعيّة في الطبقة المفكّرة من الشعب كونها بمثابة علاجات وقتية، ووسائل أوليّة لدعم أسباب الرقي الاجتماعي، وحثّ الشّعب على إصلاح نفسه وتقويمها، وتثقيفها، وتنمية موارد حياته الاقتصاديّة، ثمّ إذا أدرك كلّ فرد مسؤوليّته في ترقية نفسه وأسرته ماديّا وأدبيا سهل على المصلحين التدرج به في مدارج الرقي الاجتماعي والاقتصادي وغيره[34]، فيرقي الفلاح فلاحته والصانع صناعته والتاجر تجارته، لأنّ نهضة الأمّة منوطة بنهضة الفرد[35].

3- توصيف جمعيّة العلماء لواقع المجتمع الجزائري:

لم تكن صحافة الجمعيّة منبرا حرّا للفكر والعلم والثّقافة فحسب، بل سلاحا لمواجهة المستعمر الفرنسي وسياسته، وظّفته لإسماع صوتها، وإعلاء كلمة الشّعب والوطن، ودفاعا عن حقوقه وحريّاته، حيث أولت الشّهاب اهتمامها بقضايا المجتمع الجزائري عامّة، والعدالة خاصّة، فسعت إلى إبراز الواقع المرير الذي يعيشه الجزائري في غياب هذا الحقّ، وما انجرّ عنه، ففضحت حقيقة

المستعمر، وبيّنت كيف أنّ الجزائر في طابعها العام قد أصبحت تعاني من الرّكود والجمود، ففي الشّؤون الاقتصادية مثلا ومن خلال الفلاحة والتّجارة والصّناعة تجدها كانت محافظة على نظامها التّقليديّ، كأنّها تعيش في ما قبل الميلاد، وفي طرق التّفكير والفنون والعلوم والآداب والاجتماع كأنّها في جاهليّة قبل الإسلام[36]، بسبب قانون الأهالي " الأندجينا " الرّهيب الذي كان يحظر التحرّك الفكري والعلمي والاجتماعي والسّياسي للجزائريين، ولعب دورا خطيرا في تغليف الوضع المتخلّف[37] من ناحية، وعبث بعض الولّاة بالقوانين، وجشع غالبيّة المستعمرين الذين كانوا يرون في يقظة الجزائري، وتفطّنه أشدّ عليهم من بلاء نزول البرد على غلّاتهم ومن كلّ جائحة، حتّى عبّر أحد المعمّرين ذات يوم عن ذلك بقوله: " إذا وجدت عربيّا – أي جزائريّا- وأفعى فاقتل العربيّ "[38].

وفي إطار عنايتها بالجانب الاجتماعي، اختصرت مجلّة الشّهاب سنة 1932 حال الأهالي الجزائريّين الذين أصبحوا يحتلّون في وطنهم المراكز الدنيا من السلّم الاجتماعي بقولها: " إنّ حالة المسلمين قد أصبحت في هذه الأوقات أقرب إلى اليأس منها إلى الرّجاء ... إنّ الكثير والكثير جدّا من رجال البوادي والقرى أصبحوا لا يتحصّلون على ما يسدّ الرّمق وصار شبح المجاعة الرّهيب يهدّدهم كل صباح وكلّ مساء"[39]، وتتعجّب الشّهاب من " إقدام الإدارة على تشريد كتلة كبرى من العرب – الجزائرين – في العمالة الوهرانيّة ونزع أرضهم بين أيديهم، وتركهم يعزّزون جانب الجند العرمرم من العاطلين المتشرّدين الذين لا لهم مأوى ولا يملكون في الحياة متاعا، ويقع ذلك في وقت اشتدّت فيه الضّائقة بالمسلمين الجزائريين إلى درجة أنّهم أصبحوا يأكلون الميتة ...ولا يجدون دثارا يقيهم شرّ البرد الزّمهرير"[40]، وهو ما أدّى بالمنظّمات الدّوليّة إلى القول: "إنّ مستوى المعيشة في الجزائر بالنسبة للجزائريين يعتبر أحطّ مستوى في العالم كلّه "[41].

وفي صورة أخرى، عانى الجزائريّ من حظر التّفكير ومنع الاجتماع والنّشر، فإذا طلب حريّة التّفكير قالوا عنه شيوعي، وهو مسلم لم يرض التّجنيس، فأصبح

عرضة لتهديدات الإدارة الاستعمارية، ومنعت الجمعيّات بحجّة أن لا فرق بين حريّة الاجتماع والثّورة[42]، وعندما ظنّ الجزائريّون أنّه أتيحت لهم فرصة النّشر لمّا أصدرت جريدة المنتقد كأداة لتهذيب الفرد الجزائري، وتطهير الدّين الإسلامي ممّا شابه من الأباطيل والمنكرات، والتي لم ينشر بها إلّا ما هو طبق برنامجها، أغلقت، وصودرت فكان آخر أعدادها في 29 أكتوبر 1925[43].

وفي مجال التّعليم وصف أحد الكتّاب مظهرا آخرا من مظاهر العنصريّة، إذ بعد المقارنة بين التّعليمين الفرنسي والعربي أوضح أنّ الأوّل متنوّع وكثير، غير أنّ نصيب الأهالي منه قليل، في حين فقد التّعليم العربي ما عدا 03 مدارس فيها من العربيّة النّزر اليسير[44]، وهي المدارس التي أنشأتها الإدارة الكولونياليّة في الجزائر العاصمة، وتلمسان، وقسنطينة، لتخريج الإطارات الجزائريّة المرشّحة للعمل في سلك القضاء، أو التّدريس وفق ما يخدم المصلحة الاستعمارية، وكان التّعليم فيها باللغتين العربيّة والفرنسيّة[45]، إضافة إلى أنّها لم تكن مفتوحة باستمرار أمام التلاميذ الجزائريين، بسبب رفض الكولون لذلك، حيث كان يرى أنّ تعليم السكّان الأصليين يمثّل خطرا حقيقيّا يهدد وجود ومصالح المعمّرين من النّاحية الاقتصادية، ومن ناحية توطينهم في الجزائر، لذلك طالبوا في كلّ مرّة بإلغاء التّعليم الابتدائي لأبناء الجزائريين[46].

وأمام هذه السّيطرة واحتكار الفرنسيين والمعمّرين للمدارس، كانت المساجد وجهة أبناء الأهالي، غير أنّ التّدريس فيها كان بطرق تقليديّة، إذ لا يتحصّل التلميذ منها بعد أمد طويل إلّا على حفظ كلمات دون فهم معناها[47]، كما كانت الإدارة الاستعمارية لا تسمح بفتح مدرسة قرآنيّة إلّا بشروط مهينة، تنتهي بأن تجعل هذا التّعليم خدمة لخطّتها الجهنّميّة[48]، وبالمقابل تجد حالة المعمّرين على عكس الأهليّ، إذ تدار شؤون المدارس الفرنسيّة والفلّاحون والمعمّرون والتجّار من غير المسلمين بأحدث نظام وأفضل حال[49]، وقد شهد شاهد من أهلها فأوجز وصفه لاحتكار البرجوازية الاستعمارية لثروة البلاد، وهو جان ميليا (

jan milia)[50] أحد الكتّاب الفرنسيين قائلا :" إنّنا إذا دقّقنا البحث لابدّ لنا أن نكشف السّتار عن تلك الثّروة الطّائلة التي جمعتها ثلّة قليلة من النّاس بينما البؤس الهائل مخيّم والفقر ضارب أطنابه في سائر الأوساط الإسلاميّة العامّة، وأصبح الأهالي عبارة عن طبقة هائلة من العملة المأجورين "[51]، الذين سلبت أدنى حقوقهم، حيث كان يحرم العمّال الجزائريّون الذين يعملون في الزّراعة من أيّة منحة عائليّة، وحتّى إذا تحصّل العمّال في الصناعة والتجارة على منح عائليّة فإنّها لا تكاد تعادل 3/1 المنح التي يستفيد منها نظراؤهم من الفرنسيين في نفس المهنة[52].

وأمّا عن المساواة في الحقوق الشّخصيّة فأغلبها ارتبط بقضيّة التّجنيس التي رفضتها الأغلبيّة السّاحقة من الأهالي[53]، حيث نشطت الدّعوة إلى تجنيس[54] الجزائريين وخصوصا النّخبة المثقّفة بالجنسيّة الفرنسيّة تمهيدا لإدماجهم[55] في الأمّة الفرنسيّة عقب الحرب العالميّة الأولى (1914 – 1919)، إذ أغلقت فرنسا كلّ أبواب الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافيّة في وجه الجزائريين، إلّا الذين يقبلون المواطنة الفرنسيّة[56]، ورغم تبنّي حكومة الجبهة الشّعبيّة الفرنسيّة مشروع بلوم فيوليت جوان 1936، الذي قضي بمنح الجنسيّة الفرنسيّة للجزائريين مع حريّة احتفاظهم بجنسيّتهم الأصليّة وأحوالهم الشّخصيّة[57]، إلّا أنّها لم تنجح في ذلك، وقد تأكّدت هذه الفكرة أكثر بعد عودة وفد المؤتمر الإسلامي من باريس صيف 1936[58]، وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس الذي تفطّن وتيقّن بأن لا جدوى من الحكومة اليساريّة فأزاح شعار" الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات " ورفع شعارا جديدا وأكثر تعبيرا عن ضرورات المرحلة ومتطلّباتها وهو" لنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله"[59].

ومن جهة أخرى، وكصورة أخرى من صور اللّامساواة التي انتهجها الاستعمار الفرنسي، وفي الوقت الذي ملّ فيه الجزائريون من الانتظار، وسئموا حالة

الرّكود والجمود الذي استولى على قضاياهم السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية والدينية منذ أمد بعيد، قامت الحكومة الفرنسيّة بزعامة المسيو سارو بنصرة يهود سيدي بلعباس في عمالة وهران، الذين كانت قد أصدرت ضدّهم المحكمة الفرنسيّة قرارا يقضي بمنعهم من حق المشاركة في الانتخابات التشريعيّة، والذين تفرنسوا بموجب قانون كريميو 1871، فانتفض لهم سارو وأصدرت المحكمة قرارا أرجع لهم بصفة قانونيّة ما فقدوه بصفة قضائية عدليّة[60]، ذلك أنّ فرنسا كانت تجاه القضايا الإسلامية في الجزائر والشمال الإفريقي عامّة تكيل بمكيالين، وتزن بميزانين مكيال واف، وميزان راجح لذوي السلطة والنفوذ والمال والجاه العريض من الماليين الفرنسيين والمتفوّقين من الماليين اليهود، أمّا التّطفيف والإجحاف ففي كفّة المسلمين الذين لم يستطيعوا أن يكونوا قوّة ماديّة فعّالة، ترفع صوتهم عاليا ضمن النظام الجمهوري، وفي دائرة القوانين الموجودة وتجعل الجميع سواء في فرنسا أو في الشمال الإفريقي[61].

4- جهود جمعية العلماء في تعزيز العدالة الاجتماعية:

تعرّض علماء الإصلاح والجمعية إلى جملة من الانتقادات فيما تعلّق بعنايتهم بالقضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة للجزائريين، فرأى بعضهم أنّ التزامهم بالدعوة الإصلاحية جعلت أفكارهم الاجتماعيّة أسيرة العقائد الكلاسيكيّة، وبالتالي فإنّهم لم يحاولوا الخوض في المسائل الماديّة أو المسائل الاقتصاديّة، وأنّهم لم يتمكّنوا من درس البنية التقليدية للمجتمع الجزائري دراسة علميّة، ومعالجتها بالمعطيات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي طلع بها القرن العشرون، وما ساعد على ذلك أنّهم لم يكونوا مؤهّلين علميّا ولا سياسيا لمثل هذه الدّراسة، وفي تحليله لمدى اهتمام الحركة الإصلاحيّة بقضيّة العدالة الاجتماعية ذهب الأستاذ علي مرّاد إلى أنّ الحركة الإصلاحيّة لم تحاول تفهّم النّضال العمّالي من خلال علاقة العامل بربّ العمل خاصّة بعد تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين

الجزائريين، وعدم نضالها من أجل تحسين مستوى معيشة الجماهير العمّاليّة، وعدم انتقادها للرّأسماليّة الإسلاميّة في الجزائر، وعدم شنّها حربا ضروسا ضدّ الفقر، ورأى أنّ الدّافع الذي جعل المصلحين يتّخذون هذا الموقف السّلبي من الطّبقة العمّاليّة هو ارتباط الحركة الإصلاحية وازدهار أعمالها ومؤسساتها أكثر بسخاء الأسر البرجوازيّة الإسلاميّة في الجزائر أكثر من الاشتراكات المحدودة التي كان يساهم بها الشّعب البسيط [62]، واستند في تدليل ابتعاد العلماء المصلحين عن النّضال الاجتماعي أنّهم لم يحاولوا الاهتمام بالانتفاضات الاجتماعية التي شهدتها الجزائر عام 1933، كما أنّها لم تنظر بعين الاعتبار إلى قضايا الطّبقة الكادحة المتواجدة في المدن الرّئيسيّة، ولم تكترث لأحوال الفلاحين المزرية التي أدّت إلى أحداث شهر أوت 1934 [63]، وتبنّت جمعيّة العلماء الرّواية القائلة بأنّ المتظاهرين المسلمين كانوا مدفوعين من قبل محرّضين [64].

لقد كان تقييم أصحاب هذه الرؤية لتناول الجمعية لقضيّة العدالة الاجتماعية ونضالها من أجل تحقيقها مبنيّا على قاعدة إيديولوجيّة فسّرت العدالة الاجتماعيّة تفسيرا ماديّا ضيّقا، كما نظرت لها الشيوعيّة وتعني المساواة في الأجور التي تمنع التفاوت الاقتصادي [65]، وهي عادة المحلّلين اليساريين في البلاد الإسلاميّة الذين كثيرا ما" يتحرّكون مع القضايا بحس تجزيئي ضيق الأفق، لا يستوعب قوانين الصّراع والمعركة الدّائرة بين كلّ وجود الأمّة الاقتصادي والثقافي والحضاري، وبين الوجود الاستعماري اقتصاديا وثقافيا وحضاريا، وحصروا العمليّة الاستعماريّة لبلادنا في العامل الاقتصادي، على اعتبار أنّ الاستعمار إفراز طبيعيّ للوضع الرّأسمالي مغفلين كلّ الأبعاد الأخرى والرّئيسيّة في هذه العمليّة " [66]، على عكس رؤية جمعيّة العلماء لها والتي كانت أشمل وأوسع، ضف إلى ذلك أنّ جمعيّة العلماء كانت من فئة الفقراء ماعدا بعض الشّخصيّات القياديّة التي أنفقت كلّ ما في وسعها للجمعيّة ولمدارسها، وأنّ رفض الإصلاحيين للنّظريّات الاجتماعية الغربيّة كان رفضا حضاريا واعيا،

مركّزة عملها على إصلاح العقيدة، والثقافة والعلم وضرورة إدراك أنّ الجزائر ليست فرنسا، وذلك لمواجهة الحالة الاستعمارية التي برحيلها ستجرّ معها كلّ المآسي التي ألحقتها بالمجتمع الجزائري[67].

كما أنّه ومع إمكانيّة الأخذ بوجهة النّظر السّابقة ولو بشكل نسبي لا يمكننا أن نسلّم بذلك مطلقا وأن نغفل أو نتجاهل دور الجمعية وسعيها لتحقيق العدالة الاجتماعية، فإذا كان المصلحون لم يجاهروا ولم يتبنّوا المطالب العمّاليّة صراحة وجهدا أو في أسسهم فقد يكون ذلك من ضمن استراتيجيّات الحركة الإصلاحيّة الإسلاميّة التي كانت تتوخّى الحذر والحيطة خاصّة في علاقتها مع التيّار الشّيوعي، وقد رأينا سابقا كيف يتّهم الجزائري بانتمائه للشيوعيين لمجرّد المطالبة بحريّة التّفكير، فما بالك بالمطالبة بأكثر من ذلك، فضلا عن أنّ برنامج الإصلاحيين غلب عليه الطابع الدّيني والثّقافي، ولعلّهم رأوا أنّ الخوض في هذه الأمور المتعلّقة بالعمال هو تدخّل في شؤون الإدارة الاستعمارية، وهو ما كانت تتفاداه الحركة حتّى لا تصطدم بها، وتكون عواقب ذلك وخيمة، فتواجه العراقيل التي قد تؤدّي إلى إيقاف عمل الجمعيّة في حدّ ذاتها أو على الأقل تضربها بقوانين تعسّفيّة مثل ما كانت تقابلها به في كلّ مرّة، وهو ما كان الإصلاحيّون في غنى عنه، خاصّة مع تفاقم الوضع في الجزائر وتركيزهم على النّهضة التّعليميّة التي بها سيتمّ توعية العقول، وإنارة السّبل لهم حتّى يتمكّنوا بعدها عندما تحين لهم الفرصة من إعلاء صوتهم، والمجاهرة بالمناداة بحقوقهم، والدفاع عن كلّ ما يتعلّق بوطنهم وهويّتهم.

ورغم ذلك نجد أنّ العدالة الاجتماعيّة كانت على رأس القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة استقطبت اهتمام علماء الجمعيّة الذين حملوا على عاتقهم مهمّة الانخراط والمشاركة في النّقاش المجتمعي العام، فبالعودة إلى قانونها الأساسي نجد أنّها بيّنت سبب اعتمادها الإسلام لأنّه يدعو إلى الأخوّة الإسلامية بين جميع المسلمين، ويذكّر بالأخوّة الإنسانية بين كلّ البشر، ويسوّي في الكرامة البشريّة

والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس، والألوان، ويفرض العدل فرضا عامّا بين جميع النّاس بلا أدنى تمييز، ويدعو إلى الإحسان العام، ويحرّم الظّلم بجميع وجوهه وبأقلّ قليلة من أيّ أحد على أيّ أحد من النّاس، ويمجّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلّها على التّفكير، وينشر دعوته بالحجّة والإقناع لا بالإكراه، ويترك للناس حرّية دينهم يفهمونه ويطبّقونه كما يشاءون، ويسوّي بين الفقير والغنيّ، ويدعو إلى رحمة الضّعيف، فيكفي العاجز ويعلّم الجاهل ويرشد الضال، ويغيث الملهوف وينصر المظلوم ويوخذ على يد الظّالم كما نجدها في شعارات صحافتها على رأسها الشهاب قد أدرجت شعارات تصبّ كلّها في موضوع العدالة والمساواة مثل " الحقّ فوق كلّ أحد والوطن قبل كلّ شيء "[68]، و"الحقّ والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات"[69] وفي غلاف المجلّة كتبت أربعة أركان ؛ الحريّة – العدالة – الأخوّة[70] والسّلام[71]، ودائما ما كانت جمعيّة العلماء تصرّح وتؤكّد على هدفها الأسمى وهو التقدّم في سبيل ترقية المسلم الجزائري والدّعوة إلى العدل والإحسان والألفة والرحمة بين جميع الساكنين في القطر الجزائري[72].

إنّ المتتبّع لصحافة الجمعيّة يجد أنّها وظّفت فضلا عن دورها التعليمي والتثقيفي والتوعوي، للمطالبة بحقوق الجزائريين، وتحقيق العدالة والمساواة العامّة بين الجزائريين أنفسهم أو بين الجزائريين والمستعمرين خاصّة منهم الطبقة البروليتاريّة، ولم تتوان في الكشف عن الوجه الحقيقي لأرباب العمل، وانتهاكهم لحقوق العمّال، لذلك خاطب الشيخ عبد الحميد بن باديس الإدارة الفرنسيّة منوّها إلى أنّ فوز بعض الجزائريين في امتحانات التوظيف في الإدارات مثل نجاح السيّد محمّد بن معيزة في الامتحان على كثيرين من رفقائه الفرنسيّين بإدارة البريد دليل على أنّ الجزائريين فيهم من الكفاءة والاقتدار ما يجعلها تدخل عمّالا منهم في دوائرها وتقلع عن الميز الممقوت والإهمال المبغض لهم[73]، كما نشرت الشّهاب أيضا مقالا لمصطفى بن شعبان عنونه بـ " نقابات العمّال(

في سبيل الحياة)" وصف فيه حالهم والظّلم الذي يعانون منه إذ قال:" الشغّالون أو خدّام اليوم تشفق عليهم حتّى القلوب التي قدّت من حديد أو كانت لا تعرف حروف الإنسانيّة ... هذا النّوع من العمّال يداسون بأقدام أصحاب المعامل والعقارات والقوّة والمليارات ... وإذا طلب حقوقه مقابل عرق الجبين لا يلقون سامعا ولا مجيبا إلى أن يضطرّوا إلى الاعتصاب فتقوم قيامة الماليين ويتّهمونهم بكلّ نقيصة وتشويه سمعتهم ويصوّرونهم للحكومة على أنّهم عدوّ لها"[74].

كما نوّهت الجمعيّة بالعديد من قضايا الفلّاحين خاصّة منها قضايا الأرض، فروّجت لفكرة المطالبة باستعادة أملاك الحبوس في الفترة (1936 – 1938) التي صادرتها فرنسا بعد أن وعدت باحترامها خاصّة وأنّ عددا من الفلّاحين الجزائريين قد حبسوا أملاكهم لإنقاذها من المصادرة والحجز، حتّى لا تستولي عليها سلطات الاحتلال الفرنسيّ، ومثل هذا الموقف لا يدع أمامنا مجال للشكّ في مقاومة الإصلاحيين لعمليّة اغتصاب فرنسا للأراضي بطريقة لا شرعيّة ثمّ توزيعها على الكولون[75].

ولم تدّخر الشّهاب حبر قلم في الدّفاع عن العمّال الأهالي، فعلى سبيل المثال وبمناسبة القرض الذي قرّره مجلس النّيابات الماليّة للجزائر بقيمة 3.300.000000 فرنك، ودعت من خلاله الإدارة إلى إشراك الجزائريين في إنجاز المشاريع، كتب أحد الشّهابيين مقالا دعا فيه الجهات السلطات المعنيّة إلى الاستعانة بالعملة الجزائريين قائلا: " نرجو ونأمل من عدل الإدارة وحكمتها وسداد رأيها أن تستخدم عمّالنا المسلمين الذين أناخ عليهم البؤس بكلاكله، وحطّم أملهم في الحياة، وأن تقرّر تخصيص العمل في إنجاز هذه المشاريع بأبناء البلاد حتّى تتسرّب إلى جيوبهم بعض تلك الأموال ولو بصفة أجور وأجورهم زهيدة ، ونودّ أن لا نرى ما لا نراه بكل أسف وكدر وهو أنّ الأغلبيّة السّاحقة من اليد العاملة التي ستشغل في إنجاز هذه المشاريع الكبرى إنّما هي اليد العاملة

الأجنبيّة من إسبانيا وإيطاليا وغيرها "[76]، في حين أنّه عندما يدعي الكثير من المستعمرين أنّ حالتهم أصبحت لا تطاق بسبب الأزمات وحالة الفلاحة السيّئة تتزلزل أرض الجزائر، وتهتم الإدارة الاستعمارية وتفتح خزائن الأموال وتوزّعها عليهم دون تقتير[77] مثلما فعلت سنة 1932، حيث خصّصت لهم خزينة يقترضون منها المال وفقا لقرار رسمي على أن لا تزيد قيمة القرض عن 150 ألف فرنك للمستفيد الواحد في العمالات الثلاثة الجزائر ووهران وقسنطينة[78]، وعندما صادق مجلس الأمّة على مشروع قرض آخر خاص بمنطقة الجنوب الجزائري بقيمة 100 مليون فرنك تقدّم الشيخ ابن باديس بشكره للوالي العام ورجال إدارة الجنوب وجميع الذين سعوا للحصول على هذا القرض، وتخصيصه لجملة من الإصلاحات الكبرى التي يحتاجها، وأكّد أنّ من " الواجب على كلّ إدارة حكيمة تهمّها مصلحة السكّان وإرجاع ثروتهم التي ذهبت السنون بها، أن تعني العناية التامّة بمسألتي الواحات والمواشي وبمسألة طرق المواصلات مع تخصيص العمل لليد العاملة الأهليّة حتّى تستفيد البلاد من القرض الفائدة المطلوبة بصفة حسيّة وبصفة معنويّة أيضا"[79].

وفي نداء صريح من الشّهاب للإدارة الاستعمارية ذكّرتها فيه بحالة الجزائريين وحاجتهم لأيّ عمل يسدّون به رمقهم ورمق عيالهم، ودعتها إلى تخصيص بعض الأجور لهم، على غرار العمّال الفرنسيين والأوربيّين الذين يتقاضى المتوظّفون منهم مرتّبا يفوق بكثير مرتّب نظرائهم من الأهالي الجزائريين في نفس الوظيف، كما نشرت مقارنة بين المرتّبين حيث قدّر مرتّب الفرنسي والأوربي 1000 فرنك مع منحة الربع الاستعماري[80] وقدره 250 فرنكا ومنحة أخرى قدرها 08% بقيمة 80 فرنكا، ليصبح جملة ما يتقاضاه شهريا 1330 فرنكا، بينما الموظّف الأهلي الصّغير كان يتقاضى شهريا 700 فرنك فقط ولا يأخذ من المنح العائليّة إلّا 08% بقيمة 56 فرنكا ليصبح جملة ما يتقاضاه هو 756 فرنكا[81]، وفي الوقت

نفسه تلوم عليها اهتمامها بأوضاع المستعمرين على حساب السكّان الجزائريين المعوزّين، وهو ما ينافي المساواة والعدالة الاجتماعية .

لقد أخذ الشّيخ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكّر الذي ينظّر لمجتمعه نظاما فكريّا، بل ليكون الحركيّ الذي تحرّك طاقاته الواسعة جماهير الشعب الجزائري من حالة الكسل التقليديّة التي كانوا عليها، فلم يكتف الشيخ ابن باديس بعرض الواقع الاقتصادي للمجتمع الجزائري فحسب، لكنّه راح يحلّل مشاكله، ويبيّن علله، كمشكلة القمح التي كادت تقود الاقتصاد الجزائري إلى هوّة الخراب سنة 1932 ومشاكل الميزانية الجزائرية لسنة 1933 وحرب الخمور بين فرنسي فرنسا وفرنسي الجزائر وانعكاساتها على المجتمع الجزائري، وعن كيفية استخلاص الضرائب من الجزائريين في بعض جهات الوطن باستعمال الشدّة والعنف والظلم[82] وغيرها، وحاول اقتراح حلول للقضاء عليها مثلما حدث في أزمة 1935 عندما تعرّضت الجزائر لأزمة تكدّس القموح التي بسببها أصبح القطر الجزائري كلّه عبارة عن مملكة للمتسوّلين كان سببها تباطؤ الحكومة الفرنسيّة في مدّ يد العون للفلاحين وعجزها عن ابتكار وسائل لتخفيف ويلاتهم، فضلا عن أعمال المحتكرين وأصحاب المطاحن الكبرى خاصّة مع عجز حكومة باريس والجزائر في مكافحة تلك الحالة البائسة، وجاء ذلك بعد أن قرّرت قرضا جزائريّا بقيمة 400 مليون فرنك للمستعمرين و100 مليون أخرى لجمعيّات الاحتياط الأهليّة، عوض أن تخصّص مبلغه للانتفاع به بصفة مستعجلة في حلّ الأزمة والتّخفيف عن المصابين لكن هيهات فقد أدّى ثقل الإدارة الاستعماريّة المعتاد إلى زيادة الطين بلّة وشلّ حركة الإنقاذ[83]، وللتغلّب على هذه الأزمة وضع الشيخ برنامجا عمليّا نافعا ينقذ الفلاحة الجزائريّة ويرجع الحياة للفلاحين لو أنّ الحكومة أخذت به، تمثّل في:

1-دخول الحكومة سوق القمح بصفة مشترية.

2-تحجير دخول القمح الأجنبي للبلاد.

3-إجبار رجال المطاحن على رحي القمح الوطني فقط على أن يبتاعوه من مطامير الحكومة الخاصّة.

4-جعل نسبة نوعي القمح في الرحى إجباريًا على نسبة الموجود من النّوعين في البلاد.

5-ضرب المحتكرين من أصحاب المطاحن الكبرى ضربة قاسية ومعاقبة من يخالف أمر الحكومة منهم بغرامات ثقيلة جدًا.

غير أنّ الحكومة الفرنسيّة لم تكن لتأبه بأيّ حال من الأحوال للأهالي الضّعفاء المغلوب على أمرهم، بل إنّها أقرّت قانونا يقضي بقطع 150 ألف هكتار من الكروم إجباريًا، وهو ما انعكس سلبا على الاقتصاد والطبقة العاملة المسلمة حيث كان من ضربات ذلك القانون تعطيل نحو 200 ألف عامل جزائري عن العمل[84].

والحالة ذاتها كانت تعانيها أقطار المغرب الأخرى المستعمرة تونس والمغرب، ولم يخف الشيخ ابن باديس أسفه وتألّمه عمّا أصبح يعانيه تجار وصناع وفلاحو وأصحاب الحرف فيها من علّة وداء، وقد أرجع رأس المصائب ومنبع الشرّ في البلاد المغربيّة كلّها إلى الإدارة الفرنسيّة التي كانت تشتغل في كلّ قطر من أقطارها بالمشكل الاقتصادي من ناحيتها العموميّة في أغلب الأحيان، وأنّها تقرّر الإعانة –التي في الغالب لا تسمن ولا تغن من جوع- وطرق الانقاذ للجميع سواء كانوا من المسلمين أو المستعمرين، وبهذه الطّريقة يستأثر المستعمرون ومن ورائهم نوابهم بالمجالس التّشريعيّة والمجالس المحليّة، ولهم الكلمة المسموعة والقول الفصل بحصّة الأسد من تلك الإعانات، علاوة على مالهم من معاهد المال، وجمعيّات الاحتياط ورؤوس الأموال الطّائلة، والنّظم والتّراتيب، وطرق المعاملات، ما يجعل الإعانات تصل لهم سريعا، وفي الأوقات الصّالحة وبدون وسائط، أمّا الأهالي الذين لا حول لهم ولا قوّة فهم على عكس ذلك في خطّ مستقيم[85].

ومن بين الاقتراحات التي اقترحها لتحسين الأوضاع الاقتصادية في الأقطار المغربية:

1-اهتمام الإدارات والحكومات في بلدان المغرب بالمشاكل الاقتصادية الأهليّة.

2-تشكيل لجان مستقلّة لبحث الأحوال الاقتصادية بحثا مدققا والعمل على إنقاذ الطبقات الأهليّة ولو بواسطة قروض ضخمة كالتي كانت تعقد باستمرار للقيام بالأشغال العموميّة.

وبذلك تصان ثروة الأهلي وتمكّنه من طرق العيش والاكتساب وتنقذ الشمال الإفريقي كلّه بل وتجعله في مقدّمة بلاد العالم ثروة ورفاهية لأنّ 16 مليونا من المسلمين فيه كان يمكنهم أن يكثروا الاستهلاك، وبذلك تدور الحركة الاقتصادية حول محور متين[86].

ومن ناحية أخرى كانت الجمعيّة تثمّن وتشجّع كلّ خطوة سواء من الادارة الفرنسيّة أو ممثّلي الأهالي في المجالس، طالما أنّها كانت تصبّ في صالح الأهالي في الجزائر خاصّة والمغرب عامّة، حيث قدّم الشيخ ابن باديس شكره وثناءه إلى أعضاء المجلس الكبير في تونس والإدارة التونسيّة، واستحسن ما قاموا به حيث اقترحوا عدّة إجراءات لرفع الظلم عن الفلاحين، وتحسين أوضاعهم كإلغاء ضريبة العشر التي كانت قد أهلكت حرثهم والحط من معلوم الوسق الموظّف على التمر والدقلة[87]، والحطّ من أداء جزيرة جربة، وتعويض ذلك برفع بعض الأداءات الأخرى، وتحميل بعض المنتوجات أعباء تستطيع حملها، وقد تمّ قبولها وتطبيقها، وهو ما أدّى إلى تحرير ميزانيّة تونس، وتخفيف العبء عن الفلاحين[88]، على أمل أن تحذو الإدارة الفرنسيّة في الجزائر حذوها في تونس، فتلغي المغارم والضرائب عن الجزائريين، خاصّة وأنّ إبطال أداء العشر في البلاد التونسية قد أدّى إلى حمل بعض البلدان الإسلامية مثل سوريّا على الطلب من حكوماتهم بإلغاء المغارم والضرائب المماثلة[89].

ومن بين الدلائل أيضا على أن مطلب العدالة والمساواة كان حاضرا دائما في انشغالات رجال الجمعيّة وأنّهم لم يهملوا الطبقة العاملة باعتبارها تمثّل جزء من المجتمع الجزائري، ما تضمّنته مقترحات المؤتمر الإسلامي باسم جمعيّة العلماء حيث تمسّكت بضرورة إلغاء القوانين الاستثنائيّة والمساواة في المجالس النيابية بين الممثّلين المنتخبين الجزائريين والفرنسيين، والتمثيل البرلماني المشترك بمشاركة جميع المواطنين دون تمييز في جميع الحقوق مع الحفاظ على الشخصيّة الإسلامية للشعب الجزائري[90]، ونداء الشيخ ابن باديس الذي وجّهه للأمّة الجزائريّة، أكّد فيه عدم فعالية سياسة المطالبة والانتظار لاسيما بعد أن تبيّنت حقيقة الحكومة الشعبيّة التي لم تختلف وعودها عن سابقيها ودعاهم إلى الانتقال من سياسة الثقة إلى سياسة اليأس والتمسك بالشخصية الوطنية والمطالبة بالمساواة التامة في جميع الحقوق وأوّلها المساواة في المجالس النيابيّة[91].

وتأثّرا بالحالة المأساويّة التي كانت لا تزداد إلا سوءا والتي كان يتخبّط فيها الجزائريون سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وبسبب فشل المؤتمر الإسلامي وتصلّب الإدارة الفرنسيّة عقدت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي اجتماعا في 29 أوت 1937[92] تمخّضت عنه عدّة مقرّرات، ومن أهمّ مطالبه المستعجلة:

1.تعيين الأجر الأدنى للعملة الفلاحين بعشرين فرنكا يوميّا.

2.تنفيذ الأشغال العمومية الكبرى وجعل خزينة لإعانة العمال العاطلين.

3.إعانة الفلاحين وصغار التجّار والمحترفين.

4.حرية تعليم اللغة العربية وإيجاد المدارس الكافية للتعليم العام.

5.الحرية التامة المطلقة للوعظ والإرشاد والتعليم في سائر المساجد.

6.حرية الحج لبيت الله الحرام وحرية الصحافة والنشر.

7.إلغاء كل القوانين الاستثنائيّة[93].

ومن جهة أخرى لام الشيخ ابن باديس الجزائريين عن إهمالهم زمنا طويلا لأحوالهم الماديّة، وأكّد أنّ الرقيّ العقلي مرتبط كلّ الارتباط بالرقيّ الماديّ ودعاهم

إلى الاهتمام بحاجاتهم ومتطلباتهم الماديّة، بالمواجهة الفقر الذي هو مصدر الشرور والبلايا، فحثّهم إلى تأسيس جمعيّات صناعيّة، تكون بإشراف من هم أدرى بما يواجهه الإسلام، ويلفت أنظار العارفين والمناضلين عن الحقوق الاجتماعية والصناعية والاقتصاديّة[94]، فبيّن للجزائريين أثر الصناعة في التقدّم والمدنيّة، وأنّها أوّل لازم من لوازم العمران، وأوّل نتيجة من نتائجه، وأنّ أهميّة المصانع تكمن في الرّحمة والنّفع الذي تعود به على بني البشر، وأنّه من لوازمها أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنّه إنسان لا آلة، وانتقد الصّناعة التي إذا بنيت على القسوة فإنها لا تحمد في مبدأ ولا غاية وتصبح أدواة عذاب لا رحمة ووسيلة تدمير لا تعمير[95]، ولم يكن اهتمامه بالصناعة من الناحية النظرية فقط بل تعداه إلى الناحية العمليّة، حيث عزم ابن باديس على تكوين معمل للمصانع[96]، وفي حديثه عن العامل المخلص اعتبر ابن باديس أنّ العامل الفاضل من يتعلم حرفة فيحبّها ويجتهد في إتقانها لاسيما إن تعلّم شيئا من الصنائع التي كان يحتاجها الجزائريون وهم محرومون منها كالخياطة العصريّة والصّباغة[97]، كما كان له اتّصال بالتجار والأعيان الذين كان يحثّهم دائما على التبرع ودعم الجمعيات الخيريّة وجمعية التربية والتعليم والجامع الأخضر، فظهرت العديد من الجمعيّات مثل الجمعيّة الوداديّة للتجّار وأصحاب المعامل المسلمين في قسنطينة والتي كانت تقوم برعاية مصالح أعضائها الاقتصادية والقانونية والسياسية[98] ولمّا رأى الشيخ سيطرة المستوطنين وخاصّة اليهود منهم على التجارة والصناعة والزراعة قرّر تأسيس جمعيّة تجّار قسنطينة سنة 1934[99] برئاسة السيّد بلقاسم بوشجّة، وتأسّست على منوالها جمعيّة أمال التي ضمّت بدورها تجارًا من جميع أنحاء الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945) وكان لها نفوذ كبير في الاقتصاد الجزائري حتّى أنّ السّلطات الاستعماريّة كانت تراقب أعمالها وتحسب لها ألف حساب، حيث أصبحت الجمعيّة تستورد

من الخارج ونظّمت أعمالها برأس مال وطني، وقد ظهر أثرها على مستوى المشروعات الخيريّة من بناء المدارس والمساجد والنّوادي ومساعدة الفقراء[100].

الخاتمة:

ومن خلال ما تقدّم يتّضح لنا ما يلي :

1-مدى اهتمام النخبة الإصلاحية بالقضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة للمجتمع الجزائري على غرار قضايا التربية والتّعليم والثّقافة، ومن بينها مسألة العدالة الاجتماعيّة التي عالجتها بطريقة أعمّ وأشمل من المنظور المادي الذي تتناول به دائما، أسسها الحريّة والإخاء والمساواة.

2-إنّ نظرة الإصلاحيّين للعدالة الاجتماعيّة لم تكن نسبيّة ولا جغرافيّة فلم تقتصر على القطر الجزائري فحسب، بل تعدّت ذلك لتكون وفق منظور قوميّ إنساني شمل الشعوب المستعمرة الأخرى في بلاد المغرب والعالم كونها تعتبر حقّا من الحقوق الإنسانية التي ينشأ عليها العيش الكريم .

3-التّأكيد على الدّور المميّز الذي لعبته الصّحافة الإصلاحيّة في تصوير الحراك الاجتماعي لجمعيّة العلماء ورجالها الذين سخّروا أقلامهم للكشف عن سياسات المستعمر، التي هدفت إلى تحطيم بنى المجتمع الجزائري وتمزيق أواصره من جهة، وتوعية الفرد الجزائري بحقيقة واقعه، وكيفيّة إصلاحه، وتحريره من براثن الاستعباد والعبوديّة، وتحقيق نهضة شاملة تعصمه من الزّلل والانحراف من جهة أخرى.

4- يتبيّن لنا قصور تلك النّظرة التي تبنّاها العديد من الدارسين والتي آخذوا فيها رجال الإصلاح والجمعيّة واتّهموهم بابتعادهم عن نصرة الطبقة العاملة بمختلف فئاتها وعن مشاكلهم، وأنّ ذلك إنّما يعود لتقصير الباحثين والدّارسين الذي بنوا أبحاثهم على تصوّر مسبق، فركّزوا فيها على التوجّه الديني والثقافي للفكر الإصلاحي بدرجة أولى ثمّ على خوض المصلحين للتجربة السياسيّة بدرجة

أقل على حساب التوجّه الاجتماعي والاقتصادي الذي خصّصت له جمعيّة العلماء وأقلامها جزء مهمّا من نضالها، وهو ما تشهد عليه صفحات جرائدها المختلفة، وهذه دعوة عامّة لهم للالتفات إلى هذا الجانب ونفض الغبار عن إرث جمعيّة العلماء المسلمين وإسهاماتها في الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في الجزائر.

الهوامش

[1] : **جريدة الشّهاب**، مج 1، السّنة 1 (1344 هـ / 1925 – 1926 م) .

[2] : **المنتقد**: جريدة أسبوعيّة تهدف للإصلاح الدّيني، صدر العدد الأوّل منها في 02 جوان 1925 بقسنطينة، ظهر منها 18 عددا وكان العدد 19 جاهزا غير أنّه حجز ومنعت الجريدة من الظهور، أسّست الجريدة من طرف جماعة من الشبّان المسلمين، كان مديرها الإداري أحمد بوشمّال والمتصرّف عمّور ابن أحمد ومحرّروها عدّة، على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والمولود بن الصدّيق والطيّب العقبي ومحمّد الهادي السّنوسي وأبو اليقظان ومبارك ابن محمّد الميلي وغيرهم، وقد لخّصت الجريدة خطّتها في أنّه" جريدة مستقلّة وطنيّة تعمل لسعادة الشّعب الجزائري بمعاونة فرنسا الديمقراطيّة ". **ينظر**: زهير= =إحدّادن : **بيبلوغرافيا الصّحافة الجزائريّة** ، ج1 (الصّحافة الإسلاميّة الجزائريّة من بدايتها إلى 1930) ، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986، ص 38 .

[3] : **جريدة المنتقد** : ع18 ، قسنطينة ، 29 أكتوبر 1925 م، ص 01 .

[4] : محمّد ناصر: **الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1939**، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1980، ص58.

[5] : تركي رابح عمامرة : " مجلّة الشّهاب للشّيخ عبد الحميد بن باديس لسان الإسلام والعروبة والوطنيّة في الجزائر 1925-1939 ودورها في نهضة الجزائر الحديثة "، **مجلّة الذّاكرة** ، ع5 ، مجلّة الدّراسات التّاريخيّة للمقاومة والثّورة الجزائريّة، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، أوت 1998، ص89.

[6] : زهير إحدّادن: المرجع السّابق، ص 39 .

[7] : **جريدة الشّهاب** : ع1، مج1، قسنطينة، نوفمبر 1925.

[8] : **مجلة الشّهاب** : ج1 ، مج7 ، قسنطينة ، فيفري 1931 ، ص01.

[9] : ذهبت الكثير من الدّراسات إلى أنّ الكلمات الأولى هي شعار الثّورة الفرنسيّة ، وأضاف لها الشيخ ابن باديس كلمة السّلام ، وربّما يرجع ذلك إلى أنّ الشيخ أراد من خلال هذه المبادئ الثلاث أن يذكّر السّلطات الاستعماريّة مرارا و تكرارا في كلّ عدد كانت تصدره المجلّة بشعارات ثورتها وبالتّالي دعوة غير صريحة لتطبيقها كذلك في الجزائر وإضافته للمبدأ الرّابع ربّما هو إشارة لها إلى أنّ العمل على ترسيخ الحرية و العدل و المساواة ستكون حتما نتيجته تحقيق السّلام ، لكن عندما يئست الشهاب من المستعمر سنلاحظ

حذف الكلمات الأربع من الغلاف ابتداء من أفريل 1935 ، و رغم ذلك كلّه إلّا أنّ هاته الشّعارات قبل أن تكون من مبادئ الثّورة الفرنسيّة فهي من أسس الدين الإسلامي التي حثّ عليها في الكثير من المواضع في القرآن الكريم أو في السنّة النّبويّة.

[10] : رابح تركي عمامرة : **الذّاكرة** ، المرجع السّابق، ص 89 – 90.

[11] : دفع صعود الجبهة الشّعبيّة للسّلطة (تكتّل أحزاب اليسار) في ماي 1936 برئاسة ليون بلوم Léon (Blum) اتّجاهات الحركة الوطنيّة إلى التكتّل وتشكيل تحالف لتحقيق الأهداف السياسيّة خاصّة بعد الإصلاحات السّياسيّة التي قدّمتها السلطة الجديدة ، ومن ثمّ جاءت فكرة عقد مؤتمر إسلامي، حيث دعا الشيخ عبد الحميد بن باديس زعيم فيدرالية المنتخبين المسلمين الدّكتور ابن جلّول لضرورة الاجتماع، وهو ما كان فعلا في شهر جوان 1936 بقاعة الماجستيك (الأطلس حاليا) بباب الواد بالجزائر العاصمة، إضافة إلى مشاركة الحزب الشّيوعي ومندوب عن الجبهة الشعبيّ الفرنسيّة ، وفيه توصّل المجتمعون إلى بلورة عدّة مطالب منها : إلغاء كافّة القوانين الاستثنائيّة، ومنح الجنسيّة للجزائريين مع الاحتفاظ بشخصيّتهم الإسلاميّة، وكذا الاعتراف باللغة العربيّة كلغة رسميّة، والتّمثيل الجزائري في البرلمان الفرنسي، وتعتبر مساهمة الحركة الإصلاحيّة ممثّلة في جمعيّة العلماء في اشغال المؤتمر الإسلامي إحدى مظاهر مشاركتها في الحياة السّياسيّة في الجزائر. **ينظر** : عبد الوهاب بن خليف : تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، ط01، دار طليطلة، الجزائر، 2009، ص ص 141-144.

[12] : تركي رابح عمامرة : **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح** الإسلامي والتربية في الجزائر، ط05، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2001، ص 263

[13] : **مجلة الشّهاب** : ج1 ، مج 13 ، ص01 .

[14] : مفدي زكريّاء : **تاريخ الصّحافة العربيّة في الجزائر**، تحقيق أحمد حمدي، مؤسّسة مفدي زكريّا، الجزائر، 2003 ، ص 88 .

[15] : زهير إحدّادن: المرجع السابق ، ص 39 .

[16] : **مجلة الشّهاب** : ج1 ، مج7 ، قسنطينة، فيفري 1931 ، ص 49.

[17] : محمّد ناصر: المرجع السّابق ، ص 59 .

[18] : **مجلة الشّهاب** : ج10 ، مج8 ، قسنطينة، أكتوبر1932 ، ص 531.

[19] : أحمد الخطيب : **جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1985 ص 112.

[20] : عواطف عبد الرّحمان: **الصّحافة العربيّة في الجزائر(دراسة تحليليّة لصحافة الثّورة الجزائريّة 1954 – 1962)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985 ، ص 37.

[21] : سيّد قطب: **العدالة الاجتماعيّة في الإسلام**، ط13، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص26.

22 : فاضل زكي محمّد:" نظريّة العدالة الاجتماعية في الفكر السياسي العربي الإسلامي"، **مجلّة الأقلام**، ع01، العراق، 01 جانفي 1964، ص15.

23 : **جريدة الشّهاب** : ع4 ، قسنطينة، 03 ديسمبر 1925 ، ص 68.

24 : نفسه.

25 :H.Le Masne : "role de l' islame dans les rapports entre la communauté maghrébin et la société française" ,**revue le Supplément (revue d'éthique et de théologie morale)** ,n 156,organe de recherche pluridisciplinaire et internationale ,paris, avril 1986,p58.

26 : عبد الحميد بن باديس :" حفظ الأموال باحترام الملكيّة"، **مجلة الشّهاب** ، ج8، م6، قسنطينة، سبتمبر 1930 ، ص 462.

27 : سيد قطب: المرجع السابق، ص28.

28 : **مجلة الشّهاب** : ج11 ، م10 ، قسنطينة، أكتوبر 1934، ص 30.

29 : عبد الكريم بو الصّفصاف : **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931 – 1945**، ط1 ، دار البعث، الجزائر، 1981، ص 117.

30 : صالح عوض : **معركة الإسلام والصّليبية في الجزائر**، ج1، الزيتونة للإعلام والنشر، الجزائر، 1989 ، ص 265.

31 :أندري ديرليك: **عبد الحميد بن باديس مفكر الاصلاح وزعيم القوميّة**، ترجمة، مازن مطبقاني، عالم الأفكار، الجزائر، 2013، ص248.

32 : **مجلة الشهاب**: ج7، م8، قسنطينة، يوليو 1932 ، ص 346.

33 : **مجلة الشهاب**: ج2، م11، قسنطينة، ماي 1935، ص82.

34 : **مجلة الشهاب**: ج5، م6، جوان 1930، ص 310-311.

35 الشهاب: ج4، م6، قسنطينة، جانفي 1930، ص 13.

36 : **مجلة الشّهاب** : ج11 ، م10 ، المصدر السابق، ص 70.

37 : أحمد الخطيب : المرجع السّابق ، ص 223.

38 : **جريدة الشّهاب** : ع4 ، المصدر السّابق ، ص 71.

39 : **مجلة الشّهاب** : ج8 ، م8، قسنطينة، أوت 1932 ، ص 430.

40 : **مجلة الشّهاب** : ج2، م9، قسنطينة، فيفري 1933، ص 98.

41 : مارسيل أجريتو : **الوطن الجزائري** ، تر. عبد الله لولو ، الدّار القوميّة ، القاهرة ، ص 40.

42 : نفسه ، ص 71 .

43 : زهير إحدّادن: المرجع السّابق ، ص 38.

44 : **جريدة الشّهاب** : ع04، المصدر السابق ، ص 71.

45 : محمّد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، 2012 ، ص 29.

[46] : صالح عوض : المرجع السابق ، ص 214 – 215.
[47] : **جريدة الشّهاب** : ع4، المصدر السابق ، ص 71.
[48] : محمّد طهّاري : **الحركة الإصلاحيّة في الفكر الإسلامي المعاصر (الشيخ عبد الحميد بن باديس)**، ج3، دار الأمّة ، الجزائر، ص06.
[49] : **جريدة الشهاب** : ع4 ، المصدر السابق ، ص 71.
[50] : كاتب فرنسيّ مشهور بكتاباته في السياسة الجزائريّة وقد كلف بوضع تقرير من طرف لجنة الدفاع عن حقوق الانسان بهدف الاطّلاع على أحوال مسلمي الجزائر . **ينظر** : عبد الكريم بو الصفصاف : المرجع السّابق ، ص 87.
[51] : نفسه ، ص 87.
[52] : مالك بن خليف : **الفكر السّياسي عند العلاّمة عبد الحميد بن باديس**، ط1 ، دار طليطلة ، الجزائر، 2010 ، ص 53.
[53] : **جريدة الشّهاب** : ع4، المصدر السابق، ص 71.
[54] : التّجنيس : "هو الانسلاخ عن الجنسيّة الإسلاميّة والدخول في الجنسيّة الفرنسيّة، بمعنى الاعتراف بفساد الشريعة الإسلامية وعدم الالتزام بأحكامها والاعتراف بصلاحيّة التّشريع الفرنسي الوضعي والالتزام بأحكامه عليه وعلى ذريته من بعده." **ينظر** : إبراهيم أبو اليقظان : **مختارات من صحف أبي اليقظان 1 جريدة وادي ميزاب 1926 – 1929** ، إعداد و تقديم محمد ناصر، مكتبة الريام، الجزائر، 2003 ، ص 104.
[55] : الإدماج (Assimilation) : سعت سلطات الاحتلال منذ البداية لدمج الجزائر في فرنسا وقد صدر قانون الضم منذ 1848 بعد فرنستها وتنصيرها وإذابة كيانها في الشخصية الفرنسية، لكنّها لم تطبق الإدماج بمعنى المساواة بين الجزائريين والفرنسيين والأوربيين في الحقوق والواجبات، وإنما طبقته فقط على المعمرين أما الجزائريين فقد أخضعتهم للقوانين الاستثنائية الصارمة .

ومفهوم الإدماج سياسيا يعني جعل الجزائريين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فرنسيين يتمتعون بالحقوق السياسية الفرنسية التي يتمتع بها الفرنسيون داخل بلادهم وخارجها ومن الناحية الإدارية يعني أن تكون الجزائر إقليما فرنسيا يتشكل من مقاطعات كما تتشكل إداريا كل الأقاليم الفرنسية في فرنسا. **ينظر** : عبد القادر حلوش : **سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر**، دار الأمة ، الجزائر ، 2010 ، ص 75.
[56] : تركي رابح عمامرة : **التّعليم القومي والشّخصيّة الجزائريّة 1931 – 1956 دراسة تربوية للشخصية الجزائرية**، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ص 101.
[57] : محمّد الميلي : المرجع السابق، ص 162.
[58] : Jacques Carret :**L'association des Oulémas d'Algérie** ,Alem El Afkar ,Alger,2008,p47
[59] : محمّد الميلي : المرجع السابق، ص 25.

60 : **مجلة الشهاب**، ج1، م15، قسنطينة، فيفري 1939، ص 44- 45.

61 : نفسه، ص 46.

62 : Ali Merad : Le reformisme musulman en Algérie de 1925 – 1940(essai d histoire religieuse et social) , les editions El Hikma , Alger , 2010, p 262.

63 : Ibid ,p 262.

64 : أحمد الخطيب : المرجع السابق، ص 225.

65 : سيد قطب: المرجع السابق، ص28.

66 : أحمد الخطيب : المرجع السابق، ص 262 – 263.

67 : نفسه، ص 264.

68 : **جريدة الشّهاب** : ع1، مج1 ، المصدر السّابق، ص 01.

69 : **مجلة الشّهاب** : ج 1 ، مج7 ، قسنطينة، فيفري 1931 ، ص01.

70 : ذهبت الكثير من الدّراسات إلى أنّ الكلمات الأولى هي شعار الثّورة الفرنسيّة ، وأضاف لها الشيخ ابن باديس كلمة السّلام ، وربّما يرجع ذلك إلى أنّ الشيخ أراد من خلال هذه المبادئ الثلاث أن يذكّر السّلطات الاستعمارية مرارا و تكرارا في كلّ عدد كانت تصدره المجلّة بشعارات ثورتها وبالتّالي دعوة غير صريحة لتطبيقها كذلك في الجزائر وإضافته للمبدأ الرّابع ربّما هو إشارة لها إلى أنّ العمل على ترسيخ الحرية والعدل والمساواة ستكون حتما نتيجته تحقيق السّلام، لكن عندما يئست الشهاب من المستعمر سنلاحظ حذف الكلمات الأربع من الغلاف ابتداء من أفريل 1935 ، ورغم ذلك كلّه إلّا أنّ هذه الشّعارات قبل أن تكون من مبادئ الثورة الفرنسيّة فهي من أسس الدين الإسلامي التي حثّ عليها في الكثير من المواضع في القرآن الكريم أو في السنّة النّبويّة.

71 : رابح تركي عمامرة : **الذّاكرة** ، المرجع السّابق ، ص 89 – 90.

72 : **مجلة الشهاب**، ج1، م12، قسنطينة، أفريل 1936، ص03.

73 : **جريدة الشهاب**: ع26، قسنطينة، 13 ماي 1926، ص23.

74 : **جريدة الشّهاب** : ع74، قسنطينة، 09 ديسمبر 1926 ، ص 627.

75 : عدّة بن داهة : المرجع السّابق ، ص ص287 – 289 .

76 : **مجلة الشّهاب** : ج 8، م8 ، قسنطينة، أوت 1932 ، ص 429 – 430.

77 : نفسه، ص 432.

78 : **مجلة الشّهاب** : ج 8، م8 المصدر السابق، ص432.

79 : نفسه، ص431

80 : هي عبارة عن 25% من أصل الرّاتب يتقاضاها الموظّف الأوربّي زيادة على الموظّف الجزائري، **ينظر:** **مجلة الشهاب**: ج10، م12، قسنطينة، جانفي 1937، ص448.

81 : **مجلة الشّهاب**، ج11، م8، قسنطينة، نوفمبر 1932 ص586-587.

[82] : **مجلة الشهاب**، ج12، م8، قسنطينة، ديسمبر 1932، ص ص 642- 645.

[83] : **مجلة الشهاب**، ج6، م11، قسنطينة، سبتمبر 1935 ، ص376.

[84] : نفسه، ص ص 377-381.

[85] : **مجلة الشهاب**، ج1، م11، قسنطينة، أفريل 1935، ص566.

[86] : نفسه ، ص567.

[87] : نوع من أنواع التمور.

[88] : نفسه، ص 567-569.

[89] : "أداء الترتيب"، **مجلّة المغرب**، السنة 5، عدد جانفي، فيفري 1937، ص09.

[90] : "Dans la presse arabe", **l'Echo de la presse musulmane**", A2,N37,05Septembre1936,p04.

[91] : **مجلة الشهاب**، ج7،م13، قسنطينة، سبتمبر 1937 ، ص326.

[92] : نفسه، ص324.

[93] : نفسه، ص ص 326-329.

[94] : **مجلة الشهاب**: ج4، م7، قسنطينة، ماي 1931، ص314-315.

[95] : **مجلة الشهاب**، ج3، م15، قسنطينة، مارس 1939، ص72-73.

[96] : مالك بن خليف: المرجع السابق، ص396.

[97] : **مجلة الشهاب**، ج12، م8، قسنطينة، ديسمبر 1932، ص626.

[98] : **مجلة الشهاب**: ج2، م11، المصدر السابق، ص196.

[99] : مالك بن خليف: المرجع السابق، ص 370-371.

[100] : سيّد بن حسين العفّاني: **زهرة البساتين من مواقف العلماء والربّانيين**، ج5، دار العفّاني، القاهرة، 2009، ص342.

الكاتب: د/ عادل نجيم

كلية الآداب والعلوم الانسانية/ صفاقس/ تونس

عنوان المقال: **LES OLIVIERS D'HANNIBAL À L'OUEST DE KALEA SEGHIRA AU SAHEL (Tunisie)**

البريد الالكتروني: njim_adel@yahoo.com

تاريخ الارسال:2019/01/19 تاريخ القبول:2019/02/18 تاريخ النشر:2019/03/28

HANNIBAL OLIVE TREES IN THE WEST OF KALEA SEGHIRA IN THE SAHEL

Mots clés :

Kalea Seghira - Exploitations antiques - Oliviers d'Hannibal - Fermes puniques - Politique de peuplement.

Résumé :

La ville de Kalea Shhira est très riche à la fois par son terroir, sa position géographique, son histoire et son patrimoine exceptionnels. Paradoxalement c'est une ville peu étudiée. Lui consacrer un colloque scientifique est sans doute une bonne initiative.

Ma contribution à cette rencontre portera sur le premier thème de ce colloque relatif au début du peuplement : l'espace et le territoire.

Il s'agit de présenter une découverte inédite d'une exploitation agricole antique située à quelques kilomètres à l'ouest de cette ville au lieu-dit « Ennagar ». Cette exploitation contient des oliviers au tronc immense qui prouve leur âge antique. Des vestiges liés à la gestion de l'eau et une collecte préliminaire de la céramique témoignent d'une occupation allant de l'antiquité à la période islamique. Même si cette culture matérielle est digne d'un dossier approfondie.

Mes investigations m'ont permis de mettre cette ferme essentiellement oléicole avec un témoignage littéraire auquel jusque-là on a accordé peu d'attention sur les oliviers plantés par le général punique Hannibal dans toute la région du Sahel. Cette découverte confirme que ce témoignage textuel ne relève pas du mythe.

De plus, cette exploitation serait en quelque sorte un des témoignages du système carthaginois très complexe. Il a un aspect militaire et sécuritaire original en rapport avec les systèmes des Phoinikoi Tapoi littéralement Fosses phéniciennes qui passent plus à l'ouest non loin de cette zone. Cette ferme dévoileaussi un aspect démographique par la fixation des fermiers à la marge des territoires d'une grande ville telle que Hadrumète. Cette exploitation essentiellement oléicole a aussi une vocation économique sans conteste de gestion et de rentabilisation des territoires périphériques à l'époque punique.

La publication de cette ferme punique enrichi ce dossier sur notre connaissance de cette culture surtout dans la célèbre région de la Byzacène devenue le Sahel un des fiefs historiques de Carthage et dans l'arrière-pays de la ville d'Hadrumète cité punique majeure.

Keywords :

Kalea Seghira - Ancient Farms - Hannibal Olive Trees - Punic Farms - Settlement Policy.

Abstract :

The city of Kalea Seghira is very rich by its terroir, its position, its history and its exceptional heritage. Only this city is paradoxically little studied.

My contribution to know better her will focus on a recent discovery around this city.

This is to present an unpublished discovery of an ancient farm located a few kilometers west of the city at a place called "Ennagar". This farm contains olive trees with an immense trunk that proves their ancient age. Remains related to water management and a preliminary collection of ceramics bear witness to occupation from antiquity to the Islamic period. Even though this material culture is worthy of a thorough record.

My investigations allowed me to put this farm essentially olive with a literary testimony to which little attention was given to the olive trees planted by the Punic General Hannibal throughout the Sahel region. This discovery confirms that this textual testimony is not myth.

Moreover, this exploitation would be in some of the testimonies of the very complex Carthaginian system. It has an original military and security aspect related to the systems of Phoinikoi Tapoi literally Phoenician Fosses that pass further west not far from this area. This farm also reveals a demographic aspect by fixing farmers at the margins of the territories of a large city such as Hadrumète. This mainly olive-growing operation also has an undoubted economic vocation for managing and making profitable the peripheral territories of the Punic era.

The publication of this Punic farm enriches this file on our knowledge of this culture especially in the famous region of Byzacène became the Sahel one of the historical fiefs of Carthage and in the hinterland of the city of Hadrumète major Punic city.

INTRODUCTION

La ville de Kalea Shhira est très riche à la fois par son terroir, sa position géographique, son histoire et son patrimoine exceptionnels. Paradoxalement c'est une ville peu étudiée. Lui consacrer un colloque scientifique est sans doute une bonne initiative.

Ma contribution à cette rencontre portera sur le premier thème de ce colloque relatif au début du peuplement : l'espace et le territoire.

Il s'agit de présenter une découverte inédite d'une exploitation agricole antique située à quelques kilomètres à l'ouest de cette ville au lieu-dit « Ennagar ». Cette exploitation contient des oliviers au tronc immense qui prouve leur âge antique. Des vestiges liés à la gestion de l'eau et une collecte préliminaire de la céramique témoignent d'une occupation allant de l'antiquité à la période islamique. Même si cette culture matérielle est digne d'un dossier approfondie.

Mes investigations m'ont permis de mettre cette ferme essentiellement oléicole avec un témoignage littéraire auquel jusque-là on a accordé peu d'attention sur les oliviers plantés par le général punique Hannibal dans toute la région du Sahel. Cette découverte confirme que ce témoignage textuel ne relève pas du mythe.

De plus, cette exploitation serait en quelque sorte un des témoignages du système carthaginois très complexe de gestion des territoires. Il a un aspect militaire et sécuritaire original en rapport avec les systèmes des Phoinikoi Tapoi littéralement Fosses phéniciennes qui passent plus à l'ouest non loin de cette zone. Cette ferme dévoileaussi un aspect démographique par la fixation des fermiers à la marge des territoires d'une grande ville telle que Hadrumète. Cette exploitation

essentiellement oléicole a aussi une vocation économique sans conteste de gestion et de rentabilisation des territoires périphériques à l'époque punique.

La publication de cette ferme punique enrichi ce dossier sur notre connaissance de cette culture surtout dans la célèbre région de la Byzacène devenue le Sahel une des fiefs historiques de Carthage et dans l'arrière-pays de la ville d'Hadrumète cité punique majeure.

I. Les vestiges

La zone à laquelle on consacre cette note se situe à l'ouest de l'actuelle ville de Sousse aux environs immédiats de la ville de Kalea Seghira (figure 1). Les données réunies sont inédites et plaident en faveur d'une occupation antique préromaine de la région.

Cette découverte pousse à une évaluation plus détaillée du dossier avec les multiples données du terrain avant de passer à l'interprétation.

1. La toponymie

Les noms de lieux en Tunisie constituent un chapitre non négligeable pour connaître le passé d'une région. Le toponyme de Kalea Seghira est sans doute très significatif. Seulement, nous ne sommes pas capables de dire dans quelle mesure cette appellation qui remonte à l'époque islamique reflète-t-elle un passé antique et encore moins punique.

a. Gurza et Kalea Seghira

La cité antique voisine de Kalea Kebira portait probablement le nom antique de Gurza. Nous ne disposons d'aucune interprétation probante de ce toponyme. L'assimilation avec la ville voisine de Kalea Seghira n'est pas assurée pour l'instant.

b. Ennagar

La zone qui nous occupe dans cette note porte le nom de « Ennagar ». La signification de ce toponyme nous échappe pour l'instant. Le rapport entre la toponymie nord-africaine et les ressources hydriques étant très grande, on pourrait rapprocher ce nom de lieu avec celui d'un toponyme à vocation hydrique qui veut dire « l'eau courante » ou « l'eau abondante ». Seulement, ce n'est qu'une interprétation préliminaire qui mérite d'être approfondie.

2. La route

Une autre donnée assez significative de cette zone nous est fournie par sa position par rapport au réseau routier. En effet, ces exploitations se situent au bord d'une route qui part de la ville de Sousse pour se diriger vers l'ouest. Nous allons revenir sur la signification de cette route et son importance pour le peuplement de toute la région. Nos investigations rapides nous poussent à dire que cette route est la continuation d'une voie antique qui remonte à la fois l'époque punique et romaine. Cette voie est actuellement méconnaissable parce qu'elle est masquée par l'aspect récent de la route asphaltée.

3. Les vestiges funéraires

Les parcelles que nous présentons dans ce cadre renferment un certain nombre de vestiges de nature diverse. On a trouvé non loin des oliviers une tombe. Celle-ci a été violée des fouilleurs clandestins (figure 2). Selon le témoignage d'un berger habitué à fréquenter ces lieux on y a trouvé un plat en céramique intact. Il semble qu'il s'agit d'une pièce en sigillée d'après la description qui nous a été fournie. Le fossé de l'inhumation ne contient aucune trace de mobilier.

Nous ne pensons pas qu'il s'agisse d'inhumations multiples ou d'une nécropole. Nous penchons vers l'idée d'une seule inhumation ou même de quelques-unes. Il n'est pas improbable que d'autres tombes non fouillées existent encore à cet endroit. Notre investigation rapide de la zone ne nous a pas permis de les déceler.

4. Les vestiges hydrauliques

Cette zone renferme aussi des vestiges très intéressants puisqu'ils dévoilent la fonction de ces parcelles. Il s'agit de structures à vocation hydraulique. Nous avons trouvé un puits assez profond creusé dans le sol rocheux de la zone. Il est actuellement abandonné et totalement inaccessible à cause d'un figuier qui l'obture (figure 3). Nous aurons souhaité pouvoir le prospecter afin de rechercher de la céramique qui pourrait nous aider à dater la période de son usage. Non loin de ce puits on a trouvé un bassin de forme carré d'environ quatre mètres et demi de diamètre (figure 4). Il est relativement dégradé par les intempéries. La surface est faite en mortier hydraulique. La situation de ce basin à proximité des oliviers indique que son utilisation est en rapport étroit avec ses plantations soit pour l'arrosage ou pour l'extraction de l'huile. Il n'est pas improbable qu'avec l'exploitation des oliviers des plantations éphémères étaient pratiquées qui exigeaient l'usage de l'eau.

Une autre structure hydraulique probablement souterraine située non loin de ces plantations nous a été signalée par un berger qui fréquentait cette région. Il s'agirait de réservoirs d'eau. Nous n'avons pas pu voir de près ces vestiges vu leur proximité d'une maison nouvellementbâtie dans la zone.

5. Les carrières

Non loin de ces plantations on trouve à l'intérieur des terres demultiples dépressions assez conséquentes. Il s'agit peut-être de zones d'attraction de pierres qui aurait était utilisée pour la construction de la route. Seul un examen approfondi peut nous éclairer sur cette question.

6. Le mobilier

Notre prospection rapide de cette zone nous a permis de recueillirun mobilier très riche assez instructif sur l'histoire de l'occupation de cette région.

Nous allons reprendre cette moisson d'objet dans un travail ultérieur détaillé. Il s'agit ici de présenter brièvement ces indices surtout pour situer chronologiquement les oliviers et les exploitations que nous avons découverts. Les indices matériels recueillis vont de la préhistoire à l'époque islamique et témoignent de la continuité de peuplement dans cette zone (figure 5).

7. Les exploitations agricoles

L'intérêt principal de cette zone est constitué par les plantations d'oliviers situées au bord de la route.

a. Les oliviers

Les oliviers découverts sont très anciens vu le tronc immense qu'ils présentent (figure 6). Notre enquête nous autorise à dire qu'ils remontent avec certitude à l'époque punique selon des multiples indices. La parcelle que nous avons prospectée n'est sans doute pas la seule digne d'intérêt. Un retour sur les lieux est nécessaire et une investigation plus approfondie serait une bonne chose.

b. Les cultures éphémères

Les oliviers étaient probablement accompagnés de cultures éphémères dont les traces nécessitent des moyens techniques plus sophistiquées. Le bassin situé dans ces parcelles constitue sans doute une réserve d'eau pour ces cultures éphémères.

c. Les activités pastorales

De plus, cette zone était sans doute une zone de pâturage comme elle l'est encore de nos jours. Cette activité est favorisée par l'abondance de l'herbe aux pieds des oliviers. L'élevage avait souvent constitué une source d'appoint pour les fermiers nord africains.

II. Les oliviers d'Hannibal

1. Les données archéologiques

Les oliviers de Kalea Seghira sont caractérisés par leur tronc immense qui témoigne de leur ancienneté. Grâce à une collecte de céramique préliminaire nous avons pu les attribuer à l'époque punique. Ces oliviers millénaires ne se limitent pas à cette zone.

Nous avons pu découvrir des oliviers similaires à de multiples reprises dans d'autres endroits du Sahel. En effet, nous avons été interpellés par ces oliviers au tronc immense comme ceux de Kalea Seghira dans les environs de Melloulech (au Sud de Chebba), à Henchir Maklouba (entre Rajiche et Ksour Essaf), à Thapsus, à Lamta, au village de Moureddine (à l'ouest de Sousse), à Sousse (dans les environs de la cité Erriadh) et à Hammam Sousse (dans des parcelles situées non loin de la mer).

Nous avons pu attribuer ces parcelles à l'époque punique grâce à de multiples ramassages detessons de céramique.

Bien sûr, le premier souci était de dater ces oliviers avec plus précision. La méthode de datation des arbres à la portée des archéologues est la dendrologie. Elle se fonde sur l'analyse du tronc de l'arbre par calcul des cercles de croissance. Cette démarche nécessite d'avoir un arbre dont le tronc est sectionné pour pouvoir effectuer la datation. Sans parler du coût de l'opération qui suppose le recours au financement d'une institution de recherche et d'un projet autour de cette découverte. En l'absence de ces possibilités cette découverte est suspendue.

2. Les données littéraires

Nous pouvons améliorer cette chronologie grâce à témoignage littéraire assez instructif. Le retour à ce dossier s'est fait tout à fait par hasard lors d'une recherche sur Hannibal. En effet, en lisant le travail de Segre Lancel consacré à Hannibal nous avons découvert une donnée littéraire très intéressante. Le premier réflexe était de tenter de concilier entre ce témoignage textuel et les indices découverts sur le terrain. Selon une légende rapportée par un auteur tardif Aurelius Victor on apprend qu'Hannibal craignant les effets pernicieux de l'oisiveté pour ses soldats les avaient employés à planter en masses des oliviers. D'après Serge Lancel, une telle action aurait pu se faire pendant deux périodes. Soit en l'année qui sépara son retour d'Italie à l'automne de l'année deux cent trois et son engagement contre Scipion à Zama à la fin de l'année deux cent deux alors qu'il avait son quartier général à Hadrumète. Ou dans les années entre la paix imposée à Carthage après Zama et son suffétat.

3. Le verdict scientifique

Pour résumer la question, d'un côté nous avons sur terrain les traces d'une forêt d'oliviers d'âge très ancien située dans divers endroits du Sahel. De l'autre nous disposons d'un témoignage certes tardif mais sans doute digne d'intérêt sur une

opération de plantation d'oliviers dans la région du Sahel par les soldats d'Hannibal.

C'est à l'occasion d'un travail de recherche destiné à être présenté lors d'un colloque sur la ville de Kalea Seghira qu'un lien solide a pu être établi entre les données textuelles et celles fournies par le terrain. En effet, lors d'une prospection dans un lieu-dit Ennagar à l'ouest de Kalea Seghira, nous avons pu découvrir des exploitations agricoles antiques axées sur la culture de l'olivier. Des investigations minutieuses dans l'une des parcelles en question témoignent qu'elles ont fonctionné durant la période antique et qu'elles remontent avec certitude à l'époque punique. Ce qui constitue un patrimoine exceptionnel à valoriser.

Donc, il n'a nul doute que les oliviers du Sahel remontent à l'époque punique. Les attribuer à l'œuvre des soldats d'Hannibal est facilement envisageable. Certes, nous auront toujours besoin d'une datation précise d'avantage pour être plus sûr. Une telle opération pourrait se faire dans le cadre d'un projet dédié à ce patrimoine agricole punique exceptionnel.

II. les intérêts scientifiques

1. L'agriculture punique

Ces fermes puniques situées à l'ouest de la ville de Kalea Seghira ont une portée plus large. D'abord, ces exploitations élargissent nos connaissances sur le milieu rustique punique en dehors de la métropole de Carthage qu'on connait à travers quelques études ponctuelles. Les fermes puniques situées au Sahel confirment les connaissances dont nous disposons sur l'agriculture carthaginoise. Effectivement, nous savons qu'après la défaite de Zama le potentiel économique local de Carthage était intact. Appien parle des années du début du deuxième siècle avant

J.-C.. Il insiste sur la puissance retrouvée de Carthage. En effet, dix ans après Zama Carthage pouvait proposer à Rome de s'acquitter par anticipation des quarante annuités d'indemnités de guerre qui lui restaient à régler selon le traité de l'année deux cent un.

De telles découvertes sont de nature à éclaircir notre connaissance sur le fonctionnement du territoire de la métropole punique d'Hadrumète à l'époque punique.

2. Le peuplement punique

Effectivement, les exploitations puniques aux environs de l'actuelle Kalea Seghira à l'Ouest de la ville de Sousse l'ancienne cité phénico-punique d'Hadrumète dévoilent un chapitre important et peu étudié de la politique punique de gestion des territoires périphériques. Ce mode de fermes agricoles fait partie du système à facettes multiples. Il a un aspect démographique par le cantonnement de tribus à la périphérie de la limite du territoire de la Byzacène dont la ville d'Hadrumète était la principale cité. Ce mode de gestion a aussi un aspect sécuritaire puisque le Sud-Ouest de la Byzacène échappait relativement au contrôle de l'autorité punique. Enfin, ce mode de gestion avait un aspect économique indéniable surtout par la production de l'huile dont l'importance pour Carthage était incontestable. Ce mode de gestion paysan par le cantonnement de fermiers dans les marges des territoires puniques allait de pair avec des structures de contrôle appelées Phoinikoi tapoi dont nous avons montré l'intérêt non seulement dans les régions situées au Nord de la Tunisie mais sans doute au Sahel et dans l'actuelle région de Sfax qui correspond à la région historique de la Petite Syrte.

3. L'aspect sécuritaire

Les exploitations agricoles d'époque punique à l'Ouest de l'ancienne cité d'Hadrumète dans les environs de la ville actuelle de Kalea Seghira sont en un rapport avec la politique sécuritaire punique dans la région de la Byzacène.

Ces exploitations agricoles sont liées à un système de fixation des fermiers et de surveillance des terres dans le cadre d'un dispositif de gestion des territoires périphériques appelé Phoinikoi Tapoi.

Cette question de limite de territoire en Afrique du nord est très intéressante. Il semble que cette structure défensive a presque peu changé entre l'époque punique et romaine. La phase romaine est très médiatisée alors que le chapitre punique est encore peu connu et il l'est encore moins dans la partie de la Byzacène et de la Petite Syrte d'où l'intérêt de cette recherche.

La limite de territoire dite communément « Fossa Regia » fut tracée par Scipion Emilien après la défaite punique en 146 avant J.-C. pour séparer la région qui correspond à l'ancien territoire punique de Carthage, des territoires numides (figure 7). En effet, Pline l'Ancien définit le plus clairement la nature et le rôle de la Fossa Regia. Selon lui, elle servait à séparer le royaume numide du territoire de Carthage conquis par Rome. Effectivement, les textes épigraphiques qui sont des bornes limites d'époque impériale précisent cette appellation de « limite entre la nouvelle et l'ancienne province : l'Africa Vetus et l'Africa Nova ». Cependant, Pline l'Ancien indique seulement le point de départ et d'arrivée de cette frontière. Le point de départ de cette ligne de démarcation se situe sur la côte Nord-Ouest de l'actuelle Tunisie. Il correspond au fleuve Tusca non loin de la ville de Tabarka. Celle-ci se trouvait vraisemblablement sur la frontière mais en territoire numide. Le point d'arrivée de cette frontière aboutissait à Henchir Thina ou Thaenae. En ce qui

concerne le secteur de la Fossa Regia à la latitude du Sahel selon A. Machrek, elle se situe dans la vallée de Oued Merguellil situé à l'Ouest de Kairouan. Ainsi cette limite est à l'ouest des fermes puniques situées dans les environs de la ville de Kaleae Seghyra.

Nous venons à une idée de synthèse qui nous avance dans notre débat sur ces exploitations agricoles antiques. Selon l'infatigable archéologue Nadia Ferchioule problème de la Fossa Regia est loin de se limiter au simple tracé d'une ligne de démarcation entre deux pays ou deux provinces. En fait, il touche à des aspects les plus divers tels que la politique des deux protagonistes de l'époque, les opérations militaires, les institutions municipales et juridiques, le droit des gens et du sol, l'assiette financière, la répartition et le recouvrement de l'impôt. On peut donc se rendre compte que la question de la Fossa Regia est un sujet particulièrement complexe.

Ce système défensif est bel et bien punique. Des témoignages de sources littéraires antiques font échos d'un système de défense territorial en Afrique du Nord nommé Phoinikoi Tapoi littéralement Fosses Phéniciennes. En effet, nous disposons d'un témoignage littéraire digne d'intérêt sur ces Fosses phéniciennes. Il s'agit d'un grec nommé Eumachos. Selon Serge Lancel cet auteur était sans doute l'historiographe d'Hannibal. L'implication de l'auteur dans les évènements est de nature à accroitre la crédibilité accordée à son témoignage sur ce phénomène. Cet auteur mentionne un fossé creusé par les Carthaginois autour de leur propre territoire. Nous disposons d'un second témoignage littéraire antique sur ces limites fourni par Appien. En effet, l'auteur mentionne des Fosses Phéniciennes à de multiples occasions dans son œuvre consacrée à la civilisation de Carthage. Entre autre, Appien parlant du traité qui termina la guerre d'Hannibal à la fin de ce qui communément appelé la seconde guerre punique, nous apprend que les

Carthaginois avaient établi des garnisons des villes situées au-delà des « Fosses Phéniciennes ».

Fait étonnant, les Fosses phéniciennes n'ont fait l'objet d'aucune notice dans le Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique. Cette absence marque le peu d'intérêt accordé à cette question. Nous avons eu l'occasion de formuler des réserves sur le contenu de ce travail entre autre à ce sujet et d'attirer l'attention sur ce manque dans une note encore inédite. De même l'article consacré à la Fossa Regia au sein de cet ouvrage ne fait aucune allusion à cette frontière. Pourtant, Stéphane Gsell dans sa synthèse sur l'Afrique du nord évoque cette question. Charles Tissot, l'éminent spécialiste de l'Afrique du Nord antique reconnaissait ce phénomène et distingue entre les Fosses Phéniciennes et et la Fossa Regia. Le dossier des Fosses Phéniciennes s'est réouvert grâce aux travaux de Nadia Ferchiou dans la Nord-Ouest tunisien. Dans un premier travail, elle soulève cette question de façon dubitative. Ensuite, elle reprend cette enquête dans un travail de terrain où elle avance des constatations plus sûres.

Pour certains chercheurs l'appellation de « Fosses Phéniciennes » bien évidente des sources antiques ne reflète pas une réalité. L'interprétation qu'ils donnent est la suivante. Selon ces chercheurs, ce terme serait une pure invention due à un auteur romain. Ce dernier, soucieux de justifier l'usurpation du roi Massinissa aurait jugé bon de falsifier le traité conclu en 201 après J.-C. il aurait inséré une clause afin d'obliger les Carthaginois vaincus à évacuer tout le pays en dehors de ce fossé qu'il aurait frauduleusement qualifié de « Fosses Phéniciennes ». Certains chercheurs actuels semblent du même avis. Pour eux, ces Fosses n'auraient pas existé à l'époque punique. Il faudrait les identifier avec la Fossa Regia d'époque romaine.

Seulement, une nouvelle découverte faite par l'archéologue tunisienne N. Ferchiou pousse à rouvrir ce dossier. Elle signale un fossé qui traverse en diagonale la Tunisie antique. Le secteur qu'elle a découvert se situe entre Sbikha et le Sud de Djebel Bargou et se dirige au Nord-Ouest vers Vazi Sarra. Elle se pose la question si ce fossé correspond ou non à celui de la Fossa Regia. Son verdict est clair : « ce tracé nous ramène vers l'hypothèse des Fosses Phéniciennes qui cernaient le territoire de Carthage avant la défaite de Zama. Nous ne voyons guère d'autre alternative ». L'une des raisons que l'auteur présente est la suivante. Elle affirme que ce fossé découvert passa à une vingtaine de kilomètres en moyenne au Sud des bornes déjà connues de la Fossa Regia. Néanmoins, il n'empêche que la prudence est recommandée car les deux structures de la Fossa Regai et des Phoinikoi Tapoi sont en maints endroits superposables.

Passons à tenter d'énumérer quelques paramètres qui nous permettent d'identifier ce type de structure dans des endroits précis ce qui nous aidera à essayer de reconnaître sa présence dans la région de la Byzacène et de la Petite Syrtes.

La toponymie est un outil assez efficace pour nous faire avancer dans l'étude de cette limite de territoire à condition d'être bien exploitée. Parmi les toponymes révélant des structures de ce type le nom de lieux de Haddada qui fait allusion à une frontière. Nous disposons à des multiples endroits de toponymes pareils. Par exemple à l'Ouest de Mactar on a un nom de lieu de Haddada ou également Oued Haddada. Selon le colonel Reyniers ce terme désignait la Fossa Regia. Dans la zone du Sahel, à l'Ouest de Sidi el Hani on trouve sur la carte d'État-major le toponyme de Seguiet el Hadd. Au même endroit, on trouve le nom de lieu de Henchir el Hadd. Charles Tissot, y avait reconnu des vestiges. Un autre toponyme révèle probablement des fortifications, il s'agit de Oued Zouara qui coule à quinze kilomètres à l'Est de Tabarka. Une enquête toponymique dans la région de Thyna

pourrait nous éclairer sur les toponymes révélateurs de limite de frontière. Celle-ci devrait être accompagnée d'une vérification sur terrain afin d'éviter les confusions.

Dans la recherche des structures fortifiées appartenant à la Fossa Regia et ou aux Phoinikoi Tapoi il faut être muni de beaucoup de discernement. En effet, des structures de fortifications urbaines peuvent nous induire en erreur. Bon nombre de villes numides sont munies de fortifications délimitant leurs territoires. L'assimilation entre la Fossa Regia et ou les Phoinikoi Tapoi d'un côté et la fortification d'un territoire d'une cité est sans aucun doute chose facile. Seule une enquête de terrain minutieuse accompagnée d'une étude des textes littéraires et épigraphiques quand elles existent peut nous éviter les erreurs d'interprétation.

Dans la quête des cités ayant fait partie de l'Africa Vetus ou de l'Africa Nova, les qualifications des noms des agglomérations peuvent dévoiler leurs status juridiques et par là même leur rapport avec ce système défensif de la Fossa Regia ou des Phoinkoi Tapoi. Par exemple le terme de Pagus des localités romaines nous indique qu'elles étaient souvent localisées au-delà des frontières. Nous savons également que l'étiquette de Regius accolée à une agglomération veut dire qu'elle est rattachée au monde numide. Nous avons par exemple en Byzacène la cité d'Aqua Regia située à une quarantaine de kilomètres au Sud Est de Kairouan qui est une possession de la monarchie numide.

Une indication importante concerne une limite de territoire d'époque punique, celle des « Arst » considérés comme révélatrices d'une limite de territoire qu'on a trouvé à Mactar médiatisée sous le nom de borne de Micipsa. Malheureusement, cette indication ne concerne pas la région de Thyna. Attendons le bon hasard d'une nouvelle découverte épigraphique dans la zone de la Petite Syrte qui apporte un éclairage sur les rapports de Puniques à cette région.

Cette limite de territoire en Tunisie antique appelée Fossa Regia et Phonikoi Tapoi est sans doute un dossier intéressant qui mérite davantage d'approfondissement.

Une question brulante concerne la date des Fosses Phéniciennes. Stéphane Gsell s'est posé cette question. Selon lui vraisemblablement cette frontière fut tracée à l'époque où Amilcar Barca étendit les limites de la domination punique selon le témoignage de Cornelius Népos.

Une étude récente pourrait nous éclairer davantage sur cette question. Elle porte sur les rapports des Carthaginois à l'Afrique du nord et entre autre la région de la Petite Syrtes. Cet auteur donne une chronologie de l'affirmation de l'autorité punique en Afrique du Nord. D'après lui, c'est entre le quatrième et le troisième siècle av. J.-C. que le territoire de Carthage atteint son maximum d'expansion. Après le troisième siècle commence la phase de restriction territoriale suite aux conquêtes de Massinissa. Ainsi, le système des Phoikoi Tapoi se situera dans cette fourchette chronologique. Dans une autre étude ce chercheur nous présente les différentes zones d'influence progressive du pouvoir punique en Afrique du Nord.

L'intérêt des Puniques à la région de la Byzacène est motivé par de multiples considérations à la fois d'ordre stratégique et économique.

Celle limite de territoire qui traverse la Tunisie du Nord-Ouest au Sud Est mérite qu'on s'y arrête à plusieurs égards. Il est évident que ce système de fortifications ne soit pas souvent fait en matériaux qui résistent longtemps face aux éléments de la nature surtout dans les zones steppiques. De telles œuvres risquent de disparaitre ou qui ont déjà disparu. La limite de la Fossa Regia est certainement en rapport étroit avec celle des Phoinikoi Tapoi. La continuité entre les deux systèmes est frappante. Les motivations de l'édification de cette frontière sont multiples à la fois géographiques, stratégiques et bien évidemment économiques. La création de

cette limite de territoire marque la mainmise des Puniques sur le sol africain. Ce souci s'est poursuivi les Romains une fois en Afrique du Nord. Cette étude n'est sans pas exhaustive. Elle nécessite un approfondissement et surtout un travail de terrain dans la région de la Byzacène et de la Petite Syrte que ces oliviers et ses fermes antiques nous encouragent à poursuivre notre investigation.

CONCLUSION

La région du Sahel qui correspond à la Byzacène antique renferme encore des données à découvrir. Cette mise au point sur la cité de Kaela Seghira démontre la richesse de cette région. Notre présentation a le mérite de présenter un aspect inédit de l'archéologie punique en Tunisie qui est celui des vestiges agricoles. Les oliviers de Kalea Seghyra sont en rapport avec des exploitations parsemées dans tout le Sahel. Ces oliviers concentrés surtout au Sahel enrichissent sûrement le dossier sur notre connaissance de la culture punique surtout dans la célèbre région de la Byzacène devenue le Sahel un des fiefs historiques de cette civilisation en Tunisie. Egalement, ces exploitations ont des significations multiples à la fois économiques et sécuritaires. Ils nous renseignent sur la fonction particulière de la cité d'Hadrumète devenue une véritable capitale durant l'époque punique dont l'héritage est peu valorisé.

NOTES

[1] Adel Njim : Maître Assistant en Histoire et Archéologie Phénico-puniques à la Faculté des Lettres

et Sciences Humaines de Sfax (Tunisie). Mail : njim_adel@yahoo.com

[2] Djelloul, Propriété, p. 45.

[3] Lipinski, Gurza, p. 202.

[4] Njim, Toponymie.

[5] Jokey, L'archéologie, p. 286-288, figure page 287.

[6] Njim, Hannibal.

[7] Lancel, Carthage, p. 381 ; Id., Hannibal, p. 325.

[8] Njim, Kalea Seghira.

[9] Fantar, Gammarth, p. 3 et suivant.

[10] Lancel, Hannibal, p. 329.

[11] Dubuisson-Lipinski, Byzacène, p. 85.

[12] Njim, Thyna.

[13] Ferchiou, Fossa Regia, p. 2897.

[14]Ibid., p., 2897.

[15] Ibid., p. 2897.

[16] Lancel, Op., Cit., p. 362.

[17] Gsell, Op. Cit., II, p. 102.

[18] Ibid., p. 101.

[19] Njim, Index.

[20] Kolendo, Fossa Regia, p. 176.

[21] Gsell, Op. Cit., p. 101-102.

[22] Ibid., p. 102.

[23] Ferchiou, Nouvelles données.

[24] Ferchiou, Fossé inconnu.

[25] Gsell, Op. Cit., p. 101.

[26] Ferchiou, Fossé inconnu, p. 107, pl. I.

[27] Ibid, p. 113.

[28] Ibid., p. 107.

[29] Lancel, Op. Cit., p. 362.

[30] Ferchiou, Op. Cit., p. 111.

[31] Ferchiou, Fossa Regia, p. 2910.

[32] Ibid., p. 2901.

[33] Gharbi, Fortifications.

[34] Ferchiou, Fossa Regia, p. 2901.

[35] Ibid, p. 2904.

[36] Février, Micipsa, p. 120-121.

[37] Gsell, Op. Cit., p. 102.

[38] De Bonis, Cartagine.

[39] Ibid., p. 199.

[40] De Bonis, Tunisia punica, p. 164, fig. 1.

[41] Njim, Sousse.

BIBLIOGRAPHIE

De Bonis, Cartagine : A. De Bonis, Confine e articulazione del territorio di Cartagine nella Tunisia antica, L'Africa Romana 19, 2010, volume 1, p. 189-209.

De Bonis, Tunisia punica : A. De Bonis, Distribuzione di siti e circolazione di beni nelle Tunisia punica, L'Africa Romana, 20, 2015, volume 1, p. 162-183.

Djelloul, Propriété : N. Djelloul, Propriété foncière maraboutisme etformation du paysage urbain du Sahel au moyen âge, dans La méditerranée : l'homme et la mer, Tunis 2001, p. 13-194.

Dubuison-Lipinski, Byzacène : M. Dubuisson- E. Lipinski, Byzacène, dans E. Lipinski, Dictionnaire de la civilisation phénicienne et Punique, Paris-Bruxelles 1992, p. 85.

Fantar, Gammarth : Mh. Fantar, À Gammarth avant la conquête romaine, BAC, ns. 17 B, 1984, p. 3-19.

Ferchiou, Fossé inconnu : N. Ferchiou, Un fossé inconnu en Afrique proconsulaire suite des recherches, REPPAL 5, 1990, p. 107-115.

Ferchiou, Fossa Regia : N. Ferchiou, Fossa Regia, dans Encyclopédie berbère, tome 19, 1997, p. 2897-2911.

Ferchiou, Nouvelles données : N. Ferchiou, Nouvelles données sur un fossé inconnu en Afrique proconsulaire, dans troisième colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord, Montpellier, 1985, volume 1, p. 351-365.

Février, Micipsa : J.-G. Février, La borne de Micipsa, Cahiers de Byrsa 7, 1957, p. 119-121.

Gharbi, Fortifications : M. Gharbi, A propos de quelques fortifications urbaines numides à l'époque de la guerre de Jugurtha, dans Ministère de la Défense, Actes du colloque national d'histoire militaire : le patrimoine national de la Tunisie, Tunis 2011, p. 5-13.

Gsell, Histoire : S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, I-VIII, Paris 1913-1928.

Jockey, L'archéologie : Ph. Jockey, L'archéologie, p. 286-288, figure page 287.

Kolendo, Fossa Regia : J. Kolendo, Fossa Regia, dans E. Lipinski, Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique, Paris-Bruxelles, 1992, p. 176.

Lancel Carthage : S. Lancel, Carthage, Paris 1992.

Lancel, Hannibal : S. Lancel Hannibal, Paris 1995.

Lipinski, Gurza : E. Lipinski, Gurza/Gorza, dans E. Lipinski, Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique, Paris-Bruxelles, 1992, p. 202.

Njim, Hannibal : A. Njim, Hannibal l'ombre de son père, Colloque International Familles, parents et enfants, de l'Antiquité à nos jours : Sensibilités, stratégies et conflits, Faculté des Sciences Humaines

et Sociales de Tunis 17, 18 et 19 novembre 2016, En cours de publication.

Njim, Index : A. Njim, Index thématique du Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique (travail inédit).

Njim, Kalea Seghira : Les oliviers d'Hannibal à l'Ouest de Kalea Seghira, Colloque Kalea Seghira, Territoire, Histoire et Patrimoine, 27-29 avril 2017, En cours de publication.

Njim, Sousse : A. Njim, Sousse phénico-punique : bilan, évaluation et perspectives, Patrimoine urbain et acteurs de patrimonisation, Colloque International, Monastir 6-9 décembre 2017, en cours de publication.

Njim, Thyna : A. Njim, A. Thyna : station des Fosses phéniciennes, Colloque Sfax et la mer, Juillet 2017 (Sfax), En cours de publication.

Njim, Toponymie : A. Njim, La toponymie maghrébine antique lecture pragmatique de l'espace, 19th International Congress of Classical Archaeology, Cologne-Bonn (Allemagne), 22-26 May 2018, en cours de publication.

LISTE ET REFERENCES DES FIGURES

Figure 1. Sousse et son arrière-pays : partie de la carte topographique de Sousse

Figure 2. Tombe qui a subi une fouille clandestine : photo de l'auteur.

Figure 3. Puits creusé dans le roc obturé par un figuier : photo de l'auteur.

Figure 4. Bassin à mortier hydraulique à proximité des oliviers : photo de l'auteur.

Figure 5. Mobilier de différentes époques collecté sur les lieux : photo de l'auteur.

Figure 6. Un des oliviers millénaires des exploitations de Kalea Seghira : photo de l'auteur.

Figure 7. Le tracé de la Fossa Regia et des Phoinikoï Tapoï : Ferchiou, Fossé inconnu, p. 114, pl. I.

CATALOGUE DES FIGURES

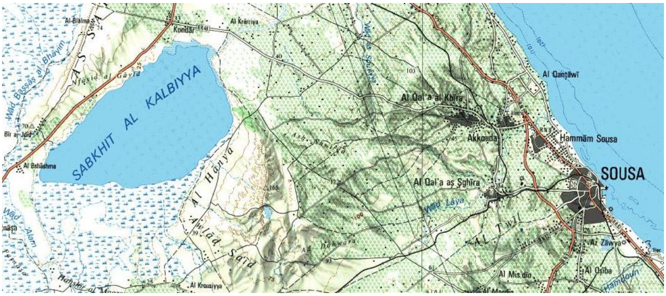

Figure 1

Figure 2

Figure 3

Figure 4

Figure 5

Figure 6

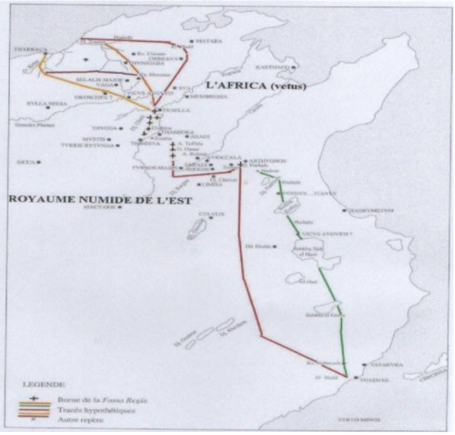

Figure 7

Cognitive Center for Studies and Research

مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات

Journal Of

Madarat Tarikhia

Journal Of madarat tarikhia

Reviewed academic international periodical magazine

For Historical And Researches Studies

Numéro 01

مجلة مدارات تاريخية